

الدكتور عبده شير أسكندر

# قيام النظام الإداري في كردستان وسقوطه

ما بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن التاسع عشر

(نبذة تاريخية عن أهميته السياسية وإرثه الثقافي)

الطبعة الثانية  
(منقحة ومزودة)

تقديم

ماموستا جعفر || فاضل كريم احمد ||



بنكهى زين

الدكتور سعد بشير أسكندر

## قيام النظام الإماراتي في كردستان وسقوطه

ما بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن التاسع عشر

(نبذة تاريخية عن أهميته السياسية وإرثه الثقافي)

الطبعة الثانية

(مزيدة ومنقحة)



بنكهى زين

السليمانية ٢٠٠٨

س ٢٨ سعد بشير أسكندر

قيام النظام الإماراتي في كردستان و سقوطه، ما بين منتصف القرن العاشر  
و منتصف القرن التاسع عشر/ تأليف سعد بشير أسكندر،  
تقديم ماموستا جعفر "فاضل كريم أحمد" - ط ٢  
السليمانية: بنكهى ژين، ٢٠٠٨.  
٣٢٧ص: ١٧،٥ × ٢٥ سم. التسلسل: ٩٠  
١- كردستان- تاريخ. ٢- الإمارات الكردية.  
٣- العنوان ٤- التسلسل: ٩٥  
أعدت المكتبة العامة في السليمانية البيانات الأولية للتصنيف والفهرسة

## مشرف المطبوعات: صديق صالح

التسلسل: ٩٥

الكتاب: قيام النظام الإماراتي في كردستان و سقوطه  
ما بين منتصف القرن العاشر و منتصف القرن التاسع عشر  
(نبذة تاريخية عن أهميته السياسية وإرثه الثقافي)

المؤلف: الدكتور سعد بشير أسكندر

الطبعة: الثانية (مزيدة و منقحة)

التصميم: لاس

خط و تصميم الغلاف: أحمد سعيد

عدد المطبوع: ١٠٠٠

السعر: ٤٥٠٠ دينار

رقم الإيداع: ١٢٠٣ لسنة ٢٠٠٨

مكان الطبع: السليمانية، مطبعة شقان

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في  
نطاق إستعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن من الناشر.

من منشورات

## بنكهى ژين

لإحياء التراث الوثائقي و الصحفي الكردي

العراق: إقليم كردستان، محلة ١٠٥ اندازياران، زقاق ٥، دار ٢٣، ص. ب: ١٤

الأرضي: ٣٢١٩١٠٢ آسياسيل: ٠٧٧٠١٤٨٤٦٣٣ أو ٠٧٧٠١٥٦٥٨٦٤ أو ٠٧٧٠١١٢٨٣٠٩

[www.binkeyjin.com](http://www.binkeyjin.com)

## تقديم

### ماموستا جعفر "فاضل كريم احمد"

الدراسات العلمية الجادة عن تأريخ الشعب الكردي قليلة جداً، بالمقارنة مع الكم الهائل من الأحداث والمعلومات المتناثرة في بحار الكتب والمخطوطات التي تعالج تأريخ الشعوب والدول المجاورة. إن إفتقارنا الى كيان سياسي مستقر وقوي على طول العصر الوسيط يضع في بؤرة إهتماماته الأساسية تدوين الوقائع التاريخية والحوادث الهامة، قذف بتراث هائل من الأخبار والمعلومات والتجارب للحكومات والدول والإمارات الكردية الى غياهب المجهول. مؤسسات الدولة القديمة والحديثة (الجامعات والمدارس العليا والمعاهد العلمية مثلاً) تشجع الكتاب والمثقفين على التوجه الى حقل الدراسات التاريخية المعروفة. وغياب الدولة الكردية هو الدافع الأساسي وراء عدم ظهور مؤرخين وتلبية الحاجة الى كتابة التأريخ من وجهة نظر كردية.

المؤرخون والرحالة والبلدانيون العرب والفرس والأترك تركوا مساحات معينة من أعمالهم للكتابة عن الأكراد، أو الحوادث التي وقعت في كردستان خلال الفترة التي اراد الكاتب توثيقها، لأن الحكام والخلفاء كانوا بحاجة الى تدوين النشاطات والحركات السياسية والاجتماعية والعسكرية والعمرانية: إبن مسكويه مثلاً أرخ في كتابه المشهور (تجارب الأمم) قسم من الأحداث التي حدثت في كردستان الشرقية وشهرزور في ظلال حكم بنو حسنويه عام (٣٤٨-٥٤٠٦هـ / ٩٠٥-١٠١٥م). صحيح إن إبن مسكويه لم يكن باحثاً أكاديمياً مستقلاً دفعته رغبته العلمية البحثية الى إستقصاء الحقائق والدفاع عن آراءه الخاصة. بالتأكيد كان (إبن مسكويه) كاتباً من كتبة الحكام الذين سخرها جيوشهم العاتية لأحتلال وتدمير مدن وعواصم القوى التي ترفض الإذعان والطاعة.

إبن خلكان صاحب (وفيات الأعيان) ترك موسوعة غنية حول التأريخ الإسلامي العربي أما معالجاته للأعلام والشخصيات المرتبطة بالتأريخ الكردي فكانت عرضية وثانوية مقارنة بالتأريخ العربي الإسلامي. كان يحاول التواري وراء غمامة من الغبار لأخفاء أصله ونسبه. ويعلم معظم الكرد بأن قرية خلكان قرية كردية تقع قرب قضاء دوكان التابع لمحافظة السليمانية. إن وجود هذه القرية أو وجود مجموعة من القرى الكردية بنفس الاسم لاينهي مشكلة إبن خلكان الذي فضل التكتم على هويته الأصلية.

رائعة شرفخان البدليسي الـ(شرفنامه) التي أنجز كتابتها عام ١٥٩٧ م (١٠٠٥)هـ جاءت إستثناءً عن القاعدة. وهو الكتاب الوحيد لمؤلف واع وذو بصيرة نافذة، عقد العزم أن يكتب تأريخ الشعب الكردي في القرون الوسطى، وقد لا نعثر على عمل مشابه خلال الف عام. لماذا لم تستطع الحكومات والدول الكردية الأخرى إنتاج كاتب أو مؤرخ كردي متفرغ لكتابة تأريخ تلك الكيانات التي كانت موجودة ولعبت أحياناً أدوار هامة في تأريخ المنطقة؟ تلك الإمارات كانت تملك إدارة جيدة ونظام إقتصادي وإجتماعي خاص لإدارة شؤون الإمارة. بعض الأحيان بلغ عدد الجنود والقوات المسلحة ٦٠,٠٠٠ ستون الف مسلح. لكن قلما نعثر على إسم شخص عهد إليه مهمة كتابة التأريخ وهذا من مثالب النخبة السياسية وصناع القرار في تلك الإمارات والدول.

إن عدم وجود كتاب تأريخي يرقى الى مصاف الشرفنامه، لايعني ابدأً عدم وجود محاولات جادة ومختلفة لكتابة التأريخ من زاوية أخرى. فمثلاً في ظل ورعاية أمراء اردلان ظهرت جملة من المحاولات الواعدة لمشروع كتابة تأريخ الإمارة وأشهر واروع هذه المحاولات كان كتاب الأميرة الحسنة ماه شرف خانم الكردستانية الملقبة بـ (مستوره) والذي نشر بعنوان (تاريخ اردلان). إن مجمل تجربة كتابة التأريخ قد ظهرت بعد قرنين ونصف أو ثلاثة قرون من كتابة الشرفنامه. لكن جل هذه المحاولات إقتصرت على تدوين تأريخ إمارة واحدة فقط دون التطرق الى الإمارات الأخرى. الظاهر إن مؤرخوا أردلان إقتفوا آثار البدليسي وحاولوا إيجاد ترابط ما بين الشرفنامه وتراجهم أمام حكام أردلان منذ القرن الخامس عشر أو بداية ظهور الأسرة الاردلانية في قلعة زلم (قهلاى زهلم) وحتى سقوط الإمارة في منتصف القرن التاسع عشر.

لا يمكن إعتبار الشرفانمة بداية ونهاية التأريخ الكردي ! ففي العصور الماضية التي سبقتة والعصور التي أعقبته توجد إشارات ومعلومات هامة عن تأريخ الإمارات والدول والزعماء الكرد.

هذه المعلومات المتناثرة في ثنايا الكتب والوثائق والمخطوطات التي الفت باللغة العربية والفارسية والتركية، تشكل لنا ثروة هائلة من المعلومات حول الحياة السياسية والأقتصادية والأجتماعية في القرون الوسطى. صحيح إن طواير الكتاب والمصنفين والمؤرخين لم يكتبوا بدافع التوثيق والتسجيل وحفظ تراثنا من الضياع والنسيان، لأن ما عهد إليهم هو تدوين التواريخ والأحداث الرئيسية وقد صعب عليهم خلال ذلك حذف مقاطع تتعلق بالتأريخ الكردي. هذه الشذرات والإيماءات الخاطفة جاءت إعتباطاً وفي سياق كيل المدائح للخلفاء والسلطين. الكثير من الكتبه ومؤرخي البلاط شهروا بحق وبدون حق سيوف التشهير والمهاترات لتشويه ما يمكن تشويهه من تأريخ شعبنا. المؤرخ الكردي محكوم بالصبر والتواصل وتحمل المشقات في البحث عن إبرة ضاعت بين أكوام القش في ليلة دامسة.

طغيان الروايات وأساليب السرد المبتذلة في معظم المصادر والمراجع لاتساعد المؤرخ في الإستقراء والإستنتاج. اللغة بدورها تشكل حجر عثرة امام الباحث. القبول في قسم التأريخ غير مشروط بإتقان لغة معينة أو مجموعة لغات. الطالب الجامعي الذي يدخل قسم التأريخ القديم أو القرون الوسطى ولا يتقن إلا لغة الأم من المستحيل أن يكون حليفه النجاح. الجامعات تربط شروط القبول مع وثائق تثبت إتقان اللغة اللاتينية أو اليونانية القديمة ولغة أوروبية معاصرة واللغة الانكليزية تعتبر في معظم البلدان لغة الأم.

من الممكن أن يتمكن باحث عربي أن يعول فقط على اللغة العربية لكتابة دراسة عن مدينة القاهرة أو الأسكندرية ويعثر بالتأكيد على مصادر غنية تكفيه لأنجاز البحث. باحث كردي إذا اراد أن يكتب عن مدينة خانقين أو دهوك أو أربيل إذا كان يتقن فقط لغة الأم فمن المستحيل أن يكون النجاح حليفه.

الباحث الكردي الذي لا يتقن العربية والتركية والفارسية والانكليزية والفرنسية ستكون نتاجاته غثة وهزيلة من الصعب أن يرتقي الى مصاف ثقاه الباحثين.

هذه المقدمة السريعة ضرورية لفهم جزء من المشاكل التي صادفت الصديق الدكتور سعد بشير أسكندر في كتابه (قيام النظام الإماراتي في كردستان وسقوطه). هذا الكتاب أفضل الكتب التي صدرت حتى الآن لمعالجة الجوانب النظرية لقيام وسقوط النظام الإماراتي في كردستان ما بين منتصف القرن العاشر والى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي.

لقد صدرت في الأعوام الماضية مجموعة من الدراسات حول تأريخ الإمارات الكردية غالبيتها مشدودة الى فلك الأساليب الكلاسيكية في البحث والتنقيب. معظم الدراسات تعالج التأريخ من زاوية معينة: «ماذا حدث؟» التي تتفادى الأسئلة المرحجة والنتائج التي لا تحظى بموافقه الأكثرية الساكنة. المؤرخون المعاصرون يميلون الى التحليل ومحاولة إيجاد تفسيرات منطقية وعلمية لفهم حادثة من الحوادث: «لماذا حدث هذا وكيف؟»

الدكتور سعد بشير يختزل النظريات والفرضيات ومنطق التأريخ الى اشكال ومعادلات رياضية وهندسية متفتحة الزوايا، لا رغبة لإستكشاف وإسترجاع الماضي البعيد إسترجاعاً بهدف التقديس وتعظيم الحاضر والمستقبل وإنما بهدف رؤية الماضي رؤية جديدة. فنحن اليوم بامس الحاجة الى فهم آليات تطور المجتمع والأحداث السياسية في العصور الماضية لنفهم دورنا وموقعنا في الحاضر.

الجيل السابق من المؤرخين تبحروا في لجة التفاصيل الشبه إسطورية والروائية ونقل الأخبار من المصادر والمراجع المختلفة أحياناً دون شذّب أو تمحيص. هؤلاء تجنبوا صخور التفسيرات الناتئة وتقديم إيضاحات ضرورية لفهم التأريخ بشكل منطقي علمي وليس بشكل جامد ومتحجر.

الأستاذ سعد ركز كل إهتماماته لتوضيح مفهوم النظام الإماراتي مكتشفاً وجود اسس وقواعد مشتركة لقيام وسقوط هذا النظام ومراحل تطوره. بدون فهم آليات ومفاصل حركة التأريخ، لا يمكن الشروع بمشروع كتابة تأريخ الإمارات الكردية.

النظام الإماراتي الكردي ولدي خضم أحداث عصفت بالمنطقة في القرن العاشر الميلادي وإنتهت عقارب ساعتها في اواسط القرن التاسع عشر من الدوران. مرحلة النشوء والأرتقاء هذه تزامنت مع مرحلة ضعف وإنحلال الدولة العباسية ونزوع مختلف الأقاليم الى الأنفصال والأستقلال. ويتشابه النظام الإماراتي الكردي

مع مثيلاته في مختلف أطراف الشرق الاوسط من حيث الملامح والخصائص وطبيعة النظم السياسية والهوية الأثنية والفترة الزمنية لميلادها.

الفرق بين النظام الإماراتي الكردي وغيره من الأنظمة الإماراتية في الشرق الاوسط يكمن في التحرك على المسار الجغرافي ومدى تأثيرها على مساحات الأحداث السياسية، إذ تحولت الى قوة كبيرة ومؤثرة من الناحية الإدارية والعسكرية والسياسية (مثلاً الدولة الغزنوية ٩٦٢-١١٨٧م). النظام الإماراتي الكردي كان محكوماً ضمن أقاليم وخرائط ضيقة وتتعرض لضغوط ومخاطر إجتياح عسكري كما حدث لمعظم الإمارات الكردية أثناء تعرضها الى غزوات متكررة من قبل السلاجقة والدولة الصفوية والدولة العثمانية و... الخ.

كتاب الدكتور سعد بشير اسكندر محاولة جادة ورائعة لفهم بداية ونهاية تأريخ الإمارات الكردية التي لعبت دوراً هاماً في تأريخ الشعب الكردي.





## المحتويات

٥	..... المقدمة
٨	..... الإمارة، مجتمع ديناميكي أم جامد
١٠	..... مكانة الإمارات الكردية في تاريخ كردستان
١٠	..... أسبقية العوامل الداخلية على العوامل الخارجية
	..... طبيعة الحركات السياسية الإماراتية بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف
١٨	..... القرن التاسع عشر
٢١	..... آثار تدمير الإمارات الكردية في المجتمع الكردي

### الفصل الأول

٢٧	..... أوضاع كردستان السياسية من القرن العاشر الى القرن السابع عشر
٢٧	..... نشوء الأنظمة الإماراتية
٢٨	..... نشوء النظام الإماراتي الأول وإخفاؤه ما بين القرنين العاشر والثاني عشر
٣١	..... نشوء النظام الإماراتي الأول في كردستان في القرن العاشر
٤٠	..... نشوء النظام الإماراتي الثاني
٤٥	..... جغرافية كردستان السياسية وتأثيراتها الأولية على وضع الإمارات
٤٨	..... بعض من جوانب السياسة الصفوية في كردستان
٥٧	..... الامراء الكرد وحدود السياسة الواقعية
٦٠	..... العوائق الجيوسياسية ومسألة تطور النظام الإماراتي الثاني
٦٤	..... نهاية الفصل

### الفصل الثاني

	..... الإمارات الكردية والإمبراطورية العثمانية بين القرن السادس عشر والقرن
٦٥	..... الثامن عشر
٦٦	..... الخصائص العامة لسياسة الإمبراطورية العثمانية في كردستان الكبرى
٧٢	..... التقسيمات الإدارية في كردستان الكبرى بعد عام ١٥١٥ بين المفترض والواقع

٧٧	..... ملاحظات عامة حول التقسيمات الإدارية العثمانية في كردستان الكبرى
٨٦	..... البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للإمارات
٨٦	..... البنية السياسية للإمارة ووراثة الحكم
٨٩	..... التقسيم الإجتماعي وطبقة الأشراف
٩٩	..... بعض أوجه الحياة الثقافية في الإمارات الكردية
١٩٤	..... دور الشريحة المنظمة الكردية في حياة الإمارة
١٠٩	..... نهاية الفصل

### الفصل الثالث

١١١	..... قيام أولى الحركات الإستقلالية
١١١	..... الدور السياسي للأمير عبد الرحمن بابان ١٧٨١-١٨١٤
١١٢	..... إمارة بابان وعلاقتها مع البلدان المجاورة
	..... استيلاء المماليك على السلطة وتأثيره على أوضاع كردستان الجنوبية ما بين
١١٢	..... عامي ١٧٩٤ و١٨٣١
١١٧	..... إمارة بابان ومسألة الحدود بين الإمبراطوريتين التركية والإيرانية
١٢١	..... بعض جوانب الدور الكردي في السياسة الداخلية في البدان المجاورة
١٢٤	..... تطور حكم السلالة البابانية
١٢٦	..... أهمية بناء مدينة السليمانية، العاصمة البابانية الجديدة
	..... الأمير عبدالرحمن وصراعه في سبيل تشكيل دولة مستقلة قوية في كردستان
١٣٠	..... الجنوبية
١٣٠	..... خلفية عبد الرحمن العائلية والسياسية
١٣٤	..... حروب عبدالرحمن باشا
١٤٣	..... نهاية الفصل

### الفصل الرابع

١٤٧	..... حركة إمارة سوران الإستقلالية والوحدوية
	..... حركة الإستقلال والوحدة الكردية ما بين بدايات ومنتصف القرن التاسع عشر:
١٤٨	..... لخلفية الإجتماعية والإقتصادية
	..... الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في المناطق المستقلة وشبه
١٤٨	..... المستقلة في كردستان

## الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في المناطق الكردية الخاضعة لسيطرة

١٥٦	..... السلطات التركية والإيرانية
١٦١	..... ظهور الحركات الإماراتية الإستقلالية والبعدان الإقليمي والدولي
١٦١	..... القوى الأوروبية الغربية: بريطانيا وفرنسا
١٦٨	..... إمبراطورية روسيا القيصرية
١٧٥	..... محمد علي باشا، والي مصر (١٨٠٥-١٨٤٨)
١٧٧	..... ظهور وإختفاء حركة محمد باشا، أمير سوران: الأهداف والمنجزات
١٧٧	..... ظهور قوة سوران ١٨٢١-١٨٣٦
١٨٥	..... السمات الرئيسية لحكومة سوران في عهد الأمير محمد
١٨٨	..... صفات الأمير محمد باشا الشخصية: بين الواقع والخرافة
١٩٣	..... نهاية حكم الأمير محمد: الحرب الكردية- التركية، حزيران- أيلول ١٨٣٦ ...
٢٠١	..... نهاية الفصل

## الفصل الخامس

٢٠٣	..... الأمير بدرخان وتشكيل الكونفدرالية الإماراتية الكبرى ١٨٣٩-١٨٤٧
٢٠٥	..... سياسة بدرخان تجاه الإمارات الكردية الأخرى: قيام الكونفدرالية الكردية الكبرى
٢٠٥	..... قيام الكونفدرالية الكردية الكبرى
٢١٥	..... سمات عهد الأمير بدرخان الإجتماعية والإقتصادية والسياسية
٢٢٢	..... العلاقات الكردية- النسطورية: قضية المار شمعون
٢٤٢	..... بريطانيا ومستقبل كردستان السياسي
٢٤٢	..... هنري اوستن ليارد وسي أي رسام
٢٤٨	..... السياسة البريطانية تجاه الشؤون الكردية خلال عهد الأمير بدرخان
٢٥٥	..... الصراع الكردي- التركي، ١٨٣٤-١٨٤٧
٢٥٥	..... المرحلة الاولى ١٨٣٤-١٨٣٩
٢٥٩	..... المرحلة الثانية ١٨٤٠-١٨٤٧
٢٦٧	..... نهاية الفصل

## الملاحظات الختامية:

الإرث التاريخي للإمارات والعواقب الإجتماعية والإقتصادية والسياسية

٢٧١	..... الناتجة عن تدميرها
٢٧١	..... النتائج المترتبة عن إختفاء النظام الإماراتي
٢٧٢	..... تدهور الوضع السياسي في عصر مابعد إختفاء الإمارات الكردية
	التدهور السريع في الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية في مرحلة مابعد إختفاء
٢٧٦	..... الإمارات
	تدهور العلاقات الداخلية بين الجماعات الدينية والعرقية في مرحلة مابعد
٢٨٤	..... إختفاء الإمارات
٢٩٠	..... النظام الإماراتي وإرثه التاريخي
٢٩٠	..... تشكيل هوية كردية منفصلة
٢٩٥	..... غياب الإمارات وظهور المشاعر القومية الكردية
٣٠٣	..... المصادر
٣١١	..... فهرس الاعلام



## المقدمة

شهدت كردستان ظهور نظامين إماراتيين واختفائهما ما بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن التاسع عشر. ففي ظل هذين النظامين حكمت العديد من السلالات الأميرية مناطق مختلفة من كردستان عدة قرون. وطوال هذه المدة التاريخية الطويلة، التي جمعت العصر الوسيط والعصر الحديث، كانت الإمارات الكردية أما مستقلة تماماً وأما شبه مستقلة خاضعة اسمياً إلى ملوك الإمبراطوريات المجاورة وسلاطينها. شكلت تلك الوضعية ظاهرة لافتة للنظر، خاصة لان المناطق الكردية تعرضت إلى غزوات مدمرة عديدة أو كانت مسرحاً شبه دائم لحروب دخلت فيها دول قوية مجاورة. لقد نجحت العديد من تلك الإمارات في التغلب على محاولات كثيرة قامت بها القوى الخارجية من أجل إزالتها من الوجود، كأمارة بتليس وسوران واردلان. حتى ان هذه الإمارات شهدت طوال وجودها التاريخي نشوء عدة إمبراطوريات في الشرق الأوسط وانهارها. وهذه النقطة الأخيرة تتناقض تماماً مع الفكرة السائدة في أوساط الباحثين، خاصة في الدول التي قُسمت بينها ارض كردستان، بأن الكرد لم يستطيعوا حكم انفسهم، وهو بالتالي يشكل دليلاً تاريخياً في نظرهم على عدم قدرة النخب السياسية الكردية على حكم شعبها مستقبلاً.

لم تكن الإمارة مجرد تشكيلة عسكرية محورها القبيلة، طبقاً للانطباع السائد في الأدب التاريخي - السياسي القائم. لقد كانت الإمارة عبارة عن وحدة اجتماعية واقتصادية وسياسية قائمة بذاتها. فهي ليست أكبر من القبيلة فحسب وإنما أهم منها بكثير من حيث دورها السياسي وتأثيراتها الاجتماعية ومدلولاتها الثقافية. فالقبيلة، برغم أهميتها البالغة بسبب غلبة العلاقات الأبوية، لم تكن سوى أحد العناصر المركبة للنظام الإماراتي. كانت الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الإمارة متنوعة ومتداخلة ومتراطة مقارنة بالقبيلة. فقد انشغل سكان الإمارة في النشاطات التجارية والثقافية والإدارية والصناعات الحرفية والزراعة وتربية الحيوانات وغيرها من الأعمال المتنوعة. كان الأمير الكردي يسيطر عملياً على جميع الأراضي على غرار بقية حكام المجتمعات الإسلامية الأخرى. فهو المسؤول عن توزيع الإقطاعات ما بين اتباعه، ومنهم رؤساء القبائل ورجال الدين والقادة العسكريون. كانت المدينة مقراً لسلطة الأمير، ومركزاً رئيساً لكافة النشاطات الحيوية الاقتصادية والثقافية خاصة في النظام الإماراتي الثاني.

على الصعيد السياسي، احتل الأمير منزلة الحاكم الأعلى، الذي امتدت سلطته إلى عدة قبائل ومدن وقرى. فهو المسؤول عن فرض الضرائب وحماية الرعية ورعاية المساجد ومدارسها وبناء المنشآت العامة وتعميرها. لم تكن شرعيته في الحكم مبنية على كونه رئيس قبيلة قوية معينة، وإنما على مفهوم خاص، كونه الامتداد التاريخي لشرعية سياسية - اجتماعية سابقة. بتعبير آخر، ادعى الأمير الكردي بحق، أو بدون حق، انه سليل إحدى السلالات الحاكمة الشهيرة السابقة، كالأيوبية والعباسية. فهو، وبهذا النحو، يقدم نفسه حاكماً لجميع السكان المحليين بغض النظر عن خلفيتهم الاجتماعية. وهذا الأمر لا يقلل من أهمية القبيلة والولاء القبلي. فرجال القبائل كانوا دائماً عماد القوة العسكرية التي استندت إليها الإمارة.

تنوع سكان الإمارة من حيث أسلوب المعيشة والبيئة الاجتماعية والخلفية الثقافية. فقد وجد جنباً إلى جنب الرُّحْل والمستقرون، المدنيون والقرويون، القبليون وغير القبليين، المحاربين والأهالي، اصحاب الإقطاعات والفلاحون، التجار الكبار واصحاب الدكاكين التجارية الصغيرة، الحرفيون والمستخدمون، المسلمون وغير المسلمون. فضلاً عن هذا التنوع الاجتماعي والوظيفي، كانت للإمارة شريحتها

المتعلمة والتي شملت الشعراء والمدرسين والموسيقيين والكتاب والفنانين. احتل الأمير، على غرار المجتمعات الأبوية الأخرى، مركز القمة في الهرم الاجتماعي، بينما شكل الاشراف الطبقة السامية والمهيمنة، التي تألفت من قادة القبائل وكبار رجال الدين والموظفين الكبار، الذين كانوا يشرفون على الشؤون الخاصة بالأمير وترتيب الأمور الإدارية والتجارية والثقافية والخدمية. أما سائر أبناء القبيلة من المحاربين والتجار والحرفيين والباعة فقد شكلوا شرائح اجتماعية وسطية متدرجة، وقفت فوق الفلاحين والخدم، وهم الفئات الدنيا من المجتمع الإماراتي.

سؤال آخر لربما يطرح نفسه وهو: لماذا تم اختيار مصطلح "النظام" بشكل متواصل في هذه الدراسة؟ يكشف إلقاء اية نظرة فاحصة على الإمارات الكردية في النظامين الأول والثاني عن وجود سمات تاريخية مشتركة بينها، وكذلك مرورها بتطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وديمقراطية مماثلة. فوق ذلك، تأثرت هذه الإمارات بالعوامل الخارجية نفسها، خاصة تعرضها إلى غزوات أجنبية ومعاصرتها لنشوء إمبراطوريات كبرى في المنطقة وانهارها. لقد ظهرت هذه الإمارات واختفت في المرحلة التاريخية نفسها بالتوافق مع التغييرات الحاصلة في المجتمع الكردي والجغرافيا السياسية لمنطقة الشرق الأوسط. كما أسهمت كلها معا، وعبر مرور الزمن، في تشكيل هوية ثقافية مميزة للكرد بحيث ميزتهم بوضوح عن الشعوب المجاورة.

في النظام الإماراتي الأول، كانت القبائل الرحل القوة الرئيسية في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في كردستان. فهم الذين اتخذوا المبادرة في إقامة الإمارات الكردية الأولى، التي شكلت بداية عصر جديد تزامن مع انهيار الإمبراطوريات الإسلامية الكبرى. أما في النظام الإماراتي الثاني، فصار المستوطنون الكرد القوة الأكثر تأثيراً في اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية في كردستان. استمرت هذه الحالة على منوالها حتى منتصف القرن التاسع عشر. ان ما جعل النظام الإماراتي الثاني ظاهرة مميزة هي قدرته على تطوير آلية للبقاء والتكيف، برغم العقبات والنكسات التي مر بها عبر القرون. فمن ناحية، استغل الأمراء الكرد وبذكاء الجغرافية السياسية لكردستان في عملية المحافظة على استقلالهم التام أو شبه التام بإزاء الضغوط التي مارسها سلاطين الدول الكبرى المجاورة وملوكها. ومن ناحية ثانية، رسخ هؤلاء الحكام فكرة الشرعية السياسية

بالانسجام مع هيمنة الروابط الابوية- القبلية في أوساط سكان كردستان. كل هذا يفسر لماذا استطاع النظام الإماراتي الثاني التغلب على الضغوط والتحديات الخارجية أكثر من ٧٠٠ عام، على العكس من نظيره الأول.

## الإمارة:

### مجتمع جامد أم ديناميكي؟

ترفض هذه الدراسة فكرة ان الإمارة الكردية كان نظاما جامدا، غير قادر على تحقيق أي تقدم اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي. ففي القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانت بتليس مدينة مزدهرة اقتصادياً وثقافياً، كما أكد اثنان من شهود عيان تلك الفترة، وهما المؤرخ الكردي شرفخان بتليسي والرحالة التركي أولياء جلبي. بدأت بقية الإمارات الكردية، مثل اردلان وبادينان وبوتان، تمر بتطورات اقتصادية وثقافية منذ القرن السابع عشر. فقد أصبحت الجزيرة والعمادية مركزين اقتصاديين مهمين. أما سنندج، عاصمة اردلان الأخيرة، فإنها أنشئت في أربعينيات ذلك القرن بهدف جعلها مركزاً تجارياً وحرفياً في المناطق الشرقية من كردستان. واقدم البابانيون على إنشاء عاصمة، وهي مدينة السليمانية، على غرار جيرانهم الاردلانيين. وصارت السليمانية، التي تم بناؤها في عام ١٧٨١، مركزاً لمختلف النشاطات الثقافية والاقتصادية، كالتجارة والصناعات الحرفية.

لقد رافقت الأهمية المتزايدة للمدن الكردية القديمة والدور الذي لعبته المدن الجديدة تحولات اجتماعية خاصة في مقدمتها تسريع عملية الاستيطان والتحضر بين الكرد. وهذا بدوره أدى إلى نشوء مدن صغيرة وقرى جديدة. ففي أواخر القرن الثامن عشر، شجع أمير بابان، عبد الرحمن، الكرد الرحل وشبه الرحل من كونفدرالية الجاف القبلية على الاستقرار في إمارته عن طريق منحهم أراضي واسعة. لهذا نرى في أربعينيات القرن التالي، أي بعد نحو ٥٠ عاماً، انتشار العديد من القرى في منطقة شهرزور، حيث انشغل الفلاحون الجاف في زراعة الأراضي المحيطة بكثافة. خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، سعى الأمراء الشباب الجدد إلى تعبئة مختلف الشرائح الاجتماعية الكردستانية سياسياً وعسكرياً، عن طريق تخطي العوائق الاجتماعية. فقد شكل أمراء سوران وبوتان قوات عسكرية بين العقد الثالث والخامس من ذلك القرن، احتوت على عناصر من مختلف الطبقات الاجتماعية والانتماءات



الدينية، متخطية بذلك التقاليد الأرستقراطية القديمة التي كانت تمنع أبناء الفلاحين وغير المسلمين من الانضمام إلى الوحدات العسكرية.

في الميدان الثقافي، تم تحقيق إنجازات كبيرة. ففي فترة ما قبل تشكيل الإمارات، لم يكن للشعب الكردي لغة ادبية خاصة به. واضطر العلماء والمفكرون الكرد إلى الكتابة باللغتين العربية والفارسية. لكن الوضع بدأ يتغير في عصر الإمارات الكردية. فاللهجة الكرمانجية تحولت إلى لغة ادبية كردية في الأجزاء الشمالية والمركزية من كردستان في القرن الخامس عشر تقريباً. إذا أخذ بنظر الاعتبار تقدم بتليس الثقافي في ذلك القرن، فإن من المحتمل أن تكون هي المكان الذي نضجت فيه اللهجة الكرمانجية بوصفها لغة ادبية مستقلة. وفي المرحلة التاريخية نفسها تقريباً، برزت اللهجة الكورانية بوصفها لغة ادبية في كردستان الصغرى (كردستان إيران حالياً)، حيث أصبحت اللغة الرسمية في بلاط الأمراء الاردلانيين، الذين شجعوا الشعراء على الكتابة بها.<sup>1</sup> في كردستان الجنوبية (كردستان العراق حالياً)، تحولت اللهجة السورانية إلى لغة ادبية للكثير من الكرد في نهايات القرن الثامن عشر نتيجة للجهود الملحة التي قام بها الأمير عبد الرحمن الباباني. كما انتشرت السورانية بوصفها لغة ادبية إلى كردستان الشرقية في أعقاب منع اللغة الكورانية من قبل ملوك إيران القاجار.

بهذا النحو التدريجي، أصبحت اللغة الكردية لغة ادبية أساسية في أوساط النخب الثقافية المحلية بدلاً عن العربية والفارسية. كانت بتليس والجزيرة والعمادية وسندج ومن بعدها السليمانية مراكز للأدب والثقافة الكردية، علاوة عن كونها عواصم سياسية لإمارات كبرى. كما شكل أحياء الطريقة الصوفية النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع عشر انعكاساً ملحوظاً للتغيرات الاجتماعية الحاصلة في المجتمع الكردي، خاصة نمو الطبقات المدنية، التجارية منها والحرفية.

وبمرور الزمن، تطورت البنية السياسية للإمارة الكردية بالانسجام مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية الحاصلة. فقد تم استحداث منصب الوزير الأول (مدبر) من قبل الأمراء البابانيين والهكاريين من أجل تسيير الشؤون الداخلية للإمارة،

---

<sup>1</sup>Joyce Blue, 'Kurdish Written Literature' in *Kurdish Culture and Identity*, Edited by Philip G. Kreyenbroek & Christine Allison, (London: Zed Book, 1996), p.21.

التي تعقدت وتشعبت بفعل تلك التطورات. كان للإمارة قاضيهما وجابي ضرائبها ومفتشي أسواقها وممثلي تجارها وحرفيها وغيرهم من المسؤولين.<sup>٢</sup> وساعد بناء مدينة السليمانية على ربط المؤسسة القادرية الصوفية بالنظام السياسي الباباني. نتج عن هذا، إضافة وظيفة إيدولوجية إلى السلطة البابانية إضافة إلى وظيفتها السياسية والإدارية الأساسية. كما بدأت طموحات سياسية جديدة تتشكل في أوساط النخب السياسية الحاكمة كانعكاس مباشر للتطورات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الحاصلة. وعبرت هذه الطموحات عن نفسها من خلال نشوء حركات سياسية متعاقبة استهدفت تشكيل دولة مستقلة كبيرة ما بين أواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر. ففي كردستان الجنوبية، حاولت إمارة بابان بقيادة أميرها الشاب عبد الرحمن تحويل نفسها إلى دولة كبيرة مستقلة من خلال توحيد عدة مناطق كردية في المدة ما بين العقد الثامن من القرن الثامن عشر والعقد الثاني من القرن التالي. أما في المدة ما بين بداية العقد الثالث ومنتصف العقد الرابع من القرن التاسع عشر، استطاع الأمير محمد باشا، أمير سوران، تشكيل دولة كردية مستقلة كبيرة عن طريق قيادته حملات عسكرية عديدة، وحد من خلالها أجزاء واسعة من المناطق الكردية الواقعة في وسط كردستان وجنوبها. وبعد سقوط محمد باشا واغتياله على يد الأتراك، جاء إلى الوجود تحالف سياسي واسع لم تشهده كردستان من قبل ما بين عدد من الأمراء بقيادة بدرخان، حاكم إمارة بوتان. اتخذ هذا التحالف شكل كونفدرالية إماراتية سياسية، استمرت في الوجود عدة أعوام، خاض خلالها الكرد اعنف صراع في تاريخهم مع الجيوش التركية الغازية. تبدو فكرة الكونفدرالية الإماراتية تطويراً سياسياً نوعياً مهماً للوحدات الكونفدرالية العشائرية البحتة والمنتشرة آنذاك في المجتمع الكردستاني.

### مكانة الإمارات الكردية في تاريخ كردستان:

#### أسبقية العوامل الداخلية على العوامل الخارجية

أحدى اطروحات هذه الدراسة الأساسية هي ان الوجود التاريخي الطويل للأنظمة الإماراتية ساعد على خلق هوية ثقافية كردية متميزة. وكذلك ايجاد مفاهيم

<sup>٢</sup> كان لبعض الامارات، مثل بتليس، مفتي خاص بها، والذي يدلل على درجة استقلاليتها.

خاصة وتطويرها عن وجود وطن واحد مشخص المعالم (defined territory) وتاريخ مشترك وانتماء أثني واحد ومصير وهموم سياسية مشتركة. فالشعب الكردي، على العكس من نظيره الأرمني مثلاً، وجود وبشكل مستمر في وطنه بفضل وجود الإمارات كنظام اجتماعي اقتصادي سياسي عميق الجذور. بتعبير آخر، وفرت تلك الكيانات أرضية اجتماعية وسياسية متينة منعت عموماً تشتت الكرد تحت وطأة اشد الضغوط الخارجية، كالغزوات وهجرات القبائل البدوية الغربية. برزت كردستان، وبفضل وجود الإمارات، كحقيقة سياسية، ديموغرافية، جغرافية، ثقافية متميزة. ووجود كل هذا الإرث الكبير والملموس يناقض تماماً الانطباع السائد وهو ان الإمارات لعبت دوراً سلبياً في التاريخ الكردستاني، بوصفها مجرد بيدق تحركه الدول المتنافسة الأجنبية لمصلحتها.

تلقت هذه الدراسة النظر إلى التغييرات السياسية والثقافية الإيجابية الحاصلة في المناطق الكردية والمتزامنة مع التحولات الجذرية في النظام الإقليمي الناتجة عن انهيار الإمبراطوريات القائمة. ففي القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، خلق ضعف الإمبراطورية العباسية وانهيارها بالتالي فراغاً سياسياً كبيراً في المناطق الكردية. واستغلت النخب الاجتماعية الكردية ذلك الوضع إلى ابعد الحدود عن طريق تشكيل اولى الحكومات الوراثية في المناطق التي تواجدت فيها، ومن ثم توسيع سيطرتها السياسية إلى المناطق المجاورة. بهذا النحو، استطاعت النخب الكردية خلق اولى الكيانات السياسية منذ مجيء العصر الإسلامي. لكن ظهور الدولة السلجوقية في الشرق وقدم البيزنطيين الروم إلى آسيا الصغرى من ناحية الغرب في نهايات القرن الحادي عشر وبدايات القرن الثاني عشر ادى إلى سقوط النظام الإماراتي الأول. تبع هذا تغير إقليمي جذري اخر نتج جزئياً عن انهيار الإمبراطورية السلجوقية واختفاء البيزنطيين من الساحة. هذا التغير بدوره ساعد عملية توطيد اركان نظام إماراتي جديد في المناطق الكردية، أكثر ثباتاً وتكيفاً مع التطورات المفاجئة.

ان الوهن المتزايد الذي أصاب بنية الإمبراطورية القاجارية والعثمانية خاصة منذ نهايات القرن الثامن عشر شجع النخب الكردية الحاكمة على اتخاذ مبادرات سياسية وعسكرية استهدفت خلق دولة مستقلة كبيرة في كردستان. بتعبير اخر، دخلت الإمارات الكردية مرحلة انتقالية مهمة في الوقت نفسه الذي عانت فيه الدولتان القاجارية والعثمانية من تدهور مستمر. إذن، كانت الحركات السياسية التي قادها

الأمراء الكرد هادفة، وليست مجرد «تمردات وهيجانات اجتماعية وثورات الإقطاعيين الحريصين على امتيازاتهم» كما يدعي نيكيتين.<sup>٣</sup> كان بإمكان الإمارات الكردية ان تتحول إلى نظام أكثر تطور اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً لولا تدخل القوى الأوروبية الكبرى، على رأسها بريطانيا، بشكل حاسم لصالح حفظ الوضع القائم في الشرق الأوسط وآسيا الصغرى عن طريق تقديم دعم قوي للإمبراطورية العثمانية في صراعها مع الحركات السياسية الانفصالية في الأقاليم غير التركية، بضمنها كردستان الكبرى (كردستان العراق وتركيا الحالية) فلقد تدخلت الدولتان الإيرانية والتركية سياسياً وعسكرياً وبدعم من القوى الأوروبية الرئيسية في شؤون كردستان الداخلية لا بهدف إحباط المحاولات السياسية الهادفة إلى إقامة دولة كردية كبرى فحسب، وإنما إلى تحطيم كافة الإمارات الكردية المستقلة وشبه المستقلة، لكي يتم إلحاقها بالامبراطورية. لهذا السبب، وكما ستبين هذه الدراسة، شكلت العقود الخمسة الأولى من القرن التاسع عشر مرحلة تاريخية مصيرية بالنسبة إلى مستقبل الكرد وكردستان.

ان الامر اللافت للنظر هو عدم تناسب حجم الدراسات الأكاديمية القليلة للباحثين الكرد والأجانب مع تاريخ الإمارات الطويل، كما لو ظهرت واختفت هذه الكيانات دون ترك أي ارث اجتماعي أو سياسي أو ثقافي. من اولى الكتب التي تناولت تاريخ الإمارات الكردية هو كتاب "تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي" الذي ألفه رائد المؤرخين الكرد محمد امين زكي.<sup>٤</sup> وقد تطرق زكي إلى تاريخ الإمارات الكردية في مؤلفاته الأخرى.<sup>٥</sup> وبعد مدة زمنية طويلة اصدر جليلي جليل، المؤرخ الكردي الروسي، كتابه "من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر".<sup>٦</sup> في السنوات الأخيرة، وفي ظل إدارة كردستانية إقليمية،

<sup>٣</sup> باسيل نيكيتين، الكرد، دراسة سوسولوجية وتاريخية، ترجمة نوري الطالباني، بيروت ولندن: دار الساقى، ٢٠٠١، الطبعة الثانية، ص ٢٩٩-٣٠٠.

<sup>٤</sup> محمد أمين زكي، "تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي"، ترجمة محمد علي عوني، (القاهرة: ١٩٤٥).

<sup>٥</sup> انظر مثلاً، "خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من اقدم العصور حتى الآن"، ترجمة محمد علي عوني، (بغداد: ١٩٦١) الجزء الأول.

<sup>٦</sup> جليلي جليل، "من تاريخ الإمارات في الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر"، ترجمة محمد عبدو النجاري، (بيروت: ١٩٨٧).

ظهرت بعض الدراسات التاريخية عن الإمارات الكردية عكست اهتمام الجامعات الكردية الجديدة الملموس بضرورة دراسة التاريخ الكردستاني أكاديمياً. ان من أهم تلك الكتب، والتي انصبت على دراسة إمارة معينة في اطار زمني محدد، هي "إمارة بابان في النصف الأول من القرن الثامن عشر"<sup>٧</sup> و"إمارة بادينان، ١٧٠٠-١٨٤٢"<sup>٨</sup> و"إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان، ١٨٢١-١٨٤٧"<sup>٩</sup>. لقد طغى الأسلوب السردي على تلك الدراسات التاريخية، دون اقتفاء أو تشخيص عناصر الانقطاع والمواصلة في عملية التطور التاريخية للنظام الاماراتي.

ان الطابع الغالب في الدراسات الغربية القليلة الموجودة هو تهميشها لأهمية الإمارات ودورها في التاريخ الكردستاني. ويمكن عزو هذا الامر أساسا إلى هيمنة ما يمكن تسميته بالمنهج التحليلي ((الطرف- المركز)) على أسلوب طرح التاريخ الكردستاني وتفسيره. فطبقاً إلى لهذا النهج، يجب تفسير أوضاع كردستان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بالارتباط مع تلك التغييرات التي شهدتها الإمبراطوريتان التركية والإيرانية في المرحلة الزمنية المعنية. بسبب هذه النظرة الاحادية والتقليل الصارخ من أهمية العوامل الداخلية واستقلالية التحولات في المجتمعات الكردية، لم يستطع نهج ((الطرف- المركز)) من ان يقدم تفسيرات كافية ومقنعة عن مختلف اوجه تاريخ الإمارات الكردية. ابرز مثال على هذا النهج هو كتابات مارتن فان برونسن<sup>١٠</sup> وزملائه هندريك بوشوتن<sup>١١</sup> وروبرت دونكوف<sup>١٢</sup>.

<sup>٧</sup> سعدي عثمان سعيد، "إمارة بابان في النصف الأول من القرن الثامن عشر: دراسة في علاقاتها السياسية مع السلطات العثمانية"، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).

<sup>٨</sup> كاوه فريق شاولي، "إمارة بادينان، ١٧٠٠-١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية"، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).

<sup>٩</sup> صلاح هروري، "إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان، ١٨٢١-١٨٤٧: دراسة تاريخية سياسية"، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).

<sup>١٠</sup> Martin van Bruinessen, Agha, Sheikh and State, the Social and Political Structures of Kurdistan, (London: Zed Book, 1990).

<sup>١١</sup> Evliya Celebi in Diyarbekir The Relevant Section of the Seyahatname, vol.1, Edited with Translation, Commentary and Introduction by Martin van Bruinessen and Hendrik Boeschoten, (Leiden, New York, Kobenhaaven and Koln: E.J. Brill, 1990).

يستنج برونسن من الوصف الذي يعطيه كلوديس جيمس ريج في كتابه<sup>١٣</sup> "Narrative of a Residence in Kurdistan" ان التنظيم الاقتصادي والسياسي للإمارة البابانية تدهور ليس بطريقة موازية لتلك التي عانت منها الإمبراطورية العثمانية بحسب وإنما تحت تأثيرها. بتعبير آخر، كانت هناك ظاهرة عامة، حسب اعتقاد برونسن، وهي انه أظهرت الإمارة البابانية أعراض الانحلال نفسها الذي لوحظ بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية ككل.<sup>١٤</sup> اللافت للنظر هو ان برونسن لا يشرح كيف ولماذا كان الوضع التركي له مثل هذا التأثيرات المصيرية بالنسبة إلى مستقبل الإمارة البابانية، التي تمتعت بحياة اجتماعية واقتصادية وثقافية مستقلة عموماً. فوق ذلك، إذا كانت هناك أية علاقة متفاعلة مفترضة بين أوضاع المركز (استنبول) والطرف (السليمانية)، كيف يفسر برونسن إذن نهضة مصر وازدياد قدراتها المادية والثقافية في ظل محمد علي باشا، وهي مازالت آنذاك ولاية عثمانية؟

ان من الصعب جداً العثور على قرائن تؤكد وجود علاقة سواء مباشرة أو غير مباشرة بين التدهور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للإمبراطورية العثمانية، التي بدأت في القرن السابع عشر، والمشكلات التي واجهتها إمارة بابان في بدايات القرن التاسع عشر. ان إلقاء نظرة فاحصة على تاريخ بابان، خاصة بعد منتصف القرن الثامن عشر، سيكشف عن ارتباط وثيق بين الازدهار الاقتصادي والرفاهية العامة لسكانها وبين أوضاعها السياسية. فلقد تأثرت هذه الأخيرة بالغزوات المستمرة التي شنتها جيوش بغداد من المماليك والجيوش الإيرانية بقيادة ولاة العهد القاجار. وقف المماليك والقاجاريون وراء اغلب الصراعات الداخلية من اجل السلطة السياسية بين أبناء السلالة البابانية الحاكمة بهدف احتواء ظهور دولة مستقلة قوية في كردستان الجنوبية. فالأزمات السياسية غالباً ما قادت إلى أزمات اجتماعية واقتصادية. في التحليل الأخير، كان العامل الجيوسياسي الأكثر تأثيراً في مسالة تحديد مصير إمارة

---

<sup>١٣</sup>Evlia Celebi in Bitlis (The Relevant Section of the Seyahatname), vol.2, Edited with Translation, Commentary and Introduction by Robert Donkoff, (Leiden, New York, Kobenhaven and Koln: E.J. Brill, 1990).

<sup>١٤</sup>Claudius Julius Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, (London: 1851).

<sup>١٥</sup>Bruinessen, Agha, Sheikh and State, p.174.

بابان السياسي، علاوة عن تطورها الاجتماعي والاقتصادي. فالتدهور الاجتماعي والاقتصادي الذي عانت منه بابان لم يكن إذن نتاجاً فرعياً لضعف الإمبراطورية التركية المستمر، وإنما نتيجة مباشرة للتدخلات السياسية والعسكرية الخارجية في شؤونها الداخلية.

من المنطقي ان تحتل مسببات ظهور ثلاث حركات متتالية في المناطق الكردية تستهدف الاستقلال والوحدة بين الربع الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر مكانة مركزية في أي تحليل تاريخي يتناول قضية تدمير النظام الإماراتي وظهور القومية الكردية، كوعي وكحركة سياسية، أعقبه بعدة عقود. فبينما يتجاهل ستيفان لونكريك<sup>١٥</sup> ودفيد مكحول<sup>١٦</sup> القوة الدافعة للمقاومة الكردية للحكم التركي المباشر، ينظر برونسن ببساطة إلى الجهود السياسية والعسكرية لأُميري سوران وبابان بوصفها مجرد محاولة احياء المجد السابق لإمارتهما، مكرراً بذلك اطروحات قدمها الباحث البريطاني ذو الاصول الارمنية، إرشاق سافرستيان. يقول هذا الأخير بان الصراع بين الإمارات الكردية والدولة التركية كان جزئياً رد فعل على المحاولات الأولى لفرض المركزية (centralization) وجزئياً استجابة للوضع السياسي الدولي والحروب التركية- المصرية.<sup>١٧</sup> من وجهة نظر برونسن، كان هناك اتجاهان متعاكسان متزامنان: احدهما يستهدف اللامركزية (de-centralization) في الاطراف، بينما الآخر يستهدف المركزية.<sup>١٨</sup>

لم تعثر هذه الدراسة على دليل مقنع يثبت ان الحركات الاستقلالية لأمرء بابان وسوران وبوتان لم تكن سوى ردود فعل لسياسة المركزية التي اتبعها السلطان العثماني، محمود الثاني. لم يذكر الكثير من الرحالة الأجانب ولا رجال الإرساليات الأمريكية والأوربية، الذين زاروا أو وجدوا في المناطق الكردية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وجود اية علاقة بين محاولات الأمرء الاستقلالية، من جهة، وسياسة المركزية، من جهة ثانية. كانت لهؤلاء الأجانب معلومات اولية عن الصراعات الكردية-

<sup>١٥</sup>Stephen H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq (Oxford: 1925).

<sup>١٦</sup>David McDowall, A Modern History of the Kurds (London: I.B. Tauris, 1996).

<sup>١٧</sup>Arshak Safrastian, Kurds and Kurdistan, (London: Harvill Press, 1948).

<sup>١٨</sup>Bruinessen, Agha ,Sheikh and State, pp.175-176.

التركية، فالطبيب جون روس، الذي عمل مع شركة الهند الشرقية في بغداد لعدة أعوام، وريتشارد وود، الموظف في السفارة البريطانية في استنبول، زارا كردستان الجنوبية والتقىيا بمحمد باشا، أمير سوران، حيث بحثا معه شؤون عديدة منها الأوضاع الكردية آنذاك. كما زار جيمس فريزر، الرحالة البريطاني، والطبيب رايت وزميله بريث، مندوبا الإرسالية الأمريكية في اورمية، الأمير بدرخان. تحدث هؤلاء جميعاً في كتاباتهم عن الأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة في المناطق الكردية المستقلة.

تؤكد هذه الدراسة، وعلى النقيض من نهج برونسن انف الذكر، أسبقية العوامل الداخلية على العوامل الخارجية في أطروحاتها العامة. ففي كردستان نهايات القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، شعرت النخب السياسية الكردية بشكل متزايد بالحاجة إلى مبادرة تقضي على المعضلات الاجتماعية والاقتصادية. فهم أدركوا ان جذور هذه المعضلات نشأت عن تدخلات تركية وإيرانية سياسية وعسكرية في شؤون الكرد الداخلية. هاتان الدولتان الأجنبيتان سعتا دوماً إلى تقسيم الكرد وإخضاع إماراتهم وامتصاص ثرواتها بقدر الامكان، كوسيلة للهيمنة السياسية غير المباشرة. فالتدخلات التركية والإيرانية، من جهة، واندلاع مواجهات عسكرية عديدة بين هاتين الدولتين المتجاورتين في المناطق الكردية، خاصة في العقود الأولى من القرن التاسع عشر، من جهة ثانية، كانت المسبب الرئيس لهيمنة التمزق الاجتماعي والتدهور الاقتصادي والانشقاق السياسي في معظم المناطق الكردية. كما كانت أوضاع الكرد في المناطق الكردية الخاضعة للسلطة المركزية أسوأ بكثير من أوضاع أبناء جلدتهم في المناطق الكردية المستقلة. فضلاً عن دفع الضرائب الباهظة والاضطهاد، كان على هؤلاء الخدمة في الجيوش المركزية. إذا اخذت بنظر الاعتبار الحروب المدمرة المستمرة بين الإمبراطوريتين المتنافستين، التركية والإيرانية، واندلاع الانتفاضات الداخلية الدموية المستمرة في أقاليمهما البعيدة، فان الخدمة في الجيوش المركزية أو التركية يعني بالنسبة إلى الكردي أما الموت في ساحات المعارك واما البقاء في المنافي لعدة سنوات. كما تعني غيابه هذا تعرض عائلته إلى الفقر والجوع وحتى الموت.

كما ستسلط هذه الدراسة الضوء على وجود حسابات مختلفة دفعت بالسلطات التركية إلى إلحاق المناطق الكردية المستقلة وشبه المستقلة بالامبراطورية



العثمانية. كانت لهذه الحسابات أبعاد استراتيجية واقتصادية وسياسية أساسية، أولها تدهور النفوذ السياسي للإمبراطوريتين التركية والإيرانية بشكل متسارع في المرحلة التي تم فيها دمجها في المجتمع السياسي الدولي، الذي هيمن عليه البريطانيون والفرنسيون والروس والنمساويون. فبدون قمعها للإمارات الكردية واحتواء طموحاتها السياسية المتنامية، ستجد تركيا العثمانية وإيران القاجارية نفسيهما مهددتين أمنياً. بتعبير أدق، كانت الاستراتيجية دافعاً قوياً وراء تفكيك الإمارات الكردية بالقوة، لأنها بدأت تحتل موقعا استراتيجيا مهما يفصل الأقاليم الداخلية للدولتين التركية والإيرانية عن روسيا القيصرية. فالاحتلال الروسي للمناطق القوقازية أضفى أهمية استراتيجية جديدة على كردستان، وذلك بوصفها تشكل الآن حزاماً أمنياً جديداً بالنسبة إلى الدولتين المهددتين من قبل التوسع الروسي الإقليمي، أي إيران القاجارية وتركيا العثمانية. إذا أخذت بنظر الاعتبار حالة التدهور الشامل الذي كانت تمر بها الإمبراطوريتان العثمانية والقاجارية، فإن من المنطقي ان تلجأ إلى وسائل الإلحاق القسري في سبيل منع حصول أي تحالف أو تقارب ما بين الإمارات الكردية والإمبراطورية الروسية. فقد كانت هناك بعض الدلائل تشير إلى تقديم دعم عسكري كردي إلى المجهود الحربي الروسي مادياً وبشرياً ما بين أوائل العقد الأول ونهايات العقد الثالث من القرن التاسع عشر.

ثانياً، تعرضت تركيا العثمانية إلى ضغوط متزايدة من قبل القوى الأوروبية الغربية من اجل فرض حكم مباشر على المناطق الكردية المستقلة وشبه المستقلة. كانت دوافع تلك القوى الغربية تكمن في منع روسيا من بسط سيطرتها إلى شواطئ البحر الابيض المتوسط ومنطقة الخليج. كما سيمكن فرض السيطرة التركية المباشرة القوى الغربية من نشر نفوذها السياسي في المناطق الكردية الحدودية الاستراتيجية. لم يخف العديد من رجال الإرساليات المسيحية الأمريكية والأوروبية كراهيتهم تجاه الإمارات الكردية باعتبارها مانعاً وقف في طريق توسيع وتكثيف النشاطات التبشيرية في أوساط الجماعات المسيحية المحلية الموجودة في كردستان، كالأرمن والنساطرة. كما ان وجود أمراء أقوياء، من وجهة نظر وكلاء المصالح التجارية الأوروبية، يشكل عائقاً امام تحقيق اهدافها في إيصال البضائع الأوروبية المصنعة إلى الاسواق المحلية واحتكار المنتجات الزراعية والحيوانية المحلية، التي

كانت تحتاجها الاسواق الأوربية. ليس من الغريب إذن ان تشهد فترة ما بعد اختفاء الإمارات وصول الممثلين السياسيين لعدد من القوى الأوربية الكبرى إلى مختلف المناطق الكردية وحصول زيادة قياسية سواء في عدد المحطات الإرسالية الاجنبية أو في نشاطاتها التبشيرية في أوساط الجماعات المسيحية المحلية. بدأت البضائع الأوربية أيضا تأخذ طريقها إلى أسواق المناطق الكردية تدريجياً. ان الدور الذي لعبته القوى الأوربية الكبرى ومواقفها تجاه عملية إلحاق المناطق الكردية المستقلة وشبه المستقلة بالدولتين العثمانية والقاجارية كانت من أهم جوانب تاريخ كردستان في تلك المرحلة، والتي لم تغطيها الدراسات الموجودة بشكل واف.

### طبيعة الحركات السياسية الإماراتية

#### بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر

ان الحديث عن أسبقية العوامل الداخلية لا يكتمل إلا بإلقاء بعض الضوء على طبيعة الحركات السياسية الأخيرة وسماتها التي قام بها بعض الأمراء. في سياق تأكيدها الطبيعة الديناميكية للمجتمع الإماراتي وقدرته على التطور والتكيف، تربط هذه الدراسة نشوء الحركات السياسية الإماراتية ما بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر بعمليات اجتماعية وثقافية حصلت تدريجياً في المجتمعات الكردية، من طرف، وبجملة تطورات سياسية اقليمية تمثلت بتوطيد النفوذ الأوربي السياسي والاقتصادي والثقافي وقيام محمد علي باشا، والي مصر، بتحدي حكم السلطان العثماني، من طرف ثانٍ. بمعنى آخر، تضافرت عوامل داخلية وخارجية في خلق أرضية لظهور حركات سياسية قام بها بعض الأمراء المتميزين الذين آمنوا بإمكانية قيام دولة كردية كبرى سواء بوسائل قسرية (كما فعل محمد باشا أمير سوران في إخضاع مختلف الأقاليم الكردية إلى سلطته) أو بطرق سياسية سلمية (كما اعتقد بدرخان أمير بوتان من خلال إقامة كونفدرالية سياسية- عسكرية بين مختلف الامارات). في كلتا الحالتين اصطدمت جهود أولئك الأمراء بمعارضة عثمانية علنية وقاجارية خفية

تكشف قراءة دقيقة لمسار أحداث المدة ما بين نهاية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر عن تولد ظهور قناعة راسخة بإمكانية تحدي الدولة

العثمانية بصورة مباشرة (والدولة القاجارية بصورة غير مباشرة) من خلال إنشاء كيان سياسي كبير يوحد أكبر عدد ممكن من الأقاليم والإمارات الكردية. ازدادت تلك القناعة أكثر فاكثرت مع الانتصارات التي حققتها روسيا القيصرية على الدولتين العثمانية والقاجارية في العقود الثلاثة الأولى من القرن التاسع عشر، وإلحاق محمد علي باشا الهزائم بالجيوش العثمانية الواحدة تلو الأخرى. لقد أدت تلك التطورات إلى تغيير الموضوع الجيوسياسي لكردستان وتضاعف أهميتها الدولية إذ لم تعد هذه البلاد الحد الفاصل بين إمبراطوريتين إسلاميتين (عثمانية وقاجارية) وإنما صارت معبراً يربط ثلاث إمبراطوريات بعضها ببعض، إحداها مسيحية (روسيا القيصرية). لم تكن الانتصارات والتوسعات الإقليمية الروسية والمصرية وحدها التي عرت درجة الوهن والتفكك التي وصلت إليه الدولتين العثمانية والقاجارية أمام أعين النخب السياسية في كردستان وإنما أيضاً المعلومات والأخبار التي كان ينقلها الرحالة والمبشرين المسيحيين والتجار الأجانب عن عملية التقدم المتواصل في أوروبا خاصة في الميادين الاقتصادية والتكنولوجيا العسكرية، وهي التي كانت تكشف في الوقت نفسه تخلف الدولتين العثمانية والقاجارية عن ركب التطور المادي والروحي العالمي. لقد اتخذ انحدار قوة السلطتين العثمانية والقاجارية شكلاً مادياً ملموساً في وجود الممثلين الدبلوماسيين لدول الأوربية الكبرى في مختلف أقاليم الشرق الأوسط وتدخلاتهم المستمرة في شؤونها، وفي توغل بضائع أجنبية ومعها تجار أوربيون إلى أسواق داخلية نائية، وفي فتح فروع لشركات تجارية أجنبية (خاصة شركة الهند الشرقية) وإقامة محطات لإرساليات تبشيرية مسيحية أوربية وأمريكية في مناطق مختلفة من الشرق الأوسط.

إن ما يميز هذه الحركات السياسية الأخيرة عن مواجهات الأمراء الكرد مع السلطات العثمانية والصفوية في الحقب التاريخية السابقة هو اتخاذ الأولى طابعاً انتقالياً حديثاً، في حين تميزت الثانية بكونها أفعالاً احتجاجية تقليدية. بمعنى أدق، سعت الأولى إلى تغيير الواقع القائم بشكل جذري (أي التغلب على حالة التجزئة السياسية عن طريق تشكيل كيان سياسي كردي كبير) بينما سعت الثانية إلى المحافظة على الواقع القائم وذلك بوضع حدٍ للتدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للإمارات. استندت نزعة الاستقلال السياسي الكامل والتوحيد بين نهاية القرن الثامن

عشر ومنتصف القرن التاسع عشر إلى قواعد متنوعة متداخلة ومتفاعلة: أولاً، القاعدة الاجتماعية: شيوع حالة تشكي وتذمر شديدين بسبب فقدان الأمن الشخصي والاستقرار والاضطراب المعيشي بسبب الإتاوات وحالة السلب والنهب والاعتداء التي تمارس ضد السكان وتجنيد البالغين منهم لإرسالهم إلى جبهات الحرب البعيدة خاصة في تلك المناطق الكردية الحدودية التي تفصل الإمارات عن الأقاليم التي تدار من قبل موظفي الدولتين العثمانية والقاجارية. جاءت مبادرة إصلاح الأوضاع الاجتماعي عند بعض الأمراء من أجل القضاء على ظواهر سلبية هددت المجتمع القائم وتمثلت بعملية الارتداد الاجتماعي، وهي التخلي عن حياة الاستيطان والاستقرار والعودة إلى حياة البداوة (أي تغير أسلوب المعيشة باستبدال مهنة الزراعة بالرعي) وكذلك انحصار حالة التمدن لصالح حالة التريّف (أي الهجرة المعاكسة من المدينة إلى الريف).

ثانياً، القاعدة الاقتصادية: كان هناك تدمير اقتصادي واسع النطاق بين سكان مدن كردستان وأريافها سواء بسبب النزاعات الداخلية من أجل السلطة أو بسبب الحملات العسكرية المتواصلة التي كان يقوم بها ممثلو السلطان من حكام الولايات ضد الإمارات الكردية والمناطق المحيطة بها. لقد عانى الأهالي من تدمير الحقول والمزارع ومن تخريب الجسور وقنوات الري ومن عرقلة النشاط التجاري ومن ظاهرة عدم استقرار حياة الأراضي الزراعية ومن دفع الضرائب الباهظة. خلق كل هذا حالة توتر مستمرة بين الحكام والرعية، بين السيد والفلاح، بين المدينة والقرية، بين القبائل المستقرة والمتنقلة.

ثالثاً، القاعدة السياسية: ازدياد الوعي بين النخب السياسية بان الجزء الأكبر من المشاكل الداخلية التي كانوا يواجهونها مصدرها خارجي، ولهذا كان من الضروري وقف التدخلات الأجنبية الضارة في شؤون الإمارة والتغلب على حالة التجزئة السياسية عن طريق توحيد أكبر عدد ممكن من المناطق الكردية وذلك باستغلال حالة الوهن الذي أصاب الدولتين التركية والإيرانية.

وأخيراً، القاعدة الثقافية: تطورت لغات أدبية عن لهجات كردية قائمة وقد انعكس ذلك، مثلاً، في التقدم الكبير الحاصل في الشعر الكردي الكلاسيكي السوراني والكرمانجي والكوراني وتنشيط الحياة الروحية والفكرية خاصة بعد إحياء الطريقة

الصوفية النقشبندية. وكان أعضاء الأسرة الأميرية البابانية وعلى الرغم من الخلافات القائمة فيما بينهم قد رأوا في منافسة النقشبندية للقادرية تهديداً خارجياً للخصوصية الروحية للإمارة. لقد تضافرت جميع تلك التطورات اللغوية والادبية في تعزيز الهوية الثقافية- الاثنية للکرد بحيث تميزت عن الهوية الإسلامية العامة التي وقفت وراءها السلطات المركزية. ان الوحدة السياسية بوصفها شرطاً اولياً في تحقيق التقدم الثقافي والعلمي حقيقة أدركها العديد من مثقفي الكرد بدءاً باحمدي خاني وانتهاءً بحاجي قادري كويي.

في ضوء ما سبق، تؤكد هذه الدراسة أن مسالة الجهود السياسية والعسكرية التي بذلها أمراء كرد شباب متميزون من اجل توحيد المناطق الكردية وتأسيس دولة مستقلة واسعة لم تكن سوى انعكاس لوجود حس قومي بدائي وخام غير ناضج في تلك المرحلة. لقد برز ذلك الحس في أواخر القرن الثامن عشر ووصل ذروته في العقد الخامس من القرن التالي عند قيام الكونفدرالية الإماراتية. هذا الحس البدائي تبلور برغم وجود الفوارق الاجتماعية القديمة، التي وضعت قبيلة ضد أخرى، والقبليين ضد غير القبليين، والحضر ضد الرحل، وابناء المدينة ضد أبناء الريف. لقد تحول الأمراء، خاصة الأمير بدرخان، إلى بؤرة تجمع قوى محلية متنوعة، تريد التغيير نحو الأحسن. وفي وقت ما بعد المرحلة الإماراتية، تطور هذا الحس البدائي تدريجياً إلى نقطة النضوج نتيجة للاضطهاد التركي والإيراني، وتجلت لأول مرة في اندلاع الحركة السياسية المسلحة التي نظمها الشيخ عبيد الله النهري في كردستان العثمانية والقاجارية في عام ١٨٧٨.

### آثار تدمير الإمارات الكردية في المجتمع الكردي

من القضايا المهمة، التي لم تتطرق اليها الدراسات، التي تناولت الإمارات الكردية، الآثار السلبية المختلفة التي تركتها عملية تدمير الإمارات والحاقها قسراً في المجتمع الكردي وتطوره. فلونكر، الذي يقر بان إقامة الحكم التركي لم يحسن أوضاع الشرائح الدنيا من المجتمع الكردي، خاصة الفلاحين، لا يلقي اللوم على الأتراك لتدميرهم السلالات الكردية الحاكمة لان الاخيرة، بحسب اعتقاده، كانت في

حالة تفسخ.<sup>١٩</sup> ويذهب ابعده من هذا الاستنتاج الدبلوماسي البريطاني اوستن هنري ليارد المعروف بميوله التركية في كتابه Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon عندما يقدم الصراع الكردي- التركي طوال العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر بوصفه مواجهة بين الذين يريدون الفوضى الاجتماعية والتسيب الأمني، من جهة، وبين الذين ينشدون تنفيذ اصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية وقانونية متطورة، من جهة ثانية.<sup>٢٠</sup> بعبارة اخرى، مثلت الكونفدرالية الإماراتية الجانب الرجعي والمعادي للتحديث، في حين جسدت السلطات التركية الجانب التقدمي والمناصر للتحديث. اذن من وجهة نظر ليارد، تدمير الإمارات والحاقها قسراً بالامبراطورية العثمانية كانت خطوة مهمة تصب في مصلحة سكان كردستان، خاصة الجماعات المسيحية.

على النقيض من ليارد، لا يرى لونكريك في تدمير الإمارات خطوة إصلاحية وتقدماً مهمة. لكنه وفي الوقت نفسه لا يعد فرض الحكم التركي المباشر بدلاً من السلالات الكردية خطوة نحو الخلف.<sup>٢١</sup> الغريب ان ليارد يضطر إلى الاعتراف بان المرحلة التي جاءت مباشرة بعد سقوط الإمارات سادتها معضلات حادة اجتماعية واقتصادية وسياسية، من ضمنها استخدام أساليب غاية في القسوة عندما يتم جمع الضرائب وتصعيد الاضطهاد الديني للجماعات غير المسلمة في المناطق الكردية الملحقة. لكنه يعود ليقول ان هذه ما هي إلا الظواهر في أطوار مؤقتة.<sup>٢٢</sup> ليس هذا فحسب، وإنما يصير ليارد على ان الأتراك وفروا الأمان الشخصي أكثر بكثير من الأمراء الكرد، وان الشعوب الخاضعة للأتراك قد عوملت وفق قوانين مسامحة لائقة، وانه تم الاعتراف ولو بشكل غير مضمون تماماً بحقوق عامة الناس كحرية الضمير والتمتع بالملكية.<sup>٢٣</sup> حتى ان ليارد يذهب ابعده من هذا بادعائه ان السلطان محمود

<sup>١٩</sup>Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, p.284.

<sup>٢٠</sup>Austen H. Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, with Travels in Armenian, Kurdistan and the Desert, (London: John Murray, 1853), See also A. Henry Layard, Autobiography and Letters from his Childhood until his Appointment as H.M. Ambassador at Madrid, vol.1, Edited by William N. Bruce, (London: John Murray, 1903).

<sup>٢١</sup>Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, p.284.

<sup>٢٢</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.12.

<sup>٢٣</sup> المصدر السابق، ص ٨٣-٨٤.

الثاني وخليفته السلطان عبد المجيد لم يغيرا نظام الملكية والإدارة المحلية عن طريق تدمير الإمارات فحسب، وإنما حطما أغوات الكرد، أي ملاكي الأراضي.<sup>٢٤</sup> تشير كل الدلائل المتوفرة وبوضوح إلى عدم صحة استنتاجات ليارد آنفة الذكر. فلم تتم إزالة النظام التيماري من الوجود (أي الأرض التي منحت من قبل السلطان إلى قادته العسكريين والوجهاء المحليين مقابل تسديد مبلغ معين أو تزويد عدد محدد من وحدات الخيالة في زمن الحرب)، ولم يكن حتى لإيداع أراضي الأوقاف تحت تصرف خزانة الدولة طبقاً لإصلاحات السلطان محمود الثاني أي تأثير يذكر في أوضاع المناطق الكردية. فملكية الدولة للأرض في المناطق المركزية من ضمنها المناطق الكردية بقيت على حالها. كما ان من الخطأ الاعتقاد بأن السلطات التركية قد دمرت سلطة رؤساء القبائل والأغوات. على العكس من ذلك تماماً، فالأتراك دعموا الوضع الاجتماعي لهذه العناصر من خلال تحويلها إلى مجموعات متعاونة (collaborating groups)، بهدف تدعيم سيطرتها على سكان تمرسوا في مقاومة حكمهم عبر القرون. لقد كانت بنية الإمبراطوريتين التركية والإيرانية متخلفة جداً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. ولم تكن الفئات الحاكمة قادرة على أو راغبة في تنفيذ تغييرات جذرية لتحديث الدولة والمجتمع بسبب جمودها العقائدي الديني وان كل إصلاحاتها استهدفت تقوية الاستبداد وليس تخفيفه. لهذا لم تكن عملية إلحاق المناطق الكردية قسراً بالامبراطورية العثمانية أو القاجارية سلبية فقط وإنما ألحقت أضراراً كبيرة بتطورها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي على المدى القريب والبعيد.

من اللافت للنظر ان الضغوط التي مارستها القوى الأوروبية الكبيرة، على رأسها بريطانيا، هي التي اجبرت السلطان محمود الثاني على إصدار «خطي شريف» في عام ١٨٣٩. فهذا المرسوم كان من صنع رشيد باشا، وزير الخارجية التركي المدعوم من قبل البريطانيين، الذي اراد من ورائه نيل مساعدات مادية من بريطانيا.<sup>٢٥</sup> بتعبير آخر، لم يكن رجال الدولة التركية صادقين في نواياهم عندما قدموا الوعود

<sup>٢٤</sup> المصدر السابق، ص ١١.

<sup>٢٥</sup> Diplomacy in the Near and the Middle East, vol.1, Edited by J.C. Hurewitz, (Princeton: D. Van Nostrand, 1956), p.269.

«الليبرالية» بخصوص تحسين أوضاع رعاياهم. ليس من الغريب إذن ان لا تنفذ السلطات التركية الجزء الأكبر والأهم من وعودها، خاصة بما يتعلق بالمساواة الدينية وضمان الأمن والحياة والشرف والملكية وخلق نظام يحدد الضرائب ونظام آخر للتجنيد العسكري ومدته. في عام ١٨٥٨، تم إصدار قانون زراعي يمنح حقوقا محدودة بالنسبة إلى ورثة الأرض الذين يستغلونها أو يملكونها. لكن ظلت الملكية الأخيرة للأراضي الزراعية والمراعي وحق التصرف بها بيد الدولة العثمانية. ومرة أخرى، كانت الضغوط الأوربية مسؤولة عن زيادة تلك الحقوق. وفي محاولة لإضعاف الادعاءات الروسية بخصوص ضرورة توفير الحماية لليونانيين المسيحيين الارثوذكس داخل الأقاليم العثمانية، أكد السلطان عبد المجيد على حقوق رعاياه من غير المسلمين من خلال إصدار قانون عرف بـ«اصلاحي فرماني» في عام ١٨٥٦، الذي وعد بتوفير الحماية الدينية والمساواة القانونية.<sup>٢٦</sup> لكن السلطات التركية كعادتها لم تنفذ أيا من تلك الوعود، التي ستضعف من استبدادها السياسي والاقتصادي.

لقد كان هم الفئات الحاكمة في استنبول وطهران ردم الهوة العسكرية القائمة بين دولتهم وبين القوى الأوربية المتقدمة، أي سعيها إلى استعادة مكانتهما بوصفها قوتين عظيمتين عن طريق إعادة تحديث الجيش والاسطول الحربي، لا عن طريق إصلاح البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. وترجع عملية تحديث الجيش والاسطول التركي إلى أواخر القرن الثامن عشر، عندما قام السلطان سليم الثاني خلال سنوات حكمه ما بين ١٧٨٩ و١٨٠٧ باستخدام فنيين بريطانيين وفرنسيين في إعادة تنظيم الجيش والأسطول. في الفترة ذاتها تقريبا، قام الملوك القاجاريون باستخدام مشرفين عسكريين بريطانيين وبروسيين بهدف تحديث جيوشهم. أما السلطان محمود الثاني فقد قام بتسريع عملية تحديث الجيش من خلال إلغاء القوات الانكشارية في عام ١٨٢٦، وتجهيز الجيش والأسطول بأسلحة حديثة بمساعدة القوى الأوربية، مثل بريطانيا وبروسيا. لعبت هذه الإصلاحات العسكرية دورها في كسر المقاومة الشديدة التي أبداهها السكان الكرد خلال غزو الجيوش التركية لمناطقهم خاصة في العقد الرابع والخامس من القرن التاسع عشر.

\* \* \*

<sup>٢٦</sup>Diplomacy in the Near and the Middle East, Edited by Hurewitz, vol.1, p.315.



والملاحظة الأخيرة في هذه المقدمة تتعلق بالفكرة الآتية: وهي ان وضع الإمارة في جميع الميادين السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية بين نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التالي تميز بتعقده وامتلائه بالتناقضات بين شواهد على تطور وتقدم وشواهد أخرى معاكسة تدل على تأخر وتراجع. ان القول بان نظام الإمارة كان يمر في مرحلة احتضار نهائية مقدره لها، كما يبين برونسن، ليس دقيقاً، فهو تحليل بالغ التبسيط لوضع معقد. ان التطورات السياسية الجديدة في الكيانات تحدث تاريخياً في إطار اجتماعي واقتصادي وفكري يحوي عناصر متناقضة: تأزم وتدهور، من طرف، وتطور وازدهار، من طرف آخر. والشيء نفسه ينطبق على الإمارة بوصفها وحدة سياسية قابلة للتحويل إلى كيان أوسع وأكثر تطوراً ولهذا كان بإمكانها ان تكون القاعدة المادية لظهور دولة كردستانية حديثة.

لقد ازدادت القوة السياسية والاقتصادية والثقافية لبعض الإمارات الكردية الرئيسية، كما تحسنت قدرتها العسكرية وتوفر الامان الشخصي، في وقت كانت تمر به مناطق كردستانية أخرى، خاصة التي كانت تحت سيطرة اجنبية، بتدهور في مختلف اوجه الحياة. من جهة ثانية، وبينما عانت الدولتان القاجارية والعثمانية من ضعف سياسي واقتصادي، بسبب عجزهما عن التكيف، ازدادت قوتها القسرية والعسكرية، بسبب تحديث جيوشهما على يد الخبراء العسكريين الأوربيين. وهذا العامل الأخير كان حاسماً في منع الإمارات الكردية من إكمال عملية التطور إلى دول كبيرة أو حتى دولة كونفدرالية كبيرة (كما كان يأمل قادة الكونفدرالية الإماراتية). ان تغير النظام الإقليمي تحت ضغط التوسع الروسي القيصري في منطقة قوقازيا الذي شدد من تدخلات بقية القوى الأوربية في منطقة الشرق الأوسط، من ناحية، الاختلال الحاصل في موازين القوى العسكرية بين الإمبراطوريتين الإيرانية والتركية والإمارات الكردية، من ناحية ثانية، افقد النخب الكردية الحاكمة المرونة السياسية اللازمة لتجاوز الأزمات التي كانت تواجهها باستمرار، وكذلك قدرتها على المناورة السياسية والعسكرية لاحتواء التحديات الخارجية. لكل هذه الأسباب حرم نظام الإمارة من فرصة التطور، بالرغم من وجود قاعدة مناسبة له، بينما رحبت الدولتان الإيرانية

والتركية معركة الهيمنة بفضل التدخل الأوربي والتحديث العسكري، بالرغم من استمرار تدهورهما في الميادين والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية كافة.

---





## الفصل الأول

### أوضاع كُردستان السياسية من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر: نشوء الأنظمة الإماراتية

يتناول هذا الفصل أسباب نشوء النظام الإماراتي الأول في المناطق الكُردية في القرن العاشر. ولهذا التطور أهميه تاريخية خاصة لانه ولاول مرة منذ بداية العصر الإسلامي في القرن السابع استطاع الكُرد تشكيل حكومات خاصة بهم بعيدا عن أية هيمنة أجنبية. كما سيتطرق هذا الفصل إلى الأوضاع الإقليمية التي أدت إلى زوال هذا النظام الإماراتي في القرن الثاني عشر في الوقت نفسه الذي بدا فيه نظام إماراتي جديد يأخذ شكله ويرسخ أسسه في المجتمعات الكُردية. سيقارن هذا الفصل ما بين سمات هذين النظامين بغية توضيح العوامل التي مكنت النظام الإماراتي الثاني من البقاء حتى منتصف القرن التاسع عشر. سيقدم هذا الفصل العامل الجيوسياسي وتأثيره في الأوضاع السياسية في المناطق الكُردية، خصوصا لان جغرافية كُردستان السياسية تغيرت بالارتباط مع التحولات الإقليمية في الجزء

الآسيوي من الشرق الأوسط. كما سيحدد هذا الفصل الصفات الرئيسية التي اتسمت بها سياسة الإمبراطورية الصفوية تجاه الكُرد خاصة خلال عهد الشاه اسماعيل الأول الممتد من عام ١٥٠٢ إلى عام ١٥١٨.

## نشوء النظام الإماراتي الأول واختفاؤه ما بين القرنين العاشر والثاني عشر

### الخلفية التاريخية

كانت كُردستان واحدة من أهم المناطق القليلة في العالم التي شهدت عبر القرون ظهور حضارات قديمة عديدة واختفاءها ومجيء ورحيل أقوام غازيه كثيرة. فأسوة بمناطق الشرق الأوسط الأخرى مثل ميسوبوتاميا وبلاد فارس ومصر، كانت المناطق الكُردية أما مركزاً لدول كبيره أو أجزاء من إمبراطوريات عظيمة. ففي الألف الثالث قبل الميلاد، ظهرت الإمبراطورية العيلامية في الأجزاء الجنوبية من سلسلة زاكروس الجبلية. ويكشف تاريخ هذه الإمبراطورية إنها كانت مشغولة أما في غزو دول ميسوبوتاميا المجاورة أو التصدي لهجماتهم. ووجدت دول معاصرة في أجزاء أخرى من كُردستان كالكويتية واللؤلؤية. فالأولى فرضت سيطرتها على المنطقة الواقعة ما بين نهر الزاب الأسفل وشمال مدينة السليمانية الحالية. أما الثانية فتقع إلى الجنوب منها حيث سيطرت على شهرزور وقره داغ وأربيل والتون كوبري.

في أعقاب الألفية الثانية قبل الميلاد، خضعت أجزاء كبيره من كُردستان إلى حكم الإمبراطورية الحيثية (١١٨٠-١٧٠٠ ق.م)، التي امتدت سلطتها أيضاً إلى أناضوليا وميسوبوتاميا. أما الكوتو، الذين يعتقد بأنهم من خلفاء الكوتيين، فقد أقاموا سلطتهم في كُردستان الجنوبية. وظهرت دولة اورارتا في منطقة بحيرة اورمية في نحو القرن الثامن قبل الميلاد استطاعت أن تبسط سيطرتها على الأجزاء الوسطى والجنوبية من كُردستان. وفرض السايثنيون سيطرتهم على بعض مناطق كُردستان عندما كانوا في أوج قوتهم. وعاصرت هذه الدول الثلاث الأخيرة الإمبراطورية الآشورية في مراحل انحلالها. فالآشوريون أنفسهم اخضعوا لسيطرتهم أجزاء واسعة من كُردستان خلال المدة الممتدة ما بين عامي ٨٢٨ و٨٢٤ ق. ب. وعامي ٦٦٨ و٦٢٧ ق. ب. لقد تحطمت الإمبراطورية الآشورية بفعل تحالف الدولة الميديّة والدولة

الأكدية. وقد أقام الميديون دولتهم في كردستان والتي عاشت مدة أكثر من ١٧٥ عاماً (٧٢٨-٥٥٠ ق.ب).<sup>٢٧</sup> لم تعد كردستان مهداً لأية دولة كبرى في أعقاب اختفاء الإمبراطوريتين العيلامية والميدية نتيجة لتوسع الإمبراطورية الاخمينية (٥٥٠-٣٣١ ق.ب). في بلاد فارس. لكن السلطات الاخمينية المركزية لم تستطع أن تفرض حكماً مباشراً على مناطق كردستان الجبلية. فطبقاً لقول زينفون، المؤرخ اليوناني القديم، تمتع سكان جبال زاكروس من الكردوخيين باستقلال تام، بالرغم من كون مناطقهم محاذية لأراضي أقوى إمبراطورية في ذلك العهد، أي الاخمينية.<sup>٢٨</sup>

في نحو عام ٣٤٣ ق.ب، قام الاسكندر الكبير، إمبراطور اليونان. بغزو أناضوليا في خضم التنافس الإمبريالي الفارسي- اليوناني. وبحلول عام ٣٣٤ ق.ب، بسط الاسكندر سيطرته على بلاد فارس والأجزاء الجنوبية من كردستان. وفي أعقاب وفاة الاسكندر وتفكك إمبراطوريته في آسيا، أصبحت كردستان كحال ميسوبوتاميا وأناضوليا تحت سيطرة ملوك سلوكيا في سوريا (٣٣١-١٢٩ ق.ب). استطاع البارثيون، وهم قبائل شبه رحل، من تأسيس إمبراطورية جديدة (٢٧٣-٢٢٦) من خلال سيطرتهم على الأجزاء الشمالية والغربية من كردستان علاوة عن ميسوبوتاميا. لكن عهد الهيمنة البارثية شهد قيام دول صغيرة في الأجزاء الشرقية والجنوبية من كردستان، وهي شهرزور وموكريان (مهاباد) وكير (كرماشان) وسانك (سنندج).<sup>٢٩</sup>

في القرون الميلادية الأولى، أطلق الارامنه القدماء اسم كورتشيا على منطقته مستقلة واسعة امتدت من سالماس إلى بوتان. وطبقاً إلى المستشرق الروسي فلاديمير

<sup>٢٧</sup> المزيد من التفاصيل، انظر:

The Cambridge Ancient history of Iran, vols. 1-4. ed. (Cambridge: Cambridge University Press) & Wadie Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement: its Origins and Development, (Unpublished Dissertation Submitted to the Syracuse University, January 1960), pp.25-27.

<sup>٢٨</sup>Xenophon, The Persian Expedition, (London: Penguin, 1984) pp.11-28.

<sup>٢٩</sup> المزيد من التفاصيل، انظر:

M.R. Izadi, The Kurds: a Concise Handbook, (London: Taylor & Francis, 1992), pp.28-34.

مينورسكي، تعني كلمة كورتشيا وطن الكُرد أو كُردستان.<sup>٣٠</sup> وظهر الساسانيون بوصفهم قوة كبرى خلال القرن الثالث حيث فرضوا سيطرتهم على العديد من مناطق الشرق الأوسط. في المراحل الأولى، لم يستطع الملوك الساسانيون فرض حكم مباشر على مناطق زاكروس الجبلية. لهذا غض الساسانيون النظر عن وجود دويلات كُردية مقابل تقديم ولاء اسمي لهم. تغيرت الوضعية تماماً خلال عهد الملك اردشير الثاني الذي تبني سياسة المركزة الشديدة تجاه الأقاليم التابعة اسماً إلى إمبراطوريته. كانت من ابرز نتائجها إلغاء حكم السلالات المحلية المتوارث في الأقاليم التي تم فتحها من ضمنها كُردستان. وتجسد نظام الحكم المباشر في الأقاليم الأجنبية في تنصيب حكام فرس جاءوا عادة من أوساط العائلة المالكة الساسانية. على اثر قدوم الرومان إلى مناطق الشرق الأوسط ودخولهم في صراع مريع مع الساسانيين تغيرت جغرافية كُردستان السياسية حيث أصبحت منطقته حدودية استراتيجية كبيرة تفصل القوتين العظيمين الواحدة عن الأخرى. لهذا أصبحت كُردستان مسرحاً لسلسلة من حروب دموية بين الدولتين من اجل السيطرة على الشرق الأوسط. لكن هذه الوضعية ساعدت في نهاية الأمر على ظهور عدة كيانات سياسية في كُردستان في الوقت نفسه الذي تدهورت فيه قوة الدولة الساسانية.

ظهور الإمبراطورية الإسلامية- العربية الأولى وتوسعها المفاجئ في القرن السابع شكلاً بداية عصر جديد في تاريخ كُردستان إذ تم القضاء على كل معالم الحكم الذاتي فيها وتولى ولاة عرب حكم الكُرد لأول مره. لقد تم للجيش العربي إخضاع المناطق الكُردية بصعوبة بالغة نتيجة للمقاومة الشديدة التي أبداها الكُرد. كان من أهم معالم الحكم العربي- الإسلامي مصادره الأراضي والإقطاعات العائدة سوء إلى المزارعين أو النبلاء الكُرد من قبل العرب. في بداية القرن الثامن، أصبحت جميع الأراضي والإقطاعات ملكاً للخليفة المسلم (الحاكم الديني والديوي) وفقاً لمبدأ الفتح الإسلامي. وتبع ذلك منح القادة العرب وابرز المحاربين الكثير من هذه الإقطاعات والأراضي المصادرة أو سمح لهم بشرائها مقابل دفع العشر. بهذا النحو اصبح المزارعون الكُرد رعية يعملون في اراضيهم السابقة مستأجرين. أما الكُرد الذين

<sup>٣٠</sup> فلاديمير مينورسكي، الاكراء، ملاحظات وانطباعات، ترجمة معروف خزندار، (بغداد: ١٩٦٨)،

رفضوا اعتناق الإسلام فقد كان عليهم دفع الجزية علاوة عن الخراج، وهي ضريبة يشتركون في دفعها مع بقيه المزارعين بغض النظر عن خلفيتهم الدينية. أثبتت كُردستان دوماً أنها من أكثر البلدان المفتوحة تمرداً خلال عهد الإمبراطوريات الإسلامية الثلاث، الراشدية والاموية والعباسية. فقد قام الكُرد بتمردات واسعة في مناطقهم وكذلك اسهموا في انتفاضات كبرى اشتركت فيها مختلف الأعراق والأجناس كما حصل في أعوام ٦٤٥، ٦٥٩، ٦٨٥، ٧٠٢، ٧٦٤، ٨٢٥، ٨٣٥، ٨٤٠، ٨٤٥، ٨٦٦، ٨٦٩-٨٧٣، ٨٧٥ و٩٣٩.<sup>٣١</sup>

باستثناء انتفاضاتهم شبه المستمرة، لم يلعب الكُرد أي دور ملحوظ على المستوى السياسي الداخلي للإمبراطوريات الإسلامية-العربية بين القرنين السابع والعاشر. مع هذا، استطاعت بعض القبائل الكُردية في ظروف خاصة أن تقدم عوناً عسكرياً للإمبراطوريات الإسلامية في حروبها مع الإمبراطورية البيزنطية المسيحية أو أن تساعد كتلة معينة داخل العائلة الحاكمة ضد منافستها، مثل مسانده كتله الخليفة مروان الثاني ضد كتلة ابن عمه أو دعم كتله المأمون ضد كتلة أخيه الأمين.<sup>٣٢</sup> وفي أواخر العهد العباسي، خاصة خلال عهد الخليفة المعتز في منتصف القرن التاسع، احتلت بعض الشخصيات الكُردية مناصب رفيعة في الدولة ولاة للأقاليم وأمناء لبيت مال المسلمين. عموماً، ظل الكُرد عنصراً خارجياً معزولاً عن الحياة السياسية الرئيسية للدول الإسلامية. لكن هذه الوضعية ساعدت الكُرد من جهة أخرى على تعزيز سماتهم خاصة كمجموعه بشرية قائمة بذاتها لها لغتها وثقافتها وطريقتها في الحياة. ومهد هذا بالتالي الارضية لظهور كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة في كُردستان.

## نشوء النظام الإماراتي الأول في كُردستان في القرن العاشر

<sup>٣١</sup> المزيد من التفاصيل في

Jwaideh, *The Kurdish Nationalist Movement*, pp.228-230 & David McDowall, *A Modern History of the Kurds*, (London: I.B. Tauris, 1996), p.21.

<sup>٣٢</sup>McDowall, *A Modern History of the Kurds*, p.21 & Hugh Kennedy, *The Prophet and the Age of Caliphate: The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Centuries*, (London & New York: Longman, 1980), p.250.

لقد شكلت عملية الاضمحلال التي كان يمر بها الحكم العباسي في القرنين التاسع والعاشر بداية عهد اجتماعي سياسي جديد بالنسبة إلى الشعوب الخاضعة، خاصة الكُرد، حيث شهدت مناطقهم ظهور أولى الكيانات الكُردية في العصر الإسلامي، أي الإمارات. وحكمت سلالات كُردية محلية هذه الكيانات التي اختلفت من حيث حجمها وموقعها الجغرافي ودرجة استقلالها السياسي. ففي أوقات ضعفها اضطرت هذه الكيانات إلى أن تتنازل عن استقلالها التام من خلال تقديم ولائها إلى إحدى الدول الكبيرة المجاورة.

لقد تجسد انحسار السلطة العباسية في هيمنة العناصر غير العربية خاصة التركية على مقدرات الإمبراطورية الإسلامية. فموجات الغزو التركية القادمة من آسيا المركزية من جهة وضعف السلطة المركزية المتواصل في بغداد من جهة ثانية خلق فراغاً سياسياً في العديد من مناطق الشرق الأوسط. ففي كُردستان، استغل أبناء طبقة الأشراف الكُردية النامية من رجال الدين وقادة القبائل هذه الفرصة الفريدة بإقامتهم حكومات محلية والتي ظهرت غالبيتها في القرن العاشر. ويعود قيام مثل هذه الكيانات إلى التغيير الجذري في الجغرافية السياسية للشرق الأوسط.<sup>٣٣</sup> فكما يوضح وادي جويده، كانت هذه التطورات جزءاً من ظاهره عامه تأثرت بها بلاد فارس أيضاً.<sup>٣٤</sup> ويلاحظ مينورسكي أن نشوء السلالات المحلية الحاكمة حصل خلال الفترة الانتقالية من الهيمنة العربية إلى الهيمنة التركية في الشرق الأوسط.<sup>٣٥</sup> وبسبب موقع كُردستان الجغرافي الهام بوصفها جسراً يربط إيران وأناضوليا وسوريا وميسوبوتاميا، استفادت العديد من المناطق الكُردية كثيراً من الطرق التجارية التي مرت فيها. وساعد هذا العامل على ان تلعب الإمارة الكُردية دوراً اقتصادياً في حماية تجارة الترانزيت وتقويتها.

والملاحظ ان ظاهرة قيام الامارات والكيانات الصغيرة الأخرى في أعقاب اضمحلال ممالك كبيرة وإمبراطوريات وانهارها لم تكن مقتصره على منطقة الشرق

<sup>٣٣</sup>Kennedy, The Prophet and the Age of Caliphate, p.251.

<sup>٣٤</sup>Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, pp.30-31.

<sup>٣٥</sup>Vladimir Minorsky, Studies in Caucasian History: I. New Light on the Shaddadis of Genja; II. The Shaddadis of Ani; III. Prehistory of Saladin. (London: Taylor's Foreign Press), p.109.



الأوسط فقط وإنما شملت أيضاً أوربا. ففي العصور الوسطى، منح ملوك أوربا بعض الحقوق القانونية إلى شخصيات محلية جاءت من خلفيات اجتماعية مختلفة، عسكرية ودينية.. الخ. مع تدهور سيطرة السلطة المركزية في الممالك الكبيرة، ازداد قوة تلك الشخصيات بحيث كونت أسرا توارثت شؤون الحكم المحلي في مناطقها. وساعدت هذه الظاهرة على التعجيل بعملية تفكك تلك الممالك وانهارها في نهاية الامر. مع اختفاء السلطة المركزية سارعت الكثير من تلك الشخصيات إلى إعلان استقلالهم التام أو تقديم ولاء اسمي إلى حكام دول قوية مجاورة. لقد أدى انقسام الإمبراطورية الكارلونية (Carolingian Empire) في القرن التاسع إلى قيام مملكات جديدة في فرنسا والمانيا وإيطاليا وغيرها. وفي مرحلة لاحقة، ظهرت دويلات جديدة حين ازداد نفوذ حكام الأقاليم على حساب السلطة المركزية بحيث حولوا طبيعة الوظيفة التي كانوا يقومون بها من التعيين إلى التوريث، وهم بهذه الطريقة لم يعودوا موظفين تابعين للحكم المركزي وإنما حكام «شرعيين» لهم حقوق طبيعية ومكانة اجتماعية سامية ارتبطت بملكية الإقطاعيات.

لقد ظهرت واختفت من الوجود خمس سلالات حاكمة رئيسة ما بين منتصف القرن العاشر ونهاية القرن الثاني عشر، وهي الحسنية والعنزية والراودية والشدادية والمروانية (انظر خريطة رقم ١).<sup>٣٦</sup> كان الكرد البارزكانيون بقيادة زعيمهم حسنيه (أو حسنويه) بن الحسين أول من أسس كيانا سياسياً مستقلاً في الأراضي الكردية المعروفة بالإمارة الحسنية التي ظهرت في الأجزاء المركزية من سلسلة جبال زاكروس ما بين عامي ٩٥٩ و ٩٦٠. وكان مركز الامارة السياسي يقع قرب مدينة كرمسين (كرماشان الحالية). كما سيطر الحسنيون على مدينة همدان التي أداروا شؤونها من خلال وكلاء لهم. وأشرفت قلاع الحسنيين الجبلية على الطريق البري المهم الذي كان يربط بلاد فارس بميسوبوتاميا.<sup>٣٧</sup> وكان الحكم الحسني قد نال مديح المؤرخين العرب

<sup>٣٦</sup> يذكر رواة التاريخ في القرون الوسطى، مثل ابن الأثير وابن النديم وابن مسكويه والطبري، تلك الإمارات في مؤلفاتهم. ومن المحتمل جدا ان الأمير بتليسي قد اعتمد على تلك المؤلفات خلال كتابته للقسم الأول من كتابه "شرفنامه"، انظر مثلاً صفحات ١٩-٢٤.

<sup>٣٧</sup>Kennedy, The Prophet and the Age of Caliphate, pp.252-253.

المسلمين.<sup>٣٨</sup> وجاورت الإمارة الحسنية أمارتان كُرديتان. كانت الأولى الإمارة الراودية التي وقعت إلى الشمال منها والإمارة العنزنية التي حدثتها من الجهة الغربية. ووصل الحكم الحسني إلى نهايته في عام ١٠٩٥ تحت ضغوط غزوات الاوغوز، وهي قبائل تركية بدوية، التي تزامنت مع عهد السلطان السلجوقي الب ارسلان الذي بدأ بحملات استهدفت القضاء على كل معالم الحكم المحلي في المناطق الكُردية.<sup>٣٩</sup>

أسس الشذبانويون (أو شهانجانيون) الإمارة العنزنية بعد ثلاثة عقود من قيام الإمارة الحسنية.<sup>٤٠</sup> ودخلت الإماراتان في منافسة شديدة من اجل السيطرة على المناطق الكُردية التي تفصل بينهما. وأصبحت الإمارة العنزنية تدريجياً من أقوى الكيانات السياسية في الجزء المركزي من سلسلة زاكروس الجبلية. فقد امتدت سيطرة الأمراء العنزنيين من حلوان (خانقين الحالية) وشهرزور في الغرب إلى منطقته ديئور (على مقربة من كرماشان الحالية) وأحياناً كرمسين في الشرق.<sup>٤١</sup> كانت اللامركزية من ابرز سمات الحكم العنزني، حيث حكمت الأجزاء المكونة للإمارة من قبل عدد من أبناء العائلة العنزنية. أما السمة المشتركة التي تقاسمتها الإماراتان العنزنية والحسنية فهي التدخلات التي قامت بها في الصراعات السياسية الداخلية القائمة آنذاك في المماليك البوهية في ري وبغداد عن طريق دعم إحدى الكتل المتنافسة من اجل السلطة السياسية.<sup>٤٢</sup> لكن الإماراتين عانتا أيضاً من انقسامات سياسية داخلية نتيجة لنشوء أزمات تتعلق بوراثة الحكم. وجرت هذه الأزمات إلى تدخلات خارجية في شؤونهما الداخلية. لقد اختفت الإماراتان من الوجود نتيجة الغزوات

<sup>٣٨</sup> نيكيتين، الكُرد، ص ٢٨٤.

<sup>٣٩</sup> المزيد من التفاصيل في

<sup>٤٠</sup> C.E. Bosworth, The Political and Dynastic History of the Iranian World, A.D. 1000-1217' in Cambridge History of Iran, the Saljuq and the Mongol Periods, vol.5, ed. J.A. Boyle, (Cambridge: Cambridge University, 1968), pp.32 & 54.

<sup>٤١</sup> Bosworth, The Political and Dynastic History of the Iranian World, A.D. 1000-1217', p.24.

<sup>٤٢</sup> المزيد من التفاصيل في بتليسي، شرفنامه، ص ١٩-٢٤ و

Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, pp.30-33.

<sup>٤٣</sup> Kennedy, The Prophet and the Age of Caliphate, pp.253-254.

المدمره التي قامت بها القبائل البدوية التركية. لكن الإماراتان العنزية ظلت في الوجود حتى بدايات القرن الثاني عشر، أي مدة أطول من غريمتها الحسنوية.

أسس الهذبانيون الكُرد كياناً سياسياً آخر وهو الإمارة الراودية في الأجزاء الغربية من محافظة أذربيجان الغربية الحالية في إيران في منتصف القرن العاشر.<sup>٤٣</sup> كانت اردبيل عاصمة الراوديين السياسية بينما كانت مراغه ثانية أهم مدنها. ويعكس هذا الوضع السياسي تمركز القبائل الكُردية في الأجزاء الغربية من ما يعرف الآن بولاية أذربيجان وتمركزت القبائل التركية الديلمية في الأجزاء الشرقية من الولاية نفسها. ودخلت القبائل الكُردية والتركية الديلمية في صراع حاد من أجل السيطرة على أذربيجان. وبفضل سيطرتهم على منطقة راوندوز، وهيمنة الراوديين على الطريق الإستراتيجي الذي كان يربط مرتفعات أذربيجان بسهول كُردستان الجنوبية.

كان فاسودان بن ماملان من أبرز أمراء العائلة الراودية في القرن الحادي عشر. ففي عهده الممتد ما بين عامي ١٠١٩ و١٠٥٤، قاوم الراوديون غزوات قبائل الاوغوز البدوية. لكن الضغوط الناتجة عن تهديدات الاوغوز المستمرة من جهة الشرق والسياسات التوسعية للإمبراطورية البيزنطية من جهة الغرب تضافرت لتضعف السلطة الراودية.<sup>٤٤</sup> وبعد أن قبلوا بتقديم الولاء إلى السلاجقة في عام ١٠٥٤، أي في عهد السلطان السلجوقي طغرل، انتفض الراوديون ضدهم. يبدو أن نهاية الحكم الراودي جاء في أوائل العقد السابع من القرن الحادي عشر، أي خلال عهد السلطان الب أرسلان.<sup>٤٥</sup> الجدير بالذكر، أن بعض الكُرد من الخوارج بقيادة زعيمهم ديسام بن إبراهيم الكُردي أقاموا حكومة كُردية في أذربيجان في العقد الثالث من القرن العاشر. ودخل ديسام في حروب مع الروس والأرمن والرواديين والديلميين. كما عقد تحالفاً مع

<sup>٤٣</sup> بابامردوخ روحاني "شيو"، تاريخ مشاهير كُرد: أمراء وخاندانينها، (تهران: سروش، ١٣٦٦)، ص١٣-٣٠.

<sup>٤٤</sup> Kennedy, The Prophet and the Age of Caliphate, pp.255-258.

<sup>٤٥</sup> Bosworth, The Political and Dynastic History of the Iranian World, A.D. 1000-1217, pp.32-33 & 54.

سيف الدولة الحمداني في عام ٩٥٥ تقريباً. لكن ديسام لم يستطع في نهاية المطاف تأسيس سلالة حاكمة بسبب مقتله. والحق كيانه الصغير بالإمارة الراودية.<sup>٤٦</sup>

ما بين عامي ٩٥١-٩٥٢، بادر أحد الوجهاء الكُرد باسم محمد بن شداد بن قرتاق إلى تأسيس الإمارة الشدادية<sup>٤٧</sup> نسبة إلى الشداديين الذين كانوا من أصول بدوية. واتسعت هذه الإمارة في عهد فضل ابن محمد (٩٨٦-١٠٣١) الذي استولى على مدينه آران. وصار للسلالة الشدادية فرعان، حكم الفرع الأول من السلالة آران ودفين بينما حكم الفرع الثاني آني.<sup>٤٨</sup> يستنتج من هذا التفرع ومن التغيير المستمر لمراكز الإمارة السياسية بان الشداديين عانوا من تدخلات أجنبية وغزوات خارجية جعلتهم يكيّفون أوضاعهم السياسية على وفقها. وكانت كنجه وآني آخر المدن التي أصبحت المركز السياسي للأمرء الشداديين. لقد كرس الشداديون جل وقتهم وجهودهم في محاربة العديد من الخصوم مثل الأرمن والروس والسالاريين<sup>٤٩</sup> والهنغار المتأرمنين والجورجيين والعرب. وتعرضت الإمارة الشدادية إلى غزوات الإمبراطورية البيزنطية والاوغوز الأتراك. اجبر البيزنطيون ومن ثم السلاجقة الشداديين على تقديم الولاء لهم. في نحو عام ١٠٩٩، وضع السلطان السلجوقي الب ارسلان نهاية لحكم الفرع الشدادية

بنكهى زين  
www.zheen.org

<sup>٤٦</sup>R.M. Frye, 'The Period from the Arab Invasion to the Saljuqs' in Cambridge History of Iran: the Saljuq and the Mongol Periods, vol.4, ed. Heribert Busse, (Cambridge: Cambridge University, 1968), pp.232-239.

<sup>٤٧</sup> المزيد من التفاصيل في

Bab al-Shadadiya min Kitab Jami al-Dawla' by Ahmad bin Lutfalla in Minorsky, Studies in Caucasian History, pp.1-5.

<sup>٤٨</sup> ان ما قاله نيكييتين غير دقيق عندما عد اكثرية سكان الإمارة الشدادية من الارمن، ولربما يعود استخدامه معيار التوزيع الديموغرافي القائم في النصف الأول من القرن العشرين. في العصور السابقة، تمازج السكان الكُرد والأرمن في المناطق الواقعة الآن قرب الحدود الدولية لتركيا وإيران وارمنيا وأذربيجان. تغير التوزيع الديموغرافي بسبب الحروب الروسية- الإيرانية والروسية- التركية في القرنين التاسع عشر والعشرين. فبينما نزع الكثير من الكُرد وبعض الجماعات المسلمة نحو الجنوب ( أي إلى كُردستان الشمالية والشرقية)، هاجر الأرمن إلى الشمال (أي إلى أرمنيا الحالية). نيكييتين، الكُرد، ص٢٨٤.

<sup>٤٩</sup> لم يكن السالاريون كُردا، كما اعتقد المؤرخ محمد امين زكي، وإنما قبائل تركمانية- أذربيجانية.

القائم في آران، بينما ظل الفرع الثاني في الوجود ضمن منطقة النفوذ السلجوقي حتى أواخر القرن الثاني عشر.<sup>٥٠</sup>

المعلومات المتوفرة عن تاريخ الإمارة المروانية هي أكثر من تلك التي عن الإمارات الكُردية المعاصرة الأخرى، وذلك بفضل ما كتبه مؤرخان كُرديان من العصور الوسطى وهما ابن الأثير وابن الأزرق الفارقي عن أوضاع هذه الإمارة السياسية والاقتصادية والثقافية.<sup>٥١</sup> ظهر الحكم المرواني إلى الوجود في عام ٩٨٤ تقريباً في أعقاب انهيار السلطة الحمدانية في أواخر القرن العاشر. ومؤسس الإمارة المروانية هو شخص اسمه باذ الذي كان ينتمي إلى الحمديين الكُرد. خطوته هذه شكلت تحدياً واضحاً لسلطة البويهيين.<sup>٥٢</sup> واستطاع الحسن بن مروان، ابن أخي باذ، من فرض سيطرته على مدينة ميافارقين (سليمان الحالية)، التي أصبحت مع مدينة آمد (ديار بكر الحالية) أهم مراكز الإمارة المروانية. كما خضعت مدن أخرى إلى سيطرة الأمراء المروانيين مثل ملازكُرد وفان وبتليس وجزيرة وارزان واخلات وسيرت.<sup>٥٣</sup> تعرض أمن الإمارة المروانية إلى تهديدات خارجية من قبل الاوغوز الأتراك. وبما ان البيزنطيون كانوا أيضاً قلقين على سلامة حدودهم الشرقية من هجمات القبائل

<sup>٥٠</sup> W. Madelung, 'The Minor Dynasties of Northern Iran' in Cambridge History of Iran: the Period from the Arab Invasion to the Saljuqs, vol.4, ed. R.N. Frye, (Cambridge: Cambridge University, 1968), pp.239-242.

<sup>٥١</sup> عز الدين ابي الحسن ابن الاثير، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، (بيروت: ١٩٨٧)، الجزء الأول والثاني.

<sup>٥٢</sup> التفاصيل في شيوا، تاريخ مشاهير كرد، ص ٣٥-٤٠ &

Amedroz, 'The Marwanid Dynasty at Myafariqin in the Tenth and Eleventh Centuries' Journal of Royal Asiatic Society, pp.123-154.

<sup>٥٣</sup> Kennedy, 'The Prophet and the Age of Caliphate, p.262.

يعتبر نيكتين (بالانسجام مع النزعة الارمنية في "أرمنة" كُردستان) المدن الكُردستانية مدناً أرمنية. لو قرأ بدقة كتاب نيكتين (الكُرد، دراسة سوسولوجية وتاريخية) خاصة الفصلين التاسع والعاشر، لتبين انه يريد إقناع القارئ بان النخب الحاكمة هي وحدها كُردية في الإمارة الشدادية والمروانية والراودية، أما سكان الإمارات فانهم أرمن بشكل عام. بتعبير آخر، ينفي نيكتين الخصوصية الكُردية لمعظم الإمارات الكُردية. وهذا النمط ما زال يُمارس من قبل المؤرخين الأرمن وبعض الأوربيين، الذين يشددون على "أرمنية" كُردستان الشمالية من حيث التاريخ والجغرافية والثقافة وعرق السكان.

التركية البدوية، اضطروا إلى القبول بالإمارة المروانية بوصفها كياناً حازماً.<sup>٤٤</sup> لكن المروانيين أنفسهم أولوا علاقاتهم الخارجية أهمية كبيرة. فقد وطدوا علاقاتهم الودية مع القوى الإسلامية الكبرى وكذلك مع البيزنطيين. فلم يمنع قبول المروانيين بالخلافة العباسية في بغداد من إقامة علاقات ودية مع غريماتها الدولة الفاطمية في القاهرة. ودخلت الإمارة المروانية مرحلة التدهور المستمر نتيجة لتضافر عوامل داخلية كالانقسامات السياسية وازدياد الضغوط الخارجية. شكل الاحتلال السلجوقي لمدينة ديار بكر في عامي ١٠٨٥-١٠٨٦ ضربة مؤلمة لسلطة المروانية التي اختفت من الوجود في عام ١١١٧. في تلك المرحلة، قام السلطان السلجوقي سنجر بتشكيل ولاية كبيرة جديدة تحت سلطته المباشرة عن طريق دمج مناطق كردية واسعة امتدت من أذربيجان في الشمال إلى لرستان في الجنوب. وقد أطلق سنجر اسم كردستان على هذه الولاية بمعنى بلد الكرد.

إن من أهم سمات النظام الإماراتي الأول هو عدم وقوع مركز السلطة السياسية في المدن، باستثناء الإمارة الشدادية. لقد تركزت قوة الأمراء العسكرية والمالية في قلاع حصينة كانت تشرف على طرق برية مهمة تربط أجزاء مختلفة من بلاد فارس مع ميسوبوتاميا وأناضوليا. يبدو إن الأمراء الكرد عدوا المدينة هدفاً عسكرياً سهلاً بالنسبة إلى الغزاة مقارنة بقلاعهم الجبلية الحصينة. وبما إن القبائل الكردية الرحل شكلت العمود الفقري السياسي والعسكري للإمارة فإن من المنطقي أن تحوي المناطق الجبلية مركز الإمارة السياسي خصوصاً لوجود المراعي الطبيعية فيها والتي تحتاجها القبائل لأغنامها ومواشيها. لكن هذا لا يعني أن غالبية الكرد كانوا من القبائل الرحل لأن الكثير من الكرد استقروا في القرى والمدن في أرجاء كردستان. وكانت معظم تلك المدن والقرى تحت سلطة الأمراء الكرد سواء بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر مثل آمد وميفارقين وملازكرد وبتليس واخلات وكرمسين وسيرت. الجدير بالذكر هو إن أعضاء العائلة المروانية انتموا إلى الحضر الذين جاءوا من قرية قرب مدينة سيرت.

بسبب قلة المصادر يعرف القليل فقط عن البنية السياسية والإدارية للنظام الإماراتي الأول. برغم ذلك، يمكن القول بان أسلوب إدارة الإمارة كان بدائياً. ففي

<sup>٤٤</sup> المصدر السابق، ص ٢٦٤.

كتابه "The Prophet and the Age of Caliphate" يعطي هيو كندي بعض المعلومات القيمة عن البنية الإدارية للإمارة. فقد لاحظ كندي إن الإدارة في الإمارة المروانية كانت أكثر تطوراً من تلك التي عند الإمارات المعاصرة الأخرى. ففي الإمارة المروانية، كانت مهمة الوزير الأول التنظيم والإشراف على العلاقات بين الحاكم والرعية. كما كانت المدن تدفع إلى الأمير المرواني ضرائب طبقاً لاتفاقيات تعقد مع الوزير. كانت مهمة حامل منصب عريض الجيش إدارة شؤون الجيش المرواني.<sup>٥٥</sup>

على الرغم من تاريخها المضطرب، لم تكن الإمارات الكردية في وضع فوضوي كما تبدو من الوهلة الأولى.<sup>٥٦</sup> فالمؤرخان الكرديان ابن الأثير وابن الأزرقي مثلاً يثنيان بكثرة على عهد ناصر الدولة أحمد بن مروان<sup>٥٧</sup> الذي حكم إمارته زهاء نصف قرن (١٠١١-١٠٦١). ففي ظل حكم هذا الأمير تمتعت مدن دياربكر وحسنكيف وميافارقين بازدهار مادي كبير وحياة ثقافية مفعمة بالحياة.<sup>٥٨</sup> في كتابه "الكامل في التاريخ"، يتحدث ابن الأثير عن سيادة الأمن والعدالة في أرجاء الإمارة المروانية كافة. كما تحدث ابن الأزرقي هو الآخر عن العديد من المشاريع العامة التي أقيمت في عهد الأمير نصر الدولة المرواني. فمن جملة هذه المشاريع، تزويد مياه الشرب من خلال مد أنابيب إلى مدينة ميافارقين وبناء جدرانها وكذلك إقامة عدد من الجسور الجديدة. كما كان هذا الأمير يوزع الحبوب بين الفقراء، ويخفض الضرائب عن أبناء المدن. وبنى نصر الدولة مستشفى ومسجداً وحمامات عامة ومحطات استراحة للحجاج.<sup>٥٩</sup> أدت كل هذه الخطوات وفي ظل علاقات الأمير نصر الدولة الجيدة مع مختلف القوى الكبيرة مثل البزنطيين والعباسيين والفاطميين إلى ازدهار مدني كبير. وتجلت ذلك الازدهار في الزيادة الكبيرة في النشاط التجاري وتراكم الثروات عند التجار المحليين. وجذبت

<sup>٥٥</sup> المصدر السابق، ص ٢٥١-٢٦٦.

<sup>٥٦</sup> المصدر السابق.

<sup>٥٧</sup> يسمي نيكيتين هذا الأمير بأبي نصر أحمد، نيكيتين، الكردي، ص ٢٨٤.

<sup>٥٨</sup> Bosworth, The Political and Dynastic History of the Iranian World, A.D. 1000-1217', p.24.

<sup>٥٩</sup> المزيد من التفاصيل في

Amedroz, The Marwanid Dynasty at Myafariqin in the Tenth and Eleventh Centuries', pp.123-154 & Paul A. Blaum, 'A History of the Kurdish Marwanid Dynasty, A.B. 983-1083' in The International Journal of Kurdish Studies, The Kurdish Library, vol.6, 1993.

الإمارة المروانية اليها العديد من العلماء والشعراء ورجال الدين بفضل أسباب الأمن والتسامح الديني.

لم ينطبق حسن الإدارة على الأمير نصر الدولة فحسب وإنما على عدد آخر من الأمراء الكُرد، الذين أقاموا روابط حسنة مع نخب المدينة. دخل بعض الأمراء في علاقة شركة مع تجار المدن. ووصف مؤرخو القرون الوسطى مثلاً الأمير بدر بن حسنوية بأنه أنموذج للحاكم المسلم بسبب كرمه وعدالته خلال سنوات حكمه ٩٨٣-١٠١٤. وقد دافع هذا الأمير عن المزارعين ضد القبائل الكُردية التي كان ينتمي إليها. كما بنى هذا الأمير سوقاً عاماً في مدينة همدان بغية التعجيل بازدهارها المادي. ووصلت سمعة الأمير بدر ذروتها عندما مول رحلات الحجاج إلى العراق ووفر الحماية والأمن للطرق التي كانوا يتخذونها.<sup>٦٠</sup>

## نشوء النظام الإماراتي الثاني

### السمات الرئيسية

أصبحت للإمارات الكُردية قيمة إستراتيجية جديدة نتيجة لبروز الدولة السلجوقية قوة كبرى من جهة الشرق والتوسع الإقليمي للإمبراطورية البيزنطينية من جهة الغرب، حيث أصبحت حزاماً جغرافياً واسعاً يفصل هاتين القوتين بعضهما عن بعض. هذا العامل الجيوسياسي غير المناسب يفسر لماذا كان للإمارات الكُردية تاريخ مضطرب بين القرنين العاشر والثاني عشر. وهذا العامل مسؤول أيضاً إلى حد كبير عن سقوط النظام الإماراتي الأول. وفي المدة الزمنية نفسها تقريباً، بدأ نظام إماراتي جديد ينمو ويتطور. فعلى النقيض من النظام القديم، أسس الكُرد المستقرون النظام الإماراتي الثاني، حيث عكس هذا الأمر ازدياد نسبتهم بين سكان المناطق الكُردية. فقد استطاعت المدن الكُردية مثل دياربكر وبتليس وجزيرة والعمادية التخلص من دورها الهامشي لتتخذ دوراً مركزياً في الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية. لهذا السبب ارتبطت شهرة العديد من السلالات الحاكمة الجديدة بمدنها مثل بتليس وخرنو

<sup>٦٠</sup> Kennedy, The Prophet and the Age of Caliphate, p253.



وجزيرة، بينما تميزت بعض السلالات الحاكمة الجديدة بالقبائل المستقرة التي انتموا إليها، مثل سوران وبابان.<sup>٦١</sup>

باستثناء بابان وبازوكي، لم تأت غالبية السلالات الحاكمة الجديدة من خلفية عسكرية. ففي تلك الأوقات، كانت ظاهرة عامة في الكثير من مناطق الشرق الأوسط أن يحول بعض من القادة العسكريين إقطاعياتهم إلى كيانات مستقلة أو شبه مستقلة. فقد تعودت الحكومات المركزية على منح مثل هذه الإقطاعيات إلى القادة العسكريين المتميزين مكافأة على خدماتهم العسكرية أو ليتم من خلالها تأمين ولائه السياسي لها. بمرور الزمن، غالباً ما أسس هؤلاء القادة كيانات سياسية حالما تدهورت قوة السلطة المركزية. في كردستان، جاء مؤسسو الإمارات الجديدة من خلفيات اجتماعية متنوعة. فمؤسسو إمارة مرداسي وتارجي وسويدي كانوا من رجال الدين، بينما جاء حكام الإمارة الاردلانية من أصول فلاحية.<sup>٦٢</sup> والملاحظ ان ادعاءات مماثلة قد اطلقت في أوروبا حيث ادعى حُكام دويلات وكيانات صغيرة حديثة التكوين شكّلت خلال انهيار الممالك الكبيرة أو في أعقاب ذلك بانتمائهم إلى اسر معروفة قديمة بغية إضفاء شرعية وأهمية متميزة على السلطة التي قاموا باستحداثها في مناطقهم.

لقد احتل الكُرد الرحل المقعد الخلفي في ظل النظام الإماراتي الجديد، في حين أصبح الكُرد المستقرون القوة الرئيسية في حياة الإمارات الجديدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. أثبتت الإمارات الجديدة أنها مرنة أكثر بكثير من سابقتها في التغلب على الضغوط الخارجية والأزمات الداخلية، كذلك في تكيفها مع الشرائط الإقليمية المتغيرة. فبالمقارنة مع الوجود الزمني القصير للإمارات السابقة، ظلت الكثير من السلالات الحاكمة الجديدة كالاردلانية والسورانية والبادينانية والبتوانية تحكم عدة قرون. وطوال هذه المدة الزمنية الطويلة، استطاعت تلك الإمارات التغلب على سلسلة من التحديات الداخلية والخارجية كوقوع أزمات خلافة الحكم والتعرض إلى غزوات أجنبية مدمرة من الجهات الشرقية. كما ساعد عمر هذه الإمارات الطويل على أن تلعب دوراً مهماً في بلورة هوية ثقافية متميزة للكُرد وان تؤثر بشكل كبير في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للكُرد.

<sup>٦١</sup> بتليسي، شرفنامه، ص ١٧.

<sup>٦٢</sup> Rich, Narrative of a Resident in Kurdistan, p.214.

هناك ثلاثة عوامل مهمة تفسر معاً لماذا أصبحت الحكومات المستقلة وشبه المستقلة هي السمة الغالبة في تاريخ كردستان ما بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع عشر. أولاً، تمتعت كردستان بصفات طبيعية متميزة مثل وجود سلاسل جبلية وعرة ومناخ بارد قارس بالمقارنة مع الأقاليم المجاورة وأنظمة نهريّة معقدة. فكل هذه الخصائص الطبيعية، فضلاً عن موقع كردستان الجيوسياسي بوصفها حزاماً إستراتيجياً يفصل بلاد فارس وأناضولياً ومنطقة القوقاز وميسوبوتامياً بعضها عن بعض، جعلت من الكرد عاملاً مهماً في التأثير في ميزان القوة العسكرية في تلك المناطق (سيتم بحث هذه النقطة بشيء من التفصيل في القسم التالي). أما العامل الثاني فهو عداء الكرد التقليدي للحكم الأجنبي المباشر، الحقيقة التي جسدت نفسها في الانتفاضات المتواصلة ضد السلطات المركزية خلال عهد الإمبراطوريات الإسلامية الأولى ما بين القرن السابع والقرن العاشر.

وأخيراً، دخل مفهوم جديد إلى الحياة الكردية السياسية والثقافية، وهو «الشرعية السياسية». فقد مد هذا المفهوم جذوره بسرعة في المجتمعات الكردية بسبب سيادة العلاقات الأبوية الاجتماعية-الاقتصادية والمفاهيم الدينية. إذا أخذت بنظر الاعتبار حقيقة أن السلالات الحاكمة في الدول السابقة أو المعاصرة بنت حقها في الحكم على أساس ديني، فإنه يمكن القول أن السلالات الكردية الحاكمة الجديدة كانت أيضاً واعية تماماً بأهمية الطريقة التي سينظر الكرد إلى سلطانها. بعبارة أخرى، ادعاء الأمير الكردي بأنه ينتمي إلى أصول نبيلة (ادعى غالبية الأمراء الكرد انتسابهم إلى عائلات إسلامية عريقة وكبيرة سابقة) كان أهم وسيلة يستطيع من خلالها تعزيز سلطته السياسية والاقتصادية وأحقية أبنائه في الحكم من بعده. لعل وجود صلات القرابة بين عدة سلالات كردية حاكمة (كتلك التي كانت بين حكام بوتان ومحمودي أو ما بين حكام هكاري وبادينان) ساعد على ترسيخ مفهوم الشرعية في المناطق الكردية.

ساعد مفهوم الشرعية السياسية الأمراء الكرد وخلفائهم في إعطاء سلطتهم ميزات فريدة في نظر عامة الناس، أبرزها فكرة حيادية الأمير كحاكم لا يمثل مصلحة مجموعة بشرية محددة وإنما مصالح كافة القبائل والشرائح الاجتماعية. هذا الوهم حول حيادية الحاكم أضفى جاذبية شديدة (charisma) إلى شخصية الأمير، حيث

عده عامة الناس قائدا بالفطرة. لهذا نرى طوال التاريخ الكُردستاني ما بين القرنين الثالث عشر والتاسع عشر أبدى الكُرد، بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية، ولاء غير مشروط وصريح إلى السلالات الأميرية الكُردية بدلا عن الخلفاء أو السلاطين أو الملوك الأجانب. فكما سيشرح لاحقا، ان هذا الأمر يعلل بشكل رئيس لماذا لم يكن في مقدور هؤلاء الحكام الأجانب ان يستبدلوا السلالات الكُردية الأميرية بمجموعات محلية متعاونة، بوصف ذلك طريقة تساعد في تعزيز هيمنتهم في المناطق الكُردية على المدى البعيد. نظر الكُرد بزهو إلى السلالات الأميرية المعروفة كما لو عدوها هدايا سماوية، لأنها عززت من منزلتهم وسمعتهم أمام الآخرين. لقد ادعى أمراء بتليس وبادينان وجمشكرك بأنهم انحدروا من الخلفاء العباسيين.<sup>٦٣</sup> وارجع أمراء سليمان أصولهم إلى الخليفة الأموي الأخير مروان الثاني. وادعى أمراء الجزيرة بأنهم انحدروا من خالد ابن الوليد. وأسس أحد أمراء العائلة الأيوبية إمارة حسنكيف، مباشرة بعد اختفاء سلطتها من الشرق الأوسط في ١٢٦٣. وكان أمراء شيروان يؤكدون انهم انحدروا من وزراء الدولة الأيوبية، في حين أرجعت السلالة الاردلانية نسبها إلى شخص صلاح الدين مؤسس الإمبراطورية الأيوبية في مصر عن طريق إحدى النساء الأيوبيات.<sup>٦٤</sup> لكن أمراء برادوست ومحمودي ارجعوا أصولهم إلى السلالات الحاكمة الكُردية السابقة الحسنية والمروانية على التوالي. أخيرا، ادعى أمراء ساسون وسويدي وبتليس أنهم انحدروا من إحدى السلالات الفارسية السابقة.<sup>٦٥</sup>

<sup>٦٣</sup> يقول محفوظ محمد عمر، وهو أحد الكتاب العرب العراقيين، بأنه بعد انتهاء خلافتهم في بغداد، استطاع العباسيون ان يؤسسوا ثلاث إمارات في هكاري وشمدينان وبادينان. فهو ينظر الى هذه الإمارات باعتبارها دولا عباسية وعراقية لأنها تمثل امتداداً الى الحكم العربي-العباسي. انظر الى: محفوظ محمد عمر، "إمارة بادينان العباسية"، (الموصل: ١٩٦٩)، ص٣. يتناقض هذا التفسير السطحي مع أمثلة تاريخية عديدة متشابهة. فلقد تعود الألمان قبل وحدتهم السياسية على تزويد عدة بلدان أوربية بملوك وأمراء بطلب منها بهدف إقامة سلالات حاكمة جديدة. فالليونانيون في سبيل المثال جلبوا أميراً ألمانياً من اجل ان يحكم دولتهم الجديدة بعد نيل استقلالهم من الأتراك في عام ١٨٣٠، ولم يجعل هذا الامر من اليونان دولة المانية. من المعروف ان الأصل الألماني قد جمع العديد من السلالات الأوربية الحاكمة ما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين، كبريطانيا وأسبانيا.

<sup>٦٤</sup>John Malcolm, John Malcolm's History of Persia, Edited and Adopted by M.H. Corrt, (Lahur: 1888), p.73.

<sup>٦٥</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص١٠٢، ١١٠، ١١٨، ١٤٥، ١٥٨، ٢٢٣، ٢٥٧، ٢٩١، ٢٩٦، ٣٧٥.

والملاحظ ان الإمارة كانت اكبر من حيث المساحة في النظام الإماراتي الأول منها في النظام الإماراتي الثاني. ولربما يفسر ذلك قوة العلاقة بين أعضاء معظم الأسر الحاكمة في النظام الإماراتي الأول والمستندة إلى التضامن القبلي - البدوي الداخلي الذي كان يجعل من الصعب على القوى الخارجية التدخل في شؤون الإمارة الداخلية. ولكن للإمارة في النظامين الأول والثاني سمة مشتركة وهي ان الأسرة الأميرية الحاكمة فيها لم تستمد شرعيتها من الخارج في صيغة فرمان أو أمر أصدره سلطان أو شاه يقضي بتعيين اعضائها موظفين إمبراطوريين. لقد شكّلت الإمارات بمبادرات فردية مستقلة استغلت أوضاعاً سياسية واجتماعية استثنائية كانت قد نجمت عن تدهور نفوذ السلطة المركزية في المملكات الكبيرة المجاورة.

كان لمفهوم الشرعية أهمية سياسية وتاريخية تعدت مرحلة تشكيل الإمارات. ويفسر هذا الأمر قدرة غالبية الإمارات الكردية على الظهور من جديد بقيادة أمراء ينتمون إلى السلالة الأميرية نفسها، بعد ان تم حلها من قبل الغزاة الأجانب. ويحتوي التاريخ الكردستاني عدة تجارب تبين الكيفية التي بواسطتها تم تطبيق مفهوم الشرعية. لقد وفق عدد من الحكام الغزاة بين سياساتهم والإرث السياسي الموجود في كردستان من خلال الاعتراف بسلطة الأمير الكردي مقابل تقديم ولائه السياسي إليهم. فبفضل هذه الترتيبات استطاع الأمراء الفضلاويون حماية الحكم الذاتي في لرستان الصغرى والكبرى عن طريق قبولهم بالسلطة الاسمية للمغول خلال عهد هولاكو (١٢١٧-١٢٦٥). فلم يحاول هولاكو ولا خلفاؤه ان يفرضوا حكماً مغولياً مباشراً على المناطق اللورية من خلال تعيين حكام مغول. وحدد المغول تدخلاتهم بمسألة اختيار مرشح مناسب لهم من أبناء العائلة الكردية الحاكمة نفسها. حتى انهم ابقوا على الحكم الذاتي في المناطق اللورية برغم قمعهم الشرس لانتفاضة قام بها أحد الأمراء المحليين.<sup>٦٦</sup> يبدو ان المغول لم يعترضوا على محاولات أمير اردلاني في توسيع سلطته إلى مناطق شهرزور وحرير والعمادية في كردستان الجنوبية.<sup>٦٧</sup> كما لجأ التتار خلال عهد تيمورلنك (١٤٠٥-١٣٣٦) وابنه شاهروخ إلى السياسة نفسها التي اتبعها

<sup>٦٦</sup> المصدر السابق، ص ٢٩-٣١، ٤٢.

<sup>٦٧</sup> ميرزا شكر سنندجي، "تحفه ناصرى در تاريخ و جغرافياى كردستان"، (تهران: امير كبير ١٩٨٧)،

المغول تجاه الإمارات الكُردية، حتى ان تيمورلنك لم يحاول إلغاء النظام الإماراتي القائم بالرغم من المقاومة الشديدة التي أبداهَا الكُرد خلال زحف جيوشه على كُردستان أو بعد قمعه للانتفاضات الكُردية في هكاري (١٣٨٥) و لرستان (١٣٩٣) وجزيرة (١٣٩٤-١٣٩٥).<sup>٦٨</sup>

في حين اخذ المغول والتتر بنظر الاعتبار أهمية السلطات التقليدية للسلالات الحاكمة المحلية في كُردستان، لم يرض بعض الغزاة إلا بفرض حكم مباشر على المناطق الكُردية، مثل الاق قينلو (دولة الخروف الأبيض)، والصفويين في عهد إسماعيل الأول (١٤٨٧-١٥١٨). لقد اتخذ الاق قينلو سياسة كُردية متشددة استهدفت إبادة جميع السلالات الكُردية الحاكمة كتلك التي حكمت جزيرة،<sup>٦٩</sup> وتنصيب حكام أترك بدلاً عنهم في كُردستان. برهنت هذه السياسة المتشددة خطورتها على الاق قينلو عندما بدأ الكُرد بدعم منافسيهم، أي القرقوينلو (أصحاب دولة الخروف الأسود). واتخذ شاه إسماعيل الأول سياسة شبيهة بتلك التي تبناها الاق قينلو. فبعد ان فرض سيطرته على معظم المناطق الكُردية، قام إسماعيل بسجن العديد من الأمراء الكُرد في عاصمته كأمير بتليس وجزيرة وحسنكيف. لم تكن لهذه الأساليب في فرض حكم صفوي مباشر إلا نتائج معاكسة حيث قاوم الكُرد هذا الوضع بكافة الوسائل بضمنها إقامة تحالف سياسي وعسكري مع العثمانيين الأتراك، أدت في نهاية المطاف إلى إحياء جميع الإمارات الملغاة.<sup>٧٠</sup> وكلما حاول الأتراك العثمانيون هم أيضاً إلغاء الإمارات الكُردية في كُردستان الجنوبية واجهوا مقاومة شديدة أدت في النهاية إلى إحياء الإمارات الملغية. فمثلاً، استطاع الكُرد إفشال تدخل سلطان سليمان الأول (١٤٩٤-١٥٦٦) العسكرية من اجل إلغاء إمارة سوران.<sup>٧١</sup> وفي كُردستان الشمالية، تاريخ إمارة بتليس الطويل، الذي يمتد إلى ثمانية قرون،<sup>٧٢</sup> مليئة بأحداث

<sup>٦٨</sup> بتليسي، "شرقنامه"، ص ٣٣، ٨٧-٨٨، ١١٧-١١٨.

<sup>٦٩</sup> المصدر السابق، ص ١١٩.

<sup>٧٠</sup> المصدر السابق، ص ٥٠-٥٣ و ١٢١ و ١٦٣-١٦٤ و ٤٢٥.

<sup>٧١</sup> المصدر السابق، ص ٢٧٢-٢٧٤.

<sup>٧٢</sup> باستثناء بعض الانقطاعات الزمنية. المصدر السابق، ص ٣٧٥-٣٩٣.

عديدة افضل خلالها سكانها الكُرد محاولات كثيرة قامت بها مختلف القوى الخارجية  
بضمناها العثمانيون<sup>٧٢</sup> لتحطيم سلطة السلالة الأميرية المحلية.

### جغرافية كردستان السياسية وتأثيراتها الأولية على وضع الإمارات

يتفق أغلبية الباحثين الكُرد والأجانب على ان وضعية كردستان الجيوسياسية لعبت دوراً مؤثراً في تقرير مصيرها السياسي. لو اخذ بنظر الاعتبار حقيقة ان كردستان كانت مسرحاً لسلسلة من الحروب الطويلة المدمرة ما بين إمبراطوريات متنافسة على مدى القرون وبوابة لغزوات كاسحة من مختلف الجهات خاصة الشرق، فانه أمر لافت للنظر ان تعيش أغلبية المناطق الكُردية في حالة مستقلة أو شبه مستقلة في ظل زعامات محلية وراثية حتى منتصف القرن التاسع عشر، باستثناء بعض الانقطاع. ان واحداً من أهم العوامل التي ساعدت سلالات كُردية معينة، كتلك التي حكمت بتليس وهكاري واردلان وبابان، على الاحتفاظ بسلطتها أو استعادتها وقوع الإمارات التي حكمتها على أطراف دول قوية مجاورة. فوق ذلك، تمتعت الكثير من مناطق كردستان بجبال منيعة جعلتها موانع طبيعية تفصل بين الدول القوية المجاورة.

لقد تنبه بعض الحكام الأجانب بسرعة إلى أهمية كردستان الإستراتيجية. فبرغم سمعتهم السيئة في التدمير والقسوة، تجنب الغزاة المغول والتتر فرض حكم مباشر عليها. لو حدث هذا الأمر لتحولت كردستان الى منطقة تمرد تهدد باستمرار أمنهم في بلاد فارس وميسوبوتاميا. فكما تم ذكره آنفاً، لم يتعرض هولاكو وتيمورلنك وخلفاؤهم للكيانات الكُردية عامة التي صادفوها في طريقهم لفتح آسيا الصغرى وميسوبوتاميا وسوريا. وتبنى القرقوينلو سياسة متسامحة تجاه الكُرد أكثر من خصومهم الاق قينلو. في النهاية، لم يستطع أي من الطرفين ضمان ولاء الكُرد له حيث ظلوا تواقين إلى حكم النخب السياسية المحلية التقليدية.

<sup>٧٢</sup> لقد قاوم أهالي بتليس سياسة الضم التي مارسها العثمانيين. وفي إحدى المرات ورغم قتل الأتراك للأمير شرف استطاع الاهالي إحياء إمارتهم بعد مدة زمنية. المصدر السابق، ص ٤٣٨.

وتعززت أهمية كردستان العسكرية في أعين الغزاة الأجانب لكونها مصدراً لمقاتلين ماهرين من الممكن استخدامهم في فتوحات خارجية. ويعلل هذا الأمر اسهام فرسان أمراء بتليس وهكاري وخيزان مثلاً في غزوات التتار في عهد شاهروخ.<sup>٧٤</sup> وفي أعقاب بروز دولتين قويتين جديدتين الصفوية والعثمانية في الشرق الأوسط، اتخذ الدور العسكري الذي يمكن للكرد ان يلعبوه بعداً جديداً بسبب نشوء صراع كبير بين هاتين القوتين المتعاديتين من اجل الهيمنة. وكان لتحالف الكرد وتعاونهم مع هذا الطرف أو ذاك تأثيرات مباشرة في نتائج الكثير من المواجهات العسكرية بين الإيرانيين والأتراك العثمانيين. فكما يبين تاريخ الحروب الصفوية- العثمانية الأولى في القرن السادس عشر، كان لمسألة ضمان تعاون الأمراء الكرد مع الأطراف المتحاربة دور مباشر في سير المعارك. فبمساعدة الكرد وأمراءهم، تمكن جيش السلطان سليم الأول (١٤٧٠-١٥٢٠) من ان يلحق هزيمة نكراء بقوات الشاه إسماعيل الأول الصفوي في موقعة جالديران (١٥١٤-١٥١٥). في الأعوام اللاحقة، استطاعت الجيوش العثمانية من احتلال ميسوبوتاميا مرتين بمساعدة عدد من الإمارات الكردية.<sup>٧٥</sup>

لم تكن القيمة العسكرية للكرد مسألة طارئة، إذا اخذت بالحسبان درجة التطور المتواضعة للتكنولوجيا العسكرية ولطرق الاتصالات والنقل في تلك الأزمنة. فهذه العوامل جعلت أي محاولة غزو عبر الأقاليم الكردية الطويلة والوعرة أمراً شاقاً للغاية من حيث الجهد الإنساني والنفقات المالية. تلك كانت أسباب محاولات الأتراك والإيرانيين كسب الأمراء الكرد إلى صفوفهم أو في الأقل تحييدهم في حروبهم الثنائية خاصة أولئك الأمراء الذين أشرفت مناطقهم على خطوط المواجهة أو على الطرق البرية الإستراتيجية. لم يكن الأمراء غافلين عن خصوصية الوضعية التي تمكنهم من إدامة سلطتهم المتوارثة مادام كلا الطرفين، الإيرانيين وخصومهم الأتراك، لا يقبلون بالوضع السياسي الإقليمي العام وميزان القوة العسكرية القائم. وأما الإمارات المسيطرة على الطرق الإستراتيجية أو المطلة على الحدود الفاصلة بين الدولتين العثمانية والصفوية فقد امتلكت خيارين: أما ان تؤمن سلامة تلك الطرق وان

<sup>٧٤</sup> المصدر السابق، ص١٤٩.

<sup>٧٥</sup> Maria T. O'Shea, 'The Question of Kurdistan and Iran's International Borders' in The Boundaries of Modern Iran. ed. Keith Mclachlan. (London: UCL Press, 1992), p.51.

تحمي تلك الحدود واما ان تساعد إحدى تلك الدولتين على تغيير فرض سيطرتها عليها. في الحالة الأولى، تعطي الإمارات الكُردية السلطات المركزية في تبريز او استنبول فرصة تخفيض التزاماتها العسكرية ونفقاتها المالية. وفي الحالة الثانية، تمنح الإمارات الكُردية الجيوش المركزية عنصر المباغنة، وفرصة الاستفادة من خدمات مئات من الفرسان المحليين المهرة الذين يعرفون المسالك والطرق الجبلية وأساليب القتال فيها. لكل هذه الأسباب ازدادت قيمة الإمارات العسكرية كثيراً خلال التنافس العثماني - الصفوي من اجل الهيمنة على الشرق الأوسط.

في كتاب رحلاته الشهيرة "سياحتنامه"، يلقي الرحالة التركي أولياء جلبي بعض الضوء على الأهمية العسكرية لعدد من الإمارات الكُردية في القرن السابع عشر. فيشير جلبي إلى وجود نحو ٧٠٠ قلعة وحصن في كُردستان الكبرى (التي تشكل اليوم كُردستان تركيا والعراق وسوريا تقريباً). فوق ذلك، يستطيع هذا الإقليم الواسع تعبئة ٥٠٠،٥٠٠ محارب في حالة اندلاع الحرب بين بلاد فارس وتركيا.<sup>٧٦</sup> لو اخذ بنظر الاعتبار التطور التكنولوجي العسكري المتواضع آنذاك فان للقلاع والحصن الكُردية قيمة عسكرية غير قليلة لأنها تشكل بؤر مقاومة عديدة لأي غزو مفاجئ يقوم به أي عدو عبر الحدود وتبطنى من تقدمها. لقد دون جلبي، الذي اهتم بشؤون كُردستان العسكرية، ملاحظات عن عدد القلاع ومواقعها في الإمارات الكُردية التي زارها. فهو يذكر مثلاً، ان لأمانة جشمكزك ٣٢ قلعة، وان في مقدره إمارتي بتليس وهكاري تزويد الإمبراطورية العثمانية بألاف المحاربين في حالة اندلاع الحرب.<sup>٧٧</sup> تبين هذه الأمثلة ان السلطات التركية مدركة للأهمية العسكرية لتلك الإمارات. والشيء نفسه ينطبق على السلطات الإيرانية في أعقاب وفاة شاه إسماعيل الأول.

ليس من المصادفة إذن، لو اخذ بنظر الاعتبار الوضعية الأنفة الذكر، ان يولي الأمراء الكُرد الاهتمام بقوة الإمارة العسكرية. فلقد انشأوا الترسانات الخاصة وأقاموا تشكيلات الفرسان العسكرية التي زودوها بالسلاح والعتاد. ولكون الأمراء الكُرد لم يعتمدوا على أي عون خارجي في تكوين وتسليح قواتهم، لم تشكل الإمارات عبئاً مالياً على الخزينة المركزية في إيران أو تركيا. لقد خصص الأمير الكُردي موارد كبيرة

<sup>٧٦</sup>Celebi, Seyahatname, pp.90-92.

<sup>٧٧</sup>Celebi, Seyahatname, pp.106-108 & 208.



للغايات العسكرية بسبب الأوضاع السياسية المحيطة بإمارته. لكن الحروب الإيرانية- التركية المتواصلة عبر القرون استنفدت موارد كُردستان البشرية والمالية (التفاصيل في الأقسام القادمة). سعى الأتراك والإيرانيون أن ينظموا روابطهم الثنائية مع الأمراء الكُرد طبقاً لشروط عسكرية معينة. ويتفق بهذا الخصوص بتليسي وجلبي على أنه كان على الإمارات المتحالفة مع السلطة المركزية أن ترسل قواتها من الفرسان في حالة اندلاع الحرب. لكنهم أيضاً يتفقون على أن قيادة تلك القوات كانت بيد الأمراء أنفسهم.

### بعض من جوانب السياسة الصفوية في كردستان

ما بين القرن السابع، أي حينما بدأت الفتوحات العربية الإسلامي ونهاية القرن الخامس عشر، كانت إيران أما جزءاً من إمبراطوريات ومملكات كبيرة وأما مجزئة بين عدة كيانات. وقد ساعد غياب دولة كبيرة في إيران على نشوء إمارات كبيرة في كُردستان في منتصف القرن العاشر. ولكن قيام الدولة الصفوية في بداية القرن السادس عشر والتوسع العثماني الإقليمي في آسيا الصغرى أدى إلى تغيير الموقع الجيوسياسي لكُردستان وقد أثر ذلك الأمر في أوضاعها السياسية، إذ لم يعد بالإمكان إنشاء إمارات كبيرة في الوقت الذي تقلصت المساحة الجغرافية للإمارات الكبيرة التي كانت قائمة حتى تلك الفترة. لقد فقدت إمارة اردلان، مثلاً، أقاليمها الغربية التي شكلت الجزء الأكبر من كُردستان الجنوبية، خلال القرن السادس عشر.

يرجع أصل كلمة الصفوي أو الصفوية إلى اسم أحد شيوخ الصوفيين يدعى صفي الذي أقام مركزاً له في مدينة اردبيل في أذربيجان الإيرانية في بداية القرن الرابع عشر. استطاع شيوخ الصوفية بعد ذلك كسب ولاء أعداد كبيرة من القبائل التركمانية الأذربيجانية في المناطق المجاورة. في منتصف القرن التالي، تحولت الطريقة الصفوية إلى حركة اجتماعية جامحة تحت قيادة الشيخ جُنيد، الذي قام بتعبئة أبناء القبائل التركمانية في غزوات دينية ضد المسيحيين في طرابزون على سواحل البحر الأسود وكذلك في جورجيا. بعد مقتل جُنيد في إحدى الغزوات تولى ابنه حيدر القيادة، وخلال عهده انتشر استعمال كلمة القزلباش التي أطلقت على المحاربين القبليين الصفويين. وتعني كلمة القزلباش بالتركمانية عصابة الرأس

الحمراء التي كانت يرتديها المحارب الصفوي والتي حملت اثنتي عشرة قطعة مثلثة الشكل بالتناسب مع عدد الأئمة الشيعية.

بعد مقتل حيدر، استلم ابنه إسماعيل قيادة القزلباش. قام الأخير باستغلال فرصة انتشار الفوضى واختلال الأمن الناتجة عن اندلاع النزاعات الداخلية في اسرة الآق قوينلو الحاكمة التي كانت تسيطر على معظم مناطق إيران في تقوية قاعدته في أذربيجان. واستطاع إسماعيل إلحاق هزائم متلاحقة بقوات الآق قوينلو في المدة ١٥٠٠-١٥٠١. في اثر تحقيق هذه الانتصارات، توج إسماعيل ملكا (شاه) في العاصمة تبريز حيث اعلن فيها اتخاذ المذهب الشيعي الدين الرسمي والوحيد للدولة الصفوية الجديدة.<sup>٧٨</sup> في العقود القليلة التالية بدأت اقوام مجاورة تعتنق المذهب الشيعي ومنهم الفرس والعرب وقسم من سكان كردستان الشرقية خاصة في مناطق كرماشان وهمدان ولورستان. مع إعلان المذهب الشيعي دين الدولة الصفوية من قبل مؤسسها شاه إسماعيل أصبحت كردستان تتوسط عالَمين الشيعي في الشرق منها والسني الحنفي إلى الغرب منها. ومهد هذا إلى ان تكون كردستان ميدانا لحروب اقليمية توسعية شنت باسم المذهبين الرئيسيين، السني والشيعي.

يُمكن تقسيم السياسة الصفوية في كردستان إلى مرحلتين. تزامنت المرحلة الأولى مع عهد شاه إسماعيل (١٥٠١-١٥٢٤). كما تم ذكره سابقاً، اتخذ مؤسس الدولة الصفوية، شاه إسماعيل الأول، سياسة متشددة جدا تجاه السلالات الحاكمة الكردية في بدايات القرن السادس عشر. لقد قتل شاه إسماعيل الكثير من سكان المناطق الكردية التي استولى عليها ودمر العديد من المدن والقرى الكردية واجبر الكثير من القبائل الكردية على الرحيل من محل سكنها. وكان وراء كل هذه الأفعال الوحشية هدف سياسي وهو تدمير السلالات الأميرية وإلحاق الإمارات الكردية بامبراطوريته الجديدة. فبدلاً عن سلالات الأميرية، عين شاه إسماعيل حكاماً إيرانيين من أصول أذربيجانية في المناطق المفتوحة من كردستان. ورافق الحكم الصفوي المباشر عادة فرض ضرائب ثقيلة على السكان الذين عوملوا بوصفهم رعايا ثانويين. كانت

<sup>٧٨</sup>John Foran, *Fragile Resistance, Social Transformation in Iran from 1500 to the Revolution*, Boulder, San Francisco & Oxford: 1993, pp.19-20.

حسنكيف وجمشكزك وجزيرة من أولى الإمارات الكُردية الرئيسية التي تم إلغاؤها من قبل شاه إسماعيل. استطاعت بضع إمارات أن تنجو من عملية التدمير، اردلان مثلاً. في نفس الوقت الذي أقاموا فيه حكماً مباشراً، حاول الصفويون فرض التجانس الديني- الثقافي في كُردستان من خلال إجبار السكان الكُرد على التحول من المذهب الديني السني التقليدي إلى المذهب الشيعي المعارض. لقد أصبح المذهب الشيعي الإيديولوجيا الرسمية للدولة الصفوية الجديدة عندما جاءت إلى الوجود في عام ١٥٠٢. ان تحول السكان الفرس والأذربيجانيون من المذهب السيني إلى المذهب الشيعي كان تطوراً حديث العهد، عندما حاول الصفويون فرض المذهب الشيعي على أغلبية سكان كُردستان. كان هذا التحول المذهبي من السنية إلى الشيعية في إيران مبنياً على حسابات ذرائعية معينة، أي تزويد الحكم الصفوي بشرعية تاريخية- دينية تمكن شاه إسماعيل في الوقت نفسه من بسط سلطته إلى سائر الأقاليم الإسلامية. وأضفت المحاولات القسرية في فرض التجانس الديني طابعاً مذهبياً لمسألة اضطهاد السكان الكُرد الذين رفضت غالبيتهم اعتناق المذهب الشيعي.<sup>٧٩</sup> بهذا النحو، أدى إلغاء السلالات الحاكمة المحلية، من جهة، ومحاولة فرض المذهب الشيعي، من جهة ثانية، إلى إضفاء طابع ديني وسياسي على المقاومة الكُردية للحكم الصفوي في كُردستان بهدف إحياء الحكم الذاتي وإفشال عملية التماثل المذهبي القسري. في نهاية المطاف، قادت تلك الحسابات السياسية والدينية الأمراء الكُرد إلى التحالف عسكرياً وسياسياً مع الإمبراطورية العثمانية ذات المذهب السني من أجل إسقاط الحكم الصفوي المذهبي في كُردستان واستبداله بسلطة السلالات الكُردية الملغاة.

أما المرحلة الثانية في سياسة الدولة الصفوية فبدأت بعد هزيمتها في معركة جالديران في عام ١٥١٤-١٥١٥ التي شكلت نقطة انعطاف ملحوظة في علاقاتها مع السلالات الكُردية. فالشاهات الذين جاءوا بعد شاه إسماعيل في مقدمتهم ابنه

<sup>٧٩</sup> تحول سكان محافظتي كرماشان وايلام في إيران الحالية والجماعات الكُردية في محافظة بغداد وديالى وكوت والعمارة في العراق الحديث الى المذهب الشيعي بشكل طوعي حيث لا يوجد أي دليل يثبت استخدام القوة من قبل الصفويين ضد هؤلاء الكُرد على العكس من غالبية اخوتهم في مناطق كُردستان الأخرى. لعل قوة نفوذ فرقة العلي اللاهية بين سكان تلك المناطق ساعد كثيراً في انتشار المذهب الشيعي بسرعة بينهم.

طهماسب أدركوا ان السياسة الصفوية المتشددة والقمعية كانت السبب وراء قيام التحالف الكردي- العثماني. فلم يخسر الصفويون الجزء الأعظم من كردستان الكبرى فحسب بل اضعفوا كثيراً أمن حدودهم الغربية. لقد خفت حدة الحمى المذهبية بعض الشيء مع إحقاق العثمانيين والقوات الكردية المتحالفة معهم الهزيمة بقوات القولباش في جالديران وخاصة وفاة شاه إسماعيل في ١٥٢٤. لقد مثل التاريخ الأخير نهاية الطور الثوري الجامح الذي تدخله فيه عادة الانظمة الجديدة التي تمتلك إيديولوجية راديكالية تحاول تصديرها إلى الخارج. عكست هذه النهاية وجود إحساس عام بضرورة النظر في حاجات الدولة العملية، وذلك من خلال إعادة ترتيب أجهزتها وبنائها بعيدا عن المفاهيم الايديولوجية. وكان للوضع الجديد تأثير ملحوظ في سياسة الصفوية تجاه القيادات الكردية التقليدية سواء في المناطق الخاضعة للنفوذ الصفوي أو النفوذ العثماني. في ظل وجود تهديد دائم في التخوم الغربية في كردستان، بدأ الحكام الصفويون باتخاذ مواقف مرنة بعض الشيء تجاه عدد من الإمارات الكردية. وتمثل هذا بقبول ولائها السياسي وبقائها ضمن مناطق النفوذ الصفوي. بعبارة أخرى، كان على الصفويين التعامل مع الإمارات كأمر واقع سواء في كردستان الكبرى أو الصغرى (كردستان إيران الحالية). كان أمل الصفويين الاستعانة بالكردي حروبهم القادمة مع العثمانيين من خلال الاعتراف بحكم السلالات الكردية. وكانت المصاهرات واحدة من الأساليب السياسية التي استخدمها الصفويون في التقارب مع بعض السلالات الكردية وتأمين ولائها في المدى البعيد. فأحد أبناء شاه طهماسب (١٥٢٤-١٥٧٦) مثلاً تزوج من ابنة محمدي أمير لرستان، بينما تزوج شاه عباس من ابنته الأخرى في وقت لاحق.<sup>٨٠</sup>

استهدفت السياسة الصفوية المرنة والأقل تعصباً دينياً إلى تحقيق ثلاثة أهداف رئيسية وهي تعزيز أمن حدودهم الغربية واحتواء المحاولات العثمانية التوسعية في كردستان الصغرى وأخيراً محاولة استرجاع نفوذهم في كردستان الكبرى خاصة المناطق الغربية والجنوبية منها. أصبح الوضع السياسي أكثر تعقيداً في كردستان بسبب منافسة القوتين الجارتين والمتعاديتين في كسب الإمارات الكردية ذات الموقع الإستراتيجي إلى جانبها في مواجهاتهم العسكرية. لكن السياسة الصفوية المرنة

<sup>٨٠</sup> بتليسي "شرفنامه" ص ٥٤.

نسبياً والأقل تعصباً دينياً لا تعني في الوقت نفسه تخلي الصفويين تماماً عن محاولات القضاء على السلالات الكرديّة المحليّة. فإذا سنحت أية فرصة لهم، لم يترددوا في اتباع خطوات توسعية بصورة مبطنّة أو غير مبطنّة. ومن أولى تلك الخطوات كان فصل رجال الدولة الصفويّة إقليميّ همدان ولرستان إدارياً عن كردستان الصغرى.<sup>٨١</sup> وفي عدّة مناسبات، حاول الصفويون إلغاء بعض الإمارات الكرديّة، مثل محاولة شاه طهماسب إلغاء إمارة لرستان الصغرى. لكن الانتفاضات التالّية أدت به إلى التراجع عن خطوته تلك.<sup>٨٢</sup>

ان واحدة من أهم ثمار الجانب الذرائعي الذي بدأ يصاحب السياسة الصفويّة تجاه السلالات الكرديّة في عام ١٥٣١-١٥٣٢ هو تغيير الأمير شرفخان بتليسي تحالفه مع العثمانيين إلى عداء واقامة علاقة قويّة مع الصفويين. لقد حقق الصفويون انتصارات أكثر من خصومهم العثمانيين خلال سلسلة حروبهم التي جرت ما بين عامي ١٥٧٨ و١٦٣١ (باستثناء بعض الفواصل الزمنية). ونتيجة لذلك، استعاد الصفويون نفوذهم في عدّة مناطق من كردستان الكبرى، دون محاولة إلغاء إمارة برادوست وهكاري. وفي كردستان الصغرى، استطاع الصفويون أيضاً الحصول على دعم عسكري من عدّة أمراء في معاركهم مع العثمانيين، مثل أمراء دنبلي وكلهور وبازوكي وبانه<sup>٨٣</sup> ولعب أمراء سيامنصور دوراً عسكرياً مهماً فيما يتعلق بأمن الحدود الإيرانيّة الغربيّة. واتبع الصفويون خطى العثمانيين عندما منحوا الأمراء الكرد ألقاباً سامية بغية تقوية ولائهم السياسي لهم. فشاها إسماعيل منح لقب ميرميران (الأمير الأسمى) إلى خليل بك أحد الأمراء الكرد الذي عهدت إليه مهمة حماية الحدود الصفويّة الغربيّة.<sup>٨٤</sup> كما منح الصفويون أمراء الزنكنه مناصب سامية في جيوشهم، بعد انحلال إمارتهم.<sup>٨٥</sup> واسهم أمراء لرستان الصغرى في حملة الشاه طهماسب

<sup>٨١</sup> المصدر السابق، ص ٥٤.

<sup>٨٢</sup> المصدر السابق، ص ٥١، ٥٢ وكذلك

O'Shea, 'The Question of Kurdistan and Iran's International Borders', p.52.

<sup>٨٣</sup> كانت بانه مؤلفة من قلعتين ومقاطعة حيث انحصرت جغرافياً بين الإمارة الاردلانية والموكرانية والبايبانية. بتليسي، "شرفنامه"، ص ٣١٨-٣١٩.

<sup>٨٤</sup> المصدر السابق، ص ٣٢٩-٣٣٠.

<sup>٨٥</sup> المصدر السابق، ص ٣٣٥.

العسكرية في إقليم خراسان.<sup>٨٦</sup> باختصار، استبدلت السلطات الصفوية سياسة التدمير العلني للإمارات الكردية وتبنت بدلاً عن ذلك سياسة الضم المتكرر التدريجي وأساليب شق الصفوف بهدف توسيع وتدعيم نفوذها السياسي داخل تلك الإمارات التي يصعب السيطرة عليها.

في المدة ١٥٩٨-١٦٠٠، شكل الشاه عباس، حفيد طهماسب، جيش ملكي ثابت بغية احتواء نفوذ القبائل القزلباش السلبي على استقرار الدولة وكذلك تقوية نزعة المَرَكزة أي تقوية سلطة الحكم الملكي في مواجهة حكومات الأقاليم. وجند عباس في جيشه الجديد الفلاحين وابناء القبائل وأسرى الحروب من المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام. والملاحظ انه في الوقت الذي لم يدخل فيه عباس ومن اخلفه في الحكم الكُرد إلى شريحة بيروقراطية الدولة المركزية (التي بقت محصورة على القزلباش والاسر الفارسية المحترفة القديمة واسرى الحرب من القوقازيين الذين اعتنقوا الإسلام)، فُسح المجال أمام بعضهم للدخول إلى مناصب قيادية عسكرية. بعد انتهاء عهد الشاه عباس، استطاع عدة اسر كردية مشهورة من احتلال مناصب بارزة في الدولة والجيش، في مقدمتها الزنكنة وفي فترة تاريخية لاحقة الزند. وتكثف المقارنة لقوائم القادة العسكريين بين عامي ١٥٧٦ و١٦٢٩ عن تحول كبير في الخلفية الاثنية اذ انخفضت نسبة قادة القزلباش القبليين من الاغلبية إلى ٤٠٪. وشكل قادة القبائل غير التركمانية نسبة ٤٠٪ تقريباً، كانت اغليبيتهم من الكُرد- اللور، فضلاً عن ٢٠٪ من القوقازيين الذين كانوا اعتنقوا الإسلام بعد ان كانوا غلماناً في البلاط الملكي.<sup>٨٧</sup>

ادت عملية المَرَكزة في القرن السابع عشر، خاصة في عهد الشاه عباس، إلى تحويل الكثير من «الممالك الامبراطوية» إلى «ممالك خاصة»، أي تابعة للتاج. برغم تغير المتسميات، بقت الكثير من الأسر الأميرية الكردية تحكم أقاليمها، ولكن ارتبطت درجة استقلاليتها بضعف أو قوة الحكم المركزي. ففي عهود الملوك الأقوياء كان الحكم المركزي في موقع اقوى امام حكومة الإمارة أو حكومات بقية الاقاليم الايرانية. أما في الأوقات الأخرى، فان الإمارة وحكومات الأقاليم تمتعت بحريات واسعة في إدارة شؤونها.

<sup>٨٦</sup> المصدر السابق، ص ٤٨.

<sup>٨٧</sup> Foran, *Fragile Resistance*, p.22.

في عهد الشاه عباس، قامت الحكومة المركزية بفرض عدد من الإداريين لمساعدة الحكام في تمشية شؤون الأقاليم. تكمن مهام هؤلاء الإداريين الأساسية في إرسال التقارير عن أوضاع الأقاليم وحكامها إلى الشاه.<sup>٨٨</sup> كان على حكام الأقاليم إرسال مبالغ سنوية محدودة إلى الخزينة الملكية وكميات كبيرة من منتجات محلية ومواد خام إلى الورش الصناعية الملكية، فضلاً عن إرسال قوات محلية إلى الجيش الملكي في أوقات الحروب. مقابل ذلك، تمتع حكام الأقاليم بحرية كبيرة في جبي الضرائب المحلية وتوزيع الموارد للتابعين. بشكل عام، كان بإمكان أبناء حكام الأقاليم توارث السلطة من بعدهم. ولكن، لم يكن هناك ما يمنع الشاه الصفوي من التدخل في تعيين أشخاص آخرين في منصب الحاكم بدلا من أبناء الحاكم السابق.<sup>٨٩</sup> من الضروري في هذا الصدد التأكيد ان وضع الإمارات الكردية في كردستان الصغرى خاصة الكبيرة منها اختلف عن وضع بقية الأقاليم الإيرانية التي تمتعت بحكم ذاتي. لم يكن الأمير الكردي موظف إمبراطوري ولم يكن في الإمارة إداريين يعينهم الحكم المركزي ليرفعوا التقارير عن اوضاعها إلى الشاه، ولم يكن أيضاً في مقدور الشاه فرض افراد من خارج الأسرة الأميرية الحاكمة. وكل هذا يفسر لماذا استمر حكم بعض الأسر الأميرية عدة قرون بدون انقطاع تقريباً.

في الفترة الأخيرة من العهد الصفوي، وخاصة مع تدهور نفوذ الشاه، عانت الجماعات السنية ومنها الكرد والجماعات غير المسلمة من تعصب ديني ومذهبي مارسته المؤسسة الشيعية الرسمية. لقد ازدادت قوة علماء الدين الشيعة بدرجة لم تصبح فيه الحوزة مؤسسة مستقلة عن الدولة فحسب وإنما أيضاً أخضعتها إلى نفوذها بعد وصول ملوك صفويين ضعفاء إلى الحكم في ١٦٢٩-١٧٢٢. وكانت سيطرة علماء الدين الشيعة السياسية قد وصلت ذروتها خلال عهد شاه سليمان ١٦٦٦-١٦٩٤ وشاه سلطان حسين ١٦٩٤-١٧٢٢. وكان لذلك آثار سلبية على العلاقات الداخلية بين الجماعات الدينية والمذهبية المختلفة، بعدما شن المجتهد اية الله باقر المجلسي، اكبر رجال الدين الشيعة في اصفهان، حملة اضطهاد دينية ضد الجماعات غير المسلمة (المسيحية واليهودية والزرادشتية) ومذهبية ضد السنة

<sup>٨٨</sup>Ibid.

<sup>٨٩</sup>Ibid.

(الكرد والافغان والبلوج). وكان التعصب الديني والمذهبي السبب الرئيس لوقوع ثورات في المناطق الكردية وقيام المسيحيين والزرادتشييين بالهجرة إلى أقاليم نائية بعيدة عن سيطرة الدولة.<sup>٩٠</sup>

لم يطرأ تعديل جوهري يذكر في سياسة الدولة الإيرانية تجاه الإمارات الكردية والقائمة على ضمها تدريجياً وبصورة غير سافرة وزرع الشقاق داخلها أو فيما بينها، بالرغم من تغير السلالات الإيرانية الحاكمة. هذه السياسة استمرت في الوجود حتى منتصف القرن التاسع عشر حين تم إلغاء أردلان، آخر السلالات الأميرية في كردستان الصغرى. طبقاً إلى قول أحد شهود العيان، جون مالكوم، نادراً ما استطاع الشاهات القاجاريون التدخل في الشؤون الإدارية لأمانة أردلان. والطريقة الوحيدة التي استطاع من خلالها القاجاريون تعزيز نفوذهم كانت تدخلاتهم في أزمات الخلافة السياسية داخل العائلة الاردلانية الحاكمة عن طريق دعم أحد فروعها. تلك التدخلات الخارجية سمرت بدورها من نيران الخصومات الداخلية التي تنهك قوى الإمارة ويقود هذا بالتالي إلى ازدياد درجة اعتماد الأمراء الجدد على دعم السلطات القاجارية في حل مشاكلهم الداخلية. كان جون مالكوم ضابطاً عسكرياً بريطانياً كبيراً عمل مشرفاً في الجيش القاجاري اوائل القرن التاسع عشر. وزار مالكوم مدينة سنندج، عاصمة أردلان، والتقى بالأمير أمان الله خان في عام ١٨١٠. وكان مالكوم قد تعرف قبل ذلك على الأمير السابق خسرو خان، والد أمان الله.<sup>٩١</sup>

كان للسياسة الصفوية في كردستان الصغرى جانب خطير عبر عن نفسه في تنفيذ تغييرات ديموغرافية في المناطق الكردية المهمة لحسابات سياسية وعسكرية بعيدة المدى. فلقد تم إرغام العديد من القبائل الكردية المتمردة على ترك مناطقها واسكانها في مناف غريبة نائية تقع أغلبها على أطراف الدولة الصفوية الشرقية. في هذه المناطق الغريبة، يجد الكرد المرحلون أنفسهم في بيئة معادية حيث ينظر إليهم السكان الاصليون بوصفها امتداداً للسلطات الصفوية المركزية. ولحماية أنفسهم من الإبادة، كان على هؤلاء الكرد المنفيين إعادة تنظيمهم الاجتماعي والاعتماد على دعم

---

<sup>٩٠</sup>Said Amir Arjomand, *The Shadow of God and the Hidden Imam. Religion, Political Order and Societal Change in Shi'ite Iran from the Beginning to 1890*. Chicago & London: University of Chicago Press, 1984, pp.122 & 211.

<sup>٩١</sup>John Malcolm, *John Malcolm's History of Persia*, pp.73-74.



ممثلي السلطات المركزية، الذين كان يصب في مصلحتهم دخول القبائل الكُردية المنفية في صراعات مع السكان الأصليين الذين يصعب السيطرة عليهم أو في مواجهات مع قبائل بدوية غازية تهدد دوماً حدود الصفويين الشرقية.

حققت السلطات الصفوية جملة أهداف وراء سياسة التهجير وإعادة الاستيطان. أولاً، استخدم ترحيل القبائل الكُردية أداة لفرض سيطرة مركزية دائمة على المناطق الكُردية المتمردة يصعب على الصفويين ترويضها. ثانياً، كان التهجير أرخص الأساليب في تعزيز استقرار حدود الدولة الصفوية الغربية. أخيراً، ساعدت إعادة استيطان القبائل الكُردية المرحلة في المناطق النائية على تقوية أمن حدود الدولة الصفوية الشرقية دون تقديم التزامات عسكرية ومالية جديدة. كان شاه إسماعيل أول من لجأ إلى سياسة التهجير وإعادة استيطان الكُرد بوصف ذلك أسرع وأرخص طريقة في احتواء الخطر الداخلي والتهديدات الخارجية. واجبر شاه إسماعيل القارمانلو الكُرد مثلاً على ترك منطقتهم في كُردستان الصغرى والاستيطان في إقليم خراسان الحدودي، الذي كان معرضاً دوماً لهجمات القبائل الأوزبكية من وراء الحدود.

ربما دفع نجاح التهجير الأول في تحقيق أهدافه خلفاء إسماعيل إلى تنفيذ سلسلة من التهجير ضد الكُرد. فقد أجبر طهماسب ابنه العديد من طوائف الزنكنة وجاغني وزيك وكلهور على الرحيل إلى الإقليم الحدودي ذاته.<sup>٩٢</sup> كما أزاح شاه عباس الصفوي (١٥٧١-١٦٢٩) ٥٠٠٠٠ عائلة كُردية تقريباً من منطقة اورمية، الذين أرسلهم إلى إقليم خراسان.<sup>٩٣</sup> وتم إحلال عائلات أذربيجانية، خاصة من قبائل الأفسار، مكان الكُرد المرحلين. واستمرت سياسة تهجير الكُرد واسكان الأذربيجانيين بدلاً عنهم في منطقة اورمية حتى منتصف القرن التاسع عشر. ويذكر أحد المبشرين المسيحيين، جاستين بركينز، بهذا الصدد كيف جلب عباس ميرزا القاجاري الف («عائلة فارسية»)

<sup>٩٢</sup> كليم الله التوحيدي، "حركة كُرد بسوي خراسان"، (مشهد: ١٩٩٢)، جلد ١، ص ١٥٢.

<sup>٩٣</sup> المصدر السابق، ص ١٥٢.

(في الحقيقة تركمانية ازربايجانية) من يريفان في أرمينيا لإسكانها في اورمية بهدف السيطرة على هذه المدينة الكُردية، التي وجد فيها ٢٠٠ نسطوري آنذاك.<sup>٩٤</sup>

أنيطت مهام رئيسية لتلك القبائل الأذربيجانية كحراسة الحدود الإيرانية-التركية وقمع الانتفاضات الكُردية في المناطق القريبة. وأعطيت أراضي المهجرين وحتى غير المهجرين الكُرد إلى رؤساء القبائل الأذربيجانية من أجل إضعاف النفوذ الكُرد وتقوية ولاء تلك القبائل للدولة الإيرانية. مقارنة مع الصفويين، قام السلطان سليمان (١٥٢٠-١٥٦٦) بتوطين بعض القبائل الكُردية في المنطقة الشرقية الحدودية بغية عرقلة الغزوات الصفوية الفجائية.<sup>٩٥</sup> لكن السلطات العثمانية شجعت دوماً القبائل التركمانية على السكن في المدن الكُردستانية ذات الأهمية الإستراتيجية والتجارية كخانقين وكفري والتون كوبري وكركوك وارييل ودياربكر (التفصيل في الفصل التالي).

## الأمراء الكُرد

### وحدود السياسة الواقعية

لم يقتصر دور الإمارات الكردية على بذل كل ما في وسعها في عقد تحالفات مع إحدى الدول المجاورة ضد أخرى في صراعها من أجل البقاء. هذا التصور المبسط لا يكفي وحده في ان يفسر كيف استطاعت تلك الإمارات ان تنجو من غزوات أجنبية مختلفة حدثت على مر القرون، وان تشهد قيام وسقوط عدة إمبراطوريات وممالك مجاورة. يجب الإقرار وقبل كل شيء بدور السلالات الكُردية المتميز في صنع التاريخ الكُردستاني حتى منتصف القرن التاسع عشر. يكشف كتاب "شرفنامه" بوضوح عن ان الأمراء الكُرد كانوا مستوعبين وممارسين لما هو معروف بالسياسة الواقعية (Realpolitik)، أي استخدام الأمير سياسة ليست مبنية على المثالية وإنما على ما

<sup>٩٤</sup> The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, edited by Kamal Salibi, Yusuf K. Khoury, Amman: Royal Institute for Inter-Faith Studies; London: NABU, 1997, vol. 29, 1833, p.22.

<sup>٩٥</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٢٨.

هو ممكن ومفيد بالنسبة إليه.<sup>٩٦</sup> بعبارة أخرى، اقر الأمير الكردي بالولاء اسمياً إلى سلطان أو شاه دولة كبرى مقابل اعتراف صريح بسلطته الوراثة. هذا الاتفاق بين الطرفين غالباً ما الزم الطرفين بتقديم مساعدة عسكرية في حالة التعرض إلى غزو خارجي. كما كان على الأمير الكردي المساهمة في الحملات العسكرية للدولة المعنية ضد غريمتها. أحياناً، كان على الأمير تسديد مبلغ سنوي إلى السلطان أو الشاه. ولا بد من الذكر ان غالبية الأمراء كانوا يتخلون بسرعة عن اتفاقياتهم تلك مع الحكومات الأجنبية بتغير الوضع السياسي وميزان القوى العسكرية. كان على الأمير أما ان يستقل تماماً عن كلا الدولتين واما يغير ولاءه الاسمي. فلم يكن العامل المذهبي يمنع الأمير الكردي السنني من تحويل ولائه الاسمي من السلطان العثماني وهو الخليفة السنني إلى الشاه الصفوي الذي هو حاكم شيعي.

ما بين عامي ١٥٠٣ و ١٥١٥، تغيرت جغرافية كردستان السياسية مرتين نتيجة لإخضاع شاه إسماعيل القسم الأكبر من الإمارات الكردية إلى سلطته والتحول في مسار الفتوحات الإمبراطورية العثمانية من الغرب إلى الشرق، أي من مناطق شرق ووسط أوربا إلى مناطق الشرق الأوسط. هذا التحول في الفتوحات العثمانية جاء بعد ٢١٢ عام على تأسيس وقيام سلالة آل عثمان في نهاية القرن الثالث عشر. وطوال هذه المدة الزمنية الطويلة، حاول العثمانيون مرة واحدة احتلال آسيا الصغرى وذلك في عهد السلطان بايزيد. باءت حملتهم العسكرية بفشل ذريع عندما الحق تيمورلنك هزيمة منكرة بقوات السلطان بايزيد.<sup>٩٧</sup> وفي بداية القرن السادس عشر شكلت الدولة

<sup>٩٦</sup> ظهر مصطلح Realpolitik لأول مرة في منتصف القرن التاسع عشر في اثر فشل المثالية الرومانسية في تحقيق الوحدة الألمانية. وكان الكاتب الألماني لودويغ فون روجو اخترع هذا المصطلح في كتابه "مبادئ السياسة الواقعية". استخدم المستشار الألماني اوتو فون بيسمارك (١٨١٥-١٨٩٨) هذا النهج الذي لم يقده الى توحيد ألمانيا فحسب وإنما تحويلها الى قوة عالمية كبرى.

Hans Kung, A Global Ethic for Global Politics and Economics, Translated by John Bowden (London: SCM Press, 1997, p.21.

ويرجع تاريخ استخدام مصطلح 'Real Politics' في اللغة الإنكليزية الى عهد الحرب العالمية الأولى عندما ظهرت في كتابات الكاتب والسياسي الايرلندي جورج برنارد شو.

John Ayto, The Wordworth Dictionary of Foreign Words in English, Hertfordshire: Wordsworth Ltd, 1995), p.258.

<sup>٩٧</sup> بري اندرسون، "دولة الشرق الاستبدادية"، (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٣، ص ١٣.

الصفوية الصاعدة عائقاً بوجه توسيع النفوذ العثماني في الجهات الشرقية من الإمبراطورية. وعندما أصبحت كردستان حزاماً إستراتيجياً كبيراً يفصل القوتين بعضها عن بعض، أدرك العثمانيون أهمية الدور السياسي والعسكري للسلالات الكردية في مواجهاتهم المرتقبة مع الصفويين. لم يجد العثمانيون أية صعوبة في إقناع الأمراء الكرد في التحالف معهم في عام ١٥١٤ بسبب السياسة الصفوية المتشددة في كردستان. وساعد استمرار المواجهات العسكرية بين الدولتين المتنافستين منذ تلك السنة على تأكيد الأهمية العسكرية للسلالات الكردية من جديد.

إذن، ثمة حسابات ذرائعية هي التي حددت العلاقات التركية- الكردية الأول: بينما سعى الأمراء الكرد إلى نيل عون خارجي لتحرير إماراتهم من الوجود الصفوي، احتاج العثمانيون بنفس الطريقة إلى مساعدة الكرد العسكرية والسياسية في احتواء النفوذ الصفوي وتعزيز أمن حدودهم الشرقية. قراءة دقيقة للأحداث التاريخية المتعاقبة تشير إلى ان أياً من الطرفين لم ينظر إلى الآخر بوصفه حليفاً سياسياً وعسكرياً دائماً. في عشية المواجهة العثمانية- الصفوية العسكرية الأولى، جاء إلى الوجود تحالف واسع مناهض للصفويين ضم أغلب قادة السلالات الكردية الكبيرة منها والصغيرة الذين قرروا دعم حملة السلطان سليم الأول العسكرية ضد إيران الصفوية.<sup>٩٨</sup> تمت أولى الاتصالات بين الأمراء الكرد والسلطات العثمانية عن طريق إدريس بتليسي. كان الأخير من اصل كردي احتل منصباً رفيعاً في البلاط العثماني. يمكن، في ضوء المعلومات التي يوفرها كتاب شرفنامه، استنتاج انه لم يكن هناك أي اتفاق تحريري بين الأمراء والسلطان ينظم العلاقات المستقبلية بينهما بعد دحر الصفويين. من المنطقي افتراض ان الأمراء المخلوعين توقعوا إعادة بناء إماراتهم السابقة دون اعتراض عثماني. وان السلطان كان يتوقع أيضاً ولاءً سياسياً من أولئك الأمراء. يشير سير الأحداث بعد معركة جالديران إلى ان اعتراف كل طرف بمصالح الآخر حصل بشكل ارتجالي (التفاصيل في الفصل التالي).

لقد اتخذ شكل الاسهام الكردي في المجهود الحربي العثماني ضد الصفويين شكلين، مباشر وغير مباشر. بينما انضمت وحدات الفرسان الكردية إلى الجيش العثماني، هاجمت وحدات كثيرة أخرى الحاميات الصفوية في المناطق الكردية،

<sup>٩٨</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٤٣١-٤٣٢.

خاصة الجبلية منها. وتم تحرير دياربكر وبتليس واربيل وماردين وغيرها من المدن الكُردستانية من قبل وحدات الفرسان الكُردية. وفسح انهيار الحكم الصفوي المباشر في كُردستان الكبرى المجال للسلالات الكُردية السابقة ان تعود وان يحيي الإمارات المدمرة.<sup>٩٩</sup> بعد عودة السلطان سليم الأول ومعظم القوات العثمانية من تبريز إلى أناضوليا، قام الصفويون بتنظيم صفوفهم وشن حملة عسكرية استهدفت كُردستان الكبرى المحررة. استطاعت القوات الكُردية وبغياب الجيش العثماني من احتواء تلك الحملة. ليس من المبالغة القول بان تحرير المدن وإعادة بناء الإمارات ودحر الهجوم الصفوي المعاكس كان مجهوداً كُردياً بشكل رئيس. ان ما جعل كل هذا ممكناً هي وحدة الأمراء الكُرد من جهة، ومقت السكان الكُرد للحكم الصفوي المباشر، من جهة ثانية. لكن كانت هنالك بعض الإمارات المستقلة كسوران وهكاري وبادينان التي لم تشارك لا في الحرب العثمانية- الصفوية الأولى ولا في التحالف الكُردية. فبقي أمراء تلك الإمارات لا يقرون بأي ولاء إلى السلطان العثماني أو الشاه الصفوي، محافظين على استقلالهم السياسي في كثير من الأوقات عن طريق موازنة علاقاتهم مع كلتا الدولتين التركية والإيرانية. عموماً، لم يكن خيار الاستقلال السياسي التام أمراً هيناً نظراً لوجود دولتين جبارتين مجاورتين بشكل دائم.

www.zheen.org

## العوائق الجيوسياسية

### ومسألة تطور النظام الإماراتي الثاني

ان من اكثر وجهات النظر شيوعاً بين الباحثين الكُرد والأجانب هي ان وضع كُردستان الجيوسياسي مكن سلالاتها الحاكمة المحلية من امتلاك نفوذ سياسي كبير، الذي استغلته في حماية استقلالها سواء بشكل تام أو شبه تام. ان من الصعب جداً التشكيك في صحة وجهة النظر هذه، خصوصاً وان الدور الذي لعبته الإمارات في السياسة الإقليمية يفوق وزنها الفعلي في ظروف لا يكون فيها للوضع الجيوسياسي أي دور. لكن، وفي الوقت نفسه، يجب ان لا تُغفل الآثار السلبية التي تركها الوضع الجيوسياسي هذا على التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في المناطق الكُردية. من الملفت للنظر هو ان الشخص الأول الذي أدرك الآثار السلبية لوضع

<sup>٩٩</sup> المصدر السابق، ص ٤٣٢-٤٣٣.

كُردستان الجيوسياسي كان كُردياً. ففي ملحمة الشهيرة مم وزين في نهاية القرن السابع عشر، يعطي الشاعر الكلاسيكي والمربي احمدي خاني صورة حية عن كيفية مسؤولية ذلك العامل عن معاناة الشعب الكُردى وعن تأخره الثقافي:

انظر، ما بين العرب والجورجيين،

اصبح الكُرد مثل المنارات.

أحاط بهم الأتراك والفرس من كل جانب.

واصبح الكُرد محصورين في الزوايا الأربع كلها.

كلا الطرفين جعلوا الشعب الكُردى

هدفاً لسهام القدر.

يقال انهم (أي الكُرد) يحملون مفاتيح الحدود،

حيث كل قبيلة تشكل ساترا منيعا.

كلما فاض وهاج البحر العثماني (الأتراك) والبحر الطاجيكي (الفرس)

انغمس الكُرد بالدم،

فاصلين الواحد عن الآخر كشبه جزيرة.<sup>100</sup>

ومنذ أوائل القرن السادس عشر، لم يدع وجود الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية المناطق الكُردية بان تتمتع باستقرار سياسي طويل نسبياً، حيث ظلت المدن والقرى الكُردية دوما مسرحاً لسلسلة من الحروب الدموية الطويلة بين تلك القوتين الكبيرتين. من المنطقي القول بانه كانت لهذه الوضعية آثار مخربة كبيرة على النسيج الاجتماعي والتطور الاقتصادي والثقافي في كُردستان. ان العامل الجيوسياسي كان مسؤولاً بشكل كبير عن عدم ظهور كيانات سياسية كبيرة قادرة على إقامة بنية اجتماعية-اقتصادية متينة في كُردستان. فباءت بالفشل جميع محاولات الأمراء الكُرد في التوسع بسبب ان إماراتهم كانت مطوقة من الجوانب كافة بقوى كبيرة ظهرت باستمرار في إيران وتركيا. لم تدخر هاتان الدولتان وقتاً أو جهداً في إحباط طموحات الأمراء الكُرد السياسية. وكان الوصول إلى تفاهم ثنائي حول تقوية سيطرتهما في الحزام الإستراتيجي الكُردى أحد أهم أهداف معاهدة اماسية بين الصفويين والعثمانيين

<sup>100</sup> Amir Hassanpour, Nationalism and Language in Kurdistan, 1918-1985, (San Francisco: Mellen Research University Press, 1992), p.53.

في عام ١٥٥٥. في اتفاقية زهاب لعام ١٦٣٩، اتفق الطرفان على إقامة حدود تخطيطية في كردستان.<sup>١١</sup>

يعد تاريخ إمارة اردلان المضطرب مثلاً متميزاً حول دور الوضع الجيوسياسي في منع نشوء دولة كردية قوية. ظهرت تلك الإمارة في نهايات عهد الهيمنة المغولية في الشرق الأوسط. واستغل أمراء اردلان تماماً الفراغ السياسي الكبير الناشئ بفرض سيطرتهم على العديد من المناطق في شرق وجنوب كردستان بحيث أصبحت اردلان دولة واسعة لا تقرب أي ولاء سياسي لأي من الدول المجاورة. لكن التوسع الاردلاني جاء إلى نهاية مفاجئة مع بروز الدولة الصفوية في إيران وانطلاقة التوسع العثماني الإقليمي في اتجاه الشرق بعد عدة أعوام. كانت لهذه التغييرات السياسية الإقليمية في بدايات القرن السادس عشر أهمية جيوسياسية، حيث حوصرت الدولة الاردلانية بين قوتين جبارتين في الشرق والغرب منها. بينما اضعف الصفويون اردلان من خلال التدخل في شؤونها الداخلية، اجبرها العثمانيون بقوة السلاح على التخلي عن جميع أقاليمها الواسعة في كردستان الجنوبية.

وسعى السلطان سليمان إلى تدمير الإمارة الاردلانية تماماً. وقد أوكل هذه المهمة إلى حاكم بغداد العثماني، الذي نجح وبدعم عسكري من عدد من الأمراء الكرد في إنهاء النفوذ الاردلاني في كردستان الجنوبية في عام ١٥٦١ تقريباً. لكن العثمانيين لم يستطيعوا فرض سيطرة مباشرة في تلك المناطق التي أخذت من الاردلانيين بسبب ظهور السلالة البابانية. كما ان العثمانيين لم يتمكنوا من تدمير الإمارة الاردلانية التي نقلت عاصمتها إلى كردستان الصغرى. واضطر أميرها الدخول في تحالف عسكري مع الصفويين واعلان الولاء السياسي لشاه طهماسب من اجل درء الخطر العثماني. في الأعوام التالية، حاول بعض الأمراء الاردلانيين استعادة استقلالهم التام واسترجاع الأقاليم التي فقدوها في كردستان الجنوبية. كان تيمور خان واحداً من هؤلاء الأمراء والذي لجأ إلى سياسة استخدام طرف ضد الطرف الآخر. أما بقية الأمراء، من ضمنهم خليفته تيمور خان، فحاولوا خلق توازن في علاقاتهم الخارجية من خلال إقامة روابط

<sup>١١</sup>O'Shea, 'The Question of Kurdistan and Iran's International Borders', pp.51-

حسنة مع كلتا الدولتين العثمانية والصفوية.<sup>١٠٢</sup> برغم كل محاولاتهم الدؤوب، فشل الاردلانيون في إعادة توسيع كيانهم أو تثبيت حالة استقلال دائم. ففي الغرب من اردلان كانت هناك الإمارة البابانية فضلاً عن الوجود السياسي والعسكري العثماني المكثف في كركوك ومحيطها. وإلى الشمال من اردلان وشرقها كانت تقع الأقاليم الصفوية. وبسبب هذا الوضع الجيوسياسي صارت اردلان عرضة للضغوط الخارجية وغير قادرة على تحقيق طموحاتها السياسية في الاستقلال الدائم والتوسع الإقليمي.

كانت إمارة بتليس أيضاً متأثرة بشكل كبير بموقعها الإستراتيجي. فهي أشرفت على الطريق المهم الذي يربط مناطق أناضوليا بمناطق أنذربيجان في إيران. ولذلك أدرك العثمانيون انهم غير قادرين على ترك بتليس على حالها أمانة مستقلة، والتي من الممكن ان تتحالف مع خصومهم الصفويين. كان هذا السياق العام لطلب السلطات العثمانية من شرف خان ترك إمارته من اجل إفساح المجال لحاكم تركي يعين من قبل السلطان. ورداً على رفض الأمير شرف خان الانصياع للأوامر التركية أرسل حاكم دياربكر ٣٠٠٠٠ محارب من قوات الانكشارية بهدف احتلال بتليس. في عام ١٥٣١، تعرضت بتليس إلى حصار عثماني شديد لمدة ثلاثة اشهر قاومها السكان بنجاح. وطلب شرف خان المساعدة العسكرية من شاه طهماسب. وطبقاً إلى شرفنامه، منح الصفويون شرف خان لقب ميرميران لجميع المناطق الكردية في عام ١٥٣٢. في أعقاب مقتل شرف خان، اجبر الأمير الجديد شمس الدين على إخلاء بتليس من قبل القوات العثمانية. رغم ان سلطان سليمان ألغى إمارة بتليس،<sup>١٠٣</sup> استطاع سكانها الكرد إحياءها في ما بعد.

## نهاية الفصل

شكل القرن العاشر ميلاد عصر جديد في تاريخ الشعب الكردي. فانهلال الإمبراطوريات الإسلامية العظيمة ساعد عائلات كردية برزت اجتماعياً، على إقامة

<sup>١٠٢</sup> بتليس، "شرفنامه"، ص ٨٠، ٨٢، ٨٤-٨٦.

<sup>١٠٣</sup> المصدر السابق، ص ٤٣٨-٤٣٩، ٤٤٣-٤٤٤، ٤٤٨، ٤٥١-٤٥٤، ٤٥٨.



حكومات وراثية في مختلف أنحاء كُردستان. وكانت هذه المرة الأولى الذي استطاع فيها الكُرد خلق كياناتهم الخاصة بهم منذ اندثار كل مظاهر الحكم الذاتي من كُردستان على يد الغزاة العرب المسلمين في القرن السابع. فقد نشأ النظام الإماراتي الأول عندما كان الكُرد الرحل العنصر الاجتماعي المهيمن في المجتمعات الكُردية في تلك الحقب. اختفى هذا النظام في نهاية القرن الثاني عشر نتيجة فشل الإمارات في تحمل الضغوط الخارجية المتزايدة خاصة التوسع الإقليمي من قبل السلاجقة الأتراك. في أثناء ذلك، بدأ الكُرد المستوطنون يظهرون كأبرز قوة اجتماعياً واقتصادياً، وسرعان ما استطاعوا ملء الفراغ السياسي القائم عن طريق إنشاء نظام إماراتي جديد، برهن على انه ليس بقادر على مقاومة الضغوط الخارجية فحسب وإنما على تكوين هوية ثقافية متميزة للشعب الكُردي كما سيبين في الفصل الآتي.



## الفصل الثاني

### الإمارات الكُردية والإمبراطورية العثمانية، بين القرن السادس عشر و القرن الثامن عشر

يركز هذا الفصل بشكل كبير على العلاقات التي كانت قائمة بين الإمارات الكُردية والإمبراطورية العثمانية، وذلك بالكشف عن السمات الرئيسة للسياسة العثمانية والقوة المحركة لها ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر. كما سيتم تحديد أبعاد التقسيمات الإدارية العثمانية للمناطق الكُردية وآثارها. وإدراك الدرجة التي أثرت فيها السلطات العثمانية في مجرى التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المناطق الكُردية، سيتناول هذا الفصل سمات طبقة الاشراف الكُردية وأوضاعها العامة. ان أحد أهم جوانب الحياة الثقافية التي سيعالجها هذا الفصل هو تبلور وعي متزايد بدأ يظهر في أوساط النخب المثقفة الكُردية منذ القرن السادس عشر وينص على أن الكُرد شكلوا مجموعة منفصلة عرقياً وثقافياً بسبب امتلاكهم سمات مشتركة مثل التاريخ والأصل المشترك والإقامة في وطن محدد المعالم جغرافياً وسكانياً، أي كُردستان.

#### الخصائص العامة

#### لسياسة الإمبراطورية العثمانية في كُردستان الكبرى

منذ قيامها في القرن الرابع عشر، بسطت الإمبراطورية العثمانية هيمنتها السياسية ووطدتها من خلال انتزاع دائم للأراضي الأجنبية من أصحابها الأصليين. وقع في قلب هذه العملية تنفيذ تغييرات ديموغرافية على شاكلة زرع المستوطنين الأتراك في الأراضي المفتوحة الجديدة. وهؤلاء الأتراك المستوطنون وكذلك بقية المسلمين المحليين والمتعاونين معهم يتحولون عادة إلى الطبقة المهيمنة، كما جرى الحال في شبه جزيرة البلقان.<sup>١٠٤</sup> لم يكن في مقدور الأتراك العثمانيين ان يتبنوا السياسة نفسها في كردستان الكبرى في المدة التي تلت عام ١٥١٥، باستثناء محاولة تترك عدد من المدن ذات الأهمية الإستراتيجية عسكرياً وتجارياً مثل كركوك واربيل وديار بكر وفان. عكس كل التوقعات السائدة عند الأوربيين، اكتشف جون مالكوم بين نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر غياب حكم إيراني أو تركي مباشر في أغلبية المناطق الكردية.<sup>١٠٥</sup> وبقدر ما تشير الدلائل، كان مالكوم أول من شرح هذه الوضع السياسي في كتابه "History of Persia". ويحدد مالكوم غياب الحكم الأجنبي من المناطق الكردية بثلاثة عوامل: الجيوسياسية والاقتصادية والسمات القومية للكرد. أولاً، نظرا لان كردستان تفصل إمبراطوريتين معادية الواحدة للأخرى، أصبح في مقدور قادة الكرد المحليين حماية مصالحهم من خلال تبني سياسة دعم إحدى الإمبراطوريتين ضد الأخرى. ثانياً، كان الوطن الكردي ذا طبيعة جبلية عقيمة. إذا تم استثناء وجود بعض الوديان الخصبة الجميلة. ولهذا السبب لم تكن كردستان تُغري الأجانب باحتلالها بسبب التكاليف الباهظة لمثل هذه المبادرة التي لا يمكن ان تغطيها موارد المناطق الكردية بعد احتلالها. وأخيراً، أبدى سكان الكرد ((ذوو النزعة القتالية والجسدية القوية)) تمسكا شديدا بأراضيهم. لكل هذه الأسباب كانت غير

<sup>١٠٤</sup> اندرسون، "دولة الشرق الاستبدادية"، ص ١٢.

<sup>١٠٥</sup> وتوصل أحد المستشرقين الروس باسم وليام ف ديتيل (١٨١٦-١٨٤٨) إلى النتيجة نفسها حينما أكد على حالة الاستقلال التي تمتعت بها القبائل الكردية شبه المستقرة والرحل، وكذلك إدارة المناطق المتحضرة من كردستان من قبل الرؤساء المحليين، أي الأمراء.  
ب. م. دانتيغ، "الرحالة الروس في الشرق الأوسط"، ترجمة معروف خزندار، (دار الرشيد: بغداد ١٩٨١)، ص ٢٤٠.

مربحة وصعبة للغاية، من وجهة نظر مالكوم، مسألة فرض احتلال أجنبي على المناطق الكُردية الجبلية الوعرة.<sup>١٠٦</sup>

وكرر برونسن استنتاجات مالكوم المذكورة دون الإشارة إليه في إحدى مقالاته،<sup>١٠٧</sup> لكنه يقول في كتابه Sheikh and State، ان الإمبراطورية العثمانية ميزت نفسها في البداية عن بقية الدول المعاصرة لها بتركها الحكام الكُرد شبه المستقلين يسيطرون على إماراتهم مقابل ولاء سياسي ضد الإيرانيين.<sup>١٠٨</sup> هنالك عدة ملاحظات مهمة يجب إثارتها في ما يتعلق باستنتاج برونسن الذي مفاده ان الأتراك العثمانيين لم يندشوا إلغاء الإمارات في البداية. أولاً، لم يكن وجود الإمارات المستقلة وشبه المستقلة بظاهرة جديدة في تاريخ كُردستان في القرون الوسطى. فكما ذكر في الفصل السابق، تواجدت عدة إمارات كُردية خلال هيمنة العديد من الغزاة الاجانب منهم المغول والتتار والقرقينلو، حيث تمتعت تلك الإمارات بحكم ذاتي مقابل تقديم ولاء سياسي للدولة المهيمنة آنذاك. بعبارة أخرى، تعود الشعب الكُرد على مدى عدة قرون على حكم نفسه بواسطة سلالات أميرية محلية. فضلاً عن هذه الخلفية التاريخية، استهدف تحالف تلك السلالات مع الأتراك العثمانيين في بدايات القرن السادس عشر إحياء الإمارات الملقاة بصورة أساسية، وليس استبدال الحكم الصفوي بالحكم العثماني. فوق ذلك، لم تكن السياسة العثمانية تجاه السلالات الكُردية حالة فريدة من نوعها، لان الصفويين عدلوا من سياستهم تجاه الإمارات الكُردية بعد وفاة شاه إسماعيل، حيث غضوا النظر عن وجود العديد منها في كُردستان الصغرى.

ثانياً، قام الكُرد انفسهم بتحرير معظم أجزاء كُردستان الكبرى، بضمنها المدن الرئيسية كدياربكر وبتليس وفان واربييل وماردين. كما قاموا بإحياء الإمارات السابقة. لهذا لم تكن عند الأتراك اية فرصة لفرض حكم مباشر على المناطق الكُردية المحررة. فلو أراد الأتراك تنصيب حكامهم، لكان عليهم القيام بسلسلة من الحملات

<sup>١٠٦</sup>John Malcolm, John Malcolm's History of Persia, p.73.

<sup>١٠٧</sup>Martin van Bruinessen, The Ottoman Conquest of Diyarbekir and the Administrative Organisation of the Province in the 16<sup>th</sup> and 17<sup>th</sup> Centuries' in Evliya Celebi, in Diyarbekir, p.13.

<sup>١٠٨</sup>Bruinessen, Agha Sheikh and State, p.136.

العسكرية الكبيرة ضد الإمارات الكُردية. لكن الأتراك لم يكونوا في وضع عسكري يسمح لهم بإلحاق المناطق الكُردية من خلال احتلال عسكري سافر. ففي أعقاب معركة جالديران، سحب السلطان سليم الأول جيوشه من الأقاليم الصفوية الحدودية نتيجة لحسابات مالية وعسكرية، خاصة بعد تهديد القوى المسيحية للمواقع العثمانية في جنوب شرق أوروبا. نظراً للطبيعة الجغرافية للمناطق الكُردية وكذلك الولاء التام لسكانها الكثيرين إلى السلالات المحلية كان على الأتراك خوض حروب طويلة استنزافية قبل ان يكون في مقدورهم فرض حكم مباشر.

ان تربص العدو الصفوي خلف الحدود الشرقية العازم على الانتقام بعد معركة جالديران جعل من الصعب جداً على السلطات العثمانية ان تفرض حكماً مباشراً في المناطق الكُردية. فلم تزل حية بعد في ذاكرة كلتا السلطتين العواقب الوخيمة التي تترتبت على إلغاء شاه إسماعيل المتعجل للسلالات الكُردية الحاكمة. نظراً لوجود هذه السابقة التاريخية، كان من الصعب جداً أن تتجاهل السلطات العثمانية بسرعة تلك الحساسية الكُردية تجاه فرض حكم أجنبي في المناطق الكُردية. لهذا فان تسامح الأتراك الظاهري تجاه السلالات الكُردية المحلية بُنيَ على حسابات سياسية وعسكرية . أي لم يكن تعبيراً عن حسن النوايا التركية.

لم تصدر أية إشارة من أمراء الكُرد يمكن أن تفسر على انهم كانوا سيسمحون لأنفسهم بأن يؤديوا دور المجموعات المتعانة، ناهيك عن قبولهم بإلغاء فوري للإمارات. ولم يكن ولاء الأمراء الكُرد للسلطان مطلقاً وإنما مشروطاً. وهناك بعض الأمراء، كالذين حكموا إمارة سوران، كانوا مستقلين تماماً، حيث رفضوا الاعتراف بحكومة السلطان العثماني. لا يوجد أي دليل تاريخي يبرهن على وجود أية انتفاضة قادها السكان الكُرد ضد حكم السلالات، تأييدا لحكم أي من السلاطين العثمانيين أو الشاهات الإيرانيين. بشكل عام، ظلت مختلف الفئات الاجتماعية موالية تماما لحكم السلالات المحلية، بوصفها قيادة شرعية وطبيعية ومألوفة.

ثالثاً، يجب عدم إغفال أهمية الوضع الجيوسياسي الجديد لكردستان بعد نشوء العداء العثماني- الصفوي في بداية القرن السادس عشر. فقد مكن هذا الوضع الأمراء الكُرد من ان يلعبوا دوراً بارزاً في السياسات الإقليمية وفي المواجهات العسكرية المستقبلية بين الطرفين التركي والإيراني. ان عدم تخلي هذين الطرفين عن سياستهما

التوسعية الإقليمية صبَّ في مصلحة عدة سلالات كُردية، حيث عزز هذا من نفوذها السياسي القائم في المناطق الاستراتيجية التي تفصل بين الدولتين المتصارعتين. لكن، يجب الإقرار في الوقت نفسه بأن الدور الحيوي الذي لعبه العامل الجيوسياسي لم ينطبق على جميع الإمارات الكُردية كما يوحي برونسن. ثلاث من أهم الإمارات الكُردية كانت بعيدة عن الحزام الاستراتيجي الحدودي، وهي بوتان وسوران وبادينان. وتدين هذه الإمارات بمنزلتها المستقلة وشبه المستقلة إلى عوامل أخرى، خاصة تصميم سكانها الكُرد على مقاومة أي محاولة لفرض حكم أجنبي ورسوخ مفهوم الشرعية السياسية فيها.

رابعاً، اتخذت المصالح السياسية شكلين متضاربين في عهد ما بعد معركة جالديران. كان التناقض الأول في المصالح بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الصفوية (والسلالات الإيرانية التي جاءت بعدها). فهاتان القوتان تبنتا سياسة التوسع الإقليمي والسياسي على حساب الآخر. أما التناقض الثاني في المصالح فكان بين السلالات الكُردية، من جهة، والدولتين التركية والإيرانية، من جهة ثانية. وتداخل هذين الشكلين من المصالح المتضاربة بعضها مع بعض، فهي كانت أحياناً مكشوفة، وأحياناً أخرى مستترة تبعا للأوضاع السائدة. الشيء الثابت الوحيد في تلك المصالح المتضاربة هو تغير علاقات السلالات الكُردية مع كلتا القوتين الخارجيتين. فمن ناحية، سعت السلطات العثمانية والصفوية إلى تحويل الأمراء الكُرد إلى مجرد مجموعة متعاونة لا تملك قوة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية مستقلة، أي مجرد أداة سيطرة محلية نيابة عن الحكم المركزي. هذا الأمر لو تحقق لمنح السلطات التركية والإيرانية دخلاً مالياً واسعاً وقوة بشرية كبيرة تستفيد منها ماكينتها الحربية. أما الأمراء الكُرد فقد بذلوا قصارى جهدهم في حماية سلطتهم وثروات مناطقهم من التدخلات الأجنبية.

ولأن فرض حكم مباشر فوري برهن على صعوبته واحتمال الإتيان بعواقب وخيمة، سخرت السلطات العثمانية كل طاقاتها العسكرية والمادية في فرض حكم تركي مباشر على مدن كُردية استراتيجية معينة في مقدمتها ديار بكر وماردين واربيل وكركوك وخانقين. لكنهم فشلوا في فرض سيطرة مباشرة على مدينتي راوندوز وبتليس. أما مدينة وان فقد توالى عليها السيطرة الكُردية والعثمانية والإيرانية باستمرار. ومن جهتها اهتمت الحكومات الإيرانية المتعاقبة كثيراً بمدينتي كُرديتين

وهما اورمية وكرماشان. كانت الأولى مهمة استراتيجياً نظراً لوقوعها قرب الحدود الإيرانية- التركية. كما كانت لها قيمة اقتصادية كبيرة لكونها محاطة بأراضٍ زراعية خصبة واسعة. وكذلك كانت لمدينة كرماشان أهمية اقتصادية واستراتيجية مزدوجة. فقد سيطرت على الطريق التجاري والعسكري الذي يربط إيران بميسوبوتاميا. كما إنها كانت غنية بمواردها الزراعية والتجارية والبشرية.

لقد حولت السلطات الإيرانية المختلفة مدينتي اورمية وكرماشان إلى قاعدتين عسكريتين رئيسيتين تحرسان المناطق الحدودية، وتكونان في الوقت نفسه نقطة انطلاق لحملاتها العسكرية سواء ضد الإمارات الكردية المجاورة أو ضد الوجود التركي خاصة في ميسوبوتاميا. واتخذت سياسة السيطرة المباشرة على المدن الكردية الاستراتيجية من قبل العثمانيين بعدا آخر وهو زرع مستعمرات بشرية تركية فيها بهدف توطيد السيطرة التركية العسكرية والسياسية عليها، كما تم في دياربكر وفان وكركوك واربيل (وفي مدينة الموصل أيضاً الواقعة على حافة المناطق الكردية). وشجعت السلطات العثمانية قبائل بدوية ذات أصول تركية على الاستقرار في القرى والمدن الكردية. فمثلاً حثت السلطات العثمانية قبائل القرقوينلو البدو على الاستقرار قرب الحدود التركية- الإيرانية في كردستان. ومقابل انخراطهم في الوحدات العسكرية غير النظامية، تعهدت السلطات المركزية بإعفاء القرقوينلو جزئياً من دفع الضرائب.<sup>١٠٩</sup> كما ان دوافع سياسية وعسكرية مشابهة دفعت بالسلطات الصفوية إلى إسكان قبائل أذربيجانية تركية في مدينة اورمية والمناطق المحيطة بها عن طريق ترحيل القبائل الكردية (التفاصيل في الفصل الأول). كما اسكن الإيرانيون عدداً من القبائل الأذربيجانية الشيعية في بعض المناطق الاستراتيجية في كردستان الجنوبية عندما كانت خاضعة لسيطرتهم، كخانقين وطوزخورماتو. برغم كل هذه التغييرات الديموغرافية، ظل الكرد يشكلون غالبية سكان تلك المدن في منتصف القرن السابع كما يتبين بوضوح في كتاب "سياحتنامه"<sup>١١٠</sup>.

<sup>١٠٩</sup> راجع تفاصيل أخرى في:

Dina Rizk Khoury, *State and Provincial Society in the Ottoman Empire, Mosul 1540-1834*, (Cambridge: University of Cambridge Press, 1993).

<sup>١١٠</sup> التفاصيل أكثر في:

Evliya, Celebi in Diyarbekir.

لقد دفعت استحالة إقامة حكم تركي مباشر في أنحاء كردستان الكبرى كافة بسلطات استنبول إلى اتباع سياسة الإلحاق المستتر التدريجي للإمارات وازعاف نفوذ السلالات الحاكمة محلياً. يلاحظ جويده في هذا الصدد قيام السلطات العثمانية بإلغاء عدد من الإمارات الصغيرة في المنطقة المحصورة ما بين ديار بكر في الغرب وفان في الشرق في المدة ما بين عامي ١٦٥٠ و ١٧٣٠<sup>١١١</sup>. لم يكن النجاح نصيب المحاولات العثمانية باستمرار. ففي حين استطاع السلطان سليمان من إلغاء إمارة جمشكرك العريقة، فشل في تدمير إمارة سوران عن طريق حملة عسكرية، برغم كونه حاكم أقوى دولة في العالم آنذاك. كما ان إمارة بتليس تمكنت من إعادة بناء نفسها عدة مرات بعد إلغائها من قبل السلاطين العثمانيين بين القرنين السادس عشر والسابع عشر.

كان منع إقامة وحدة سياسية أو علاقة تكاتف بين السلالات الكردية حجر الزاوية في السياسة العثمانية (وكذلك الإيرانية) القائمة على زرع الفرقة والفتن، أي ضرب إمارة بأخرى أو دعم أحد فروع سلالة حاكمة ضد أخرى. وفي الوقت نفسه، لم يتردد الأتراك ولا الإيرانيون في احتواء الطموحات السياسية الكبيرة عند الأمراء الكرد. وأحياناً، نسق الطرفان جهودهما في احتواء هذه الإمارة أو تلك. لقد تعودت السلطات المركزية في استنبول أو السلطات الإقليمية على إرسال حملات عسكرية إلى المناطق الكردية حتى لو لم تكن هناك أية ضرورة سياسية أو عسكرية تستدعي هذا العمل، كحملة السلطان سليمان ضد سوران، التي بالرغم من فشلها في تحطيم تلك الإمارة، نجحت في اضعافها بشكل كبير. ويحتوي كتاب سياحتنامه لجلبلي مثلاً آخر عن كيفية شن والي فان، وبناء على قرار السلطان، حملة عسكرية ضد عبدال خان، أمير بتليس، في سبيل احتواء نفوذه المتزايد في منتصف القرن السابع عشر. ويكشف أي تحليل للتفسيرات التي قدمها جلبلي حول ملابسات تلك الحملة العسكرية بأنها لم تكن رداً على «خيانة» اقترفها الأمير الكردي بحق السلطات العثمانية، إذ لم يكن للإيرانيين أي دور في ذلك الحدث.

ان الحملة العسكرية التركية ضد بتليس كانت مخططاً لها مسبقاً، حيث اتخذ القرار بهذا الشأن قبل مدة طويلة. وعكست تلك الحملة المخاوف التركية المتزايدة من

<sup>١١١</sup>Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, p.39.



النفوذ والهيبة الكبيرة التي تمتع بها أمير بتليس بين الكُرد، الذي تجسد في تجاهله وجود السلطان مراد الرابع في مدينة دياربكر، بعد احتلال الأخير مدينة بغداد وإحاقه الهزيمة بالصفويين. ربما أراد العثمانيون تفسير موقف عبدال خان ذلك كتحدٍ لسلطتهم أو أرادوا اغتنام الفرصة لتقليم أظافره في أعقاب هزيمة الصفويين. وكان حجة والي فان في إرسال الحملة العسكرية ضد الأمير الكُردي واهية وهي ان الأخير قد تجاهل أوامره بالتوجه إلى فان من اجل ترميم أسوار المدينة. ولم يتناسب حجم التدمير والنهب والقتل والانقسام الحاصل بين القبائل الكُردية مع تلك الحجة. ولم تؤد الحملة إلى تنصيب ابن عبدال خان أميراً بدلاً عنه (بعد انسحابه وقواته إلى الجبال المجاورة) فحسب، وإنما إلى إجبار بتليس على التنازل عن أربعة من مقاطعاتها الغنية والى خسارة معظم ثروتها المادية وقوتها العسكرية ونفوذها السياسي. تلك كانت الأهداف الحقيقية وراء الحملة العسكرية العثمانية.

### التقسيمات الإدارية في كردستان الكبرى بعد عام ١٥١٥: بين المفترض والواقع

تعرضت التقسيمات العثمانية الإدارية في المناطق الكُردية إلى تغييرات عديدة ما بين بداية القرن السادس عشر وبداية القرن العشرين. في المدة التي تلت مباشرة معركة جالديران، أبدى الأمراء الكُرد رغبة في اختيار أمير أعلى (ميرميران) من اجل قيادتهم في إذا ما اندلعت حروب جديدة مع الصفويين. استناداً إلى "شرفنامه"، نصح إدريس بتليسي السلطان سليم الأول برفض فكرة اختيار أمير أعلى للكُرد.<sup>١١٢</sup> وحتى لو لم يسد إدريس نصيحته تلك إلى السلطان العثماني، من الصعوبة جداً ان نتخيل قبول الأخير بمشروع يشجع السلالات الكُردية على توحيد جهودها السياسية والعسكرية بهدف محاربة عدو خارجي. بتعبير أدق، لم يكن أبداً في مصلحة السلطات التركية قيام أي شكل من أشكال الوحدة في المناطق الكُردية، خاصة لأنها كانت تطمح الى ضمها إلى الإمبراطورية عندما تسنح الفرص لها. وفوق ذلك، لربما يؤدي

<sup>١١٢</sup> راجع أيضاً:

نجاح جبهة كُردية ضد الحكم الصفوي إلى تشجيع السلالات الكُردية على اتخاذ موقف مماثل ضد الحكم العثماني نفسه. فمن وجهة النظر التركية، لم يكن هناك أي ضمان ان لا ينقلب الولاء السياسي للإمارات إلى عداة عند تغير الأوضاع السياسية وميزان القوى بين الدولتين الصفوية والعثمانية. بسبب كل هذه الحسابات السياسية والاستراتيجية، كان على العثمانيين ان يبذلوا قصارى جهودهم في احتواء كل التطورات التي ربما تجعل كُردستان الكبرى مستقبلاً خطراً جدياً على أمنهم في أناضوليا وميسوبوتاميا.

فبدلاً من اختيار أمير أعلى، قرر السلطان سليم تعيين موظف تركي موثوق به حاكماً سياسياً وعسكرياً عاماً (بكلربكي) لولاية دياربكر. نظرياً، ضمت هذه الوحدة الإدارية الضخمة كُردستان الكبرى، باستثناء المناطق الجنوبية حيث تواجدت إمارتا سوران وبادينان. فرضت السلطات العثمانية سيطرة مركزية في ١٢ سنجقاً واقعة في أطراف المناطق الكُردية.<sup>١١٣</sup> وطبقاً لقول برونسن، فرق كتاب سجلات الضرائب العثمانية العائدة لأواخر العقد الثاني من القرن السادس عشر تماماً بين الأجزاء التي تحكم بصورة مباشرة وتلك التي تحكم بشكل غير مباشر.<sup>١١٤</sup> في ذلك الوقت، صار لدياربكر ١٠ سناجق تدار من قبل موظفين يعينون مركزياً. لكن الكيانات المستقلة وشبه المستقلة ضمن منطقة دياربكر سميت أباله كُردستان. ضمت هذه الولاية بدورها ٧ إمارات كبيرة و ١٠ إمارات صغيرة سميت كل منها أيضاً أباله.<sup>١١٥</sup>

ان ما يمكن استنتاجه من المعلومات التي احتواها كتاب "شرفنامه" هو ظهور مجموعتين من الإمارات تتمتع بمنزلة سياسية متباينة خلال عهد السلطان سليم وخليفته السلطان سليمان. شملت المجموعة الأولى إمارات كبيرة قوية تحكم من قبل سلالات كُردية عريقة كبتليس وحسنيكف وهكاري وسوران وبوتان ومحمودي وبرادوست وبادينان. تمتعت هذه الإمارات أما باستقلال تام وأما باستقلال شبه تام عن طريق تقديم ولاء سياسي إلى السلطان العثماني. جرت العادة على ان يختار الاشراف الكُرد المحليون بشكل حر الأمير الجديد من أبناء السلالة الحاكمة، في حالة

<sup>١١٣</sup>Bruinessen, The Ottoman Conquest of Diyarbekir, in Evliya Celebi in Diyarbekir, p.17.

<sup>١١٤</sup> المصدر السابق.

<sup>١١٥</sup> المصدر السابق.

غياب وريث شرعي أو في حالة وجود عدة مرشحين، ومن دون تدخل خارجي عثماني أو غير عثماني. تألفت المجموعة الثانية من إمارات اقل قوة وهيبة مثل سويدي وزركي وخيزان وتانبي. اختار الاشراف المحليون الأمير الجديد من أبناء السلالة الحاكمة. لكن اختيارهم هذا كان مشروطاً نظرياً بموافقة السلطان العثماني. لقد كان على الإمارات مبدئياً، وليس بالضرورة وبغض النظر عن منزلتها السياسية، أداء مهمة عسكرية أي أما مشاركة وحدات الفرسان الكردية في القتال إلى جانب الأتراك ضد الإيرانيين أو حماية الحدود الشرقية.

في أعقاب الاحتلال العثماني الأول مدينة بغداد خلال عهد السلطان سليمان، تم تشكيل إيالة شهرزور في كردستان الجنوبية (أعيد تسميتها بولاية الموصل في نهاية القرن التاسع عشر من أجل تمييزها عن دير الزور ونقل مركز الولاية من مدينة كركوك الكردية إلى مدينة الموصل). وحوث إيالة الرقة الجديدة بعض المقاطعات الكردية مثل ماردين وأورفه. وتم تنفيذ تقسيمات إدارية أخرى في كردستان الكبرى في المراحل التاريخية اللاحقة. بحلول القرن السابع عشر مثلاً، تألفت كردستان الكبرى من إيالة فان وارزوم وديار بكر وشهرزور. عكست هذه التغييرات الإدارية غياب عدد من الإمارات الصغيرة من الخارطة السياسية الكردية. بحلول العقد الخامس من القرن التاسع عشر، اختفت تماماً كل بقايا الحكم الذاتي المحلي من أرجاء كردستان كافة. وأجرت السلطات العثمانية آخر تغييراتها الإدارية في نهاية القرن التاسع عشر عندما تم إنشاء ولاية بتليس.

في إيران الصفوية، لم تكن المنزلة السياسية للإمارات الكردية واضحة المعالم خلال عهد شاه طهماسب وخلفائه لكونها تغيرت مراراً من الاستقلال إلى حكم ذاتي بالترافق مع قوة السلطات الإيرانية أو ضعفها. استمرت هذه الحالة بعد سقوط الدولة الصفوية نتيجة غياب الاستقرار السياسي. كانت اردلان وموكریان ولرستان الصغيرة وكلهور (وهو كيان فدرالي يتألف من بلنكان ودارتنك وماهيدشت) من أهم الإمارات الكردية في كردستان الصغرى في نهاية القرن السادس عشر. أما بانه وكلباخي (المؤلفة من سيامنصور وبازوكي وزنكنه وجكني) فكانت من الإمارات والكيانات الاقل شأنًا. في العقد الرابع من القرن السابع عشر، اعطى الرحالة الفرنسي جين بابيتست تافرنير وصفاً سريعاً للتقسيم الإقليمي للإمبراطورية الصفوية في أعقاب

اعادة سيطرتها المباشرة وغير المباشرة على عدة مناطق كُردية وميسوبوتاميا. فطبقاً إلى تافرنير، تألفت إيران الصفوية من الأقاليم الآتية: أولاً ضمت أرمينيا الكبرى مدن يريفان و نخجفان وزولفان وفان. ثانياً، شمل إقليم دياربكر (أو ميسوبوتاميا) المناطق الواقعة بين نهري الفرات ودجلة. كانت أورفه والموصل وجزيرة وماردين أهم مدنها. ثالثاً، امتد إقليم كُردستان (أو آشور) على طول الجانب الشرقي من نهر دجلة من بحيرة فان إلى حدود بغداد. وتالفت مدنها الرئيسية من نينوى وشهرزور وعمادية وبتليس وسميرنا وسالمستر. رابعاً، ضم إقليم العراق العربي بلاد بابل - الأكدية. كانت أهم مدنها بغداد والفلوجة. وأخيراً، تألف إقليم العراق الأعجمي من اصفهان وتوسران وهمدان وقزوين.<sup>١١٦</sup>

يعطي كتاب أولياء جلبي "سياحتنامه" صورة مفصلة إلى حد ما عن التقسيمات الإدارية في ايلتين كُرديتين في منتصف القرن السابع عشر، أي دياربكر وفان. وهذا يعني انه أستثنى من وصفه الإداري العديد من المناطق الجنوبية من كُردستان الكبرى. طبقاً إلى "سياحتنامه"، تألفت ايلالة فان من ٢٧ سنجاقاً.<sup>١١٧</sup> كانت ٢٠ منها وراثية، مثل ارجيش وعادلجواز وموش وبركري وكورلايك وكاركار وكساني وشوركار ودلكارز و باني قوتور وقلعة بايزيد وبردوا وارجيك وجوبانلو وزركي وفان وخيزان واغاكيس وشيروان.<sup>١١٨</sup> كان للسلطين العثمانيين حق تعيين حكام تلك السناجق وازاحتهم. لكنهم لا يستطيعون اختيار حكام من خارج العائلة الكُردية الحاكمة. وكان نفوذ السلطات العثمانية محدوداً جداً في السناجق الـ ١٣ الباقية، التي تألفت من إمارات كبيرة مثل محمودي وبتليس وهكاري وبردوست. فلم يملك السلطان العثماني حق تعيين أو إزاحة أمراء تلك الإمارات التي تتمتع بحكومات مستقلة (أو "حكومت" على حد تعبير جلبي).<sup>١١٩</sup>

<sup>١١٦</sup>Tavernier, The Six Voyages through Turkey and Persia, pp.141-142.

<sup>١١٧</sup> يناقض جلبي نفسه مرتين فيما بعد عندما يحدد عدد تلك السناجق ٢٧ ومن ثم ٢٤.  
<sup>١١٨</sup> "كورد له ميژووی در اوسیا کانیاندا: سیاحه تنامه ی نهولیا چهله بی"، ترجمه إلى الكُردية سعيد

ناكام، (أربيل: ١٩٧٧)، ص ٢٠٠.

<sup>١١٩</sup> المصدر السابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

احتوت ايالة دياربكر على ١٩ سنجقاً و٥ حكومات كُردية مستقلة.<sup>١٢٠</sup> كانت هناك أيضاً ١٢ سنجقاً عثمانياً يدار من قبل موظفين أتراك يعينهم ويعزلهم السلطان العثماني كما يشاء وهي: دياربكر وخربوت وحسنكيف وارغني ونصيبين وجمشكزك وسيفرك وميفارقين.<sup>١٢١</sup> ففي وقت ليس ببعيد، كانت غالبية هذه السناجق مركزاً لإمارات مستقلة أو شبه مستقلة كبيرة، حيث استغل العثمانيون مشاكلها الداخلية لإضعافها وبالتالي وضعها تحت إمرة السلطات المركزية مباشرة. أما السناجق الثمانية الباقية فكانت وراثية تحكم من قبل أمراء كُرد يختارهم الاشراف المحليون من بين أبناء السلالة القائمة. لم يملك السلطان العثماني الحق في تعيين هؤلاء الأمراء أو إزاحتهم. أخيراً، تواجدت ٥ حكومات مستقلة وهي جزيرة وأغيل وكنج وپالو وخرزو. كان لامرائها رتبة ميرميران الذي هو أيضاً رتبة حاكم ايالة دياربكر التركي نفسها. يبدو انه كانت هناك كيانات اخرى ذات حكم محلي ضمن ايالة دياربكر التي لم يستطع جلبي الكلام عن وضعيتها لسبب ما. لكنه، في الاقل، يسمي اربعاً منها وهي اقچاق قلي وبسيان وبوزان وهانجوك.<sup>١٢٢</sup>

ان ما يكشف النقاب عن غياب تجانس في التقسيمات الادارية العثمانية هو المكانة المتميزة التي تمتعت بها الإمارات الكُردية الموجودة حينذاك في كُردستان الجنوبية. ففي كتابه،<sup>١٢٣</sup> Agha, Sheikh and State، يشير برونسن إلى عدم وجود سناجق وراثية كُردية ولا حكومات كُردية في كُردستان الجنوبية، التي اتسم بها التقسيم الاداري في كُردستان الشمالية.<sup>١٢٣</sup> لقد تمتعت إمارة سوران وبادينان وبابان غالباً باستقلال تام طوال تاريخها. ومن المحتمل جداً ان يكون هذا هو السبب وراء عدم إشارة جلبي إلى وضعية تلك الإمارات وعلاقتها بالسلطة العثمانية.

<sup>١٢٠</sup> في مكان اخر، يذكر جلبي الرقم ٢٥. لكنه يذكر اسم ٢٣ سنجق. التفاصيل في "كورد له ميژووى دراوسيكائيدا: سياحتهنامهى نهوليا چه له بى، ص ١٢-٤٩ وكذلك  
Evliya Celebi in Diyarbekir, pp.121 & 123.

<sup>١٢١</sup> يذكر جلبي اسم ١٠ سناجق بدلاً عن ١١.

<sup>١٢٢</sup> Evliya Celebi in Diyarbekir, p.128.

<sup>١٢٣</sup> Bruinessen, Agha Sheikh, and State, pp.157-161.

## ملاحظات عامة

### حول التقسيمات الإدارية العثمانية في كردستان الكبرى

إن ما يلفت النظر لدى تحليل التقسيمات الإدارية لكردستان الكبرى في عهد السلطان سليم الأول والسلطان سليمان إن السلطات العثمانية استخدمت مصطلحات غامضة ومشوشة ومتناقضة في آن واحد. أن أحد أهم مدلولات هذه التقسيمات هو انها افتراضية أكثر منها واقعية. فهي لا تعكس الوضع السياسي في إطار زمني طويل نسبياً لتقلبه السريع باستمرار. بتعبير آخر، كانت العديد من الإمارات الكردية مستقلة عملياً في معظم الأحيان على الصعيدين السياسي والمالي. كما ان ولاءها السياسي الذي تجبر على تقديمه في أوقات حرجة كان غير ثابت ومرهون دوماً بميزان القوى الإقليمي. لم يشر محررو سجلات الضرائب الأتراك في العقد الأول والثاني من القرن السادس عشر إلى دفع الإمارات الكبيرة أو الصغيرة أية ضرائب إلى الخزانة العثمانية، برغم ان دفع مثل هذه الضرائب لا يمكن أن يستخدم لوحده معياراً لتحديد العلاقة الفعلية القائمة بين الإمارات والسلطان (أو الشاه). ويحدد برونسن هذا الأمر بالمناطق الحدودية فقط حيث الولاء السياسي والعسكري للأمير الكردي تجاه السلطان العثماني ((أهم بكثير من الدفع المنتظم للضرائب)).<sup>١٢٤</sup> ويستشف من طبيعة تقديم الأمراء الكرد بالولاء الاسمي إلى السلطان وعدم دفع الضرائب إلى خزائنه بان الأتراك العثمانيين لم يعدوا أو لم يستطيعوا أن يعتبروا غالبية المناطق الكردية أراضي مفتوحة طبقاً إلى المفهوم الإسلامي الخاص بها أو المفهوم الإمبريالي التقليدي. ويعود هذا الأمر إلى أن الكرد بقيادة السلالات الأميرية الحاكمة هم الذين حرروا مناطقهم من الحكم الصفوي وأحيوا إماراتهم وحددوا علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الداخلية. بعبارة أدق، افضل تعبير يمكن أن يستخدم لدى تحديد العلاقة بين الامارات الكردية والسلطات التركية أو الإيرانية هو ان الأولى مجرد مناطق نفوذ غير دائمة وليست جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطوريتين القائمتين.

تشابهت العلاقات بين الإمارات الكردية والإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية في جوانب رئيسة منها مع العلاقات التي كانت قائمة بين الدويلات الالمانية

<sup>١٢٤</sup>Bruinessen, The Ottoman Conquest of Diyarbekir, p.17.

والإمبراطورية الرومانية المقدسة (٩٦٢-١٨٠٦) المعاصرة لها عدة قرون. تضمنت جميع تلك العلاقات محتوى كونفدرالي مرتخي. فالعلاقة بين الإمارات/ الدويلات، من طرف، الإمبراطور/ السلطان، من طرف ثان، كانت قائمة في اغلب الاحيان على أساس خضوع الأول الاسمي إلى الثاني. أي ان الإمارات\الدويلات تمتعت باستقلال واسع النطاق، وان كان بشكل غير كامل. ولكن هناك بعض الفروق التي تؤكد تمتع الإمارات الكُردية بدرجة أعلى من الاستقلالية مقارنة بالدويلات الالمانية. اولاً، لم تكن هناك مؤسسات سياسية تعبر عن العلاقة الكونفدرالية بين الإمارات الكُردية والإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية. كانت القوة وموازن القوى قد نظمت تلك العلاقات بصورة مستمرة. وهذا العامل الأخير يفسر لماذا لم يكن ولاء حكام الإمارات الكُردية الاسمي إلى السلطان/ الشاه ثابتاً، إذ غالباً ما غير الأمراء الكُرد ولائهم باستمرار، أو أحياناً امتنعوا عن تقديم الولاء السياسي لأي من الطرفين. وهذا يفسر أيضاً لماذا كان تاريخ العلاقة بين الإمارات الكُردية والإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية مليئاً بالخصومات السياسية والمصادمات العسكرية على النقيض من العلاقة بين حكام الدويلات الالمانية والإمبراطور الروماني.

لقد قامت الروابط بين الدويلات الالمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة على وفق ترتيبات قانونية ومؤسسية، في مقدمتها مجلس للإمبراطورية (Reichstag) الذي ضم ممثلي الدويلات الأعضاء في الاتحاد الكونفدرالي. في هذا الجانب أيضاً لا تتشابه العلاقات التي كانت قائمة بين حكام الدويلات الالمانية ورأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة مع تلك التي كانت قائمة بين أمراء الكيانات الكُردية وسلاطين الدولة العثمانية أو شاهات الدولة الإيرانية. فالعلاقات الأخيرة لم تكن عملياً خاضعة إلى قوانين ثابتة، بالرغم من محاولات السلطات الإمبراطورية المركزية المستمرة في إضفاء طابع قانوني منظم على علاقاتها مع الأمراء الكُرد يُحدد من خلاله واجبات كل طرف وحقوقه من النواحي السياسية والمالية والعسكرية.

على الرغم من ان جلبي حاول التشديد في كتابه على حسن تنظيم التقسيمات الإدارية وعلى تناسقها في منتصف القرن السابع عشر، لم يستطع اخفاء الطابع العشوائي والفوضوي للتنظيم الإداري المفترض للمناطق الكُردية. فلم يكن هناك معيار معين تحدد طبقاً له المنزلة السياسية أو المهام العسكرية أو المسؤوليات

المالية المفترضة للإمارات. نظرياً، عاملت السلطات العثمانية بتليس بوصفها إيالة، بينما كانت هي، في الوقت نفسه، جزءاً من إيالة فان. لا يوجد هناك مصدر آخر يمكن استخدامه لمعرفة مدى صحة أو درجة موضوعية ما كتبه جلبي. إذن على المرء أن يضع نصب عينيه عندما يتمعن في ما كتبه جلبي حول العلاقات العثمانية- الكردية هو انه كان تركيا من حيث الاصل، ولديه ايمان راسخ في المؤسسة التركية القائمة، فضلاً عن كونه ابن أخت والي إيالة فان العثماني، مالك باشا. وكان الأخير صهر السلطان مراد الرابع. من الطبيعي إذن، أن يبالح جلبي بسلطة السلطان التركي وهيئته في كردستان الكبرى، في نفس الوقت الذي يقلل فيه من درجة سلطة السلالات الكردية وقوتها الفعلية في منتصف القرن السابع عشر. يولد كتاب "سياحتنامه" عند القارئ انطباعاً قوياً بان سيطرة السلطات العثمانية على الشؤون الكردية الداخلية كانت تامة ومنظمة إلى ابعد الحدود. ولا يذكر جلبي أي حادثة استطاع فيها الأمراء الكرّد من احتواء التدخلات العثمانية السياسية والعسكرية في شؤونهم الداخلية، ولا يتحدث عن الإمارات التي تمتع باستقلال تام في عهده، خاصة في كردستان الجنوبية. ليس من الغريب إذن أن يتجاهل جلبي كتاب "شرفنامه" برغم انه أهم مصدر للمعلومات حول مراحل تشكل العلاقات العثمانية- الكردية الأولى بعد عام ١٥١٤ وكذلك اعادة بناء حكم السلالات الكردية في المناطق الكردية. فهو لا يتطرق بتاتاً إلى الدور الحيوي الذي اداه الأمراء الكرّد في إلحاق الهزيمة بالدولة الصفوية في عام ١٥١٤-١٥١٥ أو في تحرير أراضيهم، في الوقت الذي يؤكد سحاء السلطان التركي في منح هؤلاء الأمراء حكماً ذاتياً.

ان تحليل جلبي للعلاقات ما بين إمارة بتليس والسلطات العثمانية مثال واضح على أسلوبه الأحادي الجانب، الذي لم يعكس المكانة الحقيقية التي تمتعت بها تلك الإمارة. يقول جلبي ان جميع أمراء (أو خانات) بتليس اخذوا مناصبهم عن طريق فرمانات سلطانية منذ عهد السلطان سليم الأول، وان لهؤلاء الأمراء واجبات عسكرية من خلال مشاركة فرسانهم في الحملات العثمانية ضد إيران الصفوية.<sup>١٢٥</sup> لكن كتاب "شرفنامه" لا يذكر مثل تلك الأمور المهمة التي حرص مؤلفها، بتليسي، على ذكرها. في منتصف القرن السابع عشر، كان الرحالة الفرنسي تافرنيير في زيارة إلى

<sup>١٢٥</sup> Evliya Celebi in Bitlis, pp.57- 59.



مدينة بتليس حيث لفتت نظره القوة العسكرية التي يملكها الأمير عبدال خان. وعلى العكس من جلبي، أكد هذا الرحالة على عدم اعتراف الأمير الكردي بسلطة الشاه الصفوي ولا بسلطة السلطان العثماني. وأكد على ان الشاه كان يتودد الأمير بسبب الموقع الاستراتيجي الذي تمتعت به بتليس.<sup>١٢٦</sup> وبعد عدة أعوام، لاحظ الجزويت، وهم أعضاء جماعة مسيحية كاثوليكية أصولية أسست إرسالية لها في بتليس في عام ١٦٨٥، أن ولاء الأمير الكردي إلى السلطان كان اسمياً فقط.<sup>١٢٧</sup>

تدل الأمثلة الآنفة الذكر حول جوانب العلاقات الكرديّة- العثمانية على أنه لا يمكن تحديد وضع الإمارات الكرديّة في النظام الإداري بسهولة، لأن كلا الطرفين، السلطات العثمانية والأمراء الكردي، تجاهلا باستمرار أي عقد ربما كان ينظم العلاقة بينهما، وهذه هي النقطة الجوهرية التي لم يأخذها جلبي بنظر الاعتبار. لقد حاول الأمراء دوماً أن يكونوا مستقلين عن الدول المجاورة وأن يوسعوا من إماراتهم عندما تحين الفرص. كان من عادة أمراء بادينان ضم سنجار والموصل إلى إمارتهم في أوج قوتهم، بينما كان أمراء سوران وبابان يفرضون من مدة لأخرى هيمنتهم على مدينتي أربيل وكركوك على التوالي. ولتحييد الضغوط التركية، قام بعض الأمراء، خاصة من بتليس وبابان، بتقديم ولاء سياسي إلى الدولة الإيرانية (الشي نفسه ينطبق على علاقات الإمارات في كردستان الصغرى مع الدولة الإيرانية). لقد تغيرت المنزلة السياسية والمسؤولية العسكرية للسلاطات الكرديّة بمرور الزمن تبعاً للتغيرات الحاصلة في ميزان القوى بين الأطراف الثلاثة: الدولة الإيرانية، الدولة التركية والإمارات.

ان من أهم أسباب تمتع الأسر الأميرية في كردستان الكبرى باستقلالية اكبر مقارنة بنظيراتها في كردستان الصغرى هي عامل المسافة بين مركز الحكم الإمبراطوري والإمارات الكرديّة. ففي حين كانت استنبول بعيدة جداً عن الإمارات الكرديّة وهو الامر الذي يُفسر لماذا أناط السلطان مهمة إدارة العلاقات مع الأسر الأميرية إلى الولاة العثمانيين في الولايات القريبة والمجاورة (أي ان إدارة العلاقات بين الحكم المركزي

<sup>١٢٦</sup> راجع أيضاً

H.F.B. Lynch, *Armenia, Travels and Studies*, vol.2, The Turkish Provinces, (London: Longmans, Green & Co., 1901), p.149.

<sup>١٢٧</sup> المصدر أعلاه.

والإمارات الكُردية جرت بصورة غير مباشرة)، كانت عواصم الصفويين قريبة جغرافياً من الإمارات في كُردستان الصغرى، ولهذا كان أعضاء الأسر الملكية الحاكمة البارزون، خاصة ولاية العهد (ميرزاده) مسؤولون بصورة مباشرة عن تنظيم العلاقات مع الأسر الأميرية الكُردية. وبسبب عامل المسافة كانت كُردستان الصغرى والإمارات الكُردية الحدودية (مثل إمارة بابان) مهمة جداً بالنسبة إلى أمن الدولة الإيرانية أكثر بكثير من أهمية كُردستان الكبرى بالنسبة إلى أمن الدولة العثمانية.

إذا أُجريت مقارنة بين عدد الكيانات الكُردية ومنزلتها السياسية في المدة ما بين أوائل القرن السادس عشر ومنتصف القرن السابع عشر سيتبين أن للسلطات العثمانية سياسة محددة في كُردستان، وهي تقوم على تخفيض المنزلة السياسية للسلالات الكُردية أو إلغائها إن أمكن من أجل إلحاقها ببنية الإمبراطورية.<sup>١٢٨</sup> كانت حسنكيف وجمشكزك من بين الإمارات الكبيرة التي تم إلغاؤها وتحويلها إلى مجرد سناجق عثمانية اعتيادية من قبل السلطات التركية. كما تم تحويل عدة كيانات صغيرة كانت تتمتع بدرجة محدودة من الحكم الذاتي إلى سناجق عثمانية تدار من قبل موظفين أتراك، مثل سويدي وقاب وميافارقين وسيرت وموش وخيزان. لكن منحى الضم العثماني للكيانات الكُردية وتخفيض درجة استقلال بعضها كان يقابله في اوقات أخرى منحى إحياء الإمارات المنحلة وترقية منزلة بعضها، ليس لأن السلطات العثمانية غيرت من سياستها وإنما بسبب نجاح أبناء السلالات الملغية، مثل سوران، في إعادة بناء إماراتهم برغم المعارضة الخارجية. استطاعت جزيرة مثلاً من استعادة حكومتها المستقلة بعد أن ألغيت وتحولت إلى مجرد سنجق عثماني لمدة قصيرة.<sup>١٢٩</sup> وكما تم ذكره سابقاً، حطم العثمانيون إمارة بتليس تماماً وعينوا حاكماً تركياً فيها في العقد الثالث من القرن السادس عشر. لكن بتليس استعادت امارتها بعد مرور عدة عقود. في منتصف القرن السابع عشر، غزا العثمانيون بتليس مرة أخرى. ونتج عن ذلك إضعاف بتليس سياسياً وعسكرياً، وكذلك خسارتها أربعة مقاطعات تم تحويلها

<sup>١٢٨</sup> ان استنتاج نيكييتين غير دقيق بأنه وبعد فشل الأتراك في احتلال مدينة فينا عام ١٦٨٣، نجحوا في تحويل جميع الإمارات إلى مجرد "إقاليم تركية"، وان القادة المحليين الكُرد تمتعوا باستقلال اسمي. نيكتين، الكُرد، ص ٢٩١.

<sup>١٢٩</sup> تفاصيل أخرى عن تلك التغيرات الإدارية والسياسية في:

إلى سناجق عثمانية.<sup>١٣٠</sup> وفي فترة لاحقة، لم تستعد بتليس مرة أخرى قوتها السياسية والعسكرية السابقة فحسب وإنما أيضاً جميع مقاطعاتها المنزوعة عنها.

نفذت السلطات العثمانية وباستمرار تغييرات إدارية في كردستان الكبرى لحسابات سياسية واستراتيجية. من الناحية السياسية، أصبح حيويًا بالنسبة إلى تلك السلطات شق صفوف الكرد سواء عن طريق ضرب إمارة بأخرى أو فرع من السلالة الحاكمة ضد منافستها. كانت سياسة تشتيت وحدة الكرد تلك هي الحجر الأساس في السياسة العثمانية (والإيرانية) في كردستان منذ البداية. وكانت أهدافها تتلخص في إلحاق الإمارات الكردية بالامبراطورية بشكل تدريجي ومستتر. بدأت سياسة الإلحاق بتحويل المقاطعات التي تمتعت بالحكم الذاتي والواقعة في أطراف كردستان الغربية والجنوبية إلى سناجق عثمانية تحت إمرة موظفين أتراك تعينهم السلطات المركزية، مثل ماردين وسنجار وكركوك واربيل واربيل واربيل. بمرور الوقت، ظهرت عدة مراكز قوى عثمانية في كردستان الكبرى والمناطق المجاورة لها. تمثلت مراكز القوى هذه بسلطة حكام الولايات الأتراك وبطانتهم من موظفين إداريين وقادة عسكريين ورجال دين. لقد أصبح هؤلاء الحكام عاملاً مهماً مؤثراً في الأوضاع الكردية بسبب المسؤوليات الكبيرة التي انيطت بهم في تسيير أمور المناطق الكردية ميدانياً. قاد هذا بشكل لا مفر منه إلى تضارب المصالح بين مراكز القوى العثمانية تلك والإمارات الكردية. لقد حاول الحاكم التركي الأجنبي والامير الكردي المحلي في تعزيز سلطتهما ونفوذهما على حساب الآخر. وقاد تضاد المصالح والنوايا هذا إلى مواجهات عسكرية بين مراكز القوى العثمانية في الأقاليم والسلالات الكردية القائمة.

تركزت مهام مراكز القوى العثمانية في نشر الفرقة والاختلاف في صفوف الكرد لمنع قيام جبهة موحدة بين السلالات الكردية المختلفة. فعندما كان يحاول أحد حكام الولايات الأتراك إخضاع إمارة معينة إلى سلطته، يلجأ عادة إلى اغراء الإمارات أو القبائل الكردية بالانضمام إلى حملته العسكرية عن طريق تقديم الهدايا وتوزيع الغنائم ومنح الألقاب. وغالباً ما أدت تلك الحملات العسكرية التركية إلى حدوث المزيد من الشقاق السياسي والعداوات الداخلية وتعميقها بين الإمارات والقبائل. يوجد هناك مثالان بارزان حول تطبيق سياسة شق الصف الداخلي في المناطق الكردية، أولها،

<sup>١٣٠</sup> بتليس "شرفنامه"، ص ٤٥٥.

قيام باشا بغداد وبالتعاون مع عدد من الإمارات بحملة عسكرية ضد المناطق الخاضعة لسلطة السلالة الاردلانية في كردستان الجنوبية في منتصف القرن السادس عشر، وثانيها قيادة والي فان لحملة مماثلة ضد أمير بتليس في منتصف القرن السابع عشر. لقد حرص الأتراك (وكذلك الصفويون بعد عهد شاه إسماعيل) على عدم مهاجمة مجموعة من الإمارات الكردية في ان واحد. وتأكد الأتراك دوماً من ان تدخلاتهم في الشؤون الكردية الداخلية لن تؤدي إلى اندلاع انتفاضة عامة في كردستان. من الناحية الاستراتيجية، كانت مسألة مهمة وحيوية بالنسبة إلى السلطات العثمانية أن تخضع مدن كردية معينة لسيطرتها المباشرة. وقد تم تعزيز السيطرة العثمانية عادة عن طريق إقامة ثكنات عسكرية ضخمة وتشجيع الاستيطان التركي فيها. لقد خدمت مواطئ القدم السياسية والعسكرية تلك كثيراً مصالح السلطات العثمانية في كردستان الكبرى إلى أبعد الحدود، حيث عرقلت ظهور مراكز قوى سياسية في كردستان تستطيع ان تبعد الامارات عن النفوذ الخارجي وان توطد في الوقت نفسه التعاون فيما بينها. كما مكنت المراكز السياسية والعسكرية الخارجية تلك السلطات العثمانية من تنظيم حملات عسكرية سريعة ضد الإمارات المتمردة. واهتمت السلطات العثمانية بمدينة دياربكر بشكل خاص بسبب موقعها الاستراتيجي. كانت قلعة المدينة معروفة بتحصيناتها التي كونت حاجزاً قوياً أمام أي هجوم: «فحيطانها مبنية من حجارة البازلت، والمدينة مشيدة على قمة صخرية انحدارية، بحيث جعل من الصعب على العدو الذي يحاصر المدينة أن يحفر خنادق أو مناجم من اجل السيطرة عليها».<sup>١٣١</sup>

ولان دياربكر سيطرت على الطرق الاستراتيجية بين اناضوليا التركية والعديد من المناطق الكردية، قررت السلطات العثمانية تحويلها إلى أهم معقل سياسي وعسكري لها مباشرة بعد عام ١٥١٥. لتلك الأسباب ظهرت دياربكر مركزاً لولاية واسعة تحكم من قبل موظفين أترك عينهم السلطان العثماني. كما وضعت السلطات العثمانية ثكنات عسكرية في مدن كردية هامة أخرى مثل ارزروم وفان واربييل وكركوك. وشكلت كل هذه المعاقل التركية (فضلاً عن دياربكر) حزاماً استراتيجياً طويلاً، يحيط بالامارات الكردية المستقلة وشبه المستقلة من معظم الجهات. لقد

<sup>١٣١</sup> Evliya Celebi in Diyarbekir, pp.129-131.

استخدمت الثكنات العسكرية التركية في دياربكر وارزروم وفان وكركوك بانتظام في احتواء نفوذ ثلاث إمارات كُردية بشكل خاص وهي بتليس وجزيرة وبابان. فضلاً عن ذلك، تعاونت المعازل التركية تلك فيما بينها في قمع الإمارات المنتفضة. ففي هجومه ضد مدينة تبليس في منتصف القرن السابع عشر كان الجيش العثماني يتألف من قوات جاءت من دياربكر وارزروم وفان.

يمكن الاستنتاج في ضوء ما قيل عن مختلف جوانب العلاقة بين السلطات العثمانية والسلالات الكُردية بأن الوضع السياسي في المناطق الكُردية كان في حالة من التقلب المستمر. لهذا السبب لا يجوز استخدام التقسيمات العثمانية الإدارية معياراً عاماً يحدد درجة استقلالية الإمارات الكُردية أو مقدار خضوعها. ان ما حدد سلطة الأمير الكُردية ونفوذه السياسي هو التغيير الحاصل باستمرار في ميزان القوى بينه وبين الدولتين التركية والإيرانية من جهة وبين تلك الدولتين من جهة ثانية. لقد تمتعت العديد من الإمارات الكبرى، كبابان وسوران وبتليس وبادينان، باستقلال فعلي في معظم مراحل وجودها التاريخي الطويل. وتقلبت المنزلة السياسية للإمارات الصغيرة بين الانخفاض والازدياد، وفي بعض الاحيان تم إلغاء عدد من هذه الامارات تماماً. عموماً، لم تتأثر درجة الاستقلال التي تمتعت بها السلالات الكُردية الحاكمة بالتقسيمات الإدارية التي وضعتها استنبول للمناطق الكُردية. فقد تغاضى عادة واضعو التقسيمات الإدارية في الدولتين العثمانية والصفوية عن ذكر وجود إمارات كُردية مستقلة، كانت تدير شؤونها الداخلية بحرية.

لقد تمثلت عوامل السيادة السياسية للامير الكُردية في جوانب مهمة كثيرة منها:

- لم يستمد الأمير شرعية سلطته من كونه ممثلاً لسلطان أو لشاه أمام رعيته (أي موظف إمبراطوري) وإنما كان ممثل رعيته أمام الحكام الأجانب، بتعبير آخر، كانت شرعية حكم الأمير داخلية وتاريخية، وليست خارجية مرهونة بالظروف.
- تقديم البيعة والولاء له من قبل سكان الإمارة.
- امتلاك سلطة تنفيذية وتشريعية وقانونية واسعة ويشمل ذلك حتى الحكم بالقتل.

- خضوع السلطة الروحية لسيطرته، أي تعيين القضاة أو أحياناً المفتي (في بعض الإمارات تمتع الأمير بمنزلة دينية فضلاً عن مكانته الدنيوية بسبب انحداره من اسر دينية رفيعة المستوى، مثل الاسرة الأميرية في بهدينان.

- سك النقود باسمه (لم تكن اهمية هذا رمزية وانما هو تأكيد مادي مباشر وصريح لهوية الحاكم الفعلي).
- ذكر اسمه في خطبة الجمعة (هذا تذكير آخر على هوية الحاكم الفعلي).
- قدرته المطلقة على تجنيد افراد وحدات عسكرية وتنظيمهم وتسليحهم.
- تسلمه السلطة السياسية حسب التقاليد المتعارفة عليها محليا (أي وراثه المنصب بعد وفاة الأمير السابق) أو اختيار من قبل أعضاء السلالة الأميرية الحاكمة وبدعم من طبقة الأشراف (لم يكن للسلطان/ الشاه دور فعلي في عملية الخلافة).
- حقه في فرض انواع الضرائب.
- قدرته على التحكم بحياسة الأراضي وكيفية توزيع الإقطاعات على بقية أعضاء الأسرة الحاكمة وبقية أعضاء طبقة الأشراف، والقدرة على مصادرتها ومنحها إلى آخرين.
- تحمله مسؤولية توفير الرفاهية للأهالي وتقديم الخدمات العامة، مثل بناء وتعمير المساجد والمدارس والطرق والجسور وخانات المسافرين وحماية طرق التجارة وتأمين سلامة الرعية.
- أما العوامل التي ضيقت من حرية الإمارة الكُردية وقللت من استقلالية الأمير الكُردى امام السلطان/ الشاه فتمثلت في الجوانب الآتية:
- دفع ضريبة سنوية (لم تجر على جميع الإمارات ولم تطبقها الإمارات بصورة مستمرة).
- إرسال وحدة فرسان عسكرية في حالة وقوع الحرب (لم تجر على جميع الإمارات ولم تطبقها الإمارات بصورة مستمرة).
- يتحدد دور السلطان/ الشاه بالمصادقة أو تزكية تنصيب أمير جديد بعد موت أمير سابق أو إزاحته (في كثير الاحيان وكما يبين تاريخ إمارة بابان تم تجاهل هذا العامل).
- يتبين من المقارنة بين العوامل المذكورة آنفا ان الأمير الكُردى كان اقرب بكثير إلى منزلة الحاكم المستقل صاحب السيادة منه إلى منزلة الموظف الإمبراطوري الذي ارتبط مصيره بإرادة المركز.

## البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية للإمارات

### البنية السياسية للإمارة ووراثة الحكم

سادت العلاقات الابوية في مسالة السلطة وتوارث الحكم كما كانت هي مهيمنة على جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافة. كان العرف السياسي السائد في موضوع وراثة الحكم وتسلم السلطة يتبع الخط الذكوري، أي ان الذكور يرثون عن الأباء أو الأقارب منصب الأمير. جرت العادة ان يكون الابن الأكبر المرشح لوراثة منصب والده. وهناك حالات قسم فيها الأمير الأب الإمارة على عدة مناطق تتمتع بحكم- ذاتي داخلي تدار من قبل أبنائه لمنع نشوء صراع من اجل السلطة من بعده. وفي العادة، احتفظ الابن الأكبر بمنصب الحاكم (أو الأمير) الأعلى في تلك الإمارة بعد وفاة الأب. وغالباً، ما تستمر المناطق الحكم- الذاتي، التي تتخذ شكل المدينة- القلعة والاراضي المحيطة بها، في الوجود بالرغم من زوال دواعي إيجادها. ولكن، على ما يبدو لم يكن من حق أبناء حكام المناطق وراثة الحكم بشكل تلقائي بعد وفاة الأب، إذ احتفظ الأمير الجديد بالقرار النهائي في مسالة تعيين حكام جدد، قد يختارهم من بين بقية اعضاء الأسرة الحاكمة. ان الاعتماد على الخط الذكوري في وراثة الحكم يُفسر نسبياً أسباب بقاء السلالات الأميرية الكردية في السلطة عدة قرون.

غالباً ما تتخذ عاصمة الإمارات شكل المدينة- القلعة أي مدينة تتوسطها قلعة حيث تكون مقراً للأمير وأفراد أسرته وعدد من أعضاء طبقة الاشراف. هناك دوافع مختلفة وراء اتخاذ المدينة- القلعة عاصمة لكثير من الإمارات ومنها الدافع العسكري والمتمثل بالقدرة على مقاومة الغزاة، والدافع الاقتصادي والمتمثل بحماية الطرق التجارية الحيوية، التي كانت أحد مصادر دخل الإمارة. اتخذت الإمارات الكبيرة في العادة شكل وحدات للحكم- الذاتي (مثال على ذلك إمارة بهدينان المؤلفة من ثلاث مناطق وهي العمادية العاصمة، وزاخو وعقرة، وامارة بابان والمؤلفة من قلعة جولان/ سليمانية وكويسنجق ورائية). بمعنى اخر، عين الأمير حكاماً لإدارة المدن والقلع. ومنح هؤلاء الحكام، الذين هم عادة أعضاء في الأسرة الأميرية الحاكمة (اخوة أو أبناء الأعمام أو الأعمام أو الأخوال... الخ)، صلاحيات ملحوظة في ميدان

الإدارة المدنية وجباية الضرائب وارسال وحدة عسكرية في حالة وقوع الحرب. هناك سببان على ما يبدو وراء تبني هذا النظام وهما: أولاً وجود حاجة عملية موضوعية تتعلق بطول المسافة وصعوبة الاتصالات، حيث لعب عامل الطبيعة الجغرافية الوعرة دوراً كبيراً في عدم تطور حكم مركزي قوي. أما السبب الثاني فيتمثل بوجود حاجة سياسية لمنع وقوع الخلافات بين أعضاء الأسرة الحاكمة حول السلطة من خلال تعيينهم حكماً على أجزاء من الإمارة. لقد شكل نظام الحكم - الذاتي الداخلي مصدر نقطة الضعف بقدر ما كان هو مصدر قوة. من جانب، شجع هذا الوضع حكام المناطق على إعلان الانفصال أو التمرد على الأمير الشرعي بهدف الإطاحة به، ومن جانب ثانٍ منح الإمارة المرونة اللازمة لمواجهة مشاكل جغرافية موضوعية وسياسية ذاتية. في ضوء ما قيل يُمكن تشبيهه بنية الإمارات الكبيرة باتحاد فدرالي متعدد الجوانب: بين مدينة ومدينة أخرى، بين قبائل مستقرة وقبائل شبه مستقرة، وبين المدينة والريف.

بالإتفاق مع العلاقات الاجتماعية القائمة اتخذ دور الأمير السياسي والاجتماعي والاقتصادي طابعاً ألبوياً. فهو ينظم مختلف العلائق الداخلية مثل الإجراءات المتعلقة بحقوق الرعي وتوزيع المراعي على جانبي خطوط الترحال. كما يوزع الأمير الأقطاعات والمناصب على طبقة الإشراف، ويقوم برعاية المدارس والمساجد والكنائس، والعلوم، وهو مسؤول عن تطبيق العدالة وديمومة النظام الاجتماعي. بالنسبة إلى الفلاح، الأمير يحميه من الاستغلال الاقتصادي المفرط من قبل سيده، ولغير المسلم الحماية من اضطهاد ديني وللتاجر توفير الأمن وسبل الراحة على الطرق التجارية. بالتوافق مع مهامه المختلفة، استمد الأمير شرعية حكمه من مصادر متنوعة اجتماعية وسياسية ودينية وتاريخية.<sup>١٣٢</sup> ان الاستمرارية التاريخية للإمارة الكردية لعبت دورها في توثيق روابط الحاكم بالمحكوم.

<sup>١٣٢</sup> استمد الحكام الصقويون شرعيتهم من ثلاث مصادر: ١ كونهم ممثلي الإمام المهدي الغائب وذلك بواسطة الادعاء بالانتساب إلى الإمام السابع موسى الكاظم (الهدف هو كسب ولاء المسلمين عموماً والشيعية خاصة) ٢ باعتبارهم القادة الروحيين (أو مُرشدين) لطريقة الصوفية الصقوية (هذا هام بالنسبة إلى ضمان ولاء القبائل التركمانية) ٣ باعتبارهم يندرون من كسرى يزيد طرد الثالث آخر ملوك الساسانيين عن طريق ابنته التي ادعوا بأنها كانت زوجة الإمام الحسين (الهدف من وراء ذلك كسب ولاء الفرس وجميع الأقبام الإيرانية).



كانت النخبة الحاكمة في الامارة في حاجة دائمة إلى تقوية الوحدة الداخلية نظراً لوجود أخطار خارجية مستمرة مصدرها دول كبيرة مجاورة. ولهذا السبب تحنّب الحكام اللجوء إلى سياسات تثير إضرابات اجتماعية داخلية كالتّي يخلقها فرض الضرائب العالية. كانت هناك في العديد من الإمارات علائق قوية بين مختلف الشرائح الاجتماعية سواء في قمة الهرم أو في قاعدته بسبب الانتماء إلى القبائل نفسها أو المناطق أو العرق أو الدين أو المذهب أو حتى الطرق الصوفية نفسها. عموماً، كانت التعايش الديني المشترك (خاصة المسلم - المسيحي) قد استقرّ ونُظِم بطريقة منع ظهور مصادمات دينية دموية كالتّي كانت تشهدها منطقة البلقان بين المسلمين والمسيحيين. المقارنة بالامارة، لعبت عدة عوامل لغوية ودينية وعرقية وقبائلية داخل الإمبراطوريات والمملكات الكبيرة (مثل الدولتين العثمانية والإيرانية)، في خلق هوة كبيرة بين الفئات الحاكمة والفئات المحكومة.

قيل الكثير عن كثرة الصراعات في قمة الهرم السياسي في تاريخ الإمارة الكُردية، وكيف انها كانت السبب الرئيس في تعرض الإمارات إلى خطر التدمير أو الاقل خسارة جزء من اقاليمها أو استقلاليتها. ولا توجد دلائل، من ناحية أخرى، تشير إلى ظهور حركات اجتماعية شعبية بصورة متكررة كالتّي كانت تبرز في الدول المجاورة. كيف يُمكن تفسير ذلك الامر، أي وجود ظاهرة كثرة الصراعات بين أعضاء النخبة السياسية من اجل السلطة، من جانب، وضعف الصراع الاجتماعي الطبقي، من جانب ثانٍ؟ هناك جملة فرضيات يُمكن ان تساعد على فهم الوضع السياسي والاجتماعي داخل الإمارة، وأهمها لم تكن النخب السياسية والاجتماعية في حاجة ماسة إلى تشديد درجة استغلال الطبقات الدنيا من الناحية الاقتصادية لتقوية النظام القائم، على النقيض من الدول الكبيرة المجاورة التي كانت في حاجة دائمة إلى الحصول على أموال هائلة لتمويل أجهزتها البيروقراطية وجيوشها الجارّة وحروبها الكثيرة والترف والبدخ الذي يرافق حكم الأسر الملكية الكبيرة. من الضروري التأكيد فيما يتعلق بكثرة الصراعات والخلافات بين أعضاء الاسر الأميرية ان هذه الظاهرة السياسية لم تكن مقتصرة على كُردستان وإنما هي ظاهرة عامة عانت منها مثلاً الدولة الإيرانية منذ قيام الحكم الصفوي في بداية القرن السادس وحتى سقوط الحكم القاجاري في عشرينيات القرن الماضي.

لم تُسر شؤون الإمارة على وفق تقاليد ومفاهيم النظام الاستبدادي الشرقي القديم الذي كان قائماً في البلدان الكبيرة المجاورة. كان هناك شكل من أشكال الديمقراطية النخبوية الأرستقراطية في الإمارة، جسدهت المناقشات الدائرة في الديوان الأميري. مثَّل هذا الديوان مؤسسة سياسية استشارية مهمة تبادل الأمير فيها الآراء مع ممثلي طبقة الأشراف في القضايا الرئيسية التي تهم الإمارة مثل الحرب والسلام والتجارة والضرائب وقضايا الخلافة والتنصيب. صحيح ان للأمير الكلمة الأخيرة في هذا النظام السياسي بوصفه الحاكم الشرعي الوحيد والمؤهل لإصدار القرارات، لكنه كان عليه مراعاة مصالح وتطلعات طبقة الأشراف التي مثلت محور النظام الاجتماعي. وبقيّة آثار الديمقراطية الأرستقراطية حتى نهاية النظام الإماراتي الثاني. في هذا الخصوص، أشار ن اوشاكوف، أحد ضباط الأركان العامة الروسية، بعد زيارته عدداً من المناطق الكُردية في منتصف القرن التاسع عشر، إلى «الوضع السياسي عند الكُرد» الذي ذكَّره «تماماً بأوروبا في القرون الوسطى بجميع أبعاد وقيم المجتمعات الإقطاعية التي تدار بنظام ديمقراطي مقتبس من روح النظام الأبوي القديم».<sup>١٣٣</sup>

### التقسيم الاجتماعي وطبقة الأشراف

وجدت طبقة أشراف متوارثة محلية حينما شكَّلت أولى الإمارات الكُردية في القرن العاشر واستمرت في الوجود عدة قرون، بالرغم من التقلبات الحاصلة في الوضع السياسي في كُردستان ما بين الحكم الأجنبي المباشر والاستقلال الفعلي. ان المقصود بالطبيعة المتوارثة لطبقة الأشراف هي قيامها واحتفاظها بمكانتها وامتيازاتها الاجتماعية على أساس الاصل الأسري، وليس على أساس الوظيفة الرسمية التي يؤديها الافراد بسبب تعيينهم في مناصب مدنية أو عسكرية مرموقة.<sup>١٣٤</sup> وهذا يعني عملياً، ان النظام الاجتماعي كان منغلِقاً، يصعب فيه الارتقاء الاجتماعي

<sup>١٣٣</sup> دانتسيغ، "الرحالة الروس في الشرق الأوسط"، ص ١٧٥.

<sup>١٣٤</sup> قبل وقوع الثورة الفرنسية (١٧٨٩)، كان هناك نوعان من الأرستقراطية في فرنسا: الأولى قديمة وراثية عُرفت بأرستقراطية السيف، والثاني جديدة تعتمد على التعيين لا على النسب العائلي. لقد خلق ملوك فرنسا المطلقين الأرستقراطية الجديدة في القرن السابع عن طريق منح افراد من العامة مناصب سامية في الدولة وفي المحاكم.

من طبقة أو شريحة اجتماعية ادنى إلى طبقة أو شريحة اجتماعية أعلى. وهناك بعض الاستثناء لهذه القاعدة. فالأسرة الحاكمة الاردلانية جاءت من أصول فلاحية ولم تنحدر من طبقة الاشراف. وبالرغم من مرور عدة قرون على ارتقاء الاردلانيين إلى طبقة الاشراف، ظل البابانيون مثلاً يُعيرونهم باصولهم الفلاحية غير النبيلة. وبسبب طبيعتها المتوارثة ساعدت طبقة الاشراف على عدم حصول انقطاع حاسم في الاستمرارية التاريخية للمجتمعات الكُردية. واسهم هذا أيضاً في توفير الأرضية الاجتماعية اللازمة لمواصلة حكم الأسر الأميرية خاصة في عصر الإماراتي الثاني.

اتسمت الوظيفة الاساسية لطبقة الاشراف او أرستقراطية المجتمعات الابوية والاقطاعية بطابعها العسكري المتعلق بحماية أمن الكيان القائم. وهذا لا يعني بالضرورة ان جميع اعضاء الطبقة الارستقراطية كانوا من العسكريين المحترفين. ففي الوقت الذي نجح فيه ملوك بروسيا مثلاً في ان يجعلوا الارستقراطية العسكرية المحلية في خدمة الدولة، لم تستطع الدولة العثمانية عسكرة الارستقراطية الكُردية من خلال دمجها في المؤسسة العسكرية الرسمية. اما الدولة الصفوية فقد حققت بعض النجاح حينما ألحقت بعض الأسر الارستقراطية الكُردية خاصة الشيعية (مثل أسرة الزنكنة) بالمؤسسة العسكرية. لقد كانت للأرستقراطية الكُردية قاعدة اقتصادية ارتبطت بالتصرف بالأراضي الزراعية والبساتين والمراعي والحيوانات. وهذا يُفسر لماذا لم تكن الإمارة تشكيلية عسكرية، ترتبط بأداء وظيفة أمنية أساسية حددتها لها دول كبيرة مجاورة. ولم يؤد تطور نظام الإمارة الى ظهور شريحة متميزة جديدة من الارستقراطية العسكرية برغم اهمية العامل الأمني على المستويين الداخلي والخارجي. ولكن هذا لا يعني ان الارستقراطية الكُردية لم تؤد مهام عسكرية في اوقات الحروب الداخلية والخارجية. في مجتمع قلق على حالته الأمنية، ساعدت المهام العسكرية التي كان يؤديها اعضاء من الطبقة الارستقراطية الى تعزيز موقعهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهو اجر الامير الحاكم بالتالي على مراعاة مصالحهم والإصغاء الى مطالبهم.

من الضروري الإشارة إلى ان الألقاب الخاصة التي كان يمنحها السلاطين والشاهات مكافئات لم تخلق شريحة أرستقراطية جديدة في كُردستان، وذلك لان جميع الذين منحوا تلك الالقاب كانوا من اعضاء الأرستقراطية المتوارثة القائمة. فضلاً عن

ذلك، لم يُصاحب منح الألقاب تعيين في وظائف مدنية أو عسكرية داخل مؤسسات الدولة العثمانية والإيرانية أو ازدياد في الصلاحيات والامتيازات، وإنما كانت إقرار من الجانب المانح بأهمية الجانب الممنوح وهي في الأساس محاولة لكسب وده. من الناحية الفعلية، لا يُمكن إعطاء أهمية كبيرة لمسألة الألقاب التي كانت تمنح إلى أعضاء الاسر الأميرية وبقية طبقة الاشراف. فهي لم تزيد أو تقلل من أهمية الأمير أو الإمارة التي ينتمي إليها. ان أهمية الإمارة (والامير) ارتبط بقدرتها العسكرية والمادية وحسن الإدارة. على سبيل المثال، حمل الأمير بدرخان لقب بيك في أربعينيات القرن التاسع عشر في الوقت الذي كانت أهميته ومنزلته قد فاقت بكثير أهمية جميع الأمراء الكُرد المعاصرين له ومنزلتهم، الذين كانوا يحملون لقب الباشا.<sup>١٣٥</sup>

<sup>١٣٥</sup> كان نظام الألقاب في أوروبا الغربية أكثر وضوحاً منه في الشرق الأوسط. لقد تطور نظام هرمي من الألقاب في أوروبا بحلول القرن الرابع عشر. هذا النظام ارتبط بالمناطق التي تتمتع بنوع من الحكم الذاتي. كان لقب دوق (Duke) في رأس الهرم، يتبعه الماركيز (Marquise) و ثم الكونت (Count) والفيكونت (Viscount) وأخيراً البارون (Baron). في وقت لاحق، أُضيف لقب الأمير (Prince) إلى ذلك الهرم الذي كان أعلى من لقب الكونت الذي منح في بداية الامر إلى أعضاء الأسرة المالكة. وتفاوتت علاقة لقب الأمير باللقب الدوق من بلد لبلد آخر ومن وقت لآخر. بعض البلدان تخلت عن استخدام هذا اللقب أو ذاك لصالح استخدام القاب توازيها من حيث المنزلة والمضمون. في بعض البلدان استحدثت القاب جديدة. في بريطانيا، مثلاً، استحدث لقب إيرل (Earl) الذي صُنّف من حيث الأهمية بين لقب الماركيز والفيكونت. وفي بلدان أخرى، تم اشتقاق القاب جديدة من اللقب القديم. في ألمانيا، اشتق لقب الكونت ببلتين (Count Palatine) والاند كونت (Land Count) والسيبي كونت (City Count) والفوريست كونت (Forest Count) من اللقب الكونت الأصلي. فضلاً عن الألقاب المرتبطة بالمنطقة الجغرافية، أوجدت القاب أخرى لم ترتبط بعامل ملكية الأراضي والإقطاعيات والقلاع الخ. بعبارة أخرى، كان هناك تصنيفان بين الاشراف من حاملي الألقاب في أوروبا: الأول القاب مرتبطة بالملكية العقارية أو الثاني القاب غير مرتبطة بالملكية العقارية. بدأ الأهالي يتلمسون الأهمية والسمعة الاجتماعية للالقاب المرتبطة بالمنطقة الجغرافية التي تتمتع بنوع من الحكم الذاتي. رأى الملوك في الألقاب فرصة لمكافئة الأفراد المخلصين على أداء خدمات معينة. بهذا النحو استخدم الملوك نظام الترقية القائم على الألقابي وسيلة سياسية لكسب حلفاء جدد أو تقوية ولاء حلفاء قداماء. بمرور الزمن منحت الألقاب إلى أعضاء شرائح اجتماعية خارج طبقة الأشراف وللأفراد الذين لا يملكون اقطاعيات أو عقارات خاصة بهم. وقد قلل هذا من قيمة تلك الألقاب. مع هذا ظلت حلقة الأشراف من حاملي الألقاب يمثلون حلقة اجتماعية صغيرة تحيط بالملوك. بحلول القرن

ينقسم أبناء طبقة الأشراف هرمياً إلى أبناء الاسرة الأميرية الحاكمة، وقادة القبائل وكبار رجال الدين (ومنهم شيوخ الصوفية) واثرياء المدن (كبار التجار) والقادة العسكريين وموظفي الإدارة ذوي المناصب السامية كالذين اشرفوا على الشؤون الإدارية والاقتصادية والمشاريع العامة. أما الشعراء ورواة التاريخ والمدرسين الذين جاءوا عادة من الشريحة الدينية وأبناء السلالة الحاكمة فشكّلوا الفئة المثقفة (intelligentsia) المسؤولة عن صياغة مفاهيم وقيم أبوية عن المجتمع والحياة.

واحتل أفراد القبائل والتجار والباعة وصغار الموظفين واصحاب المحال والحراس مركزاً اجتماعياً وسطياً، صاحبه دور سياسي هامشي. من الناحية العسكرية، شكّلت القبائل العمود الفقري للأمارّة. وارتبط اتساع حجم القبيلة وانكماشه بقوة وهيبة الأمارّة التي ينتمون إليها. فكلما تمتعت الأمارّة باستقرار امني وازدهار اقتصادي اتسعت قبائلها نتيجة لالتحاق أبناء القبائل الضعيفة والمهددة الأخرى بها. ويقود استتباب الأمن والاستقرار إلى تعجيل عملية التمدن والاستيطان بين أبناء القبائل الرحل، من جهة، وإلى تكثيف الأنشطة الثقافية والاقتصادية، من جهة ثانية. ابرز مثال على وجود علاقة وثيقة بين التقدم الاجتماعي - الاقتصادي والتطور الثقافي والسياسي هو وضع إمارة بتليس في منتصف القرن السادس عشر، أي قبل الاحتلال العثماني لها (التفاصيل في القسم التالي). لقد شكّل التجار وقوافلهم التجارية أهم قناة ربط الإمارات الكرديّة مع الأقاليم الأجنبية المحيطة بها. ولأن العديد من الطرق التجارية التي تربط الأقاليم الإيرانية بميسوبوتاميا وأناضوليا تمر من المناطق الكرديّة، فإن أمراء الكرّد كانوا على اطلاع على الأوضاع السياسية والعسكرية القائمة في الأقاليم الأجنبية المجاورة. أما الفلاحون المسلمون منهم والمسيحيون، فشكّلوا أدنى الطبقات الاجتماعية مكانة.

نظراً لمكانتهم الاجتماعية السامية، شكّلت طبقة الأشراف الكرديّة القوة السياسية القائدة في النظام الإماراتي، التي تواجدت في المجتمعات الكرديّة منذ قرون سبقت بكثير قيام الصراع العثماني - الصفوي من أجل الهيمنة الإقليمية. ويحوي

---

التاسع عشر، وبالتوافق مع التطور الراسمالي الحاصل في الميدان الاجتماعي والاقتصادي، فقدت اغلب الألقاب علاقتها بالعقارات لتصبح ألقاباً عائلية.

كتاب "شرفنامه" العديد من الامثلة عن قيام الأشراف الكُرد بتنظيم انتفاضات معادية للحكومة المركزية الأجنبية وباحياء الإمارات التي تم إلغاؤها.<sup>١٣٦</sup> السؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هو: هل استطاع الأتراك العثمانيون وضع حد لوجود طبقة أشراف محلية في المناطق الكُردية أو تحويلها إلى مجموعات متعاونة في اقل تقدير بعد عام ١٥١٥؟ في ظل القوانين الإسلامية التقليدية، تعود ملكية الأراضي الزراعية والمراعي كافة رسمياً إلى الخليفة بوصفه القائد الأسمى وممثل الله الشرعي على الأرض (استثنيت البساتين التي تحيط بالمدن من تلك القوانين الإسلامية، بوصفها جزءاً من المدن ولذلك يمكن ان تكون ذات ملكية خاصة. ربما يفسر هذا ازدهار الإنتاج البستاني بشكل عام). وانطبق مبدأ ملكية الأرض على الأقاليم الأجنبية المستولى عليها طبقاً إلى حق الفتح. وكان على جميع الرعية الذين يعملون في الأرض أن يدفعوا إيجاراً إلى الخليفة. وطبق هذا المبدأ بشكل مباشر وغير مباشر من قبل جميع الإمبراطوريات الإسلامية، منها الأموية والعباسية والبيهية والسلجوقية. على غرار ما سبقتها من إمبراطوريات إسلامية، لم تكن في الإمبراطورية العثمانية عموماً ملكية خاصة للأراضي الزراعية والمراعي. وكان للسلطان حق مطلق في استغلال جميع المصادر والثروات الموجودة في الدولة الإسلامية. شكل هذا الامتياز الأساس الاقتصادي للحكم العثماني المطلق.<sup>١٣٧</sup> وعلى غرار الخلفاء الاسلاميين الذين سبقوه، منح السلطان العثماني كبار المحاربين والموظفين الاداريين و غيرهم إقطاعات على شكل عقد ايجار طويل الأمد (كانت لهذه الإقطاعات أسماء متميزة في ظل حكم أنظمة إسلامية مختلفة. ففي ظل الإمبراطوريات الإسلامية- العربية عرفت باسمها الأول أي اقطاعية وفي العهد العثماني- التركي عرفت بالتيمار والزعامة). عموماً، كان على الاشخاص الذين منحوا تيمارات تزويد الدولة بوحدة عسكرية من الخيالة في حالة وقوع حرب. عملياً، تحولت التيمارات الممنوحة إلى عقارات شخصية شبيهة بالملكية الخاصة حيث يمكن توزيعها بين الورثة. لكن كان بإمكان الدولة العثمانية استعادة سيطرتها على تلك الإقطاعات متى شاءت. كقاعدة عامة، يشرع كل سلطان جديد بعد تسلّم زمام الحكم باستبدال اصحاب التيمارات بافراد اخرين

<sup>١٣٦</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٩٠-٩١، ١١٩، ١٢١، ١٥٠، ١٦٠، ١٦٣، ١٧٥-١٨٧.

<sup>١٣٧</sup> اندرسون، "دولة الشرق الاستبدادية"، ص ١٣-١٤.

بهدف منعهم من تعزيز منزلتهم على حساب السلطات المركزية. وقد طبق هذا الاجراء بانتظام كما كان الحال في القرن الثامن عشر.<sup>١٣٨</sup> نظراً لترابط الثروة والنفوذ بصورة وثيقة مع الدولة ولان منزلة الفرد يحددها موضعه داخل الدولة، لم تكن هناك امكانية لقيام طبقة أرستقراطية قوية في الإمبراطورية العثمانية على غرار أوروبا الإقطاعية. بتعبير آخر، عكس عدم وجود طبقة عقارية أرستقراطية دائمة غياب أي ضمان لحقوق الملكية الخاصة للأراضي الزراعية والمراعي.

وبقدر ما تشير الدلائل المتوفرة، تواجدت طبقة الأشراف الكردية المحلية في كردستان لمدة خمسة قرون قبل اندلاع الصراع الصفوي- العثماني وعلى ظهور الهيمنة العثمانية في الشرق الأوسط. ان من الخطأ الاستنتاج بان طبقة الأشراف الكردية قد غابت عن الوجود بعد التغيير الإقليمي السياسي الذي حصل في عامي ١٥١٤-١٥١٥، أو انها (خاصة أعضاؤها من افراد السلالات الأميرية الحاكمة) فقدت سيطرتها على الأراضي الزراعية والمراعي، على النقيض مما حدث في منطقة البلقان حيث دمر الأتراك طبقة الأشراف المحلية فيها.<sup>١٣٩</sup> في مناطق كردستان الشمالية والجنوبية، لم يكن عند الأتراك فرصة القيام بتغيير بنيوي اجتماعي- اقتصادي جذري لان غالبية تلك المناطق لم تحتل عسكرياً من قبل الجيوش العثمانية.

في المرحلة التي تلت عام ١٥١٥، لم تدفع الإمارات الكردية الكبيرة منها والصغيرة أية ضرائب إلى الخزانة العثمانية المركزية. وبعد توطيد النفوذ العثماني في آسيا الصغرى وميسوبوتاميا، حاولت الدولة العثمانية تنظيم ضرائب الأراضي الزراعية والمراعي من خلال انتزاع مبالغ مالية من الإمارات الكردية الضعيفة. يبين كتاب "سياحتنامه" بأن الدولة العثمانية قررت إقامة نظام ضرائب في عدد من المناطق الكردية.<sup>١٤٠</sup> في بعض المناطق الأخرى، ادخلت الدولة العثمانية نظام التيمار، خاصة في تلك التي أديرت من قبل موظفين أتراك أو تمتعت بحكم ذاتي محدود. أعطيت التيمارات من قبل الدولة إلى افراد متميزين من الذين يستثمرونها مقابل تسديد مبالغ سنوية لها. أحياناً، وخاصة في المناطق الكردية، تعهد صاحب التيمار

<sup>١٣٨</sup> المصدر السابق، ص ١٧-١٨.

<sup>١٣٩</sup> المصدر السابق، ص ٢١.

<sup>١٤٠</sup> Evliya Celebi in Diyarbekir, pp.121-123, & Evliya Celebi in Bitlis, pp.57-65, 111, 143-145 & 177-179.

فقط بتقديم خدمة عسكرية عن طريق تزويد الجيش بوحدة خيالة في حالة اندلاع الحرب. وفي احيان أخرى، كان عليه الوفاء بالواجبين: تسديد المبالغ سنوياً وتزويد الجيش بوحدة خيالة. وكان صاحب التيمار عادة مسؤولاً عن استتباب الأمن والسلام محلياً.

كانت للسناجق العثمانية الاثنى عشر في ايالة دياربكر تيمارات وزعامات (الفرق الوحيد بين الاثني عشر هو ان الأول اصغر حجماً من الثاني). هناك فرقان يميزان نظام التيمار في المناطق الكُردية عن ذلك الذي تواجد في المناطق التركية والبلقانية. أولاً، منحت الدولة العثمانية التيمارات إلى أبناء العائلات الحاكمة أو تلك التي كانت تحكم في المناطق الكُردية المعنية. فعندما ألغى السلطان سليمان إمارة جمشكرك، منح أعضاء السلالة الحاكمة السابقة تيمارات وزعامات.<sup>١٤١</sup> بعبارة أخرى، لم تحول السلطات العثمانية إدارة الأراضي من الأشراف الكُرد إلى الغرباء. بهذا النحو، احتفظ أبناء السلالات الحاكمة السابقة بامتيازاتهم القديمة مقابل دفعهم مبالغ مالية محددة إلى خزانة الدولة المركزية أو اداء خدمة عسكرية من خلال إرسال وحدة خيالة لدى وقوع الحرب. ثانياً، يمكن توارث التيمارات في السناجق العثمانية الواقعة في المناطق الكُردية. لكل تلك الأسباب لم تسفر عن اختفاء طبقة الأشراف الكُردية عن الوجود خارج المناطق الكُردية المستقلة وشبه المستقلة، كما حصل مثلاً في البلقان.

لقد أدخلت الدولة العثمانية نظام التيمار إلى تلك السناجق الكُردية التي تمتعت بحكم ذاتي محدود. كانت هناك ٨ من هذه السناجق في ايالة دياربكر، مثل ميهراي وتارجيل وبارتاك، و٢٠ أخرى في ايالة فان، مثل خيزان وشيروان بايزيد وسيرت. هنا، وفي ظل نظام التيمار، كان على حكام هذه الإمارات الصغيرة إرسال جزء من دخلها إلى الخزانة المركزية. وكان عليهم أيضاً إرسال وحدات الفرسان للانضمام إلى الجيش العثماني في حالة اندلاع الحرب. غالباً ما شهدت تلك المناطق انتفاضات كُردية بسبب تلك الشروط المالية والعسكرية المفروضة من قبل السلطات العثمانية.

نظراً لكونها إمارات كبيرة تمتعت بحكومات مستقلة، لم ترسل أي من جزيرة وخرزو وكنج وبالو واجيل أي مبالغ إلى السلطات العثمانية ولم ترسل وحداتها من الفرسان للانضمام إلى الجيش العثماني في حالة وقوع الحرب. فأمرأها الكُرد امتلكوا

<sup>١٤١</sup> Bruinessen, The Ottoman Conquest of Diyarbekir, pp.1718.



حق التصرف التام بأموال إماراتهم وعائداتها. وجدت ١٣ حكومة مستقلة كُردية في إيالة فان في منتصف القرن السابع عشر. يقول جلبي بخصوص امرائها الكُرد «تتألف مصادر دخلهم من قرى مزدهرة في شكل تيمارات وزعامات». سجلت الأراضي وأي مصدر دخل وجد في تلك الإمارات ملكية خاصة بالأمير. لهذا لم يكن هناك تسجيل مالي ولا جباة ضرائب ولا تيمارات أو زعامات في تلك الإمارات.

كانت بتليس واحدة من الإمارات الثلاث عشرة في إيالة فان التي تناول جلبي شؤونها المالية بالتفصيل. فطبقاً إلى "سياحتنامه"، كان لعبدال خان، أمير بتليس، «دخله الخاص». فالضرائب المفروضة على القوافل التي تدخل بتليس اعتبرت دخلاً خاصاً بالأمير. اخذ العثمانيون الجزية من المسيحيين الذين سكنوا مدينة بتليس. لكن نصف الضرائب التي كانت تدفع من قبل حوالي ٤٣٠٠٠ رعية مسيحية ذهبت إلى الأمير الذي له حق التصرف أيضاً بخراج سهل موش (لم يطبق نظام الجزية والخراج نفسه في المناطق الواقعة في وسط وجنوب كردستان لان الأمراء الكُرد استلموها وحدهم من الرعية المسيحية). تألفت إمارة بتليس من ١٣ زعامة و٢١٤ تيمار خضعت وحسب إرادة الأمير إلى سيطرة أعضاء السلالة الحاكمة وسائر أبناء طبقة الاشراف. بصورة عامة، دفعت أغلبية الرعية المسيحية الضرائب إلى طبقة الاشراف الكُردية. بينما دفع مسيحيو المناطق الخاضعة للسيطرة التركية، ضريبتين: واحدة للسلطان والأخرى إلى صاحب التيمار.<sup>١٤٢</sup>

في أوائل القرن التاسع عشر، لاحظ ريج، ممثل شركة الهند الشرقية في بغداد، نفس تلك الظاهرة في إمارة بابان حيث كان الأمير يوزع الإقطاعيات على أبناء طبقة الاشراف المحلية. وفي نهايات العقد الثالث من القرن ذاته، لاحظ اج سي راولينسون خلال رحلته وجود ترتيبات مماثلة في الإمارة الموكريانية في كردستان الصغرى حيث خصص الأمير فيها أجزاء من أراضي الإمارة إلى الاشراف المحليين (الاغوات). فقد كان الانتاج الزراعي يقسم بحسب نسب محددة متفق عليها. يأخذ الأمير الخمس بوصفه مالك الأرض والأغا يأخذ العشر والمشرفون (زراعتجي) الخمس. أما بقية الانتاج

<sup>١٤٢</sup> اندرسون، "دولة الشرق الاستبدادية"، ص ٢٠.

فيقسم بين الاغا والرعية الفلاحية طبقاً إلى ترتيب خاص يعرف بالتناسف (نصفي كاري)، حيث يتقاسم الطرفان النفقات والانتاج بالتساوي.<sup>١٤٣</sup> في اغلب مراحلها التاريخية، قلما دفعت إمارات كردستان الجنوبية الرئيسية طواعية جزءاً من دخلها إلى الخزانة العثمانية المركزية أو أرسلت وحدات الفرسان إلى الحرب طبقاً للالتزام فرض من قبل السلطات العثمانية.<sup>١٤٤</sup> فعلى غرار حكام الإمارات الكبيرة في كردستان الشمالية، كان لأمراء الكرد الجنوبيين حق راسخ في الملكية وحرية شاملة في التصرف بعائدات الأمانة. لم يكن في إمارة سوران وبادينان وبابان جباة ضرائب عثمانيين أو سجلات مالية امبراطورية. وكان الشيء الملفت إلى للنظر في الترتيبات العسكرية والمالية الثنائية بين السلالات الكردية والسلطات العثمانية هو تخلي الطرفين غالباً عنها عندما تتغير موازين القوى. ولجأ الأتراك عادة إلى القوة من اجل اخذ المبالغ المستحقة على الأمراء الذين يرفضون دفعها.

باختصار، كان للمجتمع الكردستاني بنية أبوية هرمية بين منتصف القرن العاشر ومنتصف القرن التاسع عشر، حيث ارتبطت بشدة المنزلة الاجتماعية والثراء المادي بالخلفية الأسرية وبالقدرة السياسية، وانتقلت هذه باستمرار من جيل لآخر. وقف الامير على قمة الهرم الاجتماعي، تلاه ابناء السلالة الحاكمة الاخرين وقادة القبائل والملاكين وكبار رجال الدين (كالمفتي والقاضي) ونقيب الاشراف وقائد الخيالة وحارس القلعة ومفتش الاسواق وجابي الضرائب وغيرهم من الموظفين الكبار. واحتل التجار والحرفيون واصحاب الدكاكين من الباعة مرتبة وسطية فوق الفلاحين والخدم، الذين شكلوا الشرائح الاجتماعية الدنيا والاكثر تعرضاً للاستغلال الاقتصادي في المجتمع الابوي القائم.

وفضلاً عن الهرم الاجتماعي، وجد شكلان من أشكال الهرمية القبلية والقبائلية. يكون الهرم الأول داخل القبيلة ويتمثل بالتمايز بين أفرادها وأسرها

<sup>١٤٣</sup> كان راولينسون ضابطاً برتبة رائد في جيش بومباي الذي خدم لفترة في إيران. ولراولينسون معلومات جيدة عن الثقافة والتاريخ الكردي والفارسي والأذربيجاني.

E.C. Rawlinson, Notes on a Journey from Tabriz through Persian Kurdistan to Ruins of Takhti Soleiman, and from thence by Zinjan and Tarom to Gilan in October and November 1838, Journal of the Royal Geographical Society, vol.x, 1840.

<sup>١٤٤</sup> لتفاصيل راجع:

Bruinessen, Agha, Sheikh and State, pp.157-161.

الكبيرة المركبة وأسرها الأساسية البسيطة. في هذا الهرم القبلي الداخلي يكون للفخذ وللأسرة المركبة والأسرة الأساسية التي ينتمي إليها الأمير موقع قيادي في قمة الهرم وتتبعها بصورة متدرجة بقية الأفضاخ والأسر المركبة والأساسية بحسب قوة الارتباط النسبي بالأسرة الاميرية. أما الهرم الثاني القبائلي فيكون بين قبائل الامارة، حيث احتلت القبيلة التي ينتمي إليها الأمير موقع القمة تليها في العادة القبائل المحاربة ومن ثم القبائل الزراعية. كما تفاوتت القبائل من حيث حجمها العددي. يتضاعف حجم القبيلة عادة بالتناسب مع تزايد قوتها العسكرية وثروتها، وتصغر القبيلة حينما تتدهور قوتها العسكرية وثروتها. وتتفاوت القبائل من حيث أساليب المعيشة. فهناك قبائل مستقرة زاولت الزراعة، وشبه مستقرة تجمع بين الزراعة والرعي، ومتنقلة تعتمد على الرعي فقط. وتتباين القبائل من حيث توزيعها الجغرافي فمنها قبائل جبلية ومنها قبائل سهلية. واختلف دور القبائل فمنها تكون محاربة ومنها غير محاربة. والملاحظ ان الإمارات قد تفاوتت من حيث أهميتها ومنزلتها على وفق عدة معايير منها سمعة ومكانة الأسرة الاميرية الحاكمة والحجم السكاني والثروة المادية والقرب والبعد من الطرق الاستراتيجية والقدرة العسكرية.

تعايشت انواع مختلفة من أساليب الإنتاج في الإمارة جانبا إلى الجنب النشاط التجاري والعمل الوظيفي. وهي الحرفة والرعي والزراعي. ولهذا يمكن تمييز أهالي الإمارة من حيث النشاط الاقتصادي أو الوظيفي الخدمي: الرعاة القبليين، الفلاحين المستقرين (قبليين أو غير قبليين)، حرفي المدن، اصحاب الدكاكين، رئيس الخزينة، المشرف على السوق، التجار، افراد الحرس الاميري، العمال الزراعيين في البساتين وعمال الحرف، اصحاب الحرف، عمال الخدمات في المساجد والأسواق والخدم في الديوان الاميري، موظفو القضاء الخ. هذا التعايش الاقتصادي الذي يعكس في الوقت نفسه التفاعل الداخلي بين العناصر الاجتماعية الأساسية قد ساعد على تماسك وحدة الإمارة الاقتصادي والاجتماعي، وبالتالي مكنها من ترسيخ جذورها بوصفها وحدة سياسية تتمتع بحكم ذاتي.

كان الهدف الأساسي لنشاط القبائل المتنقلة هو تلبية حاجاتها الأساسية من الغذاء القائم على تربية الحيوانات وتبادل الفائض مع منتجات سكان الريف أو بضائع المدن. أما القرية فكانت الواحدة الزراعية الأساسية في الريف. وجد نوع من التخصص في النشاط الاقتصادي لدى الجماعات الدينية غير المسلمة (مسيحية

ويهودية) في المدن، خاصة في المهن الحرفية (مثل حياكة السجاد والأقمشة وصناعة الملابس وصبغها وصناعة المجوهرات والأدوية) والمهن الفنية (مثل الموسيقى). بسبب هيمنة العلاقات الأبوية كانت المرأة في موقع ادنى اجتماعياً وسياسياً من الرجل. ولكن لم يمنع هذا الامر المرأة من ان تكون عنصراً اجتماعياً فاعلاً في الميدان الاقتصادي حيث شاركت في العمل الزراعي والحرفي (مزاوله حياكة الملابس والسجاد والخيم وصنع منتجات الالبان... الخ.) سواء بهدف الاكتفاء الذاتي أو للسوق.

على غرار نظيره في الدول الإسلامية الأخرى، قيد الفلاح الكردي والمسيحي بالأرض، حتى لو انتقلت حيازتها من سيد إلى اخر. لكن النبلاء الكردي اهتموا بعض الشيء برفاهية فلاحهم. ليس لان السيد اعتمد على الفلاح مصدراً لدخله فقط وإنما لكونهما في اغلب الاحيان ينتميان إلى نفس القبيلة أو البيئـة الاجتماعية ويحملان نفس القيم والمفاهيم. وفي بعض الحالات، كان للفلاحين الكردي سادة من غير الكردي في مناطق خاضعة لسلطة أجنبية. ففي المناطق السهلية من اورمية وفي كثير من قرى كرماشان، كان سادة الأرض من قادة القبائل الأذربيجانية مثل الافشار. أما في منطقة هكاري البعيدة عن أي سيطرة أجنبية، لم يكن هناك فلاحون مسيحيون نساطرة فحسب وإنما سادة أيضاً في بعض الاحيان. وكان يعمل في أراضي السادة من النساطرة فلاحون مسيحيون واحياناً مسلمون كردي. وجاء الكثير من التجار واصحاب الحرف من خلفيات مسيحية أو يهودية، حيث شكلوا فئة اجتماعية غنية نسبياً. كما تمتعت الجماعات غير المسلمة، خاصة المسيحية، بحريات دينية في ظل وجود درجة كبيرة من التسامح الديني في ظل حكم السلالات. ففي مدينة بتليس، كان هناك ١٧ حي مسلم مقابل ١١ حي مسيحي. ففضلاً عن مساجد المسلمين، احتوت المدينة على عدد من الكنائس. وكان تجار المدينة الاثرياء جميعهم من الارامنة.<sup>١٤٥</sup> بقدر ما تشير الدلائل، لم تشهد الإمارات الكرديـة المستقلة أو شبه المستقلة انتفاضات دينية قامت بها الجماعات المسيحية ضد الغالبية الكرديـة المسلمة.

### بعض اوجه الحياة الثقافية في الإمارات الكرديـة

<sup>١٤٥</sup> Evliya Celebi in Bitlis, pp.69-71.

عدا كونها مهمة سياسياً، كانت المدن الكرديستانية مراكز لمختلف الأنشطة الاقتصادية والثقافية. ان من أهم العوامل التي ساعدت على تقوية تلك الأنشطة هو احتواء كردستان لمختلف خطوط التجارة بين إيران وتركيا وبلاد الشام وميسوبوتاميا. واتسمت مدينتا بتليس ودياربكر على الخصوص بتوجهاتهما الثقافية قبل الهيمنة الصفوية والعثمانية بوقت طويل. وبفضل كتابي "شرفنامه" و"سياحتنامه"، تتوفر معلومات كافية حول الحياة الاقتصادية والثقافية في مدينة بتليس. طبقاً إلى "شرفنامه"، احتوت بتليس على ٨٠٠ دكان والعشرات من الحرفيين. وأحاطت مئات من البساتين بالمدينة نفسها حيث جرت فيها مختلف الأنشطة الترفيهية والثقافية، خاصة في فصل الصيف. وبنيت عدة خانات (محطات استراحة للقوافل التجارية والمسافرين) خارج المدينة من أجل تزويد المسافرين واصحاب القوافل بما يحتاجونه من طعام ومياه. وامتألت إمارة بتليس بالمراعي وقطعان المواشي وغيرها من الحيوانات. وكانت موش من أكثر المقاطعات ازدهاراً حيث وجدت فيها الكثير من حقول الحبوب ومزارع الكروم. وجاءت الحنطة وبقية الحبوب إلى مدينة بتليس من موش ورخوا. لقد احتوت المناطق الشمالية من كردستان على قرى كردية وارمنية منفصلة وقرى كردية-أرمنية مختلطة. فالقرى الأرمنية مثلاً تركزت في سهل موش، بينما وجدت أغلبية القرى الكردية في المرتفعات المحيطة بتلك السهول.<sup>١٤٦</sup> كما احتوت إمارة بالو على قرى كردية وأرمنية معاً.<sup>١٤٧</sup>

وأيدت ملاحظات جلبي في كتابه "سياحتنامه" ما قاله بتليسي في كتابه "شرفنامه" بخصوص الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به إمارة بتليس في القرنين السادس عشر والسابع عشر. طبقاً إلى "سياحتنامه"، احتوت مدينة بتليس على العديد من الصناعات الحرفية مثل الحدادة والدباغة والصباغة. كان لتجار الملابس سوقهم الخاص والأمر نفسه انطبق على الدباغين والصباغين وغيرهم.<sup>١٤٨</sup> ووفر الأمير الكردي حمايته للحرفيين المحليين والتجار والباعة، لأنهم أساس

<sup>١٤٦</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٣٥٩-٣٥٨، ٣٦٣-٣٦٤.

<sup>١٤٧</sup> "كورد له ميژووى دراوسىكانيدا: سياحته تنامهى فهوليا چهلهبى، ص ٢٩.

<sup>١٤٨</sup> Celebi in Bitlis Evliya، p.68. مقارنة ببتيلىس، كان لمدينة الموصل سوقان مسدودان فقط.

Tavernier, The Six Voyages through Turkey and Persia, p.71.

الازدهار المادي للإمارة. وفي نفس الوقت وضعت ضوابط من أجل حماية المستهلك. فمن أجل منع الغش والتلاعب، تم قياس وزن الملابس الثمينة، خاصة الحرير، والاطعمة والمشروبات والفاكهة.<sup>١٤٩</sup> وكان الإنتاج الزراعي في بتليس نفسها على مستوى الجنائن.<sup>١٥٠</sup> فقد احتوت بتليس على آلاف الجنائن التي تصرف سكانها بها كملكية خاصة.<sup>١٥١</sup>

اهتم الأمراء بالمدن لارتباط سمعتهم وهيبتهم بها. فقد كان الأمراء مسؤولين، بشكل عام، عن بناء المشاريع ذات المنافع العامة وصيانتها في داخل المدن وخارجها، مثل الجسور والطرق والمدارس والحمامات العامة والأسواق والخانات والسدود وتوفير مياه الشرب. خلال فترة زيارة جلبي لها، احتوت بتليس على ١١ سداً حجرياً وه حمامات عامة و ٦٠٠ حماماً خاصاً.<sup>١٥٢</sup> بالانسجام مع الثقافة الابوية المهيمنة في مختلف مناطق كردستان، قام الامراء ببناء وتمويل المساجد والجوامع والمراكز الدينية التعليمية في المدن. وكانت الحياة الدينية مستقلة وغنية بدرجة كبيرة في عهد الإمارات. وتعززت تلك الاستقلالية ليس فقط من خلال تعيين الأمراء المستقلين المفتي الشافعي والقاضي، وإنما بانتماء أغلبية سكان الامارات إلى المذهب الشافعي السني، الذي ميزهم عن الأتراك الحنفيين السنيين وعن الإيرانيين الشيعة. أحياناً، استغل الأمير الكردي الفارق الديني والمذهبي لمصلحته. ففي حربه مع الصفويين، جند شرفخان، أمير بتليس، أساتذة المدارس الدينية وطلبتها.

في ضوء المعلومات التي وفرها كل من بتليسي وجلبي، كانت بتليس واحدة من أكثر الإمارات الكردية تطوراً من حيث التنظيم الاجتماعي والازدهار الثقافي والاقتصادي في القرنين السادس عشر والسابع عشر برغم ما عانتها من غزوات وتدمير. يشير بتليسي إلى مدارس ومساجد بتليس التي انجبت العديد من العلماء في مجالات مختلفة كالتاريخ والفقه والتفسير والفلسفة الصوفية واللغات. فقد عاشت في بتليس شخصيات صوفية وشعراء وعلماء، من مثل عبد الرحيم البتليسي، المختص في الفقه

<sup>١٤٩</sup> Evliya Celebi in Bitlis, pp71-73.

<sup>١٥٠</sup> المصدر السابق، ص ١٤٥

<sup>١٥١</sup> المصدر السابق، ص ٨٩.

<sup>١٥٢</sup> المصدر السابق، ص ٧٣.

والتفسير، ومحمد البيرقعي، المختص في الفقه واللغة، وحسام الدين البتليسي، المختص في التصوف، وابنه المؤرخ والدبلوماسي إدريس الحكيم.<sup>١٥٣</sup> كانت بتليس، على غرار مدينة دياربكر، متعددة الأديان والأعراق بسبب وجود جماعتين الأرمنية المسيحية والكردية المسلمة. في تلك الفترة تمسك غالبية الأرمنة بالكنيسة الأرمنية القديمة الكاثوليكية، وكذلك تمسك أغلبية الكُرد بالمذهب الشافعي، باستثناء بعض الحنفيين،<sup>١٥٤</sup> برغم ازدياد نفوذ المذهب الحنفي المرتبط بقوة بالدولة العثمانية.

لم يتناقض وصف جلبي لأهمية بتليس الثقافية مع ما ذكره بتليسي بهذا الخصوص في كتابه "شرفنامه". فقد أكد الأول على ان بتليس كانت «تجمعاً للعلماء ومصدراً لرجال متميزين جديرين بالاحترام ومركزاً للشعراء».<sup>١٥٥</sup> فامير بتليس المتنور، عبدال خان الشاعر والعالم، كان راعياً للفنون والعلوم.<sup>١٥٦</sup> وضمت مدينة بتليس في ظل حكم هذا الأمير ٢٦ مكاناً للعبادة (مساجد ضخمة وصغيرة)، حيث جهزت بمياه دافئة وأدوات الطبخ. وامتألت المدارس الدينية بالطلبة، الذين كانوا يمارسون لعبة الشطرنج بعد انتهاء دروسهم. بينما أجاز المذهب الشافعي لعبة الشطرنج، حرمتها الحنفية، مذهب الإمبراطورية العثمانية الرسمي. وكان لكل مسجد مدرسة ترتيل القران. كان هناك ٢٠ مركزاً للمتصوفين المنتمين إلى الطريقة النقشبندية، علاوة عن وجود مركزين صوفيين أقل شأنًا أحدهما كولشاني والآخر بكتاشي. واحتوت بتليس على ٧٠ مدرسة ابتدائية حيث تعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة. ويصف جلبي أطفال بتليس بالذكاء والبداهة، فقد كانوا يتعلمون حفظ الأعمال الشعرية لشعراء الفرس المشهورين عن ظهر قلب، أمثال حافظ وسعدي وفضولي وصاحب. كما تعلم هؤلاء الأطفال اللغة العربية وحفظوا القران.<sup>١٥٧</sup> وتعود

<sup>١٥٣</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٣٤٩-٣٥٥.

خدم إدريس بلاط الاقايينلو والعثماني. ألف كتاباً في تاريخ الأتراك العثمانيين وهو "هشت بهشت". كما اصبح ابنه ابو فاضل أفندي عالماً.

<sup>١٥٤</sup> المصدر السابق، ص ٣٥٠.

<sup>١٥٥</sup> Evliya Celebi in Bitlis, p.151.

<sup>١٥٦</sup> المصدر السابق، ص ١٠٧.

<sup>١٥٧</sup> المصدر السابق، ص ١٥٣.

أهالي مدينة تبليس على الذهاب إلى بساتينهم حيث أقاموا الحفلات الترفيهية والموسيقية، بينما مارس الفرسان لعبة البالو اسبوعياً.<sup>١٥٨</sup>

لقد اسهم الكُرد كثيراً في الحياة الروحية والثقافية لتلك المدن الكُردية التي خضعت للحكم التركي المباشر، مثل فان ودياربكر. ففي وقت زيارة جلبي لها، ضمت مدينة فان ٥ مدارس دينية و٢٠٠ مدرسة للأطفال. ووجد في المدينة بعض الشعراء.<sup>١٥٩</sup> أما مدينة دياربكر التي خضعت للحكم التركي المباشر منذ منتصف العقد الثاني من القرن السادس عشر، فتمتعت بمناخ ثقافي صحي. وولد فيها إبراهيم كولشاني مؤسس الفرع الكولشاني من طريقة الخلوة (أو خلوت) في منتصف القرن الخامس عشر. وكانت الطريقة النقشبندية الصوفية أقوى بكثير من الكولشانية عندما زار جلبي دياربكر. ويرجع أسباب انتشار الطرق الصوفية وقوتها إلى وجود توجه قوي نحو الغيبية بين الكُرد ناتج، لربما، عن الأوضاع الاجتماعية والشروط الجغرافية التي عاشوا فيها. وتوجه العديد من الكُرد إلى مراكز تعليمية بارزة تقع خارج كردستان لغرض تحصيل المعرفة الدينية الإسلامية، مثل بغداد والمدينة المنورة والقاهرة واستنبول ودمشق. كان العديد من الشيوخ الدينيين الكُرد في الوقت نفسه شعراء وموسيقيين ولهذا لعبوا دوراً بارزاً في الحياة الثقافية الكُردية منذ تلك المراحل التاريخية.

في وقت زيارة جلبي لدياربكر، وجد اعداداً من الشعراء والموسيقيين والفنانين المؤديين. كما كانت المدينة مركزاً للتعاليم الإسلامية حيث احتوت على عدة مدارس اختلفت في ميدان الفكر الديني، مثل الفقه والتفسير. كما تعلم الأطفال الكُرد القراءة والكتابة وترتيل القران في مساجد المدينة الرئيسية. وضمت المدارس الكثير من مدرسي التصوف الذين استندوا في دروسهم إلى عدد من العلماء الشافعيين البارزين، أمثال جرير، الطبري وابن مسعود. وساعدت مكانة الطريقة النقشبندية الكبيرة المراكز التعليمية في مدينة دياربكر على جذب العديد من الطلبة الكُرد من مختلف أنحاء كردستان إليها.<sup>١٦٠</sup> ان ما يسترعي الانتباه في كتابي "شرفنامه"

<sup>١٥٨</sup> المصدر السابق، ص ١٤٧.

<sup>١٥٩</sup> "كورد له ميژووي دراوسيكانيديا"، ص ٢١٣-٢١٤.

<sup>١٦٠</sup> تفاصيل أخرى في:



"وسياحتنامه" اهتمام الكُرد وتأثرهم عموماً بالتطور الثقافي الفارسي، في الوقت الذي لم يتفاعلوا مع الثقافة التركية، ربما بسبب طابعها الغريب غير المنسجم مع الحياة الروحية الكُردية.

### دور الشريعة المتعلمة الكُردية في حياة الأمانة

احتوت كل المدن الكُردية على ما يمكن تسميته بالفئة المثقفة، التي تألفت عادة من رواة التاريخ والشعراء والمدرسين ورجال الدين المتنورين، وبعض اعضاء السلالات الحاكمة الواعية. وكانت تصوراتهم عن الروابط الاجتماعية والوضع السياسي القائم أبويًا بشكل جوهري. بحلول نهاية القرن السادس عشر، خرج على ما يبدو بعض أبناء الفئة المثقفة بتصورات جديدة عن الكُرد وكُردستان تتعلق بالعلائق الثقافية والاصول العرقية والانتماء إلى الوطن نفسه وبالمصير السياسي الواحد وبالخلفية التاريخية المشتركة. بعبارة أخرى، كان للكُرد، حسب تلك التصورات الجديدة، أصل عرقي مختلف وهوية ثقافية وخلفية تاريخية شاحصة متميزة عن الشعوب المجاورة. يمكن الاستدلال من قراءة دقيقة لكتاب جلبي "سياحتنامه" بأن الكُرد عرفوا انفسهم على انهم مجموعة بشرية منفصلة لها تقاليدها وثقافتها الخاصة. لقد استخدم جلبي مصطلح "كُردستان" بشكل متكرر، حيث حدد في كتابه حدودها الجغرافية. ان حدوث كل تلك التطورات لهو دليل على نجاح الفئة المتعلمة الكُردية في ارساء مفاهيم معينة استخدمت من قبل الأجانب (من أترك وإيرانيين وبريطانيين وروس وفرنسيين وألمان وأمريكان) تعترف ضمناً أو صراحة بخصوصية الكُرد كشعب قائم بحد ذاته له ثقافته وتاريخه، وان وطن هذا الشعب هو كُردستان. بعبارة أدق، صار الكُرد وصارت كُردستان واقعا لا يمكن إنكاره، خاصة منذ القرن السادس عشر.

تنفرد شخصيتان كُرديتان من بين العديد من المثقفين بمكانة خاصة بين القرنين السادس والسابع عشر وهما المؤرخ شرفخان بتليسي والشاعر والمعلم احمدي خاني، حيث قرأت عمليهما المشهورين "شرفنامه" و"مم وزين" بشكل واسع

---

Bruinessen, Religious Life in Diyarbekir: Islamic Learning and the Role of the Tariqats in Evliya Celebi in Diyarbekir, pp.45-48.

من قبل الكُرد منذ ظهورهما. ودرس هذان الكتابان في مدارس الإمارات وكانا موضع حديث الرجال في مجالس الأمراء الكُرد. وحفظت عن ظهر قلب أشعار خاني من قبل المعلمين والطلبة وعامة الناس كما لو كانت سوراً من القرآن. لقد كتب المؤلف الأول كتابه باللغة الفارسية، بينما كتب الثاني باللغة الأدبية الكرمانجية الكُردية. وبرغم اختلافهما من ناحية الموضوع، حيث كان "شرفنامه" كتاباً في التاريخ الكُردى والثاني ديواناً في الشعر السياسي والاجتماعي والتربوي، كانا ذا أهمية تاريخية وسياسية وثقافية هائلة. أولاً، يشكل الكتابان دليلين واضحين على شعور وطني قوي في أوساط الفئة المثقفة الكُردية تشكل في ظل الإمارات. ثانياً، يؤكد كلا الكتابان على العوامل التاريخية والسياسية والثقافية والعرقية التي تميز الكُرد عن الشعوب الأجنبية المجاورة، خاصة الفرس والأتراك. وأخيراً، لا يحلل الكتابان الأوضاع السياسية القائمة في كُردستان آنذاك فحسب وإنما يثيران اسئلة مهمة حول مصير الكُرد الأنى والمستقبلي.

لقد ترك شرفخان منصبه أميراً لصالح ابنه، كي يتفرغ لكتابة التطورات السياسية الهامة التي وقعت في كُردستان من خلال تناول تاريخ الإمارات الكُردية عبر خمسة قرون (بين القرن العاشر والقرن السادس عشر). استقالة شرفخان تلك لدليل على وعيه التام بالأهمية الكبيرة لكتابه بالنسبة اليه ولسائر الكُرد. ونستشف من حجم الكتاب وتفصيله الدقيقة عن تاريخ السلالات الكُردية التي كانت قائمة في مختلف أرجاء كُردستان المترامية الاطراف بأن شرفخان زار العديد من هذه الإمارات والتقى بالأمراء ورواة التاريخ فيها كما قرأ الكثير من الكتب. ويستدل من عنوان الكتاب "شرفنامه" والذي يعني كتاب الشرف على درجة اعزاز شرفخان بكُرديته. في مقدمة كتابه، يلقي شرفخان الضوء على الاصول العرقية المشتركة للكُرد، وكثرتهم العددية وحجم كُردستان الجغرافي الكبير حيث يحدد سماتها ويرسم حدودها. واستخدم شرفخان المصطلح "كُردستان" كمفهوم سياسي وثقافي وجغرافي متميز. وبرهن شرفخان على وجود سمات ثقافية وعرقية مشتركة بين الكُرد الذين امتلكوا أيضاً خلفية تاريخية وسياسية واحدة، كما أكد على وجود فئات مثقفة في مناطق كُردستان.<sup>١٦١</sup>

<sup>١٦١</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ١٠-١٨.

على الرغم من انه لم يدع الأمراء المعاصرين صراحة إلى الوحدة ضد الأعداء الأجانب، يثير شرفخان نقطة هامة جدا وهي نظرا لامتلاك الكُرد لتاريخ مشترك ووطن واحد وثقافة وتقاليد متميزة تفصلهم عن الأقوام الأجنبية المجاورة، فانهم يملكون اغلب الشروط التي تؤهلهم لتشكيل دولة كبيرة على غرار الأتراك والفرس. ويجلب بتليسي أنظار قرائه من الكُرد المعاصرين له إلى غياب الوحدة بينهم وكيف ان هذا يشكل أهم عامل سياسي يحدد مصيرهم. يدلل هذا أيضاً على ان الفئات المتعلمة كانت قد انشغل تفكيرها بمسألة الانقسام والحاجة إلى وحدة سياسية في القرن السادس عشر. ولكن بتليسي يعزو عدم ظهور دولة كُردية كبيرة إلى سبباً ميتافيزيقي يمنع وحدة الكُرد.<sup>١٦٢</sup> يعكس استنتاج بتليسي هذا تشاؤمه في ظل الهيمنة العثمانية والصفوية آنذاك، برغم إيمانه الشديد بوجود سمات اجتماعية وسياسية وتاريخية وثقافية واحدة بين الكُرد.

كل ما سبق ذكره لا يعني ان بتليسي عارض مسألة الوحدة الكُردية. على العكس تماماً، فهو يثني وباستمرار على مقاومة الكُرد للغزاة عبر التاريخ وعلى نضالهم في سبيل انهاء السيطرة الأجنبية. اراد بتليسي من قومه ان يفتخروا بدورهم العام في الإسلام وبتاريخهم الخاص. وهو يذكر في مقدمة كتابه كيف ان مولانا سعد الدين، معلم السلطان مراد، ابرز السمات المتميزة للأتراك في أعماله التاريخية،<sup>١٦٣</sup> بينما كان يؤكد الصفات الخاصة التي تتمتع بها الكُرد بوصفهم قوما رفضوا ان يطلبوا مساعدة خارجية في أوقات الأزمات الاقتصادية والمجاعة. وبسبب هذه الميزات، بحسب وجهة نظره، لم يحاول، أو لم يستطع، الملوك والسلاطين الأجانب فرض حكمهم المباشر عليهم، قانعين فقط بولاء الكُرد الاسمي لسلطتهم مع التزام عسكري أو حتى بدونه.

على النقيض من بتليسي الذي كان رجل دولة وسياسياً، كان احمدي خاني رجل دين متنور وشاعراً كبيراً ومفكراً ومصلحاً في الوقت ذاته. واعتبر من قبل الكُرد والمستشرقين أهم شخصية أدبية ظهرت في تاريخ كُردستان ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر. خلد خاني من قبل عامة الكُرد ومثقفهم عبر القرون حتى انه اصبح رمزاً للتحرر القومي الكُرد في المراحل التاريخية التالية. لهذا لا يمكن عد

<sup>١٦٢</sup> المصدر السابق، ص ١٥.

<sup>١٦٣</sup> المصدر السابق، ص ١٥.

مهارة خاني الأدبية الراقية المتجسدة في ملحمة مم وزين (١٦٩٣-١٦٩٤) وحدها سبباً في احتلاله أسمى منزلة عند الكُرد، وإنما أيضاً تصوراتهِ الثورية التي تطرقت إلى كيفية إنهاء الوضع المتدني غير المرضي الذي عاش في ظله شعبه عن طريق الوحدة والعمل المشترك.

في إحد المقاطع من ملحمة المعنون "الامنا" يحلل خاني الوضع السياسي في كردستان حيث يعبر عن شكواه من انقسام الكُرد سياسياً والذي جعلهم عرضة للهيمنة الأجنبية، خاصة الأتراك والإيرانيين. كان خاني يؤمن بأن للكُرد مستقبلاً مشرقاً، إذا التفوا حول أمير واحد يقودهم ويوحدهم في دولة كُردية كبيرة. إذن سعى خاني من خلال الشعر إلى الدعاية للوحدة الكُردية وحث الأمراء الكُرد خاصة على اخذ المبادرة. ولم تقتصر فوائد الوحدة من وجهة نظر خاني على الميدان السياسي وإنما أيضاً على ميداني التطور الثقافي والازدهار المادي:

آه لو كان بيننا اتفاق

آه لو اتحدنا معا مرة واحدة

إذن لخدمنا الروم والعرب والعجم تماماً<sup>١٦٤</sup>

ولأكملنا الدين والدولة

ولحصلنا العلم والمعرفة<sup>١٦٥</sup>

كيف إذن يُعرّف الدور السياسي والثقافي الذي لعبه بتليسي وخاني في عصرهما؟ فهل كانا من رواد الفكر التحرري القومي الكُردي؟ وهل جسدت أعمالهما نشوء قومية كُردية؟ لقد عرف خاني بالذات من قبل العديد من الباحثين الكُرد كأول قومي كُردي والداعية الأول لإقامة دولة كُردية موحدة. في العقد الرابع من القرن الماضي، تحدث كامران بدرخان عن «اكتشاف غير اعتيادي لروح كُردية ووعي قومي»

<sup>١٦٤</sup> طبقاً إلى مترجم ديوان مم وزين إلى العربية، دكتور عز الدين مصطفى رسول، يقصد خاني بهذا البيت قدرة الشعب الكُرد على خدمة ثقافة تلك الامم كما فعل في السابق. احمدى خاني، مم وزين، ترجمة وتقديم وهوامش الدكتور عز الدين مصطفى رسول، ص ٥٠-٥١.

<sup>١٦٥</sup> ترجمت قطعة خاني الشعرية هذه إلى الإنكليزية في كتابي أمير حسنيور وفان برونسن:

Hassanpour, Nationalism and Language in Kurdistan: 1918-1985, & Bruinessen Agha Sheikh and State, p.267.

في أعمال خاني.<sup>١٦٦</sup> وبعد مرور أربعة قرون على ظهور "مم وزين"، يستخدم باحث كردي آخر وهو أمير حسن پور مصطلح «القومية الإقطاعية» في تعريفه لما يعتقد بأنه الاستيقاظ القومي في القرن السابع عشر. وتجسدت هذه القومية الإقطاعية لا في أعمال خاني فحسب وإنما في القصائد القصصية الشعبية. يقول حسن پور: «تطورت فكرة الأمة والقومية، البعيدة عن مكانها الطبيعي في هذا الجزء من العالم، في ظل ظروف كردستان الفريدة في تلك الفترة».<sup>١٦٧</sup>

قبل التعليق على مثل هذا التعريف بدور خاني كرمز أو رائد التحرر القومي الكردي من الضروري الاعتراف أولاً بأن القومية ظاهرة حديثة بدأت بعد اندلاع الثورة الفرنسية في ١٧٨٩. منذ ذلك الحين صارت مفاهيم المواطنة والحريات الشخصية في الميادين السياسية والاقتصادية والثقافية والمساواة أمام القانون بغض النظر عن الخلفية العرقية والدينية والاجتماعية أساساً لما يعرف بالدولة- الأمة (أو الدولة القومية). لكن هذه المفاهيم التي ترافقت مع المجتمعات البرجوازية الحديثة في بعض من الدول الغربية لم تظهر في كردستان في القرن السابع عشر وذلك بسبب هيمنة الأبوية والقبلية على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

لقد مثل بتليسي وخاني ما يمكن تسميته بالشعور الوطني، أي التعبير عن حب عام تجاه أبناء جلدتهما وكراهيتهما للأجانب المسؤولة عن علل المجتمعات الكردية. أراد بتليسي من الكرد أن يكونوا فخوريين بوطنهم وبتاريخهم وبتقافتهم وبطريقتهم معيشتهم. بينما ذهب خاني إلى أبعد من ذلك بإعلان احتجاجه على الوضع السياسي والثقافي القائم في كردستان، داعياً في الوقت نفسه إلى أخذ المبادرة في تحرير الكرد من التدخلات والحروب الأجنبية التي دمرت المناطق الكردية. وعلى العكس من بتليسي، اعتقد خاني بإمكانية توحيد الكرد في دولة كبرى الذي عدّه شرطاً أساسياً لتطورهم الروحي والمادي.

على المدى البعيد، اسهم كل من بتليسي وخاني في صياغة بعض المفاهيم الأساسية استندت إليها القومية الكردية وطورها القوميون في مراحل تاريخية لاحقة، أي فكرة الوطن المحدد المعالم والخلفية التاريخية المشتركة والأصل العرقي الواحد

<sup>١٦٦</sup>The Amir Dr. Kamuran Ali Bedr Khan, 'The Kurdish Problem', The Journal of Royal Central Asian Society (JRCAS), vol.xxxvi, 1949, p.242.

<sup>١٦٧</sup>Hassanpour, Nationalism and Language in Kurdistan, 1918-1985, pp.56-57.

والمصير السياسي المترابط وتشابه الظروف الاجتماعية والثقافية. بتعبير آخر، غرس بتليسي وخاني بذوراً فكرية نمت عنها الحركات القومية الكُردية المستقبلية والتي بدأت بالظهور ولأول مرة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وليست تأكيدات عبيد الله النهري، قائد العصبة الكُردية بين ١٨٧٨ و١٨٨١، على وحدة كُردستان كوطن وعلى كون الكُرد أمة منفصلة وعلى وجود ديانة واعراف وتقالييد ومعاناة مشتركة بين الكُرد (والتي ميزتهم عن الأتراك والإيرانيين)<sup>١٦٨</sup> سوى امتدادا طبيعياً لما قد طرحه بتليسي وخاني في أوقات سابقة.

### نهاية الفصل

لم يستطع الأتراك العثمانيون دمج الجزء الأكبر من أراضي كُردستان بامبراطوريتهم من خلال فرض نظام الحكم المباشر في المرحلة التي أعقبت معركة جالديران. وفرض واقع سياسي مماثل اخر نفسه في كُردستان الصغرى عقب موت شاه إسماعيل. لهذا لم يتمكن الأتراك والإيرانيون من فرض هرم سياسي وعسكري في كل المناطق الكُردية، باستثناء المقاطعات الواقعة في أطراف كُردستان. يجب النظر إلى ما ادعاه جلبي بوجود مثل هذا الهرم السياسي والعسكري في إيالة ديار بكر<sup>١٦٩</sup> على انه امر مؤقت في افضل الاحوال. لم يكن الأمراء الكُرد عموما موظفين لدى الدولة العثمانية أو الصفوية، ولم يمارسوا عملياً دور وكيل السلطات المركزية الاجنبية، وإنما كممثلين لاهالي مناطقهم. ولا يعني منح الأمراء الكُرد ألقابا أجنبية، مثل باشا وبك وخان، انهم اصبحوا جزءا من الجهاز البيروقراطي والسياسي في الدولتين التركية والإيرانية.

لقد ساعد وجود الإمارات المستقلة وشبه المستقلة في تعزيز هوية كُردية متميزة عكست استقلالية اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية إلى حد كبير. وكان ظهور الوطنية الكُردية أهم إفرزاتها منذ القرن السادس عشر. واتخذت هذه الوطنية شكل دعوات، مثل التي أطلقها خاني، إلى إنهاء التدخل الأجنبي في

<sup>١٦٨</sup>Inclosure 2 and 3 in no.61, Sheikh Ubeidullah to Dr. Cochran, 25 September & 5 October 1880, pp.47-48, Parliamentary Papers, vol.C, 1881 Correspondence Regarding the Kurdish Invasion of Persia, Turkey no.5 (1881).

<sup>١٦٩</sup>Evliya Celebi in Diyarbekir, p.125.

شؤون الكُرد الداخلية وتوحيد الإمارات في دولة كبيرة واحدة كي يتم تطوير الحياة المادية والروحية للكُرد.

لم تتمتع كُردستان بفترات طويلة هادئة كما كان الحال في سوريا ومصر حيث ازدهرت فيهما التجارة والزراعة نسبياً في القرن السابع عشر. على النقيض من كُردستان، كان هذان البلدان بعيدين عن ميدان المعارك الطاحنة بين الدول الأجنبية، كالأتراك العثمانيين والإيرانيين الصفويين الذين دخلوا في سلسلة معارك طاحنة جرت في المناطق الكُردية في المدة ١٥٧٨-١٦٣٩. خلق هذا الوضع المزري ومعاناة السكان من الكُرد شعوراً سياسياً عند بعض المتعلمين الكُرد مثل خاني بضرورة التغلب عليه من خلال وحدة سياسة موجهة ضد القوى الأجنبية المجاورة. وعلى ما يبدو ذهب تلك الدعوات للوحدة أدراج الرياح لعدم إلتفات الأمراء الكُرد إليها.

واصل الوضع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي تدهوره في كُردستان في القرن الثامن عشر عندما سيطر الانكشاريون على مقدرات الإمبراطورية العثمانية. ففي ظل سلطتهم الفاسدة، عانت المدن الفوضى الإدارية وانتشار الفساد والإجراءات التعسفية القمعية وغياب الأمن والاستقرار.<sup>١٧٠</sup> وصلت التأثيرات السلبية لسيطرة الانكشارية إلى مناطق كُردية مختلفة. في جنوب كُردستان، اعتاد الحكام المماليك الجدد في بغداد على إرسال حملات عسكرية ضد الإمارات الكُردية، خاصة إمارة بابان بهدف إخضاعها لسلطتهم ونهب ثرواتها. تلك كانت الخلفية التاريخية التي سبقت ظهور حركة الأمير عبد الرحمن الاستقلالية في كُردستان الجنوبية التي شكلت بداية مرحلة جديدة في تطور العلاقات الكُردية مع الدولتين التركية والإيرانية. وانتهت هذه المرحلة في منتصف القرن التاسع عشر لدى فشل الحركات الاستقلالية جميعها في تحقيق اهدافها التي ادت بالتالي إلى تدمير جميع الإمارات الكُردية.

<sup>١٧٠</sup> اندرسون، "دولة الشرق الاستبدادية"، ص ٣٤.

## الفصل الثالث

### قيام أولى الحركات الاستقلالية: الدور السياسي للأمير عبد الرحمن بابان، ١٧٨١-١٨١٤

بين أواخر القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر، ظهرت ثلاث حركات قوية متعاقبة في كردستان الكبرى استهدفت تشكيل دولة كردية كبيرة متحررة تماما من اية قيود سياسية أو عسكرية أو مالية كانت تفرضها الدولتان التركية والإيرانية على الإمارات الكردية. وقاد هذه الحركات ثلاثة أمراء شباب، وهم عبد الرحمن من إمارة بابان ومحمد كور باشا من إمارة سوران وبدرخان من إمارة بوتان. وشكل ظهور هذه الحركات نقطة انعطاف مهم في تاريخ الشعب الكردي وذلك لان الإمارات الكردية واجهت مستقبلين متفاوتين كلياً على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كافة: الأول هو تشكيل دولة كردية كبرى (أو قيام اتحاد سياسي كونفدرالي يضم العديد من الإمارات)، والثاني هو تدمير الكيانات المستقلة وشبه المستقلة وبالتالي إلحاقها كاملة بالإمبراطوريتين العثمانية والقاجارية.



لقد خضعت مسالة نجاح تلك الحركات الاستقلالية وفشلها إلى جملة عوامل داخلية وإقليمية ودولية. وعبر العامل الداخلي عن نفسه بقدرة الكرد على توحيد صفوفهم وتحييد نفوذ القبليّة وترقية الولاء المحلي إلى ولاء اشمل يتعدى حدود الإمارة والمنطقة الواحدة. على الصعيد الإقليمي، كان على النخب السياسية الكردية استغلال إلى ابعد حد ممكن الوهن المتزايد الذي عانت منه السلطات المركزية في استنبول وطهران في مساعيها لتكوين كيان سياسي كردي كبير. أما العامل الأخير والذي اثر في مسار الأحداث السياسية في كردستان فكان توغل القوى الأوربية الكبرى السياسي والاقتصادي في الشرق الاوسط، وسياساتها تجاه مسالة مستقبل الإمبراطوريتين العثمانية والقاجارية ومشاكلهما الداخلية في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

سيركز هذا الفصل أساساً على إمارة بابان وأميرها عبد الرحمن الذي أطلق أولى الحركات الاستقلالية الجديدة في كردستان الجنوبية ودخل في صراع مرير مع السلطات المملوكية في بغداد لمدة تزيد على ربع قرن. وقبل التطرق إلى عبد الرحمن ودوره السياسي، من الضروري دراسة ثلاث مسائل ارتبطت بالإطار الإقليمي والتي لا يمكن إغفالها لدى تكوين صورة عامة عن تلك المرحلة الحاسمة في تاريخ الإمارة البابانية. المسالة الأولى هي ظهور سلطة المماليك في ميسوبوتاميا العربية وتأثيرها على الوضع السياسي في كردستان الجنوبية ما بين عامي ١٧٤٩ و١٨٣١، والمسالة الثانية هي موقع إمارة بابان الجيوسياسي الخاص وتأثيره في علاقاتها مع دول الجوار. أما المسالة الأخيرة فهي الدور السياسي الذي لعبه الكرد في الشؤون الداخلية للبلدان المجاورة بعد انهيار الإمبراطورية الصفوية في العقد الثالث من القرن الثامن عشر وهيمنة المماليك على ميسوبوتاميا العربية في العقد الخامس من القرن نفسه.

## إمارة بابان وعلاقتها مع البلدان المجاورة

### استيلاء المماليك على السلطة

وتأثيره على أوضاع كردستان الجنوبية ما بين عامي ١٧٤٩ و١٨٣١

في عام ١٧٣٦، قررت السلطات العثمانية توسيع صلاحيات والي بغداد، محمد باشا، لتشمل ولاية شهرزور.<sup>١٧١</sup> كما تم ترقية محمد باشا إلى رتبة وزير بالانسجام مع الزيادة الملحوظة في مسؤولياته السياسية والإدارية. وفي الأعوام القليلة التالية، اضطر السلطان العثماني القبول باحتكار المماليك للسلطة في ميسوبوتاميا العربية، باستثناء منطقة الموصل. فحسب اعتقاد ألبرت حوراني، نظراً للاحتتمالات القائمة حول عدم ولاء سكان الشيعة الأكثرية في ولايتي بغداد والبصرة، من ناحية، وبسبب الموقع الاستراتيجي لولاية بغداد المشرف على الحدود المضطربة مع الإمبراطورية الإيرانية، من ناحية ثانية، «كان من مصلحة الحكومة التركية ان تقبل بحكم مجموعة (أي السنة المماليك) قادرة على توفير قوات مسلحة فعالة وجباية الضرائب والمحافظة على ولاء تلك الأقاليم للسلطان».<sup>١٧٢</sup> والى جانب تلك الحسابات الاستراتيجية والسياسية والمالية، ضعف نفوذ الحكومة العثمانية المتزايد، خاصة في الأقاليم غير التركية، وهو ما جعلها في حاجة إلى سلطة فعالة وجريئة في بغداد، قادرة على احتواء الطموحات السياسية لإمارات كردستان الجنوبية، خاصة بابان. فأمرء الأخيرة كانوا مستقلين عملياً في إدارتهم لكيانهم الكردي الواسع والممتد من نهر الزاب الكبير إلى مناطق بدره وجصان وخانقين. لكل هذه الأسباب شكل احتكار المماليك للسلطة بداية مرحلة سياسية جديدة، لا في ولايتي بغداد والبصرة فقط وإنما في كردستان الجنوبية أيضاً.

شكل عام ١٧٤٩ بداية عصر الهيمنة المملوكية في ميسوبوتاميا، التي يمكن عدها إحدى إفرازات سيطرة الانكشاريين على مقدرات الإمبراطورية العثمانية. وصار المماليك الشريحة السياسية والعسكرية المهيمنة بين عامي ١٧٤٩ و١٨٣١.

<sup>١٧١</sup> الشيخ رسول الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ترجمه من التركية موسى كاظم، (قم: الشريف الرضي، ١٤١٣)، ص ٣٩.

<sup>١٧٢</sup> Albert Hourani, *The Ottoman Reforms and the Politics of Notables*, in *Beginning of Modernisation in the Middle East: The 19<sup>th</sup> Century*, Edited by W.R. Polk & R.C. Chambers, (Chicago: University of Chicago Press, 1968), p.51.

لقد كان المماليك عبيداً سابقين جلب معظمهم من جورجيا بهدف خدمة الولاة الأتراك في بغداد والبصرة. اعتقهم هؤلاء الولاة ودرّبوهم كي يتسلموا مسؤوليات إدارية وعسكرية. وكان هدف الولاة المبطن من وراء ذلك الاجراء منع ظهور نخب سياسية وعسكرية محلية عربية يمكن ان تشكل تحدياً مستقبلياً لسلطتهم. وساعدت الامتيازات السياسية والعسكرية المماليك تدريجياً في تعزيز مواقعهم في ولايتي بغداد والبصرة حتى استطاعوا عرقلة تعيين الولاة الأتراك. بهذه الطريقة اختلفت النخبة التركية السياسية والعسكرية من تلك الولايتين حتى أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر. اضطرت السلطات المركزية العثمانية إزاء تنامي نفوذ المماليك إلى الاعتراف بمن يختارونه منهم ولاة جدداً لبغداد والبصرة. بتعبير آخر، ظل السلاطين العثمانيون مسؤولين نظرياً عن تعيين الولاة في بغداد والبصرة من أبناء الشريحة المملوكية. لكن من وجهة النظر العملية، اختار المماليك وحدهم الولاة الجدد وسائر موظفي الولاية الكبار. وهذا الاختيار جاء في اغلب الاحوال عن طريق حسم الصراعات الدموية والمؤامرات الداخلية بين المماليك من اجل السلطة. وكلما عزز المماليك من سلطتهم في ولايتي بغداد والبصرة ازدادت استقلاليتهم ودرجة عصيانهم لأوامر السلاطين الأتراك.

تألفت القوى السياسية والاجتماعية البارزة في المجتمع البغدادي من الأسر المملوكية والأسر التركية الإدارية القديمة والأشراف الدينيين للعرب السنة فضلاً عن بيوتات تجارية ومالية ثرية اغلبهم من المسيحيين واليهود.<sup>١٧٣</sup> لجأ المماليك في صراعاتهم الداخلية من اجل السلطة إلى نيل دعم تلك القوى فضلاً عن المساندة العسكرية لقادة القبائل العربية والأسر الاميرية الكردية. لقد عُرفت عن قادة المماليك طموحاتهم السياسية غير المحدودة والقسوة الشديدة في معاملتهم للسكان سواء في ميسوبوتاميا العربية أو في كردستان الجنوبية. وشهد العهد المملوكي طوال أعوامه الثمانين اغتيال العديد من القادة المماليك من قبل خصومهم، واندلاع حروب أهلية بين مختلف الكتل المملوكية من اجل الاستيلاء على السلطة. وربما يفسر هذا الوضع

<sup>١٧٣</sup> Tom Niewenhuis, *Politics and Society in Early Modern Iraq (Mamluk, Tribal Shaykhs and Local Rulers between 1802 and 1831)* (London, Bostan & the Hague: Martinus Nijhoff, 1982) p.59.

السياسي الفوضوي فشل قادة المماليك جميعهم في ارساء سلطة وراثية على غرار محمد علي باشا في مصر الذي تخلص من جميع منافسيه في سبيل احتكار السلطة هو وأبناؤه من بعده.

ان الحياة المترفة التي عاش فيها قادة المماليك في بغداد وغيرها من المدن، من ناحية، وعدم ضمان امكانية بقائهم في السلطة بسبب خلافاتهم والمؤامرات الداخلية المستمرة، من ناحية ثانية، جعلتهم في حالة من القلق الدائم فيما يتعلق بظروفهم المالية في المستقبل. ووجود هذه الوضعية تفسر نسبياً سبب لجوء أغلبية قادة المماليك إلى اتباع وسائل الابتزاز والاستغلال والنهب بشكل متطرف أملاً في إثراء انفسهم على حساب السكان في أسرع وقت ممكن. كانت وسائل الحكام المماليك الرئيسية في جمع الثروة تتمثل في فرض الضرائب الباهظة على السكان ونهب ثروات وممتلكات سكان المقاطعات الخارجة عن سيطرتهم المباشرة من خلال شن غزوات عسكرية ضدها من وقت لآخر.

لقد نال المماليك من وراء حملاتهم العسكرية ضد مختلف المناطق في كردستان الجنوبية مكانة متميزة عند السلطات العثمانية، فقد عدّوهم خير من يستطيع معاقبة الأمراء الكرد المستقلين وإخضاعهم لحكم السلطان. في عام ١٧٤٦، قاد سليمان باشا، الذي اصبح فيما بعد الحاكم المملوكي الأول لولاية البصرة ومن ثم لولاية بغداد، جيشاً قام من خلاله بقمع ثورة كردية في منطقة العمادية.<sup>١٧٤</sup> وفي عام ١٧٥٢، أي بعد مرور ثلاث سنوات على تسلمه منصب وزير بغداد، هاجم سليمان باشا وبوحشية الايزديين الكرد في مقاطعة سنجار. ويعطي الكركوكلي، المؤرخ التركي معلومات عن سلوك أفراد جيش وزير بغداد خلال تلك الحملة:

اما من بقي من الثوار فقد اتخذوا من جبالهم حصوناً واستحكامات واغرتوا بصعوبة الدنو منهم، فلما وصل الوزير بجنوده ضيق عليهم الحصار واصلاهم ناراً حامية، واقتحم قلاعهم فدمرها الواحدة بعد الأخرى، واوقع برجالهم قتلاً وأسراً، وسبى نساءهم وغنم أموالهم ودمر اماكنهم واقتلع بساتينهم واحرق

<sup>١٧٤</sup> كركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٩٣.

مزارعهم وجرّ أعناق الكثيرين وأرسل نحو ٣٠٠ رأس منهم إلى الأستانة، ثم عفا  
عن الباقيين وعاد إلى بغداد.<sup>١٧٥</sup>

ولم يثن سلطان محمود الأول على الطريقة الوحشية التي التجأ إليها الوزير  
سليمان في قمع الايزيديين الكرد فحسب، وإنما انعم عليه بوسام وخلعة. وبعد سنتين  
من ذلك الحدث، منح السلطان محمود الأول سليمان باشا حق إدارة ولاية البصرة.  
وتخللت أعوام حكم الوزير سليمان الاثنى عشر العديد من الحملات العسكرية ضد  
سكان كردستان الجنوبية ولايتي بغداد والبصرة.<sup>١٧٦</sup>

وتبنى القادة المماليك الذين خلفوا سليمان في منصبه خطاه تلك. ففي عام  
١٧٩٠، قام الوزير المملوك الجديد سليمان الكبير (١٧٨٠-١٨٠٢) بأعداد حملة  
عسكرية كبيرة ضد الايزيديين الكرد. وانتهت الحملة كسابقتها بشنق اعداد كبيرة من  
الايزيديين، الذين جرّت رؤوسهم فيما بعد. وفي عام ١٨٠٣، قام علي باشا، الوزير  
المملوكي، بغارة ضد مقاطعة سنجار حيث ارتكب مجزرة ضد سكانها من الايزيديين.  
وقام جيشه أيضا بنهب وتدمير ممتلكات الايزيديين، من ضمنها البيوت والمزارع. وفي  
العام نفسه، شن علي باشا حملة عسكرية ضد عشائر بلباس الكردية حيث نهب  
الآلاف من رؤوس الماشية والأغنام وغيرها من الحيوانات، التي اعتمد الأهالي عليها  
في معيشتهم.<sup>١٧٧</sup> وشن وزير مملوكي اخر غارة في عام ١٨١١، ضد الايزيديين في مقاطعة  
سنجار وضد الايزيديين الذين فروا سابقاً إلى القرب من مدينة أورفه. أسفرت الغارة  
كسابقاتها عن قتل الرجال وأسّر النساء وتدمير القرى الايزيدية.<sup>١٧٨</sup>

ان شن الحملات الوحشية تلك من قبل المماليك قد زادت من صيبتهم إلى ابعاد  
الحدود. وصارت تلك الحملات سبباً رئيساً في ترقيتهم ومكافأتهم من قبل السلطات  
المركزية في استنبول. ليس من الغريب إذن أن يكون للعصر المملوكي تأثيرات  
اجتماعية واقتصادية عميقة في كردستان الجنوبية (وكذلك في ميسوبوتاميا العربية).  
فقد اجبر العديد من الفلاحين الكرد على ترك حقولهم بعد أن تم تدميرها وحرقتها أثناء

<sup>١٧٥</sup> المصدر السابق، ص ١٢٤-١٢٥.

<sup>١٧٦</sup> المصدر السابق، ص ١٣١-١٣٢.

<sup>١٧٧</sup> المصدر السابق، ص ٢٢٢-٢٢٣.

<sup>١٧٨</sup> المصدر السابق، ص ٢٤٥.

الحملة المملوكية العسكرية. كما اجبر الكثير من أهالي المدن على ترك محال سكنهم بسبب الهجمات التي شنت ضدها من قبل جيوش المماليك بين مدة وأخرى. واضطرت عدة قبائل، بسبب ضغوط ومضايقات المماليك، الى ترك أماكنها الأصلية واللجوء إلى أماكن نائية أكثر أمنًا. وقاد غياب الأمن والاستقرار إلى عرقلة النشاط التجاري والزراعي. وفي ظل هذه الأوضاع المضطربة صعد الأمير عبد الرحمن إلى السلطة في إمارة بابان ليدخل في واحدٍ من أطول الصراعات العسكرية مع السلطات المملوكية في بغداد وأحيانًا مع السلطات القاجارية في إيران بهدف ارساء دولة مستقلة كبيرة في كردستان الجنوبية.

## إمارة بابان

### ومسألة الحدود بين الإمبراطوريتين التركية والإيرانية

كانت بابان واحدة من أكثر الإمارات الكردية تأثرًا بالنزاع الأمني الحدودي بين القوتين الإيرانية والعثمانية بسبب موقعها الجيوسياسي وأهميتها الاقتصادية. واستغلت الدولتان المتجاورتان مسألة أمن الحدود في احتواء قوة أمراء بابان المتنامية من خلال غزو تلك الإمارة والتدخل في شؤونها السياسية الداخلية. لم تعان إمارة مثلما عانت بابان من حملات عسكرية خارجية عديدة شنت عليها. وكانت مناطق شهرزور وبادجان وزهاو التابعة لإمارة بابان أهمية استراتيجية واقتصادية مزدوجة، حيث أشرفت على الطرق التجارية والاستراتيجية التي ربطت الجزأين الأعلى والأوسط من ميسوبوتاميا العربية مع الأقاليم الإيرانية الداخلية: أي طريق همدان-كرماشان-خانقين-كفري-كركوك-الموصل أو طريق همدان-كرماشان-خانقين-بغداد. لهذا السبب فإن الطرف المسيطر على تلك الأقاليم البابانية، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، سيكون في موضع قوي جدا يمكنه، إذا أراد، توسيع نفوذه إلى الجزأين الأعلى والأوسط من ميسوبوتاميا العربية. وكما اسلف في الفصل السابق، كانت السلطات التركية على علم بأهمية تلك الطرق الاستراتيجية والتجارية ولهذا سعت إلى تقوية نفوذها عن طريق تشجيع القبائل التركمانية البدوية على الاستقرار في المدن المشرفة عليها أو القريبة منها، كخانقين وقلز رباط وكفري وكركوك والتون كوبري واربيل. وتعزز الوجود التركي بصورة أكثر بمرور الزمن بسبب

إقامة المعسكرات واستقرار عائلات المسؤولين العسكريين والمدنيين الأتراك في تلك المدن. وصارت اللغة التركمانية رئيسية في تلك المناطق، وكان هذا الامر انعكاساً مباشراً للهيمنة التركية على تلك المدن الكردية.

شهدت السنوات الأربعون، التي أعقبت معركة جالديران، عدة حروب عثمانية- صفوية من اجل السيطرة على مناطق كردية وميسوبوتاميا العربية. وتناوبت الدولتان العثمانية والصفوية في السيطرة على تلك المناطق عدة مرات. فقد سيطر الأتراك على ميسوبوتاميا وفقدوها مرتين. أما الإمارات الكردية فقد اتخذت مواقف براغماتية تعكس مصالحها الخاصة في تلك الاوقات. وتراوحت تلك المواقف بين اخذ جانب هذه الدولة أو تلك وبين عدم التورط في معارك الإمبراطوريتين. وكان من الصعب جدا عدم تورط أمراء بابان في تلك المجابهات العسكرية (والتي ستليها) بسبب موقع إمارتهم الجغرافي. في عام ١٥٥٥، وقع العثمانيون والصفويون على أول اتفاقية سلام عرفت بأماسية. ولم تعين هذه الاتفاقية الحدود بين الإمبراطوريتين باستثناء تحديد مناطق نفوذ كلا الطرفين العثماني والصفوي. وشكل هذا دليلاً واضحاً على عزم الإمبراطوريتين المتنافستين على اعادة رسم الخارطة السياسية في كردستان وميسوبوتاميا على حساب الآخر في اقرب فرصة ممكنة. وبالرغم من عدم صدق نوايا الطرفين، استطاعت اتفاقية أماسية أن تحفظ السلام بين الإمبراطوريتين لمدة ٢٠ عاماً. وبعدها دخل الطرفان في سلسلة حروب مدمرة على حساب سكان كردستان وميسوبوتاميا، واستطاع خلالها الصفويون أن يخضعوا ميسوبوتاميا لسيطرتهم لمدة ١٥ عاماً بين عامي ١٦٢٣ و١٦٣٨.

في عام ١٦٣٩، أي بعد أن استعاد العثمانيون السيطرة على ولاية بغداد، اجبر السلطان مراد الرابع، الذي حكم بين عامي ١٦٢٧ و١٦٤٠، الشاه الصفوي على توقيع اتفاقية سلام جديدة. وتكمن أهمية اتفاقية زهاو، كما عرفت فيما بعد، في قبول الدولتين مبدئياً ولأول مرة بحدود عامة تفصل مناطق نفوذهما. وكما ذكرت مريا أوشيا، اتخذت تلك الحدود شكل حزام عريض جداً (١٦٠ كيلومترات تقريباً) امتد من جبال زاكروس في الشرق ونهر دجلة في الغرب.<sup>١٧٩</sup> ويستدل من ذلك أن الدولتين برغم

<sup>١٧٩</sup>Maria T. O'shea The Question of Kurdistan and Iran's International Borders, in The Boundaries of Modern Iran, ed. Keith McLachlan, (London: UCL Press, 1992), p.52.

اتفاقهما على تقسيم مناطق السيطرة المباشرة بينهما، مثل بغداد، لم تستطعا الاتفاق على مسألة مستقبل العديد من المناطق الكردية الاستراتيجية. وعلى المستوى النظري، اتفق العثمانيون والصفويون على إدخال الإمارات الكردية المستقلة و شبه المستقلة ضمن مناطق نفوذهم، في حالة نيل أي منها ولاء أمراء وقادة القبائل الكردية. وأدى هذا بدوره إلى تمركز الصراعات المستقبلية بين الإمبراطوريتين العثمانية والإيرانية في ذلك الحزام الاستراتيجي الواسع. ومنذ ظهور اتفاقية زهاو فصاعداً، أصبحت بابان، وبسبب موقعها الجغرافي، الإمارة الأكثر تأثراً بقضية الحدود. وكشفت اتفاقية زهاو أيضاً أن كلا الدولتين العثمانية والإيرانية لم تمارس ضغطاً قوياً على الإمارات الكردية في سبيل أن تقبل بالترتيبات الثنائية المتفق عليها. ولم يلتزم الأمراء الكرد وقادة القبائل بدورهم ببند تلك الاتفاقيات المعقودة بين الأتراك والإيرانيين، ربما بسبب انها تجاهلت مصالحهم. فلم تتوقف مساعي أمراء بابان، مثلاً، في استعادة منطقتي زهاو وياجلان من السيطرة الإيرانية.

ظل الأتراك والإيرانيون يشك احدهم في نوايا الآخر، بالرغم من توقيعهم اتفاقية زهاو، ولهذا سعوا إلى استغلال أية فرصة تمكنهم من توسيع سلطتهم ومد نفوذهم إلى مناطق الجانب الآخر. ففي أوائل العقد الثاني من القرن الثامن عشر، حاول العثمانيون إلحاق عدد من المقاطعات في كردستان الصغرى وأذربيجان بإمبراطوريتهم بالرغم من انها كانت نظرياً تابعة للدولة الإيرانية. وظلت الدولتان الإيرانية والتركية في حالة حرب فنياً حتى منتصف العقد الرابع من القرن الثامن عشر،<sup>١٨٠</sup> حين قبل كل من السلطان مراد والشاه الجديد نادر قليخان (١٧٣٦-١٧٤٧) مبدئياً باتفاقية سلام أخرى عرفت باتفاقية كوردان (أيلول ١٧٤٦)، التي أكدت التزام الطرفين ببند اتفاقية زهاو السابقة. لكن الاتفاقية الجديدة لم تنفذ بسبب مقتل نادر شاه بعد ٩ اشهر من قبوله المبدئي ببندوها. وسرعان ما اندلعت حروب مدمرة واسعة بين الدولتين التركية والإيرانية، استمرت لمدة ١٦ عاماً.

ظلت الوضعية المتأزمة بين الأتراك والإيرانيين على حالها دون تغيير ملحوظ عدة عقود حتى بعد ظهور حركة عبد الرحمن واختفائها. ففي أعقاب حرب استمرت

<sup>١٨٠</sup> Treaty of Peace (Kurdan): The Ottoman Empire and Persia, in Diplomacy in the Near and the Middle East, Edited by Hurewitz, vol.1, p.79.



لمدة عامين تقريباً (١٨٢١-١٨٢٣)، وقعت الدولة العثمانية والدولة القاجارية الجديدة اتفاقية أخرى في تموز عام ١٨٢٣ عرفت باتفاقية ارزروم. لأول مرة أشارت كلتا الدولتين صراحة في اتفاقيتهما الثنائية إلى كلمة "كردستان"<sup>١٨١</sup>. وتكمن الأهمية التاريخية لهذه الاتفاقية في كونها جاءت إلى الوجود في خضم الصراع المندلج بين الحركات الاستقلالية الكردية من جهة والسلطات التركية والإيرانية من جهة ثانية، التي انتهت بتدمير جميع الإمارات الكردية في كردستان. ولم تنص اتفاقية ارزروم على امتناع الدولتين القاجارية والعثمانية من التدخل في شؤون المناطق الكردية من أجل إضعاف نفوذ الآخر فحسب، وإنما على تنسيق مساعيها ضد القبائل الكردية التي اتهمت بتأزم الأوضاع السياسية بين الدولتين. لقد حاولت بنود اتفاقية ارزروم إضفاء طابع دائم على تقسيم ارض كردستان:

تعاد إلى الإمبراطورية العثمانية البلدان التي كانت واقعة ضمن حدودها والتي أخذت من قبل بلاد فارس خلال الحرب (الأخيرة) أو قبل اندلاع المشاكل، بضمنها القلاع والمقاطعات وقطعات الأراضي والمدن والقرى.<sup>١٨٢</sup>

على الرغم من إعادة تأكيد الطرفين الإيراني والتركي التزامهما باتفاقية كوردان، لم يقبل أي منهما برسم الحدود النهائية. ففي فترة ما بعد اتفاقية ارزروم، حدثت خلافات حدودية مرة أخرى، لكنها لم تتطور إلى حروب كبيرة بين الدولتين العثمانية والقاجارية. وما بين عامي ١٨٤٣ و١٨٤٧، شكلت لجنة إيرانية- تركية مشتركة، التي ضمت أيضاً ولأول مرة أعضاء بريطانيين وروساً. واستطاعت تلك اللجنة تقديم صيغة اتفاقية حدودية جديدة شابها عدم الدقة. وأصبحت هذه الصيغة أساساً لاتفاقية مؤقتة أخرى تم التوصل إليها في عام ١٨٦٥. لكن الدولتين العثمانية والقاجارية رفضتا القبول بها حتى تشرين الأول عام ١٩١٤ عندما قبل كلا الطرفين بتوقيعه. ومنع اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى من تطبيق هذه الاتفاقية.

على رغم تعدد السلالات التي حكمت إيران، كان سياستها تجاه إمارة بابان متطابقة إلى حد كبير. وهذه السياسة استندت إلى إدخال تلك الإمارة إلى دائرة النفوذ

<sup>١٨١</sup>O'Shea 'The Question of Kurdistan and Iran's International Borders', p.52.

<sup>١٨٢</sup>Treaty of Peace (Erzerum): The Ottoman Empire and Persia, 28 July 1823, in Diplomacy in the Near and the Middle East, Edited by Hurewitz, vol.1, p.220.

الإيراني وبالتالي استخدامها ان امكن وسيلة ضغط على ولاة بغداد لكي يخضعوا إلى الحماية الإيرانية. أما السياسة التي اتخذها جميع ولاة بغداد من المماليك فانصبت في تحجيم إمارة بابان إقليمياً وإخضاع امرائها إلى سيطرة بغداد كاملة. في ما يخص الموقف تجاه الدولة الإيرانية والحكم المملوكي/ العثماني، يُمكن تمييز توجهين رئيسيين بين أعضاء الاسرة الأميرية البابانية ما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التالي. من جانب، سعى طلاب المحافظة على استقلال الإمارة وتقويتها إلى مقاومة أي هيمنة أو تدخل خارجي سواء أكان إيرانياً أم مملوكياً، استلزم الوصول إلى ذلك الهدف خلق توازن في العلاقة بين القوتين الأجنبيةتين. فإذا جاء الضغط من الجانب المملوكي، عمل هؤلاء البابانيون على تقوية العلاقات مع إيران. وبالطريقة نفسها حاول هؤلاء احتواء الضغوط الإيرانية من خلال تحييد موقف المماليك. باختصار، اعتمدت هذه السياسة البابانية في نجاحها على استمرار الخلاف الأيراني- المملوكي. وكان الأمير عبد الرحمن وابنه محمود من بين الذين لجأوا إلى هذه السياسة خلال عهدهما.

أما التوجه الثاني بين أعضاء الاسرة البابانية الحاكمة فتمثل بالقبول بفكرة الاعتراف اسمياً بسلطة المماليك أو الحكم الإيراني أملاً في ان تنعم الإمارة بحكومة ذاتية بصورة مستمرة. كان عبد الله شقيق عبد الرحمن من دعاة هذا التوجه. هناك نقطتان مشتركتان بين اصحاب هذه التوجهات المختلفة وهي: (١) عدم تردهم في التدخل في شؤون الحكم في بغداد أملاً في حسم الموقف بصورة تخدم مصالح إمارة بابان، و(٢) مقاومة اية محاولة تستهدف إلغاء الإمارة أو تقويض حجمها الجغرافي أو تحويل حكمها إلى موظفين وأدوات بيد الإيرانيين أو المماليك.

### بعض جوانب الدور الكردي

#### في السياسة الداخلية في البلدان المجاورة

حتى انتهاء العهد الصفوي، لم يلعب الكرد دوراً متميزاً في السياسات الداخلية للدولتين الإيرانية والتركية حيث كان التأثير الكردي مقتصرًا على مسار الأحداث في أطراف تلك الدولتين. وعكس الدور الكردي المحدود هذا الجغرافية السياسية لكردستان (أي كونها إقليمًا حدوديًا كبيراً يفصل دولتين الواحدة عن

الأخرى)، من جهة، وضيق طموحات الأمراء الكرد وقادة القبائل من جهة ثانية. ويعمل الواقع الجيوسياسي لما غلب الطابع العسكري على الدور الكردي بشكل كبير. وتغير الحال هذا في عام ١٧٣٦، عندما بدأت مجموعة من القبائل الكردية بلعب دوراً مهماً غير مسبوق في الأوضاع السياسية الإيرانية الداخلية مباشرة بعد انهيار الإمبراطورية الصفوية في ذلك العام. ولم تعد إيران تملك سلالة حاكمة تملك شرعية سياسية، ولهذا ظهر على المسرح السياسي الإيراني عدد من المدعين بالشرعية وبأحقية تولي الحكم. لكن لم يملك أي من هؤلاء المدعين قدرة سياسية وعسكرية كافية تمكنه من الاستيلاء على السلطة وتوحيد الأقاليم التي كانت في السابق تابعة للإمبراطورية الإيرانية. ومكنت هذه الوضعية عدداً من القبائل الكردية من ان تلعب دوراً ملحوظاً في التأثير على نتائج تلك الصراعات المحتدمة من أجل السلطة السياسية في إيران.

بدأت المشاركة الكردية المباشرة في الحياة السياسية الإيرانية عند قيام نادر قليخان بمحاولته الاستيلاء على السلطة في عام ١٧٣٣. ونجح نادر شاه، كما عرف لاحقاً، بفضل القبائل الكردية الموجودة في إقليم خراسان من إلحاق الهزيمة بالعدد من خصومه الداخليين وبالتالي بسط سيطرته على عدة أقاليم منها خراسان ومارندران وخوارزم وأفغانستان وكرماشان.<sup>١٨٣</sup> كما كشف النفوذ الكردي عن نفسه في مسار الأحداث في تطورين غير سياسيين بعد وصول نادر شاه إلى العرش. فطبقاً إلى الكركوكلي، انتفض الكرد السنة ضد نادر شاه عندما أعلن ان المذهب الجعفري الجديد سيكون مذهب الدولة الرسمي.<sup>١٨٤</sup> وبعد ثلاثة أعوام، اشترك عدد من ممثلي الكرد الدينيين، مثل مفتي إمارة اردلان ورجال دين كبار من مدن كرماشان واورمية وشيروان، في ندوة لم يسبق لها مثيل استهدفت رأب الصدع بين الطوائف السنية والشيعية.<sup>١٨٥</sup>

<sup>١٨٣</sup> كركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٩-٣٠.

وتوجد تفصيل أخرى عن دور القبائل الكردية في المدة التي تلت مقتل نادر شاه في كتاب توحدي "حركة كُرد بسوي خراسان".

<sup>١٨٤</sup> المصدر السابق، ص ٤٦-٤٧.

<sup>١٨٥</sup> المصدر السابق، ص ٥٤.

خلق مقتل نادر شاه على أيدي خصومه الداخليين فراغاً في السلطة السياسية مرة أخرى، رافقه انتشار الفوضى وعدم الاستقرار في معظم أرجاء الإمبراطورية الإيرانية. ودخلت القبائل الكردية الصراع من أجل السلطة كغيرها من القبائل الأذربيجانية والأوزبكية والأفغانية عن طريق دعم أحد المدعين بالسلطة. استمرت حالة الفوضى هذه لمدة ثلاثة أعوام، استطاع في نهايتها كريم خان زند، قائد الزنديين الكرد الموجودين بين مدينتي كرماشان وهمدان، من ملء الفراغ في السلطة السياسية الذي خلقه مقتل نادر شاه. ليس هذا فحسب وإنما أسس كريم خان سلالة حاكمة جديدة حكمت الإمبراطورية الإيرانية ما بين عامي ١٧٥٠ و١٧٩٥. وعلى غرار حكام إيران الذين سبقوه، تدخل كريم خان في الشؤون الداخلية لإمارة بابان بغرض إنهاء نفوذ السلطات المملوكية من كردستان الجنوبية. وكان هدف كريم خان الأساسي توطيد أمن الحدود الغربية لدولته، في الوقت الذي اتبع نهجاً معتدلاً تجاه النخب التقليدية الكردية وذلك بعدم التدخل في شؤونها.<sup>١٨٦</sup> ويتضح من كتاب الكركوكلي ان كريم خان فضل وجود إمارة بابانية قوية في كردستان الجنوبية موالية لسلطته، على العكس من الحكام الإيرانيين الذين سبقوه. ولم يشر حتى الكركوكلي المعروف بميوله المعادية لحكام إيران إلى أية حادثة تؤكد مطالبة كريم خان البابانيين بدفع الإتاوة أو قيام قواته بنهب المدن والقرى الكردية خلال تقدمها داخل كردستان الجنوبية.

ودخلت الإمبراطورية العثمانية أيضاً فترة من الفوضى وعدم الاستقرار السياسي عندما فرض الانكشاريون سيطرتهم على جهاز الدولة. لكن هذا الوضع لم يؤد إلى أي تغيير ملحوظ في الدور الكردي بما يتعلق بالشؤون السياسية الداخلية للدولة العثمانية. وربما يرجع السبب في ذلك إلى بعد المناطق الكردية الجغرافي عن مركز السلطة السياسية، وبالتالي عدم قدرة الأمراء وقادة القبائل لعب دور مماثل للذي لعبه نظراؤهم في الدولة الإيرانية في دعم الفرق المتصارعة على السلطة السياسية. وشكل أمراء بابان حالة استثنائية فيما يتعلق بتدخلاتهم في شؤون ميسوبوتاميا العربية خلال اوقات الفوضى التي تخللت عهد المماليك بين عامي ١٧٤٩ و١٨٣١. فقد اضطرت كتل المماليك المختلفة والمتصارعة من أجل السلطة إلى البحث

<sup>١٨٦</sup>Foran, *Fragile Resistance*, p.87.

عن حلفاء في الأقاليم المجاورة في سبيل دحر خصومها. ولان أمراء بابان امتلكوا اقوى قوة عسكرية وسياسية ولكون إمارتهم كانت الاقرب جغرافياً إلى مركز الصراع، أي بغداد، كان من المنطقي ان يلتجئ عدد من أجنحة المماليك المتصارعة إلى طلب مساعدة هؤلاء الأمراء ضد خصومهم.

من جهة ثانية، وبفعل التجارب التاريخية المريعة السابقة التي مرت بها بابان، بدأ أمراؤها يعطون أهمية للوضع السياسي في ميسوبوتاميا في العهد المملوكي، وصاروا يؤمنون بان تدخلاتهم، السياسية منها والعسكرية، في أوضاع بغداد هي خطوة أولية استهدفت احتواء التهديدات المستقبلية التي تصدر عن ولايتها باستمرار. كما سيساعد وجود ظرف سياسي ملائم في ميسوبوتاميا البابانيين على توسيع سلطتهم ومد نفوذهم إلى سائر المناطق الكردية المجاورة. لكن يجب التذكير هنا بأنه لا يوجد أي دليل يثبت ان أمراء بابان نشدوا من وراء تدخلاتهم في شؤون بغداد الداخلية الاستيلاء على السلطة السياسية فيها. وحادثته رفض الأمير عبد الرحمن لمنصب الوزارة في بغداد، والذي اقترحه أحد السلاطين العثمانيين،<sup>١٨٧</sup> لهو دليل على ان طموحات أمراء بابان السياسية لم تتعد حدود المناطق الكردية. وعلى ما يبدو فان أول تدخل باباني في شؤون ميسوبوتاميا العربية يعود إلى عام ١٧٧٨، عندما نشب صراع دموي من اجل السلطة بين كتل مملوكية مختلفة داخل مدينة بغداد، مباشرة بعد وفاة الوزير المملوكي عبد الله، حيث جاء الأمير محمود على رأس قوة كردية من اجل دعم الوزير الجديد حسن باشا.<sup>١٨٨</sup> وفتح تدخل الأمير محمود هذا الباب امام تدخلات سياسية وعسكرية بابانية أخرى في المستقبل.

## تطور حكم السلالة البابانية

### الخلفية التاريخية

يبدو من المعلومات التي وفرها شرفخان في "شرفنامه"، من جهة، ومن الحديث الذي تم بين محمود باشا (أمير بابان بين العقدين الأول والثالث من القرن

<sup>١٨٧</sup>Rich Narrative of a Residence in Kurdistan, pp.96-97.

ربما كان سليم الثالث هو المقصود.

<sup>١٨٨</sup> كركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ١٦٦.

التاسع عشر) وريج، من جهة ثانية، ان إمارة بابان خضعت لحكم ثلاث عائلات مختلفة تحمل الاسم نفسه، أي بابان. ان من الصعب جداً معرفة كيف ومتى جاءت إمارة بابان إلى الوجود. فبتليسي لا يتطرق في كتابه إلى الأوضاع التي رافقت نشوء تلك الإمارة، ولكن يمكن القول بأن بابان كانت إمارة صغيرة في أوائل القرن السادس عشر حينما كانت إمارة اردلان في الشرق منها وامارة سوران في الغرب منها القوتان المهيمنتان في كردستان الشرقية والجنوبية على التوالي. وكان بير بوداق الشخصية البابانية الأكثر بروزاً في الفترات الأولى من قيام الإمارة، والذي نال خلالها ثناء الشعراء بسبب انتصاراته العسكرية. فطبقاً إلى "شرفنامه"، استطاع هذا الأمير توسيع إمارته الصغيرة بالقوة عن طريق ضم العديد من المناطق الكردية الواقعة في الجهات الشمالية والشرقية والجنوبية والغربية من مركز سلطته. فقد انتزع سيوا من إمارة سوران وشهرزور من إمارة اردلان. كما انتزع بير بوداق مقاطعة سلدوز من الإمبراطورية الصفوية وكركوك من الإمبراطورية العثمانية.<sup>١٨٩</sup>

جاءت العائلة البابانية الحاكمة الثانية إلى الوجود بعد وفاة بير بوداق الذي لم يترك وراءه أي وريث. وكان بير نزر، مؤسس العائلة الحاكمة الثانية، موظفاً في البلاط الباباني قبل مجيئه إلى السلطة. وعلى غرار بير بوداق، استطاع هذا الأمير توسيع إمارة بابان عن طريق انتزاع كفري من والي بغداد العثماني. وعقب وفاة بير نزر، انقسمت إمارة بابان إلى ثلاثة أجزاء. وعندما أنهى بتليسي كتابه "شرفنامه"، لم يكن هناك على ما يبدو أمير يحكم الإمارة.<sup>١٩٠</sup> وفي عام ١٦٧٨ تقريباً، أسس فقي احمد العائلة الحاكمة البابانية الثالثة.<sup>١٩١</sup> وكان فقي، الذي عرف ببابه، نبيلاً إقطاعياً من منطقة بشدر (في قضاء قلعة دزه الحالية). وقد روى أحد أحفاده، محمود باشا، لريج خلال زيارته إلى السليمانية كيف وصل جده الأكبر إلى السلطة عن طريق تقديم خدمة هامة إلى أحد السلاطين العثمانيين في حربه مع إيران. ورداً على هذا الجميل، اعترف

<sup>١٨٩</sup> بتليسي، "شرفنامه"، ص ٢٧٦-٢٧٧.

<sup>١٩٠</sup> المصدر السابق، ص ٢٧٩-٢٨٢.

<sup>١٩١</sup> Rich Narrative of a Residence in Kurdistan, footnote p.81.

وبحسب اعتقاد لونكريك، ظهر احمد فقي في أوائل القرن السابع عشر. لونكريك، "اربعة قرون من تاريخ العراق الحديث"، ص ١٠٥.

السلطان العثماني ببابه حاكماً لكل المقاطعات الكردية التي سيطر عليها أو التي سيطر عليها في المستقبل.<sup>١٩٢</sup>

ان واحدة من أهم المحاولات الأولى التي استهدفت تحويل بابان إلى دولة كبيرة مستقلة جرت في عهد الأمير سليمان، ما بين عامي ١٧٦٢ و ١٧٧٨.<sup>١٩٣</sup> لقد نجح هذا الأمير، الذي حمل لقب باشا، مؤقتاً في تحويل بابان إلى كيان مستقل كبير في كردستان الجنوبية عن طريق الاستيلاء على عدة مقاطعات ما بين نهر الزاب الكبير والحدود الإيرانية المفترضة في الشرق، منها أربيل والتون كوبري و زنك آباد ومندلي وبدره وجسان.<sup>١٩٤</sup> لكن حكم هذا الأمير توقف فجأة عندما قام الجيش المملوكي بقيادة علي باشا، وزير بغداد، بالحاق الهزيمة بالقوات البابانية في معركة نشبت بين الطرفين. واضطر سليمان باشا إلى ترك كردستان الجنوبية بعد ان حكم بابان بشكل مستقل لمدة ١٢ عاماً.<sup>١٩٥</sup> ولدى رجوعه من منفاه إلى بابان استقبله السكان بحفاوة، طبقاً إلى الكركوكلي. وسرعان ما قام سليمان باسترجاع الكثير من المقاطعات التي أخذت من إمارته مثل أربيل.<sup>١٩٦</sup> وطبقاً إلى ريج، الحق الأمير سليمان الهزيمة بالجيشين القاجاري والعثماني كل على حده،<sup>١٩٧</sup> في أواخر عهده الثاني الممتد ما بين عامي ١٧٧٥ و ١٧٧٩. وانتهى حلم سليمان بتشكيل دولة كردية كبرى في أعقاب هزيمة قواته مرة أخرى على يد جيش وزير بغداد.<sup>١٩٨</sup>

<sup>١٩٢</sup>Rich Narrative of a Residence in Kurdistan, footnote p.81.

<sup>١٩٣</sup> للحصول على تفاصيل تاريخ بابان في النصف الأول من القرن الثامن عشر راجع: سعدي عثمان حسين، "إمارة بابان في النصف الأول من القرن الثامن عشر: دراسة في علاقاتها السياسية مع السلطات العثمانية".

<sup>١٩٤</sup> المصدر السابق، ص ١٥٧، ١٧٢؛ الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ١٣١-١٣٢.

<sup>١٩٥</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ١٣٢.

<sup>١٩٦</sup> المصدر السابق، ص ١٤٦.

<sup>١٩٧</sup>Rich Narrative of a Residence in Kurdistan, p.172.

<sup>١٩٨</sup> المصدر السابق، ص ٢٩٩-٣٠١.

تفاصيل أخرى عن عهد سليمان باشا بابان في: نه وشيروان مستقفا، "ميرايه تيي بابان له نيوان بهرداشي روم و عهدهم دا"، الجزء الأول والثاني، جريدة كوردستاني نوي، عدد ٢٨، ٢٤ تشرين الثاني ١٩٩٥ وعدد ٢٩، ٢٢ كانون الأول ١٩٩٥.

## أهمية بناء مدينة السليمانية،

### العاصمة البابانية الجديدة

يبدو أن البابانيين كان يفكرون بعض الوقت في نقل مركز سلطتهم السياسية من قلعة جوالان إلى مكان آخر. ربما كان الأمير سليمان يقف وراء فكرة اتخاذ عاصمة جديدة لأنها تتناسب مع طموحاته السياسية الواسعة. وتكشف الطريقة التي تم فيها اختيار موقع العاصمة الجديدة عن وجود حسابات اقتصادية واستراتيجية وسياسية معينة. يبدو ان البابانيين لم يكونوا مقتنعين بفكرة اتخاذ إحدى المدن الكردية القائمة آنذاك عاصمة جديدة لهم. فمدينة كويسنجق مثلاً كانت عرضة إلى الخطر عسكرياً بسبب موقعها وسماتها الجغرافية، أي كونها واقعة في منطقة سهلة مفتوحة. وأما رانية، وهي ثاني المدن البابانية من حيث الأهمية، فقد وقعت في منطقة معزولة وكانت أيضاً قريبة من إمارة سوران، خصم الإمارة البابانية التقليدي منذ ظهورها. في نهاية الأمر، قرر البابانيون بناء مدينة جديدة في منطقة ملكاندهى بطريقة تعكس هيبتهم وطموحاتهم المستقبلية.

بدأ العمل في بناء العاصمة البابانية الجديدة في عام ١٧٨٠ خلال عهد الأمير إبراهيم باشا، وانتهى بعد أربع سنوات.<sup>١٩٩</sup> وسميت العاصمة الجديدة السليمانية (سليمانى في الكردية). توجد هناك تفسيرات مختلفة في أوساط الباحثين الكرد حول سبب اختيار اسم "السليمانية". وواحد من تلك التفسيرات الأقل إقناعاً أن العاصمة الجديدة سميت بهذا الاسم تمشياً بسليمان الكبير وزير بغداد المملوكي الذي حكم بين عامي ١٧٨٠ و١٨٠٢. من الصعب التخيل ان يختار البابانيون اسم شخص قاتلهم بلا هوادة طوال عهده القصير، ناهيك عن انهم كانوا، بوصفهم أحراراً أرستقراطيين، يستنكفون من المماليك بوصفهم عبيداً سابقين لحكام بغداد من الأتراك. ان الاحتمال الأكثر منطقية هو ان اسم العاصمة الجديدة السليمانية قد اختير نسبة إلى الأمير السابق سليمان باشا الباباني، ليس لكونه واحداً من ابرز الأمراء البابانيين كانت مآثره ما زالت حية في نفوس السكان فحسب، وإنما لكون مشروع البناء الطموح يعكس شخصيته وأحلامه.

<sup>١٩٩</sup> توفيق قهقشان، "ميژووی حوکمدارانى بابان له قهلاجولان"، (بغداد: ١٩٦٩)، ص ٩.



كانت لبناء العاصمة الجديدة أبعاد اجتماعية واقتصادية وسياسية متعددة بالنسبة إلى حاضر السلالة البابانية ومستقبلها. أولاً، كانت عاصمة البابانيين قلعة جوالان صغيرة معزولة يصعب توسيعها عمرانياً واقتصادياً، بينما بنيت العاصمة الجديدة على شكل مدينة مفتوحة لا تمتلك حصناً دائماً. ويدل هذا على أن البابانيين أرادوا من عاصمتهم أن تكون منطقة عمرانية كبيرة قابلة للتوسع السكاني والاقتصادي مستقبلاً. وبالفعل، استقر المئات من الكرد القادمين من المناطق المجاورة في المدينة في مدة زمنية قصيرة. وقد اتخذ عمال البناء، الذين انشأوا العاصمة الجديدة، السلিমانيّة محلاً لسكناهم. وأصبحت العاصمة الجديدة مركزاً رئيساً للطريقة القادرية الصوفية في كردستان، ودخل قادتتها من الشيوخ في تحالف مع أمراء بابان ضد خصومهم من أتراك وإيرانيين ومماليك. وبنى البابانيون عدداً من المساجد في عاصمتهم التي ساعدت هي وتكايا الصوفية على تعزيز نفوذ الطريقة القادرية. بهذا الشكل أصبحت السلیمانيّة تجمعاً ثقافياً وسياسياً وسكانياً في آن واحد.

ثانياً، يبدو أن البابانيين كانوا على علم بأنه ستكون لعاصمتهم الجديدة أهمية اقتصادية بالمقارنة مع العاصمة القديمة قلعة جوالان. فالطرق التجارية التي ربطت العديد من مدن كردستان الصغرى وأذربيجان مع كردستان الجنوبية ومناطق ميسوبوتاميا الشمالية كانت تمر من السلیمانيّة. وقد تم بناء عدد من الخانات التجارية، حيث كانت ملتقى للتجار المحليين والأجانب، خصوصاً أولئك الذين كانوا يأتون من كردستان الصغرى وأذربيجان أو من كركوك والموصل. واستفادت السلیمانيّة من تجارة الترانزيت بين مختلف المناطق الكردية والأذربيجانية والعربية. وبسبب إمكانياتها الاقتصادية الكامنة استقر العديد من اليهود والنساطرة من التجار واصحاب الحرف في السلیمانيّة بسرعة، حيث لعب هؤلاء ومنذ ذلك الحين دوراً متميزاً في حياة المدينة الاقتصادية. وكان العديد من هؤلاء القادمين الجدد قد امتلكوا الكثير من المحال التجارية والحرفية. فلولا وجود التسامح الديني في ظل حكم الأمراء البابانيين، لما كان في مقدور هؤلاء المسيحيين واليهود الاستقرار في عاصمتهم الجديدة، التي كانت ومنذ بداياتها الأولى متعددة الأعراق والثقافات بشكل لافت

للنظر.<sup>٢٠٠</sup> وحتى في الاوقات التي عانت فيها من التخلخل الاجتماعي والتدهور الاقتصادي الذي صاحب عدم استقرار الأوضاع السياسية، كان عدد سكان مدينة السليمانية في العقد الأول من القرن التاسع عشر وحسب ما خمنه جي كامبانيا، أحد رجال الإرسالية الإيطالية الذي عاش في كردستان الجنوبية لعدة أعوام، وهو ١٥،٠٠٠ شخص، من ضمنهم ٨٠٠ يهودي و١٠٠٠ مسيحي.<sup>٢٠١</sup>

كان لإنشاء العاصمة الجديدة أيضا آثار اقتصادية وديموغرافية ملحوظة في المناطق المجاورة. فقد ساعد بناء السليمانية على تحفيز النشاط الزراعي خاصة في سهل شهرزور، حيث أصبحت العاصمة البابانية الجديدة السوق الرئيس لمنتجات هذه المنطقة. وكانت شهرزور من أولى المناطق التي استقرت فيها أقسام عدة من كونفدرالية الجاف القبلية والتي اتخذت من فلاحه الأرض مهنة لها. وساعد ازدياد النشاط الاقتصادي في شهرزور على تحويل حلبجة إلى سوق للمنتجات الزراعية والحيوانية للمنطقة، واستطاعت هذه المدينة الصغيرة إقامة بعض الصلات التجارية مع المدن الواقعة في كردستان الصغرى وأذربيجان.

وكان العامل الأخير الذي جعل البابانيين يقررون ترك عاصمتهم القديمة، قلعة جوالان، هو وقوعها في منطقة جبلية منزوية، برغم قيمتها العسكرية العالية في الفترات العصيبة. أما العاصمة الجديدة فكانت على العكس من قلعة جوالان من الناحية الجغرافية. فقد وقعت في منطقة مفتوحة تفتقد إلى قلاع حصينة، ولهذا لم يكن في الإمكان حمايتها بسهولة من الغزوات الأجنبية. يمكن الاستنتاج من تلك المقارنة بين العاصمة القديمة والعاصمة الجديدة من ناحية أهميتهما العسكرية هو ان بناء السليمانية يعكس بحد ذاته مقدار الثقة الكبيرة التي شعر بها البابانيون بما يتعلق بقدراتهم العسكرية وطموحاتهم السياسية المستقبلية، برغم انهم كانوا يدخلون باستمرار في مواجهات عسكرية مع البلدان المجاورة، أي إيران و ميسوبوتاميا. بتعبير

---

<sup>٢٠٠</sup> عندما زار سون مدينة السليمانية في عام ١٩٠٩، أي في قمة تدهورها الاقتصادي، كان عدد من التجار الإيرانيين يسكنون في إحد خانات المدينة التي اقامها البابانيون والمعروفة بخاني عجم.

Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.189.

<sup>٢٠١</sup> هلكوت ملا حكيم، إبعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع

عشر، دراسات كردية، باريس، مجلد ١، عدد ٢، كانون الثاني، ١٩٨٥.

في وقت زيارة ريج، كانت السليمانية تحوي عدداً من الأرمن والكلدان.

آخر، يشكل بناء مدينة السليمانية دليلاً على إصرار البابانيين في تحويل إمارتهم إلى دولة كبيرة قوية مستقلة في كردستان الجنوبية.

لقد رافق بناء العاصمة الجديدة، التي ضمت عدداً من المباني الإدارية الجديدة،<sup>٢٠٢</sup> تغييرات في مؤسسات الإمارة البابانية. أصبح للبلاط الأميري الباباني وزير أول الذي وقعت على عاتقه الشؤون الإدارية. فضلاً عن الوزير الأول، كان هناك السليقدار، المسؤول على ما يبدو عن الاتصال بين الأمير والرعية والعاشق اغاسي، المسؤول هو وموظفيه عن إدارة التشريعات والمناسبات.<sup>٢٠٣</sup> كما أسس البابانيون قوة عسكرية دائمة تحت إمرة الأمير، فضلاً عن وحدات الفرسان التقليدية السابقة والمؤلفة من رجال القبائل. يقول برونسن عن مؤسسات الإمارة البابانية بأنها ما كانت سوى «جزء من الإرث الثقافي القائم في الشرق الأوسط، الذي أسهمت فيه الإمارة والإمبراطوريتان العثمانية والإيرانية». بعبارة أخرى، وقعت مؤسسات الإمارة ومؤسسات الإمبراطورية تحت تأثير متبادل.<sup>٢٠٤</sup>

### الأمير عبد الرحمن وصراعه

### في سبيل تشكيل دولة مستقلة قوية في كردستان الجنوبية

### خلفية عبد الرحمن العائلية والسياسية

إذا كانت فكرة إنشاء عاصمة جديدة تبلورت في عهد سليمان باشا، وتم بناء تلك العاصمة في زمن إبراهيم باشا، فإن تحويل السليمانية إلى أهم مركز اقتصادي وسياسي وثقافي في كردستان الجنوبية كان من منجزات الأمير الشاب عبد الرحمن. لقد قاد الأمير أطول الصراعات وأكثرها دموية مع السلطات المملوكية في بغداد، وفي أحيان أخرى، قاتلت قواته الجيوش القاجارية أيضاً. واستمرت مساعي عبد الرحمن الدائبة زهاء ٢٥ عاماً. لكل تلك الأسباب يجب تسليط الضوء على حياة ذلك الأمير.

في كتابه "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، يلقي الكركوكلي بعض الضوء على خلفية عبد الرحمن السياسية قبل صعوده إلى السلطة. كان والده

<sup>٢٠٢</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.185.

<sup>٢٠٣</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, pp.78-88 & 115.

<sup>٢٠٤</sup>Bruinessen, Agha, Sheikh and State, p.173.

محمود الأول<sup>٢٠٥</sup> أميراً لبابان والذي حكم بشكل مستقل ما بين عامي ١٧٨١ و ١٧٨٤، قبل إزاحته من السلطة عن طريق تدخل عسكري قامت به السلطات المملوكية في بغداد. واضطر محمود وولداه، عثمان وعبد الرحمن، إلى الفرار نحو إيران، حيث رحب بهم علي مرادخان زند، شاه إيران، الذي عين محمود حاكماً المقاطعة صابلاغ (أو مهاباد) الكردية. وأثار تعيينه هذا حفيظة قادة القبائل الأذربيجانية الطامعين في تلك المقاطعة واستياءهم، وسرعان ما اغتالوا محمود بعد فترة قصيرة جداً من توليه الحكم في صابلاغ. واضطر ولداه عثمان وعبد الرحمن إلى الفرار مرة أخرى والتجناً إلى المنطقة الجبلية الحصينة التي كانت تحت سيطرة الكونفدرالية البلباسية القبلية. في عام ١٧٨٥، عاد الشقيقان إلى بابان، حيث عين سليمان باشا الكبير، وزير بغداد، عثمان حاكماً لقرزل رباط وعلي آباد ومن ثم اعترف به أميراً لإمارة بابان.<sup>٢٠٦</sup>

يبدو ان الاختلال الداخلي المتزايد والصراع من اجل السلطة في ميسوبوتاميا العربية قد اجبر الوزير المملوكي، سليمان باشا الكبير، على التغاضي مؤقتاً عن وجود أمراء مستقلين في كردستان الجنوبية، أملاً في استخدامهم حلفاء له ضد خصومه الداخليين من المماليك الذين شكلوا خطراً أكبر عليه. وتسلم سليمان باشا الكبير بالفعل دعماً عسكرياً من حكام بابان وكويسنجق وحرير خلال محاولته للقضاء على خصومه في مدينة بغداد. لكنه، وبعد ان وطد من سلطته في بغداد والبصرة، انقلب سليمان باشا الكبير ضد حلفائه الكرد، حيث غزا جيشه السليمانية في عامي ١٧٨٩-١٧٩٠. واستطاع ذلك الجيش ازاحة عثمان، أمير بابان، من السلطة. وربما كانت الصداقة والاتصالات القائمة بين الأمير عثمان ومصطفى باشا، والي البصرة وخصم سليمان باشا الكبير، هو احد أسباب غزو الأخير لبابان. وكان والي البصرة هذا قد اعلن وبمساعدة قادة القبائل العربية المحلية انفصال البصرة عن حكومة بغداد.<sup>٢٠٧</sup>

لقد مر عبد الرحمن بكل تلك التجارب السياسية المتقلبة بين عامي ١٧٨١ و ١٧٩٠، وجعلته أكثر عزمًا لا في الاستيلاء على السلطة السياسية فحسب، وإنما

<sup>٢٠٥</sup> لتمييزه عن حفيده محمود باشا الثاني.

<sup>٢٠٦</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ١٧٨-١٧٩.

<sup>٢٠٧</sup> المصدر السابق، ص ١٨٨-١٨٩.

لإقامة دولة مستقلة قوية في كردستان الجنوبية. ففي عام (١٧٩١)، أي الفترة التي أعقبت مقتل شقيقه عثمان مباشرة، اقتحم عبد الرحمن وقواته العاصمة البابانية ليصبح الأمير بدلا من إبراهيم باشا.<sup>٢٠٨</sup> لكن وزير بغداد، الذي أعلن تمسكه بالأمير السابق، لم يستطع إزاحة عبد الرحمن من الإمارة،<sup>٢٠٩</sup> فظل يحكم بابان بصورة مستقلة لأكثر من ١٢ عاماً، استطاع خلالها بسط سيطرته على المقاطعات الكردية الواقعة بين نهر الزاب إلى المنطقة الحدودية في خانقين وبدوهره وجصان (انظر الخريطة رقم ٣). كما استطاع عبد الرحمن تحويل كونفدرالية قبائل الجاف الكبيرة إلى قوة عسكرية حليفة اعتمد عليها في تعزيز سلطته.

لو حلت الخطوات المختلفة التي تبناها الأمير عبد الرحمن لكشفت عن انه كان رجلاً سياسياً محنكاً، لم يدخر جهداً في تحويل السليمانية إلى مدينة أكثر بروزاً وتأثيراً في كردستان الجنوبية. تقول الباحثة الفرنسية، جويس بلو، بهذا الصدد ان عبد الرحمن وقع تحت تأثير التقدم السياسي والثقافي الذي أحرزته إمارة اردلان، عندما كان يعيش في المنفى. لهذا كانت لعبد الرحمن لدى رجوعه إلى السليمانية صور حية عن أمجاد بلاط الأمير الاردلاني، أمان الله خان، وعزم على تحويل السليمانية إلى مركز ثقافي بارز. وبدأ عبد الرحمن يحث الشعراء والموظفين على التخلي عن اللهجة الكورانية لصالح اللهجة السورانية. نتيجة استمراره على التخلي عن اللهجة السورانية بسرعة لتصبح لغة أدبية رسمية. وكان علي بردشاني أول اديب كردي ترجم إلى السورانية الملاحم الكردية الكبيرة، والتي كانت حينذاك مكتوبة باللغة الأدبية الكرمانجية.<sup>٢١٠</sup>

إذا اخذ بنظر الاعتبار تصميم عبد الرحمن على إنشاء دولة مستقلة كبيرة، يمكن القول بان تحويل اللهجة السورانية إلى لغة أدبية تحت رعايته المباشرة لم تكن مجرد محاولة تقليد لما حققته إمارة اردلان المجاورة، وإنما تعبيراً عن ادراكه لاهمية وجود تجانس ثقافي واحد بين الرعية. وهذا التجانس الثقافي كان لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق نشر الأدب والثقافة وإيجاد لغة رسمية موحدة، وبتعبير أدق، الارتقاء باللهجة

<sup>٢٠٨</sup> المصدر السابق، ص ١٩٣-١٩٤.

<sup>٢٠٩</sup> المصدر السابق، ص ٢٠٣.

<sup>٢١٠</sup> Joyce Blue, Kurdish Written Literature, p.22.

السورانية، التي تكلم بها غالبية الكرد في كردستان الجنوبية، إلى لغة أدبية ورسمية مفهومة من قبل أغلبية الناس وليس فقط من أبناء الطبقة الأرستقراطية والنخب الثقافية. وان تعزيز السلطة الروحية للطريقة الصوفية القادرية من خلال ما يعرف بالمؤسساتية (institutionalization) كان أيضاً جزءاً من تكوين تماثل ثقافي، كما سيتم ذكره لاحقاً. بتلك الطريقة الذكية نظر عبد الرحمن إلى اللغة والدين بوصفهما وسيلتين لتوحيد السكان ولتوطيد أسس سلطته السياسية في كردستان الجنوبية. ومنذ عهد عبد الرحمن وصاعداً، احتفظت السليمانية بمنزلتها المتميزة بوصفها مركزاً ثقافياً طليعياً ما بين مدن كردستان. وكتب سون بهذا الصدد في عام ١٩٠٩ بأن ((السليمانية أنتجت عدداً كبيراً من الشعراء الذين اسهموا من خلال الشعر، الذي كتب معظمه بالكردية وفي شكل مجلدات ضخمة جداً، في أدب كردستان)).<sup>٢١١</sup> وكان نالي، الذي ظهر في السليمانية، من أكثر الشعراء الذين كتبوا بالسورانية شهرة.<sup>٢١٢</sup>

لقد سعى الأمير عبد الرحمن إلى تعزيز البنية الاجتماعية-الاقتصادية لإمارة بابان، حيث شجع التجارة والحرف واستقرار الكرد من الرحل. وكان عبد الرحمن قد استقبل بترحاب كبير قادة كونفدرالية الجاف القبليّة، الذين لجأوا إليه بعد ان تدهورت علاقاتهم مع أمراء اردلان،<sup>٢١٣</sup> حيث منحهم أراضي واسعة ما بين منطقتي بنجوين في الشمال وقزل رباط في الجنوب من أجل تشجيع أبناء عشائر الجاف على ترك حياة البداوة. وبالفعل، استقر العديد من أبناء عشائر الجاف في تلك الأراضي، واتخذوا الزراعة مهنة لهم، بينما زواج قسم آخر من عشائر الجاف بين حياة البداوة والاستقرار، أي زراعة الأرض وتربية قطعان المواشي والأغنام والماعز. عندما زار جيمس فلكس المقاطعات البابانية، بعد مرور ٣٠ عام تقريباً على وفاة عبد الرحمن، لاحظ ان عشائر الجاف تخلت عن حياة شبه البداوة، وقد نتج عن ذلك انتشار الزراعة وكثرة القرى في سهل شهرزور.<sup>٢١٤</sup> بهذه الطريقة، لم يستطع عبد الرحمن من وراء تلك

<sup>٢١١</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.389-390.

<sup>٢١٢</sup> راجع التفاصيل الذي يوفرها كتاب علاء الدين سجادي عن الكثير من الشعراء الذين كتبوا باللغة السورانية: "ميژووی ئەدهبی کوردی"، (بغداد: ١٩٧١).

<sup>٢١٣</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.228.

<sup>٢١٤</sup>Jones, Journey to the Frontier of Turkey and Persia through Part of Kurdistan, p.205.

الخطوة الذكية من كسب دعم كونفدرالية الجاف الكبيرة، التي عززت من أمن حدود بابان الشرقية والجنوبية، فحسب، بل أعطت الحياة الاجتماعية والاقتصادية دفعة قوية إلى امام. وفي سبيل تحويل إمارته إلى دولة كبيرة، قام عبد الرحمن بتأسيس جيش قوي، جهزه ببنادق جديدة ومجندين، خاصة من أبناء عشائر الجاف.<sup>٢١٥</sup>

### حروب عبد الرحمن باشا

وصلت إمارة بابان في العهد الأول من حكم الأمير عبد الرحمن ذروة قوتها العسكرية وهيبتها السياسية وهو ما أثار مخاوف السلطات المملوكية في بغداد إلى ابعده الحدود. ففي عام ١٨٠٢، قام الوزير سليمان الكبير، وبعد ان قضى على جميع مشاكله الداخلية بالقوة، بحملة عسكرية كبيرة ضد إمارة بابان، انتهت بأسر عبد الرحمن وشقيقه الأصغر سليمان.<sup>٢١٦</sup> لكن سرعان ما مات الوزير سليمان الكبير، واندلعت حرب داخلية في اثر ذلك ما بين كتل المماليك المتصارعة من اجل السلطة، وكان إحد إفرازات تلك الحرب الداخلية اطلاق سراح عبد الرحمن وشقيقه من الأسر في مدينة الحلة من قبل الكتلة التي رفضت الاعتراف بعلي باشا وزيراً جديداً لبغداد. وقد تم جلب عبد الرحمن وشقيقه وانصارهما من اجل مساعدة تلك الكتلة في مؤامرتها لاسقاط الوزير الجديد.<sup>٢١٧</sup> لكن تلك المؤامرة فشلت وانتهت باعتقال عبد الرحمن والحكم عليه بالموت. ولاسباب لم يذكرها الكركوكلي لم ينفذ الوزير علي باشا حكم الاعدام بعبد الرحمن. ولربما يرجع السبب وراء ذلك إلى مخاوف الوزير من حدوث ردود فعل قوية بين فروع السلالة البابانية المختلفة بحيث تدفعها إلى نسيان خلافاتها الداخلية والاتحاد ضد السلطات المملوكية.

وفي العام نفسه (١٨٠٣)، استولى عبد الرحمن على الحكم وشرع في توسيع الكيان الباباني مرة أخرى عن طريق الاستيلاء على مقاطعاته السابقة. ففي عام

<sup>٢١٥</sup> طبقاً إلى جمال بابان، كان للإمارة معمل لصنع البنادق أنشئ بمساعدة بعض الخبراء الروس. جمال بابان، "السليمانية من النواحي المختلفة"، مجلة المجمع الثقافي الكردي، بغداد، عدد ٨، ١٩٨١، ص ٤١٧.

<sup>٢١٦</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢١٦.

<sup>٢١٧</sup> المصدر السابق، ص ٢١٩-٢٢١.

١٨٠٦، استولى عبد الرحمن على كويسنجق وحرير، ومن ثم بسط سيطرته على المناطق المحيطة بمدينة كركوك. أما شقيقه سليمان فقد قاد قوة مؤلفة من ٥٠٠ فارس نحو درنه وباجلان وزهاو الواقعة تحت سيطرة الإيرانيين، فاحتلها وعين حاكماً كردياً عليها.<sup>٢١٨</sup> وفي خطوة أخرى لاحتواء التهديدات المملوكية، قام عبد الرحمن بإقامة اتصالات سرية مع شيوخ القبائل العربية الكبيرة، مثل شيوخ العبيد ومنطقة الزبير. يقول الكركوكلي بهذا الصدد بان أحد شيوخ منطقة الزبير قام بزيارة إلى السلمانية بدعوة من عبد الرحمن.<sup>٢١٩</sup>

وانتهى عهد عبد الرحمن الثاني، الذي استغرق خمسة أعوام، بعد هزيمة قواته على يد جيش المماليك في عام ١٨٠٧. والتجأ عبد الرحمن وانصاره إلى حليفه أمان الله خان أمير اردلان من أجل المساعدة العسكرية، واستقر هو وانصاره في سنقر قرب كرماشان، وهي مدينة قريبة من حدود بابان الشرقية. على ما يبدو، ازدادت شكوك علي باشا، وزير بغداد، بوجود تحالف بين عبد الرحمن وأمان الله خان وبإشراف من الحكومة الإيرانية يهدف إلى غزو كردستان الجنوبية. ولإحباط محاولة الغزو المفترضة تلك، قام وزير بغداد بغزو إيران عبر منطقة زهاو.<sup>٢٢٠</sup> وفي الوقت نفسه، أرسل الوزير بجيش مملوكي آخر إلى كردستان، حيث تمت إبادته من قبل القوات الكردية التابعة لعبد الرحمن، واسر قائد الحملة سليمان كهيه.<sup>٢٢١</sup> لم يرجع عبد الرحمن إلى السلطة فحسب وإنما استرجع جميع مقاطعات ومدن الإمارة التي فقدتها البابانيون في مقدمتها كركوك والتون كوبري واربيل وكفري وخانقين وقزلباط. كتب أحد القناصل الفرنسيين المعاصرين في عام ١٨١١ أنه على الرغم من أن باشاليق بغداد امتدت نظرياً من دياربكر والعمادية في الشمال إلى البصرة في الجنوب فإن سلطة الباشا المملوكي كانت اسمية في العديد من المقاطعات. فالبابانيون في عهد عبد

<sup>٢١٨</sup> المصدر السابق، ص ٢٢٨-٢٢٩.

<sup>٢١٩</sup> المصدر السابق، ص ٢٢٩.

<sup>٢٢٠</sup> المصدر السابق، ص ٢٣٥-٢٣٦.

<sup>٢٢١</sup> المصدر السابق، ص ٢٣٦. ويذكر ريج في كتابه بان الوزير نفسه وقع أسيراً بيد عبد الرحمن. لربما يشير هنا ريج إلى حملة سليمان الثالث الذي أصبح وزيراً بعد ٤ أشهر من اغتيال علي باشا.

Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, p.191



الرحمن قد فرضوا سيطرتهم على عموم المنطقة الواقعة إلى الشرق من نهر دجلة بما في ذلك أربيل وكركوك والتون كوبري.<sup>٢٢٢</sup>

بعد مرور مدة قصيرة على سيطرة عبد الرحمن وأنصاره على السليمانية، اندلع صراع جديد من أجل السلطة بين الكتل المملوكية المختلفة بعد اغتيال الوزير علي باشا على يد خصومه. قامت قوات عبد الرحمن بالزحف نحو المناطق الكردية الجنوبية واحتلت مدينة كفري. لكن القوات الكردية بدأت بالتراجع امام زحف الجيش المملوكي القادم من بغداد.<sup>٢٢٣</sup> وفي مدينة بغداد نفسها، واصلت الكتل المملوكية صراعاتها الداخلية من أجل الاستيلاء على السلطة، حتى بعد ان تولى يوسف باشا منصب الوزير. وازيح هذا الأخير من منصبه بعد مرور ٤ اشهر فقط من قبل سليمان كهيه الذي نصب نفسه وزيراً جديداً (١٨٠٦-١٨١٠). وفي عام ١٨١١ قام الوزير سليمان كهيه والمعروف بالصغير، على عادة من سبقوه من الحكام المماليك، بغزو بابان المستقلة.<sup>٢٢٤</sup> ولم تستطع القوات الكردية من وقف الزحف المملوكي بسبب خيانة أحد رؤساء القبائل، الذي انضم إلى الجيش المملوكي. وقد نجح هذا الرئيس القبلي في ان يلتف بصحبة فرسانه وقوة مملوكية حول الخطوط الدفاعية للقوات الكردية.<sup>٢٢٥</sup> واضطر عبد الرحمن وقواته للانسحاب إلى داخل إمارة اردلان،<sup>٢٢٦</sup> وبذلك انتهى عهد عبد الرحمن الثالث الذي دام أربعة أعوام تقريباً. وعقب هزيمة عبد الرحمن، قام الجيش المملوكي بمهاجمة منطقة شهرزور حيث دمر الممتلكات وقتل الكثير من سكانها.<sup>٢٢٧</sup>

ولم يتوقف عبد الرحمن عن مساعيه في الرجوع إلى السلطة، حيث قام بمبادرة عسكرية ناجحة استطاع من خلالها السيطرة على بابان للمرة الثالثة. وكسب عبد الرحمن إلى جانبه أحد أمراء بابان السابقين خالد باشا الذي التحق به مع ٥٠٠ فارس،

<sup>٢٢٢</sup>Niewenhuis, *Politics and Society in Early Modern Iraq*, 58.

<sup>٢٢٣</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٤١.

<sup>٢٢٤</sup> المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

<sup>٢٢٥</sup>Rich, *Narrative of a Residence in Kurdistan*, p.59.

<sup>٢٢٦</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٤٣.

<sup>٢٢٧</sup> أمين زكي: "ميزو كورد وكوردستان"، (لندن: ١٩٨٢)، ص ٢١٨.

طبقاً إلى الكركوكلي.<sup>٢٢٨</sup> لكن الكركوكلي يذكر ان وزير بغداد اقر بعبد الرحمن أميراً لبابان، دون ان يعطي المبررات. وربما يكمن سبب اعتراف وزير بغداد بسلطة عبد الرحمن في انتشار الاضطرابات داخل بغداد، التي قد استحوذت على تفكيره. ففي ظل تلك الأوضاع، كان على الوزير تحييد مواقف عبد الرحمن، على الاقل، تجاه الصراع الناشب من اجل السلطة بينه وبين بعض من قادة المماليك، خصوصاً وان عبد الرحمن كان اصبح أمير بابان كأمر واقع، ولن يخسر الوزير لو اعترف به حاكماً شرعياً.

لم يكن في نية عبد الرحمن البقاء في عزلة عن الأحداث السياسية الجارية في بغداد، حيث سرعان ما قام بإيواء عبد الله آغا خصم الوزير، ومن ثم اشترك هو وقوة بابانية في الحملة العسكرية التي نظمها محمد سعيد أفندي، أحد قادة المعارضة، التي استهدفت إزاحة الوزير سليمان الصغير من منصبه. وتقدمت نحو بغداد قوات عبد الرحمن وبمشاركة عدد من القبائل العربية، منها الطائي والعبيد والعزة والبيات،<sup>٢٢٩</sup> وبرفقة متصرف الموصل. وقتل الوزير أثناء القتال الدائر بين قواته والمعارضة، ومهد ذلك الطريق لعبد الله آغا وبتأييد من محمد سعيد أفندي وعبد الرحمن ان يصبح الوزير الجديد.<sup>٢٣٠</sup>

لم تكن تدخلات عبد الرحمن في شؤون بغداد مبنية على طموحات سياسية تعدت اطار كردستان الجنوبية. فلم يضع نصب عينيه منصب وزير بغداد. عبرت احساسات عبد الرحمن القوية تجاه وطنه وطريقة الحياة الكردية عن نفسها من خلال رد فعله السلبي تجاه خبر تعيينه وزيرا لبغداد:

ان من الأحقية ان اصبح وزيرا ذا منصب سام، لكن تياراً شتائياً وثلجياً واحداً من جبالي تعادل كل القاب الإمبراطورية (العثمانية). وفضلاً عن هذا، فان انتقالي إلى بغداد سيؤدي إلى ازدياد غناي الشخصي، لكنه سيدمر آل بابه.<sup>٢٣١</sup>

<sup>٢٢٨</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٤٤.

<sup>٢٢٩</sup> المصدر السابق، ص ٢٤٩.

<sup>٢٣٠</sup> المصدر السابق، ص ٢٥٠-٢٥١.

<sup>٢٣١</sup> Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, pp.96-97.

فلو قبل عبد الرحمن بمنصب الوزير المغربي، لتحول إلى مجرد موظف إمبراطوري، خاسراً بذلك كل «حقوقه الشرعية» في الحكم كأمر ورث الإمارة دون ان يكون مديناً بذلك إلى سلطان أجنبي. فضلاً عن هذا، لأدى قبول عبد الرحمن بمنصب الوزير إلى نهاية حكم السلالة البابانية، وهو هدف عثماني أساسي لم يتغير عبر القرون. على العكس من ذلك، كان عبد الرحمن يطمح في ان يكون أميراً مستقلاً يحكم دولة قوية كبيرة في كردستان الجنوبية. ولم تكن تدخلاته المستمرة في شؤون ميسوبوتاميا سوى إحدى وسائل تحقيق طموحاته السياسية تلك. بتعبير آخر، أراد عبد الرحمن من وراء تلك التدخلات إزاحة التهديدات التي كانت تأتي دوماً من صوب بغداد.

لم تدم حالة السلام بين السليمانية وبغداد طويلاً وذلك لتضارب المصالح بين عبد الرحمن، الذي حكم بوصفه أميراً مستقلاً للمناطق الكردية الممتدة من نهر الزاب الكبير شمالاً إلى خانقين جنوباً ومن حدود إمارة اردلان شرقاً ونهر دجلة غرباً، والوزير المملوكي الجديد، عبد الله آغا، الذي أراد إخضاع بابان إلى إرادته. بتعبير آخر، لم يرضَ عبد الرحمن القبول بأي شكل من أشكال الخضوع إلى السلطات المملوكية ناهيك التخلي عن طموحه في توحيد مناطق كردية أخرى مع دولته، في حين أبدى عبد الله رفضه الاعتراف بإمارة بابان ككيان سياسي مستقل. طبقاً إلى قول الكركوكلي، سبب قرار عبد الرحمن بتعيين ابن عمه الأمير خالد حاكماً لدرنه وباجلان ودون مشاوره الوزير الجديد إلى تصادم السلطات الكردية في السليمانية والسلطات المملوكية في بغداد في عام ١٨١٢. ٢٢٢

ولم يكن الوضع الإقليمي في صالح عبد الرحمن حينئذ، فالسلطات القاجارية في كرماشان كانت مصممة على ضرب أي دولة كردية مستقلة قريبة من حدودها الغربية، خاصة وان عبد الرحمن فرض سيطرته على بعض المناطق الكردية الحدودية، التي اعتبرتها السلطات القاجارية جزءاً من الأراضي الإيرانية، مثل زهاو وباجلان ودرنه. فضلاً عن هذا، شكل وجود دولة كردية مستقلة، من وجهة النظر القاجارية، نموذج خطر يمكن ان تقتدي به سائر الإمارات الكردية في كردستان الصغرى. وكان رد فعل السلطات القاجارية تجاه التطورات السياسية في كردستان

٢٢٢ الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٥٢-٢٥٣.

الجنوبية حاسماً، إذ غزت قواتها المؤلفة من ٦٠ ألف عسكري الأقاليم البابانية، واستطاعت الاستيلاء على باجلان ودرنه.

وكان التطور الأخطر من الهجوم القاجاري هو توصل ولي العهد القاجاري الأمير محمد علي، الذي كان حاكماً عاماً لإقليم كرماشان في نفس الوقت كما جرت العادة في إيران حينذاك، إلى اتفاق مع السلطات المملوكية في بغداد استهدف تدمير الحكومة الكردية المستقلة في السليمانية، واستبدال عبد الرحمن بحاكم آخر. كانت تلك خلفية قرار ولي العهد القاجاري بغزو بابان المشار إليه آنفاً.<sup>٢٣٣</sup> ورداً على ذلك الغزو، قام الأمير عبد الرحمن ومعه قوة كردية بالتوجه إلى زهاو، بينما قاد سليمان ابن الأمير السابق خالد باشا، قوة كردية أخرى من أجل التصدي للقوات الإيرانية الزاحفة. وكان ولي عهد القاجاري قد عزم على تنصيب خالد باشا حاكماً في السليمانية بدلاً عن عبد الرحمن. ولربما يفسر هذا سبب خيانة سليمان ابن خالد لعبد الرحمن، الذي رفض ان يقاتل الجيش القاجاري. ونتيجة للتطور المفاجئ هذا، اضطر عبد الرحمن وقواته الى الانسحاب إلى كويسنجق حيث تحصن فيها.

من جهة ثانية، اضطر وزير بغداد إلى تغيير مواقفه العدائية تجاه عبد الرحمن، لان تقدم الجيش القاجاري في عمق المناطق الكردية لم يشكل تهديداً لمدينة كركوك فقط وبل وللأمن في ميسوبوتاميا العربية ككل. استناداً إلى الكركوكلي، قام وزير بغداد بتشجيع القبائل الكردية على تقديم دعمها إلى قوات عبد الرحمن المحاصرة في كويسنجق من قبل الجيش القاجاري، واعلن اعترافه بعبد الرحمن أميراً شرعياً. يبدو ان التغيير في مواقف السلطات المملوكية جاء متأخراً بعض الشيء إذ أن عبد الرحمن عرض مشروع سلام على الجانب الإيراني في خضم تلك الأحداث السريعة المشوشة. وطبقاً إلى بنود المشروع، الذي وافق عليه الجانب الإيراني، يحكم عبد الرحمن منطقتي كويسنجق وحرير فقط، في حين يحكم خالد باشا السليمانية كما اراد الإيرانيون، الذين كان عليهم الانسحاب.<sup>٢٣٤</sup>

ولم يكن في نية عبد الرحمن الالتزام بذلك الاتفاق أبداً. فقد قامت قواته لا بدخول السليمانية في عام ١٨١٣ فحسب، وإنما الاستيلاء أيضاً على أربيل وكركوك في

<sup>٢٣٣</sup> المصدر السابق، ص ٢٥٢-٢٥٣.

<sup>٢٣٤</sup> المصدر السابق، ص ٢٥٤-٢٥٥.

أعقاب الانسحاب الإيراني. هذه التطورات بدورها قادت إلى مواجهة عسكرية أخرى بين حكومة عبد الرحمن الكردية والسلطات المملوكية في بغداد. ونجم عن تلك المواجهة اندحار القوات الكردية قرب مدينة كفري وانسحابها مع عبد الرحمن إلى الأقاليم الأردنية.<sup>٢٣٥</sup> كما جرى الحال في السابق، لم يتوقف عبد الرحمن عن مساعيه في الرجوع إلى السليمانية. ولهذا الغرض شرع بإقامة اتصالات سرية مع الاشراف الذين كانوا يعارضون حكم الوزير، مثل متصرف كركوك وقاضيها، فضلاً عن شيخ قبيلة شمر القوية.<sup>٢٣٦</sup> في غضون ذلك، حدث غزو قاجاري لميسوبوتاميا العربية عبر منطقة قزل رباط الكردية. واجبر هذا الخطر السلطات المملوكية على ان تغض النظر عن عودة عبد الرحمن إلى الحكم في السليمانية.

لقد اتخذ الصراع بين حكومة عبد الرحمن الكردية والسلطات المملوكية بعداً اخر منذ عام ١٨١١، عندما حاول وزير بغداد زرع بذور الشقاق والفتنة الداخلية عن طريق تقديم الدعم إلى الطريقة الصوفية النقشبندية المنبعثة من جديد ضد الطريقة الصوفية القادرية المهيمنة في الأقاليم البابانية. ويرجع ظهور الطريقة القادرية في المناطق الكردية في القرن الثالث عشر إلى نشاطات الشيخ عبد العزيز ابن الشيخ عبد القادر الكيلاني، مؤسس الطريقة القادرية والسماة باسمه. بحلول القرن التاسع عشر، أصبحت القادرية واحدة من أكبر المؤسسات الدينية انتشاراً ونفوذاً في كردستان. وصارت العاصمة البابانية الجديدة، السليمانية، معقلاً للقادرية في كردستان الجنوبية. وتكونت علاقة تحالف ذات نفع متبادل بين تلك السلطة الروحية المهمة والسلطة السياسية البابانية، حيث دعمت الواحدة مصالح الأخرى. ويفسر هذا الامر سعي وزراء بغداد المماليك إلى احتواء نفوذ قادة الطريقة القادرية في المناطق الكردية من خلال دعم نشاطات النقشبنديين، وهي سياسة استهدفت، في التحليل الأخير، إضعاف السلطة البابانية السياسية.

كان الشيخ ضياء الدين خالد، وراء إعادة نشر الافكار والممارسات الصوفية النقشبندية في كردستان وفي البلدان المجاورة لها. وقد ولد الشيخ خالد في منطقة قرداغ في جنوب السليمانية في أواخر العقد السابع من القرن الثامن عشر. في عام

<sup>٢٣٥</sup> المصدر السابق، ص ٢٥٦.

<sup>٢٣٦</sup> المصدر السابق، ص ٢٥٦-٢٥٧.

١٨٠٨، سافر الشيخ خالد إلى الهند ليعيش فيها مدة عام، تحول خلالها من الطريقة الصوفية القادرية إلى النقشبندية. وقبل رجوعه إلى كردستان الجنوبية، مكث الشيخ خالد في بغداد بعض الوقت حيث استقبله وزيرها بترحاب شديد. ولم يتردد الأخير هو وعدد من أشراف المماليك عن إعلان اعتناقهم للنقشبندية. ولدى وصوله إلى السليمانية، بدأ الشيخ خالد بالترويج للطريقة النقشبندية، التي سرعان ما واجهت معارضة لا من قبل قادة المؤسسة القادرية، وعلى رأسهم الشيخ معروف النودهي، فحسب، وإنما أيضاً من قبل الأمير عبد الرحمن.

ان من الصعب جداً معرفة ان كان الشيخ خالد مدركاً أم لا للأبعاد السياسية الذي احتواها صدامه بالمؤسسة القادرية. فالدعم الذي تلقاه الشيخ خالد من لدن السلطات المملوكية استهدف غرس بذور الفتنة بين سكان المقاطعات العائدة إلى الإمارة البابانية، وبالتالي إضعاف السلطة السياسية القائمة فيها. وبرر سير الصراع الفكري بين الطريقتين الصوفيتين مخاوف عبد الرحمن من وجود يد للسلطات المملوكية في الامر، حيث قام وزراء بغداد وبطانتهم بالدفاع عن الشيخ خالد وإيوائه، وادعى اثنان من الوزراء المماليك اعتناقهما النقشبندية وهما سعيد باشا وداود باشا. لقد اجبر الشيخ خالد على ترك مدينة السليمانية في عام ١٨١١. وبعد عدة سنوات أي عقب وفاة عبد الرحمن عاد الشيخ إلى السليمانية، لكن سرعان ما بدأت الخلافات تطغى على الأحداث بين النقشبنديين والقادرين. واجبر شيخ خالد في عام ١٨١٨ على ترك السليمانية نهائياً، والعودة إلى بغداد نتيجة لضغوط محمود باشا، الأمير الجديد، والشيخ معروف النودهي، رئيس الطريقة القادرية.<sup>٢٢٧</sup>

لقد توفي الأمير عبد الرحمن في عام ١٨١٤، بعد ان قاوم بشدة محاولات السلطات المملوكية والقاجارية في إحباط مساعيه في تشكيل دولة كبيرة مستقلة في كردستان الجنوبية. والملفت للنظر في نهج هذا الأمير هو إصراره على اخراج أربيل والتون كوبري وكركوك وكفري وخانقين وغيرها من المقاطعات الكردية في اقصى الجنوب من السيطرة المملوكية والحاقها مجدداً بالأمانة البابانية. ولكن، ثمن كل ذلك كان باهظاً. فعندما غاب عبد الرحمن عن المسرح السياسي، كانت السليمانية في حالة

<sup>٢٢٧</sup> توجد تفاصيل أخرى عن الطريقتين القادرية والنقشبندية في: هلكوت ملا حكيم، "أبعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في اوائل القرن التاسع عشر"، ص ٥٥-٦٧.

يرثى لها نتيجة لحروبه العديدة مع الجيوش الأجنبية. وتدهور الوضع الاجتماعي أكثر بسبب وقوع زلزال وانتشار الوباء في منطقة السليمانية.<sup>٢٣٨</sup> وتسلم محمود الثاني السلطة بعد وفاة أبيه، لكن سير الأحداث ومحتواها لم يتغير في عهده، حيث ظلت القوى الخارجية تمارس دوراً مؤثراً كبيراً في الوضع السياسي الكردي.

ففي عام ١٨١٧، أعلن الوزير المملوكي، سعيد باشا، عن دعمه لعبد الله كي يصبح أميراً لبابان بدلاً عن ابن أخيه، محمود الثاني، في محاولة منه لتشديد الخلافات العائلية. وتجاهل محمود كلام الوزير وظل يحكم بوصفه أميراً مستقلاً. وسرعان ما تطور تردي العلاقات بين السليمانية وبغداد إلى مواجهة عسكرية، سعى من خلالها الوزير سعيد باشا إلى إزاحة محمود وتنصيب عمه في مكانه. وخطوة الوزير تلك ادت بدورها إلى تدخل عسكري إيراني دعماً لمحمود. كان هدف السلطات القاجارية منع أي تحول في ميزان القوى لصالح السلطات المملوكية في كردستان الجنوبية، فضلاً عن تحويل الأمير محمود إلى مجرد دمية بأيديهم. ونتج عن هذا الوضع الفوضوي انقسام الأقاليم البابانية إلى قسمين، أرضت، ولو بشكل مؤقت، رغبات الطرفين الخارجيين، القاجاري والمملوكي. فبينما ظل محمود يحكم معظم الأقاليم البابانية، خضعت كويسنجق وحرير إلى سلطة عمه. لكن سرعان ما تغير الوضع عندما فرض عبد الله نفسه أميراً على بابان لمدة قصيرة جداً. وعندما قام ريج بزيارته إلى السليمانية في ربيع عام ١٨١٨ كان محمود قد استرجع الإمارة من عمه ووجد أقاليمها بضمنها كوي سنجق وحرير. على غرار والده عبد الرحمن، لم يتردد محمود من التدخل سياسياً وعسكرياً في شؤون ميسوبوتاميا العربية حيث دعم خصوم وزير بغداد وعلى رأسهم داود أفندي، أحد قادة المماليك. وانضمت قوات محمود وبقية حكام المقاطعات الكردية التابعة إلى إمارة بابان إلى قوات داود أفندي التي نجحت في إسقاط الوزير سعيد باشا، الذي تلقى مساندة عبد الله بابان العسكرية.<sup>٢٣٩</sup>

ولم تختلف الأحداث التاريخية في عهد محمود باشا عن سابقتها، فحالما وطد الوزير الجديد موقعه السياسي في بغداد بمساعدة فريق من الكرد والحرس

<sup>٢٣٨</sup> لونكريك، "أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث"، ص ٢٠٨.

<sup>٢٣٩</sup> الكركوكلي، "دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء"، ص ٢٧٢-٢٧٥.

الجورجي،<sup>٢٤٠</sup> طالب البابانيين بالخضوع إلى سلطته في عام ١٨١٩. وأدى تجاهل محمود باشا مطالب الوزير المملوكي إلى تنظيم حملة عسكرية أخرى استهدفت إخضاع بابان إلى سلطة بغداد. وللمرة الثانية، واجهت حملة المماليك العسكرية مقاومة كردية كبيرة. كما أدت إلى تدخل عسكري قاجاري استهدف عدم خروج أي من الطرفين منتصراً.<sup>٢٤١</sup> لم يستطع بقية أمراء بابان، الذين جاءوا من بعد محمود باشا، ان يضعوا حداً للتدخلات الخارجية أو ان يحكموا بصورة مستقلة باستمرار. لقد تدهور وضع إمارة بابان الاجتماعية والاقتصادي والسياسي إلى الحد الذي لم يستطع اخر امرائها من مقاومة السلطات التركية عندما استبدلته بموظف تركي في عام ١٨٥١. ففي تلك السنة، أنشئت لأول مرة ثكنة عسكرية تركية في مدينة السليمانية،<sup>٢٤٢</sup> معلنة بذلك نهاية حكم السلالة البابانية إلى الأبد.

## نهاية الفصل

كانت النخبة السياسية البابانية مدركة تماماً ان الموقع الجيوسياسي لإمارتهم شكل واحداً من أهم العوامل المسببة لضعفها. وطبقاً لريج، تحدث الأمير محمود:

عن حال بلده، معرياً المعضلات التي واجهها لكونه يقف بين حدودي دولتين متنافستين، واحدة منها (إيران) لم تتوقف عن الضغط عليه من اجل دفع المال، والثانية، اي سادته الطبيعيين وهم الأتراك، تصر عليه ان لا يخدم (إيران) أو يعطيها الإتاوة، برغم ان تركيا لم ولن تكن مستعدة في توفير الحماية له عندما يستمر ولي عهد كرماشان في اخذ الأموال بالقوة.<sup>٢٤٣</sup>

<sup>٢٤٠</sup>Niewenhuis, *Politics and Society in Early Modern Iraq*, 18.

<sup>٢٤١</sup>المصدر السابق، ص ٢٨٢-٢٨٦.

<sup>٢٤٢</sup>Soane, *To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise*, p.185.

<sup>٢٤٣</sup>Rich, *Narrative of a Residence in Kurdistan*, p.71.



وعبر عثمان، شقيق الأمير، عن أفكار مماثلة. فقد أخبر ريج بان «بلده في وضع مدمر... (لأنه) إذا خدمت الأتراك، سيهينونك ويتخلصون منك متى أرادوا، وإذا خدمت الفرس فانهم سيطالبونك دوماً بدفع المال».<sup>٢٤٤</sup>

ولم يخف عامة الكرد استيائهم من الضغوط الإيرانية والتدخلات العثمانية في شؤونهم الداخلية.<sup>٢٤٥</sup> وطبقاً إلى ريج، لم تكن للعثمانيين «أية شعبية»، وان الأهالي من الكرد «لم يحترموا العثمانيين أو يثقوا بهم». وبحسب تصور ريج لم يستحق العثمانيون أي احترام أو أي ولاء من قبل الكرد لأن «سلوكهم السياسي أعمى ومتكبر وغادر».<sup>٢٤٦</sup> ولشهادة ريج تلك أهمية خاصة، نظراً لكونه ذا ميول مناصرة للعثمانيين ومعادية للمقاريين. فلم يقدر ريج أن يستوعب أبداً لماذا تصرف العثمانيون بتلك الطريقة القاسية تجاه الكرد، خصوصاً ان اللجوء إلى «حسن التدبير والتسامح ومناشدة الحس السني» عند الكرد سيقنعهم بدعم تركيا في صراعها مع إيران. ولم تكن خافية عن ريج حقيقة ان الكرد يستطيعون في ظرف معين من تغيير ميزان القوى لصالح أي دولة قرروا دعمها. فالكرد كانوا مهمين استراتيجياً لأمن الإمبراطورية العثمانية، نظراً لحجمهم السكاني الكبير وللموقع الجغرافي الذي تمتعت به مناطقهم، والمسيطرة على أهم الخطوط البرية المارة عبر الحدود العثمانية-القاجارية.<sup>٢٤٧</sup>

يبدو وبشكل لا لبس فيه من حديث ريج مع أهالي السليمانية أنهم كانوا مدركين بشكل عام أن غياب الوحدة السياسية بين أبناء السلالة البابانية الحاكمة كان سبباً مهماً في تدهور الإمارة وفي معاناتهم من تدخلات القوى الخارجية.<sup>٢٤٨</sup> لقد شوهدت الحروب المستمرة تطور الحياة السياسية في الإمارة، وان الانشقاق الكبير داخل النخبة السياسية حول الطريقة الأمثل التي يجب اللجوء إليها لدى التعامل مع الدولتين العثمانية والقاجارية ما هي إلا انعكاس لذلك الوضع. ويكتب ريج عن عام ١٨١٨ بأن محمود باشا كان يفضل اتخاذ سياسة مهادنة تجاه الأتراك العثمانيين في

<sup>٢٤٤</sup> المصدر السابق، ص ١٠٢.

<sup>٢٤٥</sup> المصدر السابق، ص ٨٧-٩٠.

<sup>٢٤٦</sup> المصدر السابق، ص ٧١-٧٢.

<sup>٢٤٧</sup> المصدر السابق، ص ٧٢.

<sup>٢٤٨</sup> المصدر السابق، ص ٩٠.

سبيل احتواء الضغوط الإيرانية القاجارية، بينما فضل شقيقه الأصغر عثمان سياسة مهادنة تجاه الإيرانيين القاجار وسياسة عدائية تجاه الأتراك العثمانيين، برغم بغضه كلا الطرفين.<sup>٢٤٩</sup> وغالباً ما تحولت الاختلافات تلك إلى صراع سياسي استغلّه الأتراك الإيرانيون في توطيد نفوذهم على حساب استقلال الإمارة.

لقد خرجت الأقاليم البابانية من مواجهات عبد الرحمن العسكرية العديدة مع السلطات المملوكية والقاجارية مضعضة اجتماعياً، ومدمرة اقتصادياً وغير مستقرة سياسياً. وساعد نشوء الصراعات داخل الأسرة البابانية عقب وفاته إلى تفاقم تلك المشكلات. فقد عانت الحياة الزراعية والتجارية بشكل كبير من اندلاع الحروب الداخلية والخارجية. كما عانى النشاط التجاري بين السليمانية والأقاليم الكردية والأجنبية من التوقف بين مدة وأخرى، نتيجة للحروب وغياب الأمن والاستقرار. وتعرضت العديد من المدن والقرى إلى التدمير والنهب، وهاجر الكثير من سكانها إلى أماكن أكثر أمناً، خاصة الفلاحين. ولسوء الحظ، عانت أقاليم بابان من بعض الكوارث الطبيعية والأوبئة في تلك الاوقات، وهو ما أدى إلى ازدياد سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. لقد تميزت الغزوات القاجارية عادة، مثل تلك التي حدثت في عام ١٨١٣، بالنهب والتدمير الأعمى للريف الكردي، حيث تم تخريب البساتين والمزارع حيث قطعت الأشجار وأتلفت المحاصيل. ولم يكن سلوك جيوش المماليك يختلف كثيراً عن سلوك نظيرتها القاجارية من حيث القتل والنهب والتدمير. واستهدفت تلك المعاملة القاسية لسكان المدن والقرى كسر شوكة مقاومة السكان الكرد لأي غزو في المستقبل.

<sup>٢٤٩</sup> المصدر السابق، ص ٣٢٢.



بنکهی ژین

[www.zheen.org](http://www.zheen.org)

## الفصل الرابع

### حركة إمارة سوران الاستقلالية والوحدوية،

١٨٢١-١٨٣٦

تغيرت جغرافية كردستان السياسية لأول مرة منذ عام ١٥١٥ نتيجة لسلسلة تطورات جديدة جرت في منطقة الشرق الأوسط في العقود الأربعة الأولى من القرن التاسع عشر، خاصة التوسع الإقليمي لروسيا القيصرية جنوباً، الذي امتد حتى اطراف المناطق الكردية الشمالية. وكانت لزيادة التوغل الاقتصادي والنفوذ السياسي المستمر للقوى الأوربية في الإمبراطوريتين العثمانية والقاجارية، من جهة، وبرز الحركات الاستقلالية في الأقاليم غير التركية، خاصة في مصر واليونان، من جهة ثانية، تأثيرات مباشرة على الوضع السياسي في معظم أنحاء كردستان. لا يتناول هذا الفصل تلك التطورات الجديدة فحسب، وإنما سيكشف كيف ان الشؤون الكردية أصبحت منذ العقد الثاني من القرن التاسع عشر محط اهتمام القوى الأوربية الكبيرة، خاصة بريطانيا وروسيا، فضلاً عن تركيا العثمانية وإيران القاجارية.

حالما دخلت إمارة بابان طور الاضمحلال في أواخر العقد الثاني من القرن التاسع عشر بسبب فشلها في وضع حد للتدخلات الخارجية في شؤونها، بدأت إمارتا

سوران وبوتان في النمو سريعاً سياسياً وإقليمياً إلى الحد الذي هيمنتا فيه على الوضع السياسي في كردستان مدة أربعة عقود، والتي شهدت اعنف تحد قام به الأمراء الكرد لسلطة الدولتين العثمانية والقاجارية. سيركز هذا الفصل وبشكل خاص على شرح الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية القائمة في مختلف المناطق الكردية، وكيف انها شكلت الخلفية بالنسبة إلى ظهور توجهات استقلالية ووحودية جديدة بين الأمراء الكرد، خاصة محمد باشا أمير سوران وبدرخان أمير بوتان. كما سيلقى هذا الفصل الضوء على التأثيرات السياسية لحركة محمد باشا واهدافها من خلال تناول الشؤون السياسية الكردية في إطارها الإقليمي والدولي حينئذ.

## حركة الاستقلال والوحدة الكردية

ما بين بدايات ومنتصف القرن التاسع عشر:  
الخلفية الاجتماعية والاقتصادية

الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية

في المناطق المستقلة وشبه المستقلة في كردستان

كانت الإمارة نظاماً قابلاً للتكيف والتطور اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً. واحتلت بتليس مرتبة الإمارة الأكثر ازدهاراً على الصعيدين الاقتصادي والثقافي منذ القرن السادس عشر. وقد تسارعت وتيرة التطورات الاقتصادية والسياسية والثقافية في عدة إمارات، مثل اردلان وسوران وبادينان<sup>٢٥٠</sup>، منذ أوائل القرن السابع عشر. وكتب الرحالة الفرنسي، تافرنير، الذي زار العديد من المناطق الكردية في منتصف القرن السابع، ان جزيرة وعمادية، عاصمتي بوتان وبادينان بحسب الترتيب،<sup>٢٥١</sup> كانتا مركزين اقتصاديين مهمين، للمحاصيل النقدية، مثل التبغ والجوز،

<sup>٢٥٠</sup> حول وضع إمارة بادينان الثقافي راجع: كاوه ناميدي، "إمارة بادينان، ١٧٠٠-١٨٤٢، ص ٢٠٨-

٢٢٦.

<sup>٢٥١</sup> ظهور الشعاعين الكلاسيكيين الكبيرين احمد جزيري بين منتصف القرنين السادس عشر والسابع عشر واحمدي خاني بين منتصف القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر في جزيرة كان شاهداً

والمنتجات الحيوانية، والتي كانت تجلب إلى مدينتي جزيرة وعمادية كي يعاد تصديرها إلى البلدان الأخرى من قبل التجار المحليين والأجانب.<sup>٢٥٢</sup> أما سنندج، عاصمة إمارة اردلان، والسليمانية، عاصمة إمارة بابان، فقد أنشئت من أجل ان تكونا مركزين رئيسيين للتجارة والصناعات الحرفية في كردستان الشرقية والجنوبية بحسب الترتيب.

على ما يبدو، بنيت مدينة سنندج من قبل أحد أمراء اردلان في أوائل العقد الخامس من القرن السابع عشر، واتخذت أهمية اقتصادية وثقافية في مدة قصيرة. في عام ١٨١٨، وصف ريج جسر المدينة و«مسجدها الجميل جداً» و«حديقته الرائعة» وسوقها الكبير وحماماتها العامة وخاناتها التجارية. لقد اعطى أمير اردلان، أمان الله خان، العمال والحرفيين الذين بنوا المشاريع العامة مكافآت عينية، مثل المواشي، بدلا عن النقود. بهذه الطريقة وسع أمان الله خان من عاصمته «بشكل كبير»، التي سكن فيها من ٢٠,٠٠٠ إلى ٢٥,٠٠٠ شخص. كما استثمر الأمير أمواله من خلال إعطائها إلى التجار المحليين، الذين كانوا يدفعون إليه قسماً من الأرباح التي كان يحصلون عليها من معاملاتهم التجارية. لهذا استطاع أمان الله خان تكوين ثروة ضخمة.<sup>٢٥٣</sup> ويكتب الكردولوجي أي بي سون عن سنندج خلال عهد أمراء اردلان بأنها «زينت ببيوت جميلة وبحدائق» و«أصبحت مكاناً تحدثت عن جماله وبشكل جلي كتب كل الرحالة الذين مروا بها».<sup>٢٥٤</sup>

ترافق تزايد الأهمية الاقتصادية للمدن الكردية القديمة والدور الفعال الذي لعبته المدن الجديدة مع تحولات اجتماعية، تجسدت على الخصوص في التعجيل من عملية التحول المدني والاستيطان. ونتيجة لذلك، شهدت المناطق الكردية ظهور مدن صغيرة وقرى عديدة جديدة. ففي نهاية القرن الثامن عشر، وكما أشير إليه في الفصل السابق، شجع الأمير عبد الرحمن كونفدرالية الجاف القبلية الكبيرة على الاستقرار في الأقاليم الواقعة ضمن إمارته. وبحلول العقد الخامس من القرن التالي، كانت سهول

---

واضحاً على التطور الثقافي الكبير الذي حصل في المناطق الشمالية والغربية من كردستان، خاصة في إمارتي بوتان وبادينان وما حولهما من إمارات.

<sup>٢٥٢</sup>Tavernier, The Six Voyages through Turkey into Persia, p.108.

<sup>٢٥٣</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, vol.1, pp.201, 206, 209, & 212.

<sup>٢٥٤</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.218.

شهرزور الواسعة مزروعة بشكل مكثف، حيث وجدت فيها العديد من القرى، نتيجة لاستيطان عشائر الجاف.<sup>٢٥٥</sup> وطوال النصف الأول من القرن التاسع عشر، سعى الأمراء الشباب الجدد إلى كسب دعم كافة فئات المجتمع الإماراتي، من ضمنها أهالي القرى والمدن التي فتحوها، عن طريق تجاوز الموانع الاجتماعية. وبرز مثال على هذا التوجه هو مساعي أميرى سوران وبوتان الحثيثة في تكوين قوات مسلحة جديدة في العقد الثالث والرابع والخامس من القرن التاسع عشر، التي احتوت على عناصر من مختلف الطبقات الاجتماعية والخلفيات الدينية. بتلك الطريقة حاول هؤلاء الأمراء من وضع حد لتقاليد الأرستقراطية القديمة التي منعت أو الأقل قيدت من مشاركة غير المسلمين والطبقة الفلاحين في وحدات الإمارة العسكرية.

أما في الميدان الثقافي، فقد تحقق تقدم مذهل. ففي المرحلة التي سبقت النظام الإماراتي الثاني لم يكن عند الكرد لغة ادبية خاصة بهم. واستخدم العلماء والمؤرخون الكرد اللغات الأجنبية المهيمنة، خاصة اللغتين الفارسية والعربية. في العصر الإماراتي الثاني، أصبحت اللهجة الكرمانجية أول لغة ادبية في المناطق الوسطى والشمالية من كردستان ما بين القرنين الرابع عشر والخامس عشر. يبدو ان بتليس كانت المكان الذي تطورت فيه الكرمانجية، أي تحولها من لهجة إلى لغة، نظراً لتقدمها الثقافي الكبير في تلك الفترات وما بعدها. أما في كردستان الصغرى، فقد تحولت اللهجة الكورانية إلى لغة ادبية ورسمية في بلاط أمراء اردلان الذين شجعوا المتعلمين على الكتابة بتلك اللغة عن طريق منحهم الهدايا والمكافآت المالية.<sup>٢٥٦</sup> ويذكر سون أن الأدب والفن تطوراً في ظل «الحكم المتنور» للأمراء الاردلانيين.<sup>٢٥٧</sup> وكانت ماه شرف والمعروفة بمستوره، زوجة أمان الله خان، شاعرة ومؤلفة لكتاب تاريخي عن السلالة الاردلانية، حيث عاشت بين العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر والعقود الأولى من القرن التالي. في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر، وبفضل إصرار الأمير عبد الرحمن الباباني واهتمامه الشديد، تحولت اللهجة السورانية إلى لغة ادبية ورسمية لأكثرية سكان كردستان الجنوبية، ومن ثم لسكان كردستان الشرقية.

<sup>٢٥٥</sup>Jones, Journey to the frontier of Turkey and Persia through part of Kurdistan, p.205.

<sup>٢٥٦</sup>Blue, Kurdish Written Literature, p.21.

<sup>٢٥٧</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.218.

بهذا الطريقة، ونتيجة للتطورات الثقافية المتواصلة في عهد الأمراء، صارت الكردية تدريجياً لغة أدبية رئيسة للنخب السياسية والمتعلمة المحلية بشكل عام. وعبرت درجة التقدم الثقافي في المناطق الكردية عن نفسها في قدرة أغلبية الشعراء الكرد على كتابة قصائد باللغات الكردية والعربية والفارسية والتركية، وفي المنزلة السامية التي احتلها هؤلاء الشعراء عند عامة الناس.

لقد كانت العواصم السياسية للإمارات الكبيرة، مثل بتليس وجزيرة وعمادية وسندج وفي وقت متأخر السليمانية، مراكز ثقافية مهمة في الوقت نفسه. وساعد ارتفاع اللهجتين الكرمانجية والسورانية إلى لغتين أدبيتين على انتشار الطرق الصوفية، خاصة القادرية والنقشبندية، وإعطائها خصوصية كردية أكبر بكثير من السابق. وربما يفسر هذا الارتباط القائم بين انتشار القادرية والنقشبندية ووجود لغتين أدبيتين، حيث انتشرت الطريقة الأولى في المناطق التي يتكلم سكانها باللهجة الكرمانجية عموماً، بينما انتشرت الطريقة الثانية في المناطق التي يتكلم سكانها باللهجة السورانية. أعنى كل هذا التفاعل بين اللغة والدين الحياة الثقافية في المناطق الكردية وامتد ليشمل الحياة السياسية أيضاً. فقد كان لأحياء النقشبندية وانتشارها في العقود الأولى من القرن التاسع عشر دلالة على الصلة الوثيقة بين التحول الاجتماعي والتطور الثقافي. ففي المدن الكردية، كالسليمانية في تلك الفترات، ارتبطت النقشبندية بالفئات الاجتماعية الحضرية، كالتجار والحرفيين،<sup>٢٥٨</sup> وبالقيادات السياسية التي نادى بالتغييرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وكل هذا يفسر سبب تقديم قادة النقشبندية دعمهم التام لقيام الكونفدرالية الكردية وحركة الاستقلال التي قادها الأمير بدرخان (التفاصيل في الفصل التالي).

ان واحدة من أهم سمات التغييرات الثقافية في كردستان هي قيام النخب السياسية والدينية بالمبادرات الثقافية. وبرز مثال على ذلك دعم الأمراء الاردلانيين للغة الكورانية، وتبني الأمير عبد الرحمن عملية تحويل اللهجة السورانية إلى لغة أدبية. والمثال الآخر كانت دعوة احمدي خاني، وهو رجل دين، إلى تكريد الحياة الثقافية عن طريق تعليم أطفال الكرد باللغة الكردية الأم. وتفاجأ الكثير من الرحالة

<sup>٢٥٨</sup> هلكوت ملا حكيم، "أبعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع عشر".



والممثلين التجاريين ورجال الإرساليات المسيحية من الأجانب بالمستوى الثقافي الذي تمتعت به النخب السياسية والمتعلمة في المناطق الكردية المستقلة وشبه المستقلة بشكل عام. ولم يتطرق أي من هؤلاء إلى أية حادثة حاول فيها أمير كردي عرقلة النشاطات الاقتصادية عن طريق الإخلال بأمن طرق التجارة والاتصال أو فرض ضرائب مجحفة بحق التجار المحليين والأجانب أو عامة المسافرين.

ان إحدى النقاط الجوهرية الذي يثيرها هذا البحث التاريخي هي انه لا تكمن أهمية جهود النخب المتعلمة، السياسية منها وغير السياسية، في تمكين اللغة الكردية على منافسة اللغتين الأجنبية الفارسية والتركية في تزامنها مع كفاح الإمارات الكردية ضد الهيمنة الإيرانية القاجارية والعثمانية التركية، وإنما في تجسيدها جانباً مهماً من ذلك الصراع. ويفسر هذا الترابط بين اللغة والسياسة منع القاجاريين للغة الكورانية عقب تدميرهم إمارة اردلان، وإصرار السلطات الإيرانية المتتالية على منع تعليم اللغة الكردية. وفي كردستان الكبرى، أي بعد تدمير جميع الإمارات الكردية، اختفت الغالبية العظمى من المدارس الدينية الكردية التي كانت منتشرة في جميع المدن الكبيرة منها والصغيرة.<sup>٢٥٩</sup>

وشهد البناء السياسي للإمارة بعض التغيرات أيضاً. ففي إمارة بابان وهكاري استحدث منصب الوزير الأول (أو مدبر) من أجل إدارة شؤون الإمارة الداخلية، التي ازدادت تعقيداً بسبب التطورات التدريجية الحاصلة في النواحي الاجتماعية والاقتصادية، والانفتاح بصورة أكبر على العالم الخارجي. كما استمرت في الوجود الوظائف المالية والتعليمية- الدينية والقضائية التي كان يؤديها موظفو الإمارة منذ عدة قرون. ساعد بناء مدينة السليمانية على تحويل الطريقة القادرية إلى مؤسسة مهمة داخل النظام الإماراتي، ذات ارتباط وثيق بالسلالة البابانية الحاكمة. بدأت تتشكل، كنتيجة مباشرة لتلك التغيرات الحاصلة على الأصعدة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، طموحات سياسية جديدة في أوساط النخب السياسية المحلية، تدور حول تشكيل دولة كبرى مستقلة. وقد لاحظ العديد من الزوار الأجانب،

<sup>٢٥٩</sup> يذكر كاوه ناميدي أسماء ١٠ مدارس هامة فقط من بين العديد من المدارس التي كانت موجودة في إقليم إمارة بادينان. كاوه ناميدي، "إمارة بادينان، ١٧٠٠-١٨٤٢"، ص ٢١٨-٢٢١.

مثل جون مالكوم، أنه حتى المناطق الكردية التي اعتبرت خاضعة مباشرة للحكومة المركزية في طهران كانت مستقلة عملياً في إدارة شؤونها في أغلب الأحيان. وسعت الحركات الاستقلالية الجديدة إلى تحويل ذلك النوع من الحكم الذاتي العفوي غير منظم الموجود في مختلف أرجاء المناطق الكردية إلى استقلال سياسي منظم وهادف من خلال منحها سمات سياسية واتجاهاً محدداً.

في الوقت نفسه، كانت النخب السياسية مدركة ان التدخلات الخارجية في الشؤون الكردية لم تكن مسؤولة عن عرقلة التقدم الاجتماعي والاقتصادي فحسب وبل عن مشاكل عميقة الجذور، في مقدمتها غياب الأمن والاستقرار السياسي الدائم. كما كان العديد من الكرد مدركين بان الأتراك والاييرانيين لم ولن يسمحوا للمناطق الكردية ان تتمتع باوقات طويلة من الاستقرار والسلام. كان الكابتن أي آر ميغانان، أحد المستكشفين البريطانيين، قد وصف وبشكل دقيق أوضاع كردستان المتدهورة في فترة صراع الإمارات الكردية مع السلطات العثمانية والقاجارية في العقد الرابع من القرن التاسع عشر:

في معقله الأكثر مناعة، يتعرض (الكرد) إلى مفاجآت مباشرة مباغتة من قبل عدو عديم الرحمة، ومن مهده إلى لحده، أما ان يكون غنيمة حرب أو ندأ للمعتدي- واقعاً تحت تأثير الحاجة- ويعيش حياة محفوفة بالمخاطر الشديدة، وفي حالة من الفرار أو الهجوم الدائم.<sup>٢٦٠</sup>

بالنظر إلى وجود هذه الوضعية القلقة صارت مسألة فرض الاستقرار السياسي واستتباب الأمن وتطبيع اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية من أولويات الحركات السياسية الإماراتية جميعها.

كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والامنية تتدهور بسرعة كبيرة في المناطق الكردية الحدودية بسبب اندلاع العديد من الحروب الإيرانية والتركية، من جهة، وانطلاقة الحملات الروسية العسكرية التوسعية ضد الدولتين القاجارية

---

<sup>٢٦٠</sup>R. A. Mignan, A Winter Journey through Russia: the Caucasian Alps and Georgia; thence across Mount Zagros by the Pass of Xenophon and the Ten Thousand Greeks into Kurdistan, volo.1, (London: Richard Bentley, 1839), pp.227-228.

والعثمانية، من جهة ثانية. لقد أصبحت كردستان مسرحاً لتلك الحروب الكبرى، التي رافقتها عادة عمليات قتل للأهالي ونهب ممتلكاتهم وتدمير واسع للقرى والمدن الواقعة في الحزام الحربي. كما أدت تلك الحروب الى هجرة سكان المناطق المتأثرة بها إلى مناطق أخرى أكثر أمناً. وطبقاً إلى جستين بريكينز، أحد رجال الإرساليات المسيحية الأجنبية، قام الجيش الروسي بعد تقهقر نظيره العثماني بنهب ممتلكات أهالي ولاية ارزروم بغض النظر عن خلفياتهم العرقية أو الدينية.<sup>٢٦١</sup> بشكل عام، تسببت، والى حد كبير، التدخلات الخارجية في الشؤون الكردية، من ناحية، والحروب الإيرانية- التركية وحروب روسيا مع تلك الدولتين في وقت لاحق، من ناحية ثانية، في ضعفة الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وفي زيادة حدة الانشقاقات السياسية.

لقد عانت الطبقات الاجتماعية والاقتصادية كلها من تأثيرات الصراعات الداخلية ومن الحروب والتدخلات الخارجية في المناطق الكردية. وعرقل غياب الاستقرار وسيادة التسبب، التي أضعفت أمن الطرق من وإلى المناطق الكردية، النشاطات الاقتصادية، خاصة التجارية منها. فالتوقف، وأحياناً التراجع، الذي حصل في اتساع المدن، والخراب الذي تعرضت له الطرق والجسور والخانات اجبر التجار المحليين والأجانب على تحديد نشاطاتهم التجارية أو حتى ترك المدن الكردية نهائياً. ونتج عن كل غزوة روسية هجرة العديد من التجار والحرفيين والفلاحين الأرمن من مناطق كردستان الشمالية والشرقية. تركت هذه الهجرة تأثيرات سيئة في الوضع الاقتصادي في تلك المناطق وما حولها.

غالباً ما أدت الحروب ما بين الجيوش الأجنبية والتدخلات المتكررة للحكومات الإيرانية والتركية في الشؤون الداخلية الكردية إلى انتزاع إتاوات ضخمة من السكان الكرد، ناهيك عن إجبارهم على تزويد تلك الجيوش بالمواد الغذائية وغيرها من الحاجات الضرورية كحيوانات النقل. لكل هذه الأسباب كانت المناطق الكردية تحت ضغط اقتصادي شديد حيث تلاشت الثروات المتراكمة في المدن وكذلك في الريف. ففي الأخير، أدى عدم الاستقرار السياسي غالباً إلى تغيير مستمر في حياة الأراضي الزراعية. ان وجود مشكلة عدم وجود ضمان بالنسبة إلى حياة الأراضي

<sup>٢٦١</sup>Justin Perkins A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, (New York: 1843), p.113.

على المدى البعيد قد فرضت ضغوطا مالية على مختلف الطبقات الاجتماعية، خاصة الفلاحين. فقد عزم اصحاب الأراضي الكرد على انتزاع الأرباح بأكبر قدر ممكن من فلاحهم لأنه، في ظل التغيرات الحاصلة في الوضع السياسي، لم يوجد ضمان يؤمن سيطرتهم على الأراضي الزراعية مستقبلا. وقد شرح أحد اصحاب الأرض الكرد لريج الوضعية الزراعية في ظل عدم استقرار الحكم الباباني:

ان فقدان الأمن بالنسبة إلى ما في حوزتنا هو السبب الوحيد لخراب بلدنا. فبينما نحن، رجال القبائل، غير واثقين من حيازتنا لإقطاعياتنا، لن نسخر جهودنا في المجال الزراعي. وحتى الوقت الذي يتم فيه تحقيق ذلك الامر، سوف لن يزدهر البلد. لماذا اضع تاغرا<sup>٢٦٢</sup> (Tagger) من البذور في الأرض في الوقت الذي انا لست فيه متأكدا من ان سيدي (الأمير) سيظل في الحكم حتى موسم الحصاد؟ فبدلاً عن ذلك، سادع الفلاحين يزرعون الأرض بالطريقة التي يرونها مناسبة، واحصل منهم على ضريبتني، وهي الزكاة أو العشر، وكل ما استطع ان اعتصره منهم بمختلف الوسائل والحجج.<sup>٢٦٣</sup>

لقد اخبر ريج، الذي كان مندهشا من اختفاء المباني والبيوت الجميلة من مدينة السليمانية، من قبل أحد سكانها أن سبب ذلك هو غياب الأمن الاقتصادي والاستقرار السياسي.<sup>٢٦٤</sup> أجب الاستغلال الاقتصادي الشديد أيضاً العديد من الفلاحين على ترك قراهم وأراضيهم، وهذا بدوره أثر سلبياً في الزراعة الكردية، وعرقل عملية التحول من حياة البداوة إلى الاستقرار لدى القبائل الرحل الكردية. ولم يعرقل غياب ضمان الملكية وخسارة الأهالي وسائل معيشتهم عملية تحول المجتمعات الكردية من البداوة إلى الاستيطان فحسب، وإنما أيضاً قلب مسار التحضر، حيث ترك العديد من الكرد المدن إلى الريف سعياً وراء العمل. وقد لاحظ سون، أي بعد ٩٠ سنة من زيارة ريج إلى السليمانية، ان الكثير من سكانها ظل يحتفظ بصلات قوية مع الريف الكردي.

<sup>٢٦٢</sup> التاغر مقياس للوزن يساوي طنين.

<sup>٢٦٣</sup> Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, vol.1, p.96.

<sup>٢٦٤</sup> المصدر السابق.

ان ما مرت به إمارة بابان، كما تم ذكره آنفاً، كان مثلاً ينطبق بشكل عام على عدة مناطق كردية، كجزيرة. فقد اجبر الامراء في أوقات ضعف الامارات على دفع مبالغ كبيرة بشكل إتاوات إلى الإيرانيين أو الأتراك (أو في مرحلة لاحقة المماليك)، وأحياناً كانوا يدفعون لكلا الطرفين في ان واحد. كان ريج شاهداً على حادثة طالب فيها ولي العهد القاجاري بإتاوة ضخمة (٣٠,٠٠٠ تومان) من محمود باشا، أمير بابان.<sup>٢٦٥</sup> ويذكر جيمس ب. فريزر حادثة أخرى قام الإيرانيون فيها بانتزاع إتاوات كبيرة من إمارة بابان عقب احتلالهم السليمانية، برغم ان المدينة كانت في حالة خراب.<sup>٢٦٦</sup> ان ما زاد من سوء الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في كردستان انتشار الأوبئة، خاصة الطاعون. وشهد ريج خلال زيارته إلى السليمانية كيف كان يعبث الجدري («بشكل واسع بأرواح سكان المدينة، الذين لم يملكو أية لقاحات».)<sup>٢٦٧</sup> وبعد عقدين تقريباً، أدى انتشار الوباء إلى وفاة نصف سكان مدينة السليمانية والمناطق المجاورة لها، وهاجر الكثير من سكانها الباقين إلى كركوك واربيل وراوندوز<sup>٢٦٨</sup> كما سبب سوء الاحوال الجوية، كقلة الأمطار، وهجوم الجراد وانتشار المجاعة تدهور الأوضاع أكثر فأكثر. يمكن القول في التحليل الأخير، بأن التدهور الاقتصادي الذي عانت منه إمارة بابان خلال زيارة ريج وبعده كانت نتيجة مباشرة للضغوط الخارجية، والامر نفسه ينجر على إمارات أخرى مثل سوران وبتليس وبوتان.

### الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

#### في المناطق الكردية الخاضعة لسيطرة السلطات التركية والإيرانية

لقد كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للكرد الموجودين في الأقاليم الخاضعة لحكم الولاة الأتراك والإيرانيين والمماليك اسوأ بكثير من أقرانهم في الأقاليم التي تمتعت بحكم مستقل أو شبه مستقل. ان ما وصلت إليه وضعية الفلاحين الكرد من بؤس اقتصادي واحتقار اجتماعي كان ابرز مثال. يذكر ار أي ميغان بهذا الصدد

<sup>٢٦٥</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, p.108.

<sup>٢٦٦</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, (London: 1840), p.148.

<sup>٢٦٧</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, vol.1, p.103.

<sup>٢٦٨</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.148.

بأن الفلاحين الكرد، «وبرغم احتقارهم من قبل رجال قبائلهم الأحرار»، كانوا في «مأمن» من ظلم الموظفين الإداريين الأتراك والضباط العسكريين. ففي منطقة كفرى الخاضعة آنذاك إلى السيطرة التركية، على حد تعبير ميغنان «أنزل شأن الفلاحين الكرد إلى أدنى مستوى ممكن. فهم يعيشون في ظل هيمنة غير إنسانية... فحكومة داود باشا التركي (في بغداد) ظالمة، وعهده ابتزاز وقانونه السيئ».<sup>٢٦٩</sup> اجبر الفلاح وصاحب الأرض وانباء المدن وبقية السكان في المناطق الخارجة عن سيطرة الإمارات الكردية من قبل الحكام الأتراك وقادة الجيش على المشاركة في الحملات التركية العسكرية سواء ضد الأمراء الكرد أو ضد البلدان المجاورة، عن طريق تقديمهم مجندين جدد وتسديدهم ضرائب خاصة، المالية منها والعينية (مواد غذائية). والشيء نفسه ينطبق على سلوك ممثلي السلطات القاجارية في المناطق الكردية الخاضعة لسيطرتها.

لم تختلف كثيراً، على الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي، وضعية الفلاح الكردي الموجود في المناطق الخاضعة للسيطرة الإيرانية عن نظيره الموجود في المناطق الخاضعة للسيطرة التركية. فقد لاحظ اج سي راولينسون، القنصل البريطاني العام والممثل السياسي لشركة الهند الشرقية في بغداد، أثناء رحلته إلى مقاطعة صابلاغ الكردية بأن «أوضاع طبقة الفلاحين في أوساط القبائل الكبيرة»<sup>٢٧٠</sup> أفضل بكثير من تلك التي كانت خاضعة لإدارة الحكومة (القاجارية) المباشرة أو سيطرة سيد أجنبي».<sup>٢٧١</sup> في بداية العقد الرابع أخضعت منطقة سردشت إلى سيطرة السلطات القاجارية الإقليمية في تبريز مباشرة. قبل ذلك كان سكان المنطقة

---

<sup>٢٦٩</sup>Mignan, A Winter Journey through Russia, the Caucasian Alp and Georgia, vol.1, p.226.

<sup>٢٧٠</sup> يقصد هنا راولينسون القبائل الكردية الساكنة في المناطق الكردية المستقلة أو شبه المستقلة.  
<sup>٢٧١</sup> على الأكثر يقصد هنا راولينسون ملاكي الأرض من قادة قبائل الافشار الأذربيجانية، الذين منحتهم الحكومات الإيرانية المتعاقبة ذات الاصول الأذربيجانية (الصفويين القاجاريين) أراضي القبائل الكردية التي تم نفيها إلى إقليم خراسان النائي. أما من بقى من السكان الكرد والمسيحيين فصاروا يعملون فلاحين لدى صاحب الأرض الأذربيجاني. (راجع الفصل الأول من اجل التفاصيل).

<sup>٢٧٢</sup>Rawlinson, Notes on a Journey from Tabriz through Persian Kurdistan, vol.x. 1840, p.36.

من الموكريانيين الكرد يحكمون من قبل قادتهم المحليين، ولهذا لم يكونوا يدفعون ضرائب عالية أو إتاوات إلى السلطات القاجارية. لكن حالهم هذا تبدل تماماً عندما خضعوا إلى السيطرة القاجارية.

وشهد جيمس فريزر خلال زيارته مقاطعة سردشت كيف كان سكانها يشكون بمرارة من فرض ضرائب مفرطة عليهم من قبل الأذربيجانيين القاجار. لقد كان على الموكريانيين أيضاً تزويد الجيوش القاجارية بالمؤن الغذائية واماكن استراحة في كل مرة تغزو فيها اقاليم الإمارة البابانية المجاورة.<sup>٢٧٣</sup> وصل الوضع المزري للموكريانيين درجة لم يسبق لها مثيل عقب انتشار الطاعون الذي فتك بنصف سكان مقاطعة سردشت. طبقاً إلى ملاحظات فريزر، أرجع هؤلاء الكرد سبب خلو منطقتهم من السكان إلى حجم الضرائب الكبيرة التي كانت تفرضها السلطات القاجارية الإقليمية وعمليات نهب القرى الكردية التي كان يقوم بها الجنود الأذربيجانيون.<sup>٢٧٤</sup>

كما لاحظ ميغنان، على غرار فريزر، أن الاضطهاد التركي والإيراني قد أجبِر العديد من الفلاحين الكرد على ترك أراضيهم، واللجوء إلى المناطق الجبلية.<sup>٢٧٥</sup> يقول فريزر ان الموكريانيين الكرد كانوا سعداء جداً بظهور سلطة محمد باشا، أمير سوران، الذي فرض سيطرته حينذاك على العديد من المناطق الكردية. وكان الموكريانيون يأملون، في اقل تقدير، بأن يجبر بروز محمد باشا السلطات القاجارية على التخفيف من حدة معاملتهم السيئة لهم. اعتبر الموكريانيون محمد باشا «رجلاً نبيلاً وعادلاً» لأنه «كان يلجأ إلى كافة الوسائل من اجل تعزيز سيطرته وازدهار بلده».<sup>٢٧٦</sup> ان الملفت للنظر هو نجاح محمد باشا في فرض سيطرته على مقاطعة سردشت دون قتال بعد اشهر قليلة من زيارة فريزر اليها.

<sup>٢٧٣</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.112.

<sup>٢٧٤</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.131.

<sup>٢٧٥</sup>Mignan, A Winter Journey through Russia, the Caucasian Alp and Georgia, vol.1, p.226.

<sup>٢٧٦</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.119.

من جهة ثانية، لاحظ البريطاني جيمس فليكس جونز، العضو البارز في اللجنة البريطانية- الروسية التي سعت إلى حل الخلاف الحدودي بين الدولتين العثمانية والقاجارية في عام ١٨٤٤، كيف فرضت السلطات القاجارية ضرائب كبيرة تعسفية على طبقة الفلاحين الكرد في إقليم كرماشان التي لم تختلف عن تلك التي كانت تفرضها السلطات العثمانية على الفلاحين الكرد في منطقتي كركوك وخانقين.<sup>٢٧٧</sup> ان تراكم المعضلات المالية والحاجة المتزايدة إلى وجود مصادر مالية جديدة من اجل تمويل حروب داخلية وأخرى خارجية، جنباً إلى جنب تفشي الفساد والرشوة بين موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين، جعلت القاجاريين والعثمانيين لا يكتفون فقط برفع مستوى الضرائب في المقاطعات الكردية الخاضعة إلى سيطرتهم، وإنما بدأوا يتطلعون أيضاً إلى الاستيلاء على ثروات الامارات المستقلة وشبه المستقلة.

ان الجانب الذي كان يمقته الكرد بشدة في السياسة التركية والإيرانية تجاه المناطق الكردية الخاضعة إلى السلطات المركزية هو التجنيد الإجباري للشبان في الجيوش المركزية. فقد التجأ الشباب إلى مختلف الوسائل من اجل تجنب الانضمام إلى الجيش النظامي. وكانت الحكومة المركزية تدفع للجنود وبشكل غير منظم راتباً ضئيلاً جداً لا يسد الرمق في افضل الاحوال، وتزودهم بملابس واغذية رديئة النوعية. ارسل الكثير من الكرد، الذين اجبروا على الانضمام إلى الجيوش المركزية، إلى اقاليم غير تركية نائية لقمع انتفاضات فيها أو سيقوا إلى حروب كبيرة كانت غالباً ما تنشب بين القوى الإقليمية المتصارعة من اجل الهيمنة. ولم يرجع العديد من هؤلاء المجندين إلى مدنها وقرانهم أبداً بسبب الموت أو الأسر. وفي غيابهم، كانت عائلاتهم تعاني من مشاق اقتصادية كبيرة، لان هؤلاء المجندين غالباً ما كانوا المعيل الأساسي لها. وكان واحد من ابرز نتائج الهزائم التركية والإيرانية على يد الروس اندفاع السلطات العثمانية والقاجارية نحو المناطق المستقلة وشبه المستقلة للسيطرة عليها بهدف الحصول على مجندين جدد وموّن وضرائب، التي كانت من أهم متطلبات شن حرب خارجية أو قمع انتفاضة داخلية.

<sup>٢٧٧</sup>Jones, Journey to the frontier of Turkey and Persia through part of Kurdistan, pp.



وفي سبيل حماية أبنائها، اضطرت العديد من العائلات الكردية إلى ترك محل سكنها في المدن والقرى الخاضعة للسيطرة التركية أو الإيرانية واللجوء إلى مناطق عاصية نائية خارجة عن سيطرة الدولة. وشاهد أحد رجال الإرساليات الأمريكية، هراتيو ساوثغيت، خلال رحلته في منطقة دياربكر كيف كان الشبان الكرد يقاومون بشدة المحاولات التي كان يقوم بها ضباط التجنيد الأتراك في إجبارهم على الانضمام إلى الجيش المركزي. طبقاً إلى ساوثغيت، لم يخف الآباء والأمهات الكرديات كراهيتهم لضباط التجنيد الأتراك الذين «كانوا يغزون قراهم» ليخطفوا أبناءهم منهم بهدف ارسالهم كمجندين جدد إلى الجيوش المركزية. وبحسب اعتقاد ساوثغيت، كانت مسألة إجبار الكرد على الانضمام إلى الجيش التركي المركزي سبباً لانتفاضة عامة الكرد في مدن وقرى منطقة دياربكر في عام ١٨٣٩، التي تزامنت مع هزائم ذلك الجيش على يد الجيش المصري بقيادة إسماعيل باشا، نجل والي مصر الأكبر، محمد علي. لقد نوى الكرد المنتفضون، وحسب تعبير ساوثغيت، «على أخذ الانتقام من الذين كانوا يضطهدونهم» (أي الأتراك).<sup>٢٧٨</sup>

ان المسح السريع الأنف الذكر يؤكد ان كردستان كانت طوال النصف الأول من القرن التاسع عشر في حاجة ماسة إلى الاستقرار الاجتماعي وتحسين الأوضاع الاقتصادية وتوفير الأمن لكل الطبقات الاجتماعية. وهذه التغييرات لا يمكن إحداثها دون تغيير سياسي كبير. لهذه الأسباب يجب النظر إلى المساعي السياسية والعسكرية الحثيثة التي قام بها أمراء سوران وبوتان وغيرهم في تغيير الوضع القائم (status quo) ضمن إطاره الاجتماعي والاقتصادي. بتعبير آخر، كانت الحاجة إلى إنهاء الوضع المزري الذي كانت تمر فيه المجتمعات الكردية حينئذ القوة الدافعة لتلك الحركات السياسية-العسكرية التي استهدفت ترسيخ الاستقلال السياسي والوحدة الإقليمية، والتي قام بها أمراء شباب تميزوا بطموحات سياسية كبيرة تعدت بكثير حدود المنطقة أو الإمارة الواحدة. وهذا العامل يفسر بشكل رئيس وصول تلك الإمارات التي قادت مبادرة التغيير إلى درجة من القوة والهيبة لم تشهد لها كردستان مثيلاً من قبل. ولم تشهد المناطق الكردية لها أبداً من قبل مشاركة مختلف الطبقات الاجتماعية في

<sup>٢٧٨</sup>Haratio Southgate, Narrative of a Tour through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, (New York: 1846), pp.98-99.

تلك الحركات الاستقلالية والوحدوية. وقد لعب البعدان الإقليمي والدولي، وكما سيبين القسم التالي، دوراً مساعداً في التأثير في الوضع السياسي الكردي، بالمقارنة مع العوامل الداخلية آنفة الذكر.

## ظهور الحركات الإماراتية الاستقلالية والبعدين الإقليمي والدولي

### *القوى الأوروبية الغربية: بريطانيا وفرنسا*

لا يمكن فهم كافة أبعاد الحركات الاستقلال الكردية في النصف الأول من القرن التاسع عشر دون تناول الخلفية الإقليمية والدولية لها، خاصة المنافسة التي انطلقت بين القوى الأوروبية المختلفة في سبيل الحصول على نفوذ سياسي واقتصادي في الشرق الأوسط. لقد أصبحت مناطق الشرق الأوسط محط اهتمام دولي لم يسبق له مثيل من قبل، حيث لعبت القوى الخارجية دوراً مهماً في التأثير على مسار الأحداث السياسية والتطورات الاقتصادية والثقافية. وتأثر الوضع السياسي في كردستان، كغيرها من مناطق شرق الأوسط، بالوجود الأوربي المباشر وغير المباشر، الذي ترك بصمات واضحة على مستقبل الإمارات الكردية وعلاقتها مع الحكومتين العثمانية والقاجارية. يكتب ألبرت حوراني عن التحول الذي طرأ على طبيعة نفوذ القوى الأوروبية وآفاقها قائلاً:

قبل القرن التاسع عشر، دافعت تلك القوى عن مصالحها من خلال التحالف مع أحد الاطراف سواء في القصر أو في البلاط الإمبراطوري أو في مجالس المقاطعات. وفي القرن التاسع عشر، كانت مصالحها (أي القوى الأوروبية) كبيرة جداً بشكل اجبرها على ممارسة الضغط المباشر على الحكومة التركية من اجل حمايتها. وان ما جعل ذلك الضغط ممكناً هو حالة التدهور المستمر التي كانت تمر فيها القوتان التركية والإيرانية.<sup>٢٧٩</sup>

<sup>٢٧٩</sup>Albert Hourani, *Ottoman Reform and the Politics of Notables*, in *Beginning of Modernisation in the Ottoman Empire: the 19<sup>th</sup> Century*, ed. William.R. Polk & Richard C. Chambers, (Chicago: University of Chicago Press, 1968), p.64.

على الصعيد الاستراتيجي، اقلقت سيطرة روسيا القيصرية على مناطق قوقازيا عدة قوى أوروبية غربية، خاصة بريطانيا وفرنسا. فبينما كانت فرنسا تحرص على مصالحها في بلاد الشام، كانت بريطانيا مهتمة جداً بأمن حدود الهند الغربية والطريق البري الاستراتيجي الذي يمر عبر مناطق الشرق الأوسط إلى شبه القارة الهندية، واللذان قد تعرضا إلى تهديد جدي بسبب انتصارات روسيا الكاسحة المتتالية على إيران القاجارية وتركيا العثمانية بين عامي ١٨٠٤ و١٨٢٩.

لقد تطلبت حماية المصالح الاستراتيجية المتنامية تلك من بريطانيا وفرنسا، إلى حد ما، ان تدافعا عن الوحدة الإقليمية لتركيا العثمانية وإيران القاجارية، بقدر ما يتعلق الامر بالأقاليم الداخلية (heartland)، فضلاً عن ميسوبوتاميا وبلاد الشام. ونظرت بعين العطف والمؤازرة الدوائر الدبلوماسية البريطانية والفرنسية في استنبول وطهران إلى مساعي السلطات التركية والإيرانية لتحطيم الإمارات والقضاء على كل آثار الحكم المحلي في كردستان. وبينما أمنت لنفسها مواطئ قدم ثابتة في مناطق استراتيجية مهمة، مثل الخليج، قامت بريطانيا لا في تشجيع السلطات التركية والإيرانية على مركزة الدولة سياسياً وإدارياً فحسب، وإنما مارست الضغط المستمر عليها. ومنذ أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر، سمحت بريطانيا للحكومة التركية باستخدام خبراء وموظفين بريطانيين أملاً في التعجيل بعملية إصلاح مؤسسات الإمبراطورية العثمانية. فضلاً عن بريطانيا، أرسلت كل من فرنسا وروسيا وبروسيا ضباطاً عسكريين من اجل تحديث وتدريب الجيوش التركية والإيرانية، بضمنها الجيوش المتمركزة في كردستان أو في المناطق القريبة منها. ان تكثيف التواجد البريطاني والروسي والفرنسي، من خلال إرسال الممثلين السياسيين والخبراء العسكريين إلى المناطق الكردية، تزامن مع بدء عملية تحطيم الإمارات المستقلة وشبه المستقلة. لقد قام العديد من ممثلي الدول الكبرى، كروسيا وبريطانيا، الموجودين في المناطق الكردية أو المناطق القريبة منها، بالتدخل في شؤون الإمارات الداخلية عن طريق تحريض السلطات العثمانية على فرض حكم مباشر عليها.

لم تكن المصالح الاستراتيجية هي العامل الوحيد الذي حول أنظار القوى الأوروبية إلى الجزء الآسيوي من الإمبراطورية العثمانية والمناطق القريبة منها. لقد اصبح جلياً في نهاية القرن الثامن عشر بأن القوى الأوروبية المتنافسة من اجل الهيمنة

على أسواق الشرق الأوسط وإغراقها ببضائعها المصنعة كانت في حاجة متزايدة إلى منتجات تلك المنطقة الزراعية. وكانت الوسيلة المثلى لتحقيق هذا الهدف هي ممارسة الضغط على الأتراك والإيرانيين بغية نشر مفهوم الملكية الخاصة في الأقاليم الداخلية، وكذلك في الكيانات السياسية المستقلة وشبه المستقلة الواقعة على اطراف الإمبراطورية. فقد كانت عملية مركزة الدولتين التركية والإيرانية وضم الإمارات الكردية إليهما مسألة في غاية الأهمية بالنسبة إلى تعزيز المصالح الاقتصادية الأوربية. فوجود الإمارات الكردية، وبسبب ما تمتعت به من استقلال سياسي واقتصادي كبير، شكل، من وجهة نظر القوى الأوربية الرئيسية، حاجزاً في طريقها للوصول إلى أسواق المناطق الكردية الواسعة والخارجة عن سيطرة الحكومتين التركية والإيرانية. ويلاحظ ديليو آر بولك ان الفترة الممتدة بين عامي ١٨٢٥ و ١٨٥٥ شهدت تنامياً سريعاً في التجارة الأوربية في الشرق الأوسط،<sup>٢٨٠</sup> وهي المدة نفسها التي شهدت أيضاً التطورات السياسية والعسكرية التي أدت إلى تدمير الإمارات الكردية المستقلة وشبه المستقلة.

لم يكن البريطانيون غافلين عن حقيقة ان استتباب الأمن في الشرق الأوسط وقوقازيا سيساعد على تنمية علاقاتهم التجارية مع الإمبراطورية العثمانية، كما ستبين الإحصائيات التالية. ففي عام ١٨٢٧، كانت الصادرات البريطانية تعادل ما قيمته ٥٣١,٧٠٤ جنيه إسترليني. وفي العام التالي ارتفعت تلك الصادرات إلى ١,٥٢٢,٠٠٠ جنيه إسترليني، ولكنها انخفضت إلى ٥٢٥,٠٠٠ جنيه إسترليني في عام ١٨٢٩ بسبب اندلاع الحرب الروسية- التركية. وفي عام ١٨٣٠، أي بعد عقد اتفاقية أدريانوبل للسلام بين روسيا وتركيا، ارتفعت الصادرات البريطانية إلى ١,٤٧٦,٠٠٠ جنيه إسترليني. وتضاعف هذا الرقم ليصل إلى ٢,٨٨٥,٠٠٠ جنيه إسترليني في عام ١٨٣١.<sup>٢٨١</sup> وبحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت بريطانيا قد صدرت بضائع إلى تركيا أكثر من بقية القوى الأوربية الأخرى، كفرنسا والنمسا وروسيا وإيطاليا.<sup>٢٨٢</sup> ان تزايد الأهمية الاقتصادية والإستراتيجية للإمبراطورية العثمانية لدى بريطانيا جعلت

<sup>٢٨٠</sup>William R. Polk, Introduction in Beginning of Modernisation in the Ottoman Empire: the 19<sup>th</sup> Century, ed. William.R. Polk & Richard C. Chambers, p.10.

<sup>٢٨١</sup>M.S. Anderson, The Eastern Question, 1774-1923, (London: 1966), p.515.

<sup>٢٨٢</sup>المصدر السابق، ص ٢٨.

لندن تقيم فيها قنصل فاقت من حيث العدد تلك القنصل التي أنشأتها في بقية بقاع العالم أجمع.<sup>٢٨٣</sup>

فيما يتعلق بإيران القاجارية عملت بريطانيا حديثاً في العقد الأول من القرن التاسع عشر إلى تقوية علاقاتها السياسية والاقتصادية معها. واستطاعت شركة الهند الشرقية من توقيع عدة اتفاقيات تتعلق بالتجارة والتحالف مع الحكومة القاجارية في ١٨٠١. على الرغم من وجود تلك الاتفاقيات، لم تقدم بريطانيا على مساعدة إيران القاجارية عسكرياً عندما تعرضت أقاليم الأخيرة في قوقازيا إلى الاحتلال الروسي في عام ١٨٠٤. وامتنعت بريطانيا مرة أخرى عن مساعدة إيران عندما دخلت في حرب طويلة مع روسيا القيصرية في المدة ١٨٢٦-١٨٢٨، بالرغم من توقيع الطرفان، البريطاني والایراني، لاتفاقية تحالف دفاعية في نهاية عام ١٨١٤. يبدو ان بريطانيا كانت ما زالت تخشى من طموحات إيران الاقليمية في افغانستان اكثر مما تخشى الخطر الروسي على تلك البلاد. لكن، بريطانيا أعادت حساباتها عندما بدأ التوسع الإقليمي الروسي يشكل تهديداً استراتيجياً واقتصادياً لمصالحها في الهند وأفغانستان وإيران. منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، أصبحت إيران القاجارية، على غرار تركيا العثمانية، ضمن الحزام الدفاعي الاستراتيجي بالنسبة للمصالح البريطانية الذي امتد من سواحل البحر الابيض المتوسط إلى حدود الهند وأفغانستان الشمالية. طوال الفترة التي تطورت فيها العلاقات البريطانية-الإيرانية السياسية، ارتفع بدرجة مستوية التجارة البريطانية مع إيران. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، صارت بريطانيا الشريك التجاري الرئيسي لإيران حيث وصل مستوى التبادل التجاري إلى أكثر من ٥٠٪ من مما كانت تصدره أو تستورده إيران.<sup>٢٨٤</sup>

أما فيما يخص المناطق الكردية، فلقد عمل الموظفون البريطانيون الميدانيون وممثلو شركة الهند الشرقية بنشاط من اجل إقامة روابط تجارية معها. وكما يبين دومنيك شافليز، فضل ممثلو شركة الهند الشرقية، على غرار التجار الأوربيين الموجودين في مناطق مختلفة من الشرق الأوسط ومنها كردستان، التعامل

<sup>٢٨٣</sup> Polk, Editors Introduction, p.15.

<sup>٢٨٤</sup> Foran, Fragile Resistance, p.109.

مباشرة مع السلطات التركية و الإيرانية بدلاً عن الرؤساء المحليين.<sup>٢٨٥</sup> ويفسر هذا دعم هؤلاء الأشخاص عموماً لغزو الجيوش التركية للإمارات الكردية بغية إقامة حكم تركي مباشر بدلاً عن حكم السلالات المحلية. وكان كل من ريتشارد وود، تاجر ودبلوماسي بريطاني، وجي تايلور، ممثل شركة الهند الشرقية والقنصل البريطاني في بغداد في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، متورطين بشكل مباشر في الأحداث التي قادت إلى سقوط محمد باشا، أمير سوران. كما لعبت شخصيات بريطانية أخرى أدواراً مشابهة، في مقدمتهم هنري ليارد ورسام،<sup>٢٨٦</sup> نائب القنصل البريطاني المقيم في مدينة الموصل، اللذان لعبا دوراً مؤثراً في التطورات التي صاحبت قيام وسقوط الكونفدرالية الإماراتية الكردية، التي قادها الأمير بدرخان (التفاصيل في الفصل التالي). والجدير بالذكر، ان ليارد كان من دعاة إقامة روابط تجارية متينة مع آسيا الصغرى، ولهذا أثنى في إحدى كتبه على جيمس برانت، القنصل البريطاني في مدينة ارزروم الكردية. فحسب تعبير ليارد، كان برانت «قد وطد بشكل مشرف ولفترة طويلة نفوذنا في ذلك الجزء من تركيا، وكان الشخص الأول الذي فتح مجالاً مهماً أمام تجارتنا في آسيا الصغرى».<sup>٢٨٧</sup>

لقد حصل ممثلو المصالح التجارية البريطانية والفرنسية دوماً على دعم سياسي كبير من لدن الدوائر الدبلوماسية التابعة لبلدانهم لدى قيامهم بنشاطاتهم التجارية في مختلف الأقاليم الشرق أوسطية، ومنها كردستان. مقابل هذا الدعم السياسي، زود ممثلو المصالح التجارية الدوائر الدبلوماسية تلك بمعلومات مفصلة عن الأوضاع السياسية والروابط الداخلية بين الجماعات الموجودة في

<sup>٢٨٥</sup>Dominique Chevallier, *Western Development and the Eastern Crisis in the Mid-Nineteenth Century: Syria Confronted with the European Economy, in Beginning of Modernisation in the Ottoman Empire: the 19<sup>th</sup> Century*, ed. William R. Polk & Richard C. Chambers, p.205-222.

<sup>٢٨٦</sup> استخدم البريطانيون رعايا عثمانيين من أصول مسيحية كوكلاء للقنصليات البريطانية. كان رسام أحد هؤلاء المسيحيين المحليين الذين منحهم السلطات البريطانية وظائف في المدن الواقعة تحت السيطرة التركية. لقد كانت الخطوة البريطانية تلك ذكية لأنها مكنت البريطانيين من الاتصال وبسهولة بالجماعات المسيحية المحلية في كردستان، خاصة الذين عاشوا في المناطق الجبلية المنيعه، مثل نساطرة منطقة هكاري.

<sup>٢٨٧</sup>Layard, *Discoveries in the Ruins of Nineve and Babylon*, p.8.

المناطق الجبلية المنيعه. لهذه الأسباب عدت السفارتان البريطانيتان في كل من استنبول و طهران أولئك الممثلين التجاريين وبقية التجار البريطانيين أدوات مهمة يمكن من خلالها مد النفوذ البريطاني السياسي إلى المناطق المنيعه غير الخاضعة إلى سيطرة الأتراك أو الإيرانيين. غالباً ما شاورت السفارة البريطانية التجار والرحالة والخبراء العسكريين البريطانيين في الجيوش التركية والقاجارية حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المناطق الكردية النائية. ففي منتصف العقد الرابع من القرن التاسع عشر، قام اللورد جون بونسونبي، السفير البريطاني في استنبول، باستشارة جيمس فريزر، الرحالة البريطاني، حول مختلف القضايا السياسية والتجارية التي تتعلق بالمناطق الكردية وغير الكردية.

وبسبب خبراتهم وخدماتهم غالباً ما عينت السلطات البريطانية العديد من ممثلي شركة الهند الشرقية والتجار البريطانيين موظفين دبلوماسيين لها في السفارة البريطانية في استنبول وطهران أو في الأقاليم، مثل ريتشارد وود وجي تايلور وأج لينج. كان تايلور من الدعاة الرئيسيين لإنشاء طريق الفرات إلى الهند الشهر. <sup>٢٨٨</sup> وكانت زوجته أرمنية الأصل. كما تزوجت إحدى بناته من الكابتن (أدميرال فيما بعد) اج لينج، الذي رافق فرانسيس جزني خلال بعثة الفرات الاستكشافية المعروفة. <sup>٢٨٩</sup> كان لينج يتحدث باللغتين العربية والفارسية، وكان له شقيقان يعملان في التجارة في مدينة بغداد. حاول شقيقا لينج، وبمشاركة تاجر بريطاني آخر، إقامة روابط تجارية مع بعض المناطق الكردية. <sup>٢٩٠</sup> أما جزني فكان مستكشفاً بريطانياً معروفاً، حيث عُد من أكثر المسؤولين البريطانيين تجوالاً في مناطق الشرق الأوسط. ففي عام ١٨٢٩، قام جزني بعملية مسح طريق لقناة تربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط. كما قام جزني بأربع عمليات استكشافية للطريق المؤدي إلى الهند من خلال البحر والسكك الحديدية عبر سوريا ونهر الفرات. لقد حوت كتب ومقالات ورسائل تلك الشخصيات المذكورة آنفاً العديد من المعلومات عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في

<sup>٢٨٨</sup>H. Hoskins, British Routes to India, (New York: 1928).

<sup>٢٨٩</sup>Layard, Autobiography and Letters from his Childhood, vo.1, p.328.

<sup>٢٩٠</sup> المصدر السابق، ص ٣٣٠.

المناطق الكردية.<sup>٢٩١</sup> ان القاسم المشترك بين هؤلاء البريطانيين كانت هي الطريقة غير الودية التي نظروا فيها إلى الكرد بشكل عام. ففي حين أكدوا معاناة الجماعات المسيحية المحلية، تجاهلوا تماماً معاناة الكرد على يد السلطات التركية والإيرانية.

لقد اهتمت القوى الأوروبية، خاصة بريطانيا وفرنسا، بالنشاطات التبشيرية لمختلف الإرساليات المسيحية الأوروبية والأمريكية، في محاولة منها لتعزيز نفوذها الاقتصادي والسياسي، ليس في المناطق الخاضعة للسلطة التركية والإيرانية فقط، وإنما في الإمارات الكردية المستقلة وشبه المستقلة. كانت تلك الإرساليات التبشيرية المسيحية في حاجة دائمة لدعم سياسي ودبلوماسي من لدن ممثلي القوى الأوروبية الكبيرة لحمايتها من سوء تصرفات الموظفين الرسميين وإعطائهم وزناً إضافياً لدى تنفيذ مهماتهم التبشيرية والتعليمية. فبالنسبة إلى الدوائر الدبلوماسية الأوروبية في استنبول وطهران، شكل وجود الإرساليات التبشيرية المسيحية إحدى القنوات الهامة التي يمكن من خلالها الحصول على مختلف المعلومات حول الأوضاع الداخلية في المناطق الكردية وما حولها. وكانت مسألة حماية نشاطات تلك الإرساليات حجة أيضاً يمكن ان تلتجى إليه الدوائر الدبلوماسية الأوروبية عندما تريد ان تتدخل في شؤون المناطق البعيدة عند الضرورة.

استناداً إلى البحث الذي قام به جوزيف غابريل، بدأ التعاون والتنسيق بين أعضاء الإرساليات التبشيرية الأمريكية والدبلوماسيين البريطانيين في الشرق الأوسط في العقد الثالث من القرن التاسع عشر. لقد استخدم الدبلوماسيون البريطانيون حاجة المبشرين الأمريكيين الماسة إلى دعم سياسي وحماية دبلوماسية في نشر النفوذ البريطاني حيث ما حل هؤلاء المبشرون.<sup>٢٩٢</sup> كل هذه الأمور فسرت دفاع ليارد الحماسي عن المبشرين الأمريكيين عندما اتهمهم رجال الإرسالية المسيحية الإنكليزية

<sup>٢٩١</sup> راجع مثلاً:

J.G. Taylor, *Travels in Kurdistan, with Notices of the Sources of the Eastern and Western Tigris and Ancient Ruins in their Neighbourhood*, The Journal of the Royal Geographical Society, vol.xxxvii, 1868, pp.281-361, H.F.B. Lynch, *Armenia: Travels and Studies*, (London: Longmans. 1901) and Francis Rawdon Chesney, *Russo-Turkish Campaigns of 1828-1829*, (London: 1858).

<sup>٢٩٢</sup> Joseph I. Gabrill, *Protestan Diplomacy and the Near East, Missionary Influence on American Policy, 1810-1927*, (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1971), p.15.



بالمسؤولية عن اندلاع المصادمات الدموية في منطقة هكاري بين النساطرة والكردي في بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر (التفاصيل في الفصل التالي).<sup>٢٩٣</sup> من جهة ثانية، اقلقت نشاطات الإرساليات المسيحية وتدخلاتها في المناطق الخارجة عن سيطرة استنبول السلطات التركية لخوفها من أن تعزز استقلالية تلك المناطق سياسياً. اما مخاوف الأمراء الكردي من تلك النشاطات التبشيرية فكان محدوداً جداً برغم انها كانت تتمركز في معاقلهم الجبلية.<sup>٢٩٤</sup> بالرغم من هذا، عد قادة الإرساليات المسيحية بشكل عام وجود الإمارات الكردية المستقلة عائقاً في تكثيف النشاطات التبشيرية. فقد تفاعل دكتور اساهيل غرانت، وهو من أول المبشرين المسيحيين الأمريكان الذين قدموا إلى كردستان، في كتابه The Nestorians or the Lost Tribes من نتائج غزو الجيوش التركية للمناطق الكردية:

سيرهن هذا على وجود منفعة عظيمة بالنسبة إلى نشاطاتنا بين النساطرة الجبلين (القاطنين في منطقة هكاري) لأنه ما دام ستكون هناك سيطرة تمارسها الحكومة التركية على الكردي إلى حد معقول، سيكون الدرب مفتوحاً (لنا) تماماً إلى النساطرة المسيحيين وما وراءهم، ولهذا السبب لا نستطيع إلا أن اعتبر التحولات الحاصلة هنا (أي تدمير الإمارات من قبل استنبول) مناسبة جداً بالنسبة إلى مستقبل توسيع نشاطاتنا في ذلك المجال الشيق.<sup>٢٩٥</sup>

<sup>٢٩٣</sup> وحسب ما ذكره القنصل الروسي في سوريا وفلسطين، كونستانتين م بازيللي، كان هناك تعاون أيضاً بين الضباط البريطانيين والمبشرين الأمريكان في لبنان في منتصف القرن التاسع عشر. دانتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ص ٢٠٤.

<sup>٢٩٤</sup> فبرغم كل الدعايات الارمنية في أوروبا وأمريكا التي كانت تصف الكردي بالتعصب الديني لم يقتل أي من اعضاء الإرساليات المسيحية الأمريكية والأوروبية خلال تواجدها الطويل في المناطق الكردية لأكثر من ٩٠ عام. على العكس من ذلك كانت علاقة الأمراء ومن بعدهم قادة الحركات القومية الكردية، وعلى رأسهم عبيد الله النهري، جيدة جداً بهم.

<sup>٢٩٥</sup> Asahel Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, (London: 1841), p.44.

## إمبراطورية روسيا القيصرية

خلال الاطوار الأولى من الحروب النابليونية، تحالفت روسيا في عهد القيصرة كاترين مع بريطانيا، وجر ذلك أيضاً إلى إقامة تحالف غير مألوف بينها وبين الإمبراطورية العثمانية، عدوتها التقليدية. نتيجة لتلك التحالفات، تعاون الأسطول الروسي مع نظيره البريطاني في فرض حصار على الساحل الهولندي استغرق نحو عامين (١٧٩٩-١٨٠١)، وكذلك سمحت السلطات العثمانية لأول مرة بمرور السفن الحربية الروسية من مضيقها. لكن اتفاقية تيليس (Tilis) للسلام المعقودة بين القيصر الروسي الجديد، الكسندر، ونابليون في عام ١٨٠٥ حول روسيا إلى عدو لكل من بريطانيا والإمبراطورية العثمانية، اللتين تعاونتا بحزم شديد على منع روسيا من تحقيق هدفها في فرض حالة تكافؤ بين القوى الكبرى في الشرق الأوسط، أو في حصولها على منفذ يؤدي إلى مياه البحر الأبيض المتوسط.

بالرغم من التعاون البريطاني- العثماني، استطاعت روسيا القيصرية، ومنذ بدايات القرن التاسع عشر، أن تلعب دوراً فعالاً في السياسات الدولية المتعلقة بشؤون الشرق الأوسط وذلك بسبب توسعاتها الإقليمية السريعة في المناطق القوقازية وتوسيع تجارتها مع جيرانها الجنوبيين، خاصة تركيا وإيران. ففي سلسلة من الحملات العسكرية الكبيرة، استطاعت روسيا إلحاق هزائم نكراء بإيران في أعوام ١٨٠٤-١٨١٢ و ١٨٢٦-١٨٢٨. وطبقاً إلى البنود المذلة لاتفاقية كلستان للسلام (١٨١٣) بين الحكومتين الروسية والقاجارية، خسرت إيران خانات كراباخ وشاكي وشيروان ودربند وكوبا وباكوتاليش، التي أصبحت جميعها جزءاً من الإمبراطورية الروسية. أما اتفاقية السلام التالية والمعروفة بتركمنجاي لعام ١٨٢٨، فلم تأخذ روسيا يريفان ونخجفان من إيران فقط، بل حصلت أيضاً على حق يسمح لسفنها الحربية وحدها في ان تتواجد في بحر الخزر (قزوين)، وكذلك احتكارها للتجارة مع إيران عبر ذلك الممر البحري.<sup>٢٩٦</sup>

من جهة أخرى، عززت الهزائم الثقيلة التي ألحقتها روسيا بجارتها الجنوبية الأخرى، الإمبراطورية العثمانية، في أعوام ١٨٠٦-١٨١٢ و ١٨٢٨-١٨٢٩ من سيطرتها

<sup>٢٩٦</sup>John C.K. Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, (Annapolis, Maryland: Naval Institute Press, 1991), p.54.

على المناطق القوقازية. ونتيجة لكل تلك الانتصارات الروسية الكبيرة وما صاحبها من تحولات اقليمية- سياسية تغيرت جغرافية كردستان السياسية لأول مرة منذ أوائل القرن السادس عشر، حيث أصبحت حزاماً جغرافياً استراتيجياً يفصل ثلاث إمبراطوريات الواحدة عن الأخرى، أي العثمانية والقاجارية إضافة إلى روسيا. لهذه الأسباب لم يكن من الصدفة ان تتركز تدريجياً انظار القوى الأوربية الكبرى، مثل بريطانيا وروسيا، إلى أوضاع المناطق الكردية، فضلاً عن ازدياد اهتمام القوتين الإقليميتين الأساسيتين، أي تركيا وإيران، بمستقبل تلك المناطق. كان البريطانيون مشغولين بشكل خاص بكيفية منع الروس من الحصول على منفذ يربط أقاليمهم الآسيوية بالبحر الأبيض المتوسط والخليج عبر المناطق الكردية.

كانت واحدة من أهم عواقب الاحتلال الروسي للمناطق القوقازية هو احتكاك الروس بشكل مباشر مع أولئك الكرد الذين كانت مناطقهم تطل على الحدود الجديدة الفاصلة بين روسيا وإيران وتركيا. ويرجع المؤرخ محمد أمين زكي تأريخ الاتصال الروسي الأول بالكرد إلى عامي ١٨٠٤-١٨٠٥.<sup>٢٩٧</sup> وشهدت الأعوام التالية، كما لاحظ كمال مظهر أحمد، تنامي الاهتمام الروسي بحياة الكرد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وجغرافية المناطق الكردية.<sup>٢٩٨</sup> قبل تلك الفترة، كانت للروس معلومات عن بلاد الشام ومصر أكثر بكثير من معلوماتهم عن كردستان التي كانت تعرف بـ«الأرض المجهولة».<sup>٢٩٩</sup> وكانت من نتائج حروب روسيا مع إيران القاجارية وتركيا العثمانية خاصة بين العقدين الثالث والخامس ظهور حاجة ملحة عند ضباط الأركان العامة الروسية لدراسة الوضع الجغرافي والاجتماعي والسياسي والديمقراطي لكردستان.<sup>٣٠٠</sup> كانت هنالك دوافع توسعية سياسية وعسكرية بشكل اساسي، إضافة إلى بعض الفضول الأكاديمي المعرفي، وراء هذا الاهتمام الروسي بالكرد وكردستان. فرجال الدولة الروسية والقادة العسكريون الروس الميدانيون اهتموا بالكرد بهدف

<sup>٢٩٧</sup> محمد أمين زكي، "تاريخ الكرد وكردستان، من أقدم العصور حتى الآن"، المجلد الاول، ترجمة محمد علي عوني، (بغداد: ١٩٦١)، ص ٢٥١.

<sup>٢٩٨</sup> Kamal Madhar Ahmad, Kurdistan during the First World War, Translated by Ali Maher Ibrahim, (London; Saqi Books, 1994).

<sup>٢٩٩</sup> دنتسيغ، الرحالة الروس في الشرق الاوسط، ص ٢٣٩.

<sup>٣٠٠</sup> المصدر السابق، ص ١٧٣-١٧٤.

كسبهم إلى جانب روسيا، أو في الأقل تحييدهم، في حروبها ضد إيران القاجارية وتركيا العثمانية. فقد تصور الأمير باسكفيتش، قائد القوات الروسية في قوقازيا، أن واحدة من متطلبات نجاح أي حملة روسية عسكرية استهدفت احتلال أناضوليا هو التوصل إلى تفاهم مع رؤساء الكرد المحليين.<sup>٣٠١</sup> لقد حقق الروس نجاحاً أولياً عندما حصلوا على دعم القوقازيين الكرد. في عام ١٨٢٩، تشكلت أول وحدة عسكرية كردية غير منظمة داخل الجيش الروسي، تألفت من ١٠٠٠ مقاتل.<sup>٣٠٢</sup> كما قدر كل من دبليو ألن وبول موراتف و ويليام مونتيه عدد كرد يريفان، خاصة من الايزديين، الذين انضموا إلى الجيش الروسي في حربه ضد الجيش التركي في عامي ١٨٢٨-١٨٢٩ بثلاثة آلاف فارس.<sup>٣٠٣</sup> كما تلقى الجيش الروسي مساعدة عسكرية ومؤناً من الكرد المحليين خلال تقدمه في مناطقهم.<sup>٣٠٤</sup> ويعتقد مونتيه بان عدد المقاتلين الكرد في الجيش الروسي فاق بكثير عدد المقاتلين الكرد في الجيش التركي.<sup>٣٠٥</sup>

من الطبيعي أن يقلق نجاح الروس في كسب دعم الكرد الموجودين في المناطق الحدودية الاستراتيجية السلطات التركية في استنبول. لهذا أصبح امراً ضروريا بالنسبة إلى الاتراك ان يعملوا على فرض سيطرتهم المحكمة والمباشرة على المناطق الكردية كلها عن طريق تدمير الإمارات المستقلة وشبه المستقلة فيها، كأجراء احترازي يمنع أي تعاون مستقبلي بينها وبين روسيا. رغم المخاوف التركية تلك، لا يتوفر دليل واضح يكشف عن وجود اتصالات روسية مع قادة الإمارات

---

<sup>٣٠١</sup>W.E.D. Allen and Paul Murattof, *Caucasian Battlefields: A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921*, (Cambridge: Cambridge University Press. 1953), p.32.

<sup>٣٠٢</sup> طبقاً إلى محمد امين زكي، كانت هناك وحدتين كرديتين ضمن الجيش الروسي خلال حرب الكريمين (١٨٥٦-١٨٥٣). محمد امين زكي، "تاريخ كرد وكردستان، من اقدم العصور حتى الآن"، المجلد الاول، ص٢٥١.

<sup>٣٠٣</sup>Allen and Murattof, *Caucasian Battlefields*, p.31 & William Monteith, *Kars and Erzeroum, with the Campaign of Prince Paskevitch in 1828 and 1829*, (London: 1856), p.231.

<sup>٣٠٤</sup>Allen and Paul Murattof, *Caucasian Battlefields*, pp.39-40 & Monteith, *Kars and Erzeroum*, pp.263-264.

<sup>٣٠٥</sup>Monteith, *Kars and Erzeroum*, p.264.

الكردية الرئيسية مثل بتليس وبوتان وسوران وبابان. ويمكن تعليل ذلك الامر بالتحول الحاصل في التوجه السياسي الروسي في الشرق الأوسط في بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر. فقد أقنعت تطورات سياسية وعسكرية متعددة صناع القرار السياسي في روسيا بضرورة الدفاع عن الوضع القائم في الشرق الأوسط، في الأقل، في المستقبل القريب. ولم يرغب حكام روسيا الأوتقراطية، كغيرهم من حكام الدول الأوروبية المحافظة، في اندلاع الثورات وانتشار الاتجاهات المعادية للوضع القائم في أوروبا أو في الإمبراطورية العثمانية في مرحلة ما بعد الحروب النابليونية. وتمسكت روسيا، ككل القوى المحافظة، بقدر الامكان بمبادئ ما يعرف بالتحالف المقدس، أي احتواء الحركات القومية والثورية دعماً للشرعية السياسية القائمة. فضلاً عن ذلك، لم تؤمن أي من القوى الأوروبية الكبيرة بان انهيار الإمبراطورية العثمانية سيؤدي إلى تقسيم أقاليمها بصورة متساوية بينها.

كانت روسيا اولى القوى الأوروبية التي عدت تنامي قوة مصر العسكرية والبحرية في عهد واليها الطموح محمد علي باشا تهديداً لها ولأوروبا.<sup>٢٠٦</sup> لهذا راقبت السلطات الروسية عن كثب مسار الصراع المصري- العثماني منذ بداياته، وكانت واحدة من إجراءاتها الأولية هي قطع كل روابطها التجارية مع مصر في تشرين الثاني عام ١٨٣١. الجدير بالملاحظة هو أنه منذ تلك الفترة فصاعداً كانت روسيا تواجه مشاكل جدية في الأقاليم القوقازية الملحقة حديثاً، خاصة أبخازيا وداغستان حيث انتفض سكانها الجبليون المسلمون ضد فرض أشكال الحكم الروسي المباشر وغير المباشر عليهم. لهذا خشيت السلطات الروسية من ان يقوم محمد علي باشا، بعد نجاحه من إسقاط الحكم العثماني، بتقديم الدعم إلى المتمردين المسلمين القوقازيين وكذلك تهديد أمن روسيا في البحر الاسود. كان الجنرال روزن، قائد قوقازيا العسكري، يعتقد بأن هدف محمد علي باشا هو «إعادة أمجاد المسلمين والانتقام من (اتفاقية) السلام المخزية التي وقع عليها السلطان (التركي) مع روسيا».<sup>٢٠٧</sup> ان من المنطقي إذن، في ظل تلك الظروف، ان تفضل روسيا وجود دولة تركية ضعيفة جار لها على وجود امبراطورية مصرية في قمة عنفوانها.

<sup>٢٠٦</sup>Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, p.186.

<sup>٢٠٧</sup> المصدر السابق، ص ٨٧.

لقد أصاب الروس القلق أيضاً بشأن مستقبل تجارتهم الجنوبية وازدهارها بعد الفتوحات الناجحة في قوقازيا وتعزيز وجودهم في سواحل البحر الأسود. فقد بدأ حجم التجارة الروسية ونوعيتها في البحر الأسود يتغيران بسرعة، حيث سيطرت عليه تدريجياً صادرات الحبوب. ففي المدة ما بين ١٨٢٦ و١٨٤٠، بلغت تجارة البحر الأسود ١٥,٣٪ من مجموع الصادرات الروسية. وفي عام ١٨٢٧، بلغ ما تم تصديره من الحبوب عبر البحر الأسود ما قيمته ٨٦٨,٣٩٧ روبل. لكن الحرب مع الإمبراطورية العثمانية في العام التالي الحققت ضرراً كبيراً بالصادرات الروسية تلك. وساعد استتباب السلام على استعادة التجارة الروسية لنشاطها، حيث ازدادت تجارة تصدير الحبوب الروسية لتصل إلى ١,١٥٦,٠٠٠ روبل في عام ١٨٣٠. بشكل عام، كانت التجارة الروسية مع تركيا وإيران وخانات آسيا الوسطى تزداد باستمرار. فبرغم وقوع حربين إقليميتين بين عامي ١٨٢٧ و١٨٢٩، ازدادت تجارة روسيا مع جيرانها الجنوبيين بنسبة ٢٥٪، أي من ١٥,٩٦٣,٠٠٠ إلى ٢١,١٥٦,٠٠٠ روبل في تلك المدة.

لقد تميزت علاقة روسيا القيصرية مع إيران القاجارية في انه تلا كل انتصار عسكري حققتها الأولى ضد الثانية الحصول على حقوق تجارية تفضيلية. بحلول عام ١٨٢٦، قُدر ازدياد حجم الصادرات الروسية إلى إيران عشرة اضعاف ما كان عليه في القرن الثامن عشر. بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كانت وصلت قيمة الصادرات الإيرانية إلى روسيا إلى ٥,٣٠٠,٠٠٠ روبل بينما استوردت إيران من روسيا ما قيمته ٩,٠٠٠,٠٠٠ روبل، أي ان ثلث الصادرات الإيرانية ذهبت إلى روسيا، بينما استحوذت روسيا على عشر ما استوردته إيران من بضائع.<sup>٣٠٨</sup>

لقد ترك إحياء التجارة الروسية وتوسيعها تأثيرات متزايدة على الحسابات السياسية الخارجية الروسية تجاه جيرانها الجنوبيين.<sup>٣٠٩</sup> بتعبير آخر، استفاد الروس تجارياً، في المستقبل القريب على اقل تقدير، من استتباب السلام في المناطق الواقعة إلى الجنوب من قوقازيا و البحر الأسود. فبينما كانت كل من بريطانيا وفرنسا غير راغبتين في التدخل في الصراع المصري- التركي حتى أوائل عام ١٨٣٣، لم تتردد روسيا في ان تعرض على عدوتها التقليدية، تركيا، مساعدة عسكرية وبحرية مباشرة

<sup>٣٠٨</sup>Foran, Fragile Resistance, p.111.

<sup>٣٠٩</sup> المصدر السابق، ص ٤١-٤٢.

بسبب قلقها على أمنها ومصالحها السياسية والتجارية. وفي أعقاب اتفاقية كوتاهيا للسلام الموقعة من قبل السلطان محمود الثاني ومحمد علي باشا في مارس عام ١٨٢٣ (التفاصيل في الصفحات القادمة)، وقعت الحكومتان التركية والروسية على اتفاقية هونكار أيسكلسي في ٨ تموز من العام نفسه. كانت الاتفاقية الروسية- التركية دفاعية في ظاهرها، لكن الغموض الذي أحاط ببندوها جعلتها تفسر من قبل بريطانيا وبقية القوى الأوروبية على أنها بمثابة فرض حماية روسية على الإمبراطورية العثمانية.

من جهة ثانية، كان من الطبيعي ان يعبر الأمراء الكرد إلى انتصارات روسيا على الدولتين القاجارية والعثمانية اهتماماً جدياً وكذلك تحدي مصر الناجح للسلطات التركية. فهذه التطورات اللافتة للنظر والحاصلة في الأقاليم المجاورة الواقعة إلى الشمال والغرب من المناطق الكردية، فضلاً عن وجود الممثلين السياسيين والتجارين للقوى الأوروبية في كردستان و في المناطق المجاورة، خلقت ردود فعل مختلفة في أوساط الأمراء الكرد. طبقاً إلى غرانت، شعر أمير هكاري، نور الله، بالخوف على بقاء كيانه المستقل بسبب توسع النفوذ الأوربي والتطورات الحاصلة في المناطق المجاورة. ولم يتردد الأمير نور الله، استناداً إلى غرانت، بالاتصال بالسلطات التركية وتقديم ولاء اسمي لها، أملاً في تعزيز سلطته.<sup>٣١٠</sup> ان من الصعب معرفة إن كان أمير هكاري قد توصل مع السلطات التركية إلى أي اتفاق محدد بهذا الصدد.

فسر بعض الأمراء الآخرين مجيء الجيوش الروسية والمصرية إلى أطراف كردستان الشمالية والغربية بصورة مغايرة تماماً عن تصور الأمير نور الله، لأنها عرت أمامهم ضعف القدرات العسكرية لتركيا وإيران وحطت من هيبة السلطان العثماني والشاه القاجاري معاً. فقد رحب الأمير بدرخان، على أثر الانتصارات الروسية، بقدوم أي جيش أوربي إلى المناطق الكردية، أملاً في إنهاء التدخلات التركية في شؤونها. ويذكر فريزر وريج وأوربيون آخرون كيف كان الامراء الكرد متلهفين لمعرفة القدرات العسكرية لروسيا وبريطانيا، وكيف كان هؤلاء الأمراء يتابعون عن كثب اخر الأخبار المتعلقة بالمواجهات العسكرية بين تركيا وروسيا أو بين تركيا ومصر.

لقد مكن الوجود المتزايد لموظفي القوى الأوروبية السياسيين ولممثلي المصالح التجارية الأوروبية، وكذلك لرجال الإرساليات المسيحية التبشيرية في

<sup>٣١٠</sup> Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, pp.104-105.

المناطق غير التركية منذ العقود الأولى من القرن التاسع عشر النخب السياسية الكردية على إقامة اتصال مع العالم الخارجي، حيث اكتشفوا بأن الدولتين التركية والقاجارية لم تعودا قوى كبرى. و شكل تحدي مصر حكم السلطان العثماني مثلاً واضحاً يمكن للأقوام غير التركية ان تحتذي بها من اجل التخلص من النفوذ التركي. ولم يغفل المستكشفون، مثل جيمس فريزر وهنري ليارد وميغان، ولا رجال الإرساليات التبشيرية، مثل إلي سميث وإج دوایت،<sup>٣١١</sup> في ملاحظاتهم عن أن أغلبية الكرد، سواء أكانوا فلاحين أو رجالاً أحراراً، قبليين أو غير قبليين، رحلاً أو مستوطنين، سكان مدن أو قرى، تمنوا هزيمة الجيوش التركية والإيرانية على يد القوى الأوربية، أملاً في مجيء شروط اجتماعية واقتصادية أفضل.

### محمد علي باشا، والي مصر (١٨٠٥-١٨٤٨)

شكل اندلاع الانتفاضات في الأقاليم العثمانية غير التركية واحدة من أهم التطورات الإقليمية التي أثرت بشكل مباشر في الوضع السياسي في كردستان من خلال بروز قوة الإماراتين السورانية والبوتانية. ففي منطقة البلقان، نجحت صربيا في تحقيق حكم ذاتي محدود، بينما حصلت اليونان على استقلالها من الحكم العثماني في عام ١٨٢٨. في الشرق الأوسط، اتخذ التدهور التدريجي لقوة الإمبراطورية العثمانية بعداً آخرًا في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر عندما أعلن محمد علي باشا استقلاله عن استنبول وحاول إقامة مملكة خاصة به عن طريق احتلال الجزء الآسيوي من الشرق الأوسط، خاصة الجزيرة العربية وبلاد الشام. لقد تولى محمد علي باشا، وهو مملوك لبناني الأصل، الحكم في مصر في عام ١٨٠٥، حيث تميز بطموحاته السياسية الكبيرة التي قادته إلى التخلص من خصومه المماليك في حادثة مجزرة القلعة. ولتحقيق حلمه في إقامة مملكة كبيرة قوية، سارع محمد علي إلى بناء وتحديث الجيش المصري عن طريق استيراد الأسلحة والتكنولوجيا العسكرية وجلب الخبراء الأجانب.

وفي الوقت الذي نمت فيه قدرة مصر العسكرية والبحرية، وجدت السلطات العثمانية نفسها عاجزة عن القضاء على الانتفاضات المندلعة في أقاليمها غير التركية.

<sup>٣١١</sup> Eli Smith and H.G.O. Dwight, *Missionary Researches in Armenia*, (London: George Wightman, Paternostee Rou, 1834), p.287.



لهذا السبب اعتمد السلطان محمود الثاني على جيش محمد علي وأسطوله الحربي في قمع المتمردين في الجزيرة العربية واليونان. وعزز النجاح النسبي الذي حققته حملات مصر العسكرية ضد الحركة الوهابية في الجزيرة العربية والانفصاليين اليونانيين من هيبة ونفوذ محمد علي ووسعت، في الوقت نفسه، من طموحاته السياسية. ولكي تصبح مصر قوة اقليمية مؤثرة، ادرك محمد علي باشا مبكراً أنه ينبغي زيادة نفقات مصر العسكرية، التي استوجبت منه فرض ضرائب كبيرة على رعاياه، خاصة الفلاحين، وتسخير الكثير من موارد الدولة المالية لها. ففي عام ١٨٣٠، خصص محمد علي باشا ١٤٪ من دخل مصر لتحديث الأسطول المصري وحده.<sup>٣١٢</sup> بحلول أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر، كانت قوة مصر البحرية مساوية إلى تلك التي كانت للإمبراطورية العثمانية، بينما كان الجيش المصري أكثر حداثة من نظيره العثماني.

بدأ محمد علي تحديه للسلطان العثماني في تشرين الأول عام ١٨٣١، عندما قاد ولده الأكبر، إبراهيم باشا، حملة عسكرية مصرية مؤلفة من ٢٦,٠٠٠ مقاتل، التي تركت القاهرة متوجهة إلى بلاد الشام للسيطرة عليها. في الشهر التالي، احتل الأسطول المصري عكا، وفتح بذلك الطريق نحو آسيا الصغرى. في تموز عام ١٨٣٢، ألحقت قوات إبراهيم باشا الهزيمة بالجيش التركي في حمص وفي بلن. ففي حمص، تكبد الأتراك نحو ٢,٥٠٠ قتيلًا وجريحًا، إضافة إلى أسر ١,٥٠٠ جندي تركي من قبل القوات المصرية. كما خسر الجيش التركي ٣٩ مدفعاً والكثير من العتاد والتجهيزات الأخرى.<sup>٣١٣</sup> فبينما استولى الأسطول المصري على ٦ سفن تركية، ألحقت القوات المصرية هزيمة ثقيلة جديدة بالجيش التركي بقيادة رشيد باشا في منطقة قونيا في شهر كانون الأول من العام ذاته. هذه المعركة، التي خسر فيها الأتراك ٣,٠٠٠ رجل، فتحت الباب على مصراعيه للقوات المصرية كي تزحف نحو مضيق الدردنيل عبر اقاليم آسيا الصغرى الغربية. كل هذه التطورات العسكرية، التي عرت ضعف الجيوش التركية وعدم شعبية الحكم التركي بين سكان الأقاليم المفتوحة من قبل القوات المصرية والأقاليم غير المفتوحة، كانت تشير بقوة إلى امكانية سقوط الإمبراطورية

<sup>٣١٢</sup>Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, p.58.

<sup>٣١٣</sup> المصدر السابق، ص ٧٥.

العثمانية وحدث تغيير كبير في خريطة الشرق الأوسط السياسية، يؤثر مباشرة في مستقبل الأقاليم الكردية والعربية.

اضطر السلطان محمود الثاني، بسبب عجز الجيوش التركية في إيقاف تقدم القوات المصرية، إلى طلب مساعدة عسكرية من بريطانيا. لكن الحكومة البريطانية لم تبد رغبة في التدخل في الحرب التركية- المصرية، لأنها كانت تعد روسيا حينذاك، وليس مصر، الخطر الرئيسي ضد مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية. لكن، وعلى أثر قبول روسيا للطلب التركي في مساعدات عسكرية عاجلة، غيرت بريطانيا من موقفها ذلك، وسارعت بإرسال أسطولها الملكي لحماية تركيا. لقد أجبرت تدخلات القوى الأوربية السياسية والعسكرية، في نهاية الامر، مصر على توقيع اتفاقية كوتاهيا للسلام مع تركيا في ٦ مارس عام ١٨٣٣، التي أقرت بسيطرة محمد علي باشا على بلاد الشام واضنه.

لقد كشف حصول اليونان على استقلالها السياسي والانتصارات الساحقة للجيش المصري ضد نظيره التركي، التي أكدت استقلال مصر السياسي وهيمنتها على الأقاليم الشرق أوسطية، امام أنظار الأمراء الكرد وهن الدولة العثمانية وعجزها عن احتواء طموحات الأقاليم غير التركية. لهذا شجعت تلك التطورات، التي بدت كما لو كانت مؤشراً لاقترب الإمبراطورية العثمانية من رمقها الأخير، الأمراء الكرد على استغلال هذه الفرصة الفريدة من خلال شن حملات سياسية- عسكرية تستهدف توحيد الامارات وتأكيد استقلالها السياسي.

**ظهور واختفاء حركة محمد باشا، أمير سوران:**

**الأهداف والمنجزات**

**ظهور قوة سوران: ١٨٢١-١٨٣٦**

لقد حققت إمارة بابان، جزئياً، توسعاتها الإقليمية وعززت من قوتها وهيبتها على حساب إمارة سوران التي تحدها من الشمال الغربي. قبل ان يتولى محمد باشا

السلطة في ١٨١٤،<sup>٣١٤</sup> كانت سوران قد أصبحت إمارة صغيرة وضعيفة جداً، تتألف من مجموعة قرى تحيط بعاصمتها السياسية، مدينة راوندوز، الواقعة في منطقة جبلية وعرة. كانت راوندوز تحتوي على قلعة حيث اعتاد أمراؤها على الإقامة فيها. واستمرت قوة سوران العسكرية والسياسية في التدهور حتى منتصف العقد الثاني من القرن التاسع عشر، أي عندما تولى محمد باشا أمور الإمارة خلفاً لأبيه المريض. كان عمر محمد باشا حينئذ ٢٦ عاماً، ووصف بأنه رجل جميل الطلعة، أشقر، غطت وجهه آثار الجدري، وفقدت إحدى عينيه البصر.<sup>٣١٥</sup>

بينما كان وزراء بغداد من المماليك يسخرون طاقتهم في تدمير قوة بابان السياسية والعسكرية، بدأ الأمير محمد بسلسلة من الخطوات السرية المفاجئة استهدفت إقامة دولة مستقلة،<sup>٣١٦</sup> عن طريق توسيع إمارته إقليمياً على حساب المناطق الكردية المجاورة وكذلك تعزيز استقلالها السياسي. كرس الأمير محمد جهوده في استغلال الفراغ السياسي والأمني الكبير الذي خلفه تدهور قوة بابان السريعة في الشرق وإمارة بادينان في الغرب، وكذلك عدم قدرة حكام المماليك على توطيد سيطرتهم في المناطق الكردية الجنوبية، مثل أربيل والتون كوبري وكركوك. ناهيك عن وقوعها في منطقة جبلية وعرة، تمتعت سوران بموقع جيوسياسي ملائم، بعيدة عن الحزام الحدودي المضطرب دوماً بين الإمبراطوريتين العثمانية والقاجارية. هذا يعني انه كان هناك احتمال ضعيف ان تتعرض إمارة سوران إلى ضغط قوتين كبيرتين خارجيتين في ان واحد، كما كان الحال مع إمارة بابان إلى الشرق منها. فضلاً عن هذا، لم تكن أراضي سوران، على العكس من غريمته بابان، مسرحاً رئيسياً

<sup>٣١٤</sup> يعتقد لونكريك خطأ بان محمد باشا تولى السلطة في عام ١٨٢٦، عقب وفاة والده (راجع لونكريك، "أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث"، ص ٢٨٥. فبحلول ذلك العام كان محمد باشا قد فرض سيطرته على عدة مناطق كردية، كآربيل، التي الحقها بإمارته. كما ان والده كان حيا يرزق، لان الطبيب البريطاني جون روس، الذي كان يعمل مع شركة الهند الشرقية في بغداد، قد زاره في عام ١٨٣٣ من اجل معالجة عينية بناءً على طلب ابنه الأمير محمد باشا (التفاصيل في الصفحات التالية).

<sup>٣١٥</sup> لهذا سمي الأمير محمد بالبasha الأعور.

Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, (London: 1840), p.70.

<sup>٣١٦</sup> ان أي خالفين، "الصراع على كردستان: المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر"، ترجمة أحمد عثمان أبو بكر، (بغداد: ١٩٦٩)، ص ٥٠.

للحروب التركية- الإيرانية، ولم تعان سوران كثيراً من تدخلات عسكرية وسياسية مستمرة في شؤونها. فطوال عهدهم الممتد من عام ١٧٤٩ إلى عام (١٨٣١)، نادراً ما قام المماليك بغزو إمارة سوران أو تدخلوا في شؤونها الداخلية.

في خضم سيادة الفوضى وغياب الأمن، التي كانت تؤثر سلباً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان المناطق الكردية المستقلة و شبه المستقلة، بدأ الأمير محمد باشا بسلسلة من الحملات العسكرية المفاجئة استهدفت احتلال المناطق الكردية المحيطة بإمارته، مثل سورجي وشيروان وبرادوست. ومن مبادرات الأمير محمد الأولى في عام ١٨٢١ كان اتصاله بالرؤساء المحليين في أربيل وكويسنجق وغيرها بهدف كسبهم إلى حركته. طبقاً إلى مورتيز واغنز، أحد الرحالة البريطانيين، كان نور الله، أمير هكاري، واحداً من تلك الشخصيات التي دعمت حركة الأمير محمد.<sup>٣١٧</sup> ان ما يعزز صحة ما قاله واغنز هو عدم مهاجمة الأمير محمد طوال عهده (١٨١٣-١٨٣٦) إمارة هكاري، الواقعة إلى الشمال من الأقاليم الخاضعة إلى سلطته. كانت حرير اولى المناطق البابانية التي استولى عليها الأمير محمد في عام ١٨٢٢.<sup>٣١٨</sup> بعد استيلائه على منطقة خوشناوتي، استمر جيش إمارة سوران بالزحف جنوباً حتى دخل مدينة أربيل دون قتال، واستولى على المناطق القريبة والمحيطة بها. استمر جيش سوران في زحفه جنوباً حتى احتل مدينة التون كوبري،<sup>٣١٩</sup> ومدينة كركوك ومن ثم توزخورماتو.<sup>٣٢٠</sup> كانت هذه المدن الكردية الثلاث، فضلاً عن أربيل، خاضعة إلى السيطرة الأجنبية، خاصة التركية، في معظم مراحلها التاريخية بعد القرن السادس عشر، حيث شكلت جزءاً حيوياً من الحزام الاستراتيجي العسكري والتجاري الذي أحاط بالامارات الكردية من جهة الجنوب وجهة الغرب.

في عام ١٨٢٧، غير جيش سوران وجهة فتوحاته الإقليمية من جهة الجنوب إلى جهة الشرق، فاستولى على مقاطعتي رانيه وكويسنجق العائدة إلى إمارة بابان.

<sup>٣١٧</sup>Mortiz Wagner, Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, vol.3, (London: Hurst & Blackett, 1856), pp.160-261.

<sup>٣١٨</sup> حسين حزني موكرياني، "امراء سوران"، ترجمة محمد ملا عبد الكريم، (١٩٦٧)، ص٤٦.

<sup>٣١٩</sup> في تلك الفترة كان عدد سكان التون كوبري حوالي ٨٠٠٠ فرداً.

<sup>٣٢٠</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, vol.1, p.251.

وعلى ما يبدو، لم يبدِ أمراء بابان أية مقاومة أو يبادروا إلى استعادة تلك المقاطعتين لشدة ضعف إمارتهم من الناحية العسكرية. كما منح اندلاع الحرب بين روسيا القيصرية وإيران القاجارية فرصة للأمير محمد كي يفرض سيطرته على مقاطعات كردية أخرى كانت تابعة للدولة القاجارية، مثل مقاطعة سيتو (أو سلدون) وقلعتها ومقاطعة سردشت.<sup>٣٢١</sup> وامتدت سيطرة محمد المباشرة حتى أطراف مدينة أشنوية إلى الجنوب الشرقي من بحيرة أورمية.<sup>٣٢٢</sup> هذا وقد حصل تغيير آخر في وجهة الحملات العسكرية التوسعية التي قادها الأمير محمد. ففي عام ١٨٣١، توغلت قوات سوران عميقاً في المقاطعات التابعة إلى إمارة بادينان، مثل شيخان وقوش، حتى استولت على عاصمتها السياسية، أي العمادية. لقد أقام الأمير محمد تحالفات مع بعض قادة القبائل، مثل رئيس قبيلة المزوري القوية، قبل أن يغزو بادينان، التي كانت تعاني في حينه من ضعف شديد بسبب انقسامها إلى كيانات شبه منفصلة، تدار من قبل أبناء السلالة الحاكمة نفسها.<sup>٣٢٣</sup> في بداية الأمر لم يعزل محمد باشا أمير بادينان، محمد سعيد باشا، من الحكم الذي قدم ولاءه السياسي لسوران.<sup>٣٢٤</sup> في وقت لاحق، وبسبب ضعف محمد سعيد باشا، اضطر أمير سوران إلى تعيين شقيقه رسول بدلاً عنه حاكماً للعمادية. في أثناء ذلك، أي ما بين عامي ١٨٣٢ و١٨٣٣، استولى جيش سوران على مدينة عقرة وقلعتها، حيث هرب حاكمها إسماعيل، شقيق أمير بادينان.<sup>٣٢٥</sup> وتبع إخضاع عقرة، سقوط دهوك وزاخو بيد جيش سوران.<sup>٣٢٦</sup> بهذا النحو فرض الأمير محمد سيطرته على كل مدن ومقاطعات إمارة بادينان.<sup>٣٢٧</sup>

<sup>٣٢١</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, vol.1, p.251 & Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, pp.111-112.

<sup>٣٢٢</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.64.

<sup>٣٢٣</sup> المصدر السابق، ص ٦٨.

<sup>٣٢٤</sup> موكرياني، "أمراء سوران"، ص ٥٣.

<sup>٣٢٥</sup> المصدر السابق، ص ٥٥.

<sup>٣٢٦</sup> لونكريك، "أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث"، ص ١٨٥-١٨٦.

<sup>٣٢٧</sup> تبين هذه التفاصيل حول توسع إمارة سوران الإقليمي الواسع بان تحدي الأمير محمد للدولة التركية جاء قبل اندلاع الصراع المصري- التركي بعدة سنوات، وهذا يخالف ما يقوله نيكيتين في كتابه "الكرد، دراسة سوسولوجية وتاريخية" ص ٣٠٢.

ان واحدة من المسائل المثيرة للجدل هي معاملة الأمير محمد للايزديين المتمركزين في مقاطعتي شيخان وسنجان الكرديتين. فطبقاً إلى ادعاءات صديق الديمولوجي، الذي لا يذكر المصادر التي اعتمد عليها في كتاباته،<sup>٣٢٨</sup> دفع التعصب الديني الأمير محمد إلى قتل أهالي شيخان من الايزديين، باستثناء ٥٪ منهم، الذين نجوا من المجزرة.<sup>٣٢٩</sup> وفي كتابه "أمراء سوران" يقول حسين موكرياني ان الأمير محمد هاجم مقاطعة سنجان حيث قتل العديد من سكانها الايزديين. وهناك ادعاءات أخرى من قبل بعض الباحثين حول قيام الأمير محمد بقتل المسيحيين بسبب تعصبه الديني.<sup>٣٣٠</sup> يقول يوسف بابانا في كتابه "القوش عبر التاريخ"، ان جيش سوران نفذ مجزرة ضد سكان قوش من المسيحيين التي شملت حتى الرهبان.<sup>٣٣١</sup>

ان الامر اللافت للنظر هو عدم لجوء الباحثين المذكورين آنفاً إلى ما كتبه معاصرو تلك المرحلة. فلا يتطرق أي منهم إلى شهادة عدد من الرحالة والمبشرين الدينيين والمسؤولين الأجانب، الذين عاصروا عهد الأمير محمد. فلا يذكر الطبيب جون روس في ملاحظاته الشخصية ولا جيمس فريزر في كتب رحلاته أيّاً من تلك الأفعال الوحشية المزعومة، وحتى أولئك المعاصرون الأجانب الذين اتخذوا موقفاً غير ودي وحتى عدائي من حركة الأمير محمد من أمثال الدكتور غرانت وجستين بركينز، فضلاً عن سي أي رسام (كان رسام مسيحياً كلداني الأصل وشاهد عيان)<sup>٣٣٢</sup> لم يذكروا، ولو بإشارة بسيطة، مجازر جيش سوران المزعومة ضد الايزديين أو أهالي القوش المسيحيين. فإذا كان العامل الديني هو الذي دفع الأمير محمد على قتل

<sup>٣٢٨</sup> صديق الديمولوجي، "إمارة بهدينان أو إمارة العمادية"، (الموصل: ١٩٥٢)، و"اليزيدية"، (الموصل: ١٩٤٩). للأسف الشديد اعتمدت الكثير من الدراسات التاريخية على ما احتواه هذان الكتابان من معلومات، التي تعييبها الأمانة والموضوعية الأكاديمية.

<sup>٣٢٩</sup> الديمولوجي، "إمارة بهدينان أو إمارة العمادية"، ص ٤٥، و"اليزيدية"، ص ٤٦٢-٤٦٤.

<sup>٣٣٠</sup> إضافة إلى الديمولوجي، انظر سليمان صائغ، "تاريخ الموصل"، (مصر: ١٩٢٣).

<sup>٣٣١</sup> يوسف بابانا، "القوش عبر التاريخ"، (بغداد: ١٩٧٩)، ص ٩٤.

<sup>٣٣٢</sup> أما ريتشارد وود، الذي جاء إلى المناطق الكردية بعد حوالي ٤ أعوام، فهو الوحيد الذي ادعى قتل الأمير محمد لإيزديي مقاطعة سنجان، في حين لا تشير كل الدلائل المتوفرة إلى عبور جيش سوران نهر دجلة لمهاجمة تلك المقاطعة. فضلاً عن هذا، كان من الصعب جداً على جيش سوران ان يهاجم سنجان دون احتلال مدينة الموصل.

الايديين، فلماذا لم يقم الأمير إذن بقتل رئيسهم الذي وقع أسيراً بيده، أو ان يدمر قبر الشيخ عدي المقدس عند الايزديين في لالش الذي وقع تحت سيطرته؟

هنالك جملة حسابات سياسية وعسكرية هي التي دفعت الأمير محمد إلى احتلال مقاطعة شيخان منها أولاً، وقوف الشيخانيين ضد سوران من خلال تحالفهم مع أمير بادينان وقتلهم لأحد زعماء المزوريين، حليف أمير سوران. ثانياً لم يكن بإمكان جيش سوران الاستيلاء على عمادية ودهوك وزاخو دون احتلال شيخان، لانه سيكون في مقدرة الايزديين مهاجمة جيش سوران من الخلف، إذا ما حاول الأخير الزحف على عمادية ودهوك وزاخو. أما بخصوص مسيحيي القوش فكل ما يذكره القس الأمريكي بريكنس حول احتلال جيش سوران لها هو ان رهباناً كلدانيين فيها حاولوا تحريض الأمير محمد ضد زعيم النساطرة مار الياس من اجل إجباره على اعتناق الكاثوليكية.<sup>٣٣٣</sup> بعبارة أخرى، لم تكن هناك مجازر ضد المسيحيين في القوش سواء أكانوا كلدانيين أو نساطرة. فضلاً عن هذا، لم يكن رجال الدين الكلدان ضحية لسياسة الأمير محمد، بل على العكس تماماً فهم أرادوا تحريض الأمير الكردي ضد خصومهم من رجال الدين النساطرة.

بعد إتمام عملية الاستيلاء على إمارة بادينان، زحف جيش سوران شمالاً نحو إمارة بوتان، حيث سقطت بأيديه عاصمتها جزيرة، التي انسحب منها أميرها بدرخان برفقة قواته إلى قلعة حسنكيف.<sup>٣٣٤</sup> بعد احتلال جزيرة، زحف جيش سوران غرباً حتى وصل إلى مدينة ماردين الكردية. هكذا، وخلال مدة امتدت نحو ٢٠ عام، استطاع الأمير محمد باشا وعن طريق استخدام القوة بشكل أساسي من فرض سيطرته على مناطق كردية شاسعة، امتدت من ماردين ونهر دجلة في الغرب إلى أشنوية في الشرق ومن جزيرة في الشمال إلى توزخورماتو في الجنوب (انظر خريطة رقم ٤). لقد وصلت قدرة سوران العسكرية إلى درجة كبيرة لم يتجرأ حكام الموصل أو بغداد على التحرش بها عدة أعوام.

<sup>٣٣٣</sup>Perkins, A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, pp.199-200.

<sup>٣٣٤</sup>موكرياني، "امراء سوران"، ص ٥٦-٥٧.

لا توجد اية معلومات عن روابط الأمير محمد الخارجية سوى ما قاله ريتشارد وود عن مهمته في التوسط بين إمارة سوران والحكومة التركية (التفاصيل في القسم التالي). لكن المؤرخ محمد أمين زكي يقول أن الأمير محمد قام باتصالات مع إبراهيم باشا، قائد الحملة المصرية في سوريا، وأن قبيلة ملي القوية وزعيمها تيمايو بك ساعد الجيش المصري في الحرب ضد الأتراك.<sup>٣٣٥</sup> المصادر المتوفرة لا تشير إلى وجود أي اتصال بين الأمير محمد وإبراهيم باشا. لكن إذا أخذ بنظر الاعتبار عداة الطرفين للحكم التركي فإنه ليس من المستبعد أن يقوم أي منهما بالاتصال بالآخر. وكل ما يمكن تأكيده، على ضوء ما قاله ليارد وساوثغيت، هو ترحيب الكرد عموماً بقدم الجيش المصري وإظهار كراهيته للجانب التركي.

أن الذي يمكن ملاحظته من سير توسعات إمارة سوران الإقليمية، هو لجوء الأمير محمد إلى القوة العسكرية وسيلة رئيسة لتحقيق طموحاته السياسية وتوطيد سيطرته على المناطق المفتوحة. لهذا من الضروري إلقاء بعض الضوء على تنامي قوة إمارة سوران العسكرية خلال عهد الأمير محمد ما بين عامي ١٨١٣ و ١٨٣٦. أن الجانب اللافت للنظر في هذا الخصوص هو أن جيش سوران تمتع باكتفاء ذاتي من حيث الأسلحة والعتاد التي استخدمها في حروبه. فمنذ ١٨١٥، أنشأ الأمير محمد مصنعاً ينتج السيوف والبنادق والمدافع.<sup>٣٣٦</sup> ويستشهد فريزر بما قاله الطبيب جون روس في ملاحظاته بأن منتسبي قوات سوران «لم يعتمدوا على أي بلد، إلا على بلدهم، في تلبية ما يحتاجون إليه. فكل شيء يحتاجونه يصنع لديهم». وقد جهز أفراد المشاة في جيش سوران بالبنادق والخناجر، بينما زود الفرسان بالرمح.<sup>٣٣٧</sup>

في البدايات الأولى من توسع سوران الإقليمي، اعتمد الأمير محمد على مقاتلي السورجية وخوشناوتي وزراري،<sup>٣٣٨</sup> ومن ثم جند أفراد القبائل الكردية

<sup>٣٣٥</sup> زكي، "تاريخ الكرد وكردستان"، ص ٢٢٨-٢٣٠.

في الحقيقة لا توجد مصادر أخرى تؤكد ما قاله زكي بذلك الصدد.

<sup>٣٣٦</sup> موكرياني، "امراء سوران"، ص ٢٤.

<sup>٣٣٧</sup> Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.74.

<sup>٣٣٨</sup> موكرياني، "امراء سوران"، ص ٤٧-٤٨.



الأخرى، منهم الشكاك والارتوشي.<sup>٣٣٩</sup> في نهاية الامر، وسع الأمير محمد من الشرائح الاجتماعية التي جند منها قواته لتشمل الكرد القبليين وغير القبليين، مثل الفلاحين. كما انضمت إلى جيش سوران قوة عربية كبيرة مؤلفة من الطائيين، وهم قبيلة شبه مستقرة وجدت على حافات المناطق الكردية الجنوبية.<sup>٣٤٠</sup> الجدير بالذكر، ان فرسان بوسلمان العرب والموالية إلى الأمير محمد هم الذين رافقوا الطبيب روس طوال مدة زيارته لكردستان الجنوبية.<sup>٣٤١</sup> لكن الأمير محمد لم يدع الطبيب روس إلى زيارة راوندوز،<sup>٣٤٢</sup> عاصمة سوران، نظراً لمخاوف الأول من حصول أعدائه الأتراك على معلومات مهمة عن مواقع قواته والطرق الاستراتيجية التي تمر من معاقله الجبلية.

لقد حول الأمير محمد نصف قواته إلى جيش شبه نظامي، الذي قدره فريزر بـ ٢٥,٠٠٠ رجل، كانت تدفع لهم الرواتب لقاء اداء الخدمة بشكل مستمر.<sup>٣٤٣</sup> أما الخطوة البارزة الأخرى التي اتخذها الأمير محمد فكانت هي انخراط أبناء طبقة الفلاحين في جيش سوران. لهذا كان محمد أول أمير كردي يقدر قيمة الفلاحين العسكرية، وبالتالي يعد هذا اعترافاً ضمناً بقيمتهم الاجتماعية. ان انخراط الفلاحين في جيش سوران وضع حداً لتقاليد اجتماعية أرستقراطية قديمة كانت تعتبر الفلاح عنصرًا عديم الفائدة من وجهة النظر العسكرية. ومنذ عهد الأمير محمد هذا، بدء الفلاحون يلعبون دوراً ملحوظاً في الحركات والانتفاضات الكردية المعادية للحكم التركي والإيراني، مثل حركة الأمير بدرخان وانتفاضة يزدان شير والعصبة الكردية التي قادها الشيخ عبيد الله النهري.

عندما حل موسم الحصاد، كما لاحظ الطبيب روس خلال زيارته، كان الأمير محمد يرسل نصف قواته من الفلاحين إلى أراضيهم، الذين قدر عددهم بـ ٢٥,٠٠٠ رجل.<sup>٣٤٤</sup> كان من عادة الأمير محمد تناول الطعام مع ١٠٠ إلى ٢٠٠ مقاتل كل ليلة، وكان يدعوهم من القبائل كافة إلى مقره وبشكل متسلسل. كما نظم الأمير محمد توزيع

<sup>٣٣٩</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.52.

<sup>٣٤٠</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.74.

<sup>٣٤١</sup> المصدر السابق، ص ١٠٠.

<sup>٣٤٢</sup> المصدر السابق، ص ٧٠.

<sup>٣٤٣</sup> المصدر السابق، ص ٦٤.

<sup>٣٤٤</sup> المصدر السابق، ص ٧٨.

الاماكن التي كانت تعسكر فيها القبائل مع قادتها حول مقره الرئيسي. فمن خلال إجراء تلك البروتوكولات الاجتماعية، ظل الأمير على اتصال مباشر بحلفائه من قادة القبائل وبسائر المقاتلين. تتناقض تماماً شهادة الطبيب روس تلك حول الطريقة التي عامل فيها الأمير افراد قواته، والمبينة على ملاحظاته الشخصية المباشرة، مع ادعاءات ريتشارد وود، الذي كان يرافق القوات التركية في سوريا وفي غزوها لكردستان الجنوبية في عام ١٨٣٦. فالخير يدعي، ولربما نتيجة وقوعه تحت تأثير الدعايات التركية المناوئة لسوران، بأن سبب انتصارات الأمير محمد العسكرية وقدرته على بناء جيش كردي كبير هو قسوته الشديدة. بعبارة أخرى، اجبر الأمير محمد، طبقاً إلى ريتشارد وود، جنوده على القتال من خلال احتجاز أهاليهم رهائن لديه.<sup>٣٤٥</sup>

### السمات الرئيسية

#### لحكومة سوران في عهد الأمير محمد

لقد استغرقت عملية إقامة دولة كردية كبيرة اثنتي عشرة سنة تقريبا (١٨٢١-١٨٣٣)، والتي امتدت من نهر دجلة في الغرب إلى أشنوية في الشرق.<sup>٣٤٦</sup> في ذلك الوقت وخاصة في الأعوام الثلاثة التي تلتها، تحسنت وبشكل ملحوظ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المدن والقرى الكردية التي خضعت لحكم الأمير محمد. تشير الدلائل المتوفرة إلى ان الأمير بذل مساعي حثيثة منذ بداية عهده بالسلطة في تحسين مختلف اوجه الحياة في المناطق الكردية. فعندما كانت سوران إمارة صغيرة في عام ١٨١٦، قام الأمير محمد حينها ببناء ٩ جسور على نهر راوندوز، وتشبيد عدد من المساجد الجديدة، فضلاً عن ترميمه الجسور والمساجد القديمة.

كان استتباب الأمن والقانون في ارجاء المناطق الكردية من أهم منجزات عهد الأمير محمد. ولم يكن ذلك الإنجاز أمراً يسيراً، إذا اخذ بنظر الاعتبار انتشار الصراعات القبلية والانقسامات السياسية بين النخب المحلية الحاكمة وتفشي الفساد والانفلات الأمني. وطبقاً إلى ماقاله فريزر، الذي يعتمد على انطباعاته الشخصية

<sup>٣٤٥</sup> التفاصيل عن ريتشارد وود والطبيب روس في القسم التالي.

A.B. Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, 1831-1841, (London: 1966), pp.92-93.

<sup>٣٤٦</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.52.

فضلا عن ما كتبه الطبيب روس من ملاحظات و ما أخبره بعض الكرد في تلك الفترة، انه في ظل الحكومة الكردية «لم يسمع بوقوع حوادث السرقة والسلب إلا بالكاد، ولم تغلق ابواب (المنازل) في الليل أبداً. وانه نادراً ما نفذ الحكم بالموت (ضد إنسان)».<sup>٣٤٧</sup> ان أهم انجاز حققته حكومة الأمير محمد، من وجهة نظر فريزر، كان هو «التغيير الأخلاقي الكبير»<sup>٣٤٨</sup> الحاصل في المناطق الكردية. يقول فريزر بأن روس أكد في ملاحظاته حول زيارته إلى كردستان الجنوبية على:

«التناقض بين عادات المسؤولين في الأقاليم الخاضعة إلى الباشا (أي الأمير محمد) والأقاليم التركية. ففور دخوله إلى الأخيرة، صعق (روس) عندما طلب منه دفع البخشيش... (أما) في أقاليم راوندوز فإن تلك الكلمة لم تذكر مطلقاً. (وعندما) أجريت مقارنة شاملة (من قبل روس) بين حكومة علي باشا في بغداد وحكومة الأمير، تمخضت عن خسارة الأولى بشكل كبير، حيث اتهمت (من قبل السكان) بالخيانة جهاراً، في حين نال (أمير راوندوز الثناء علناً).»<sup>٣٤٩</sup>

لقد أدخل الأمير محمد على كيانه السياسي مفهوماً جديداً للعدالة طبق على جميع السكان دون أي تمييز بين الكرد وغير الكرد، بين المسلمين وغير المسلمين، بين أبناء الأرسقراطية والعامية. يقول فريزر في معرض حديثه عن تطبيق القانون على جميع الأهالي ان الأمير عاقب أحد اخوته المفضل لديه عند قطفه رمانة دون أخذ إذن من المزارع وذلك بقطع أصابعه.<sup>٣٥٠</sup> كما تحلى جيش سوران بانضباط كبير، على العكس من نظيره التركي، فلم يقم بإيذاء المدنيين أو ينهب ممتلكاتهم خلال حملاته. وكان الطبيب روس قد أكد هذه النقطة بالذات: «ان من عادة الباشا أن يشتري من الأسرى اية ممتلكات قد أخذت منهم خلال القتال، وذلك بسعر مضاعف عادة».<sup>٣٥١</sup>

<sup>٣٤٧</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.74.

<sup>٣٤٨</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, pp.253-254.

<sup>٣٤٩</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.100.

<sup>٣٥٠</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, pp.253-254.

<sup>٣٥١</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.79.

لقد تحولت سوران وأقاليمها إلى ملجأ آمن للذين أرادوا التخلص من ظلم الحكام المماليك والأتراك، من ضمنهم بعض القبائل العربية.<sup>٣٥٢</sup>

على العكس تماماً من الإجراءات القائمة في الأقاليم الخاضعة إلى السيطرة التركية، لم يطلب من التجار والمسافرين إبراز أوراق خاصة تسمح لهم بالسفر من وإلى المناطق الكردية الخاضعة لحكومة الأمير محمد، باستثناء الإيرانيين والأتراك والأوروبيين، الذين كان عليهم إخبار السلطات الكردية المحلية عند السفر<sup>٣٥٣</sup>. كان من الطبيعي أن تظهر علامات التحسن بشكل بارز في الحياة الاجتماعية والاقتصادية في عهد الأمير محمد وذلك بعد استتباب الأمن والاستقرار، ووضع حد لحوادث نهب المسافرين وقوافل التجارة.

من جهة ثانية، سك الأمير محمد عملة كردية خاصة بإمارته التي نُقش عليها اسمه. وربما كان الدافع وراء هذه الخطوة حاجة الأمير إلى تأكيد استقلاله السياسي وتسهيل النشاطات الاقتصادية في المناطق الكردية. وقد تأثر الريف الكردي إيجاباً بحالة استتباب الأمن وحماية الملكية الشخصية. يقول فريزر عن رحلة الطبيب روس من بغداد إلى المناطق الكردية:

قارن الطبيب روس بشكل كبير بين الأقاليم الكردية والتركية من حيث الوضع الزراعي والسكاني. ففي الأخيرة، كانت القرى مهجورة لان سكانها هربوا من رجال الحكومة. وكل مخلوق بقي في الخلف اشتكى بشدة من علي باشا (والي) بغداد، وحالما ظهر رجل يمثل الحكومة (التركية)، توارى هؤلاء عن الانظار. من ناحية ثانية، حالما دخلت مجموعتنا (أي روس والوفد الكردي الذي رافقه من بغداد) التون كوبري، خرج الأهالي كلهم للقاء بايزيد بك (عم الأمير محمد)،

<sup>٣٥٢</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, pp.253-254.

<sup>٣٥٣</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1,p.80.

فحتى فترة اندلاع الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤، كانت السلطات التركية الإدارية والعسكرية في الأقاليم البعيدة تبتز مالياً المسافرين، خاصة الأوروبيين، بدعوى عدم امتلاكهم لتصريحات سفرٍ صالحة، وقد تدمر العديد من الرحالة الأجانب من ما أسموه بالممارسات التركية الفاسدة، مثل روس وفريزر وسون.

واضعين على رؤوسهم أطواق الزهور، كما لو كانوا في عطلة، متجهين نحو يديه لتقبيلها، هاتفين ومحيين عند المرور.<sup>٣٥٤</sup>

كانت أربيل «مزهرة وغنية»،<sup>٣٥٥</sup> عندما كانت خاضعة إلى حكم احمد بك، أحد اخوة الأمير محمد.<sup>٣٥٦</sup> كما كان السهل الذي يربط التون كوبري وأربيل مكتظاً بالسكان. وقد هاجر العديد من أهالي مدينة السليمانية، التي دمرتها الغزوات التركية والإيرانية، إلى مدن أربيل وراوندوز وكركوك،<sup>٣٥٧</sup> حيث عم الاستقرار والنظام. لقد وجد فريزر تطابقاً كبيراً بين المعلومات التي حصل عليها خلال زيارته للمناطق الكردية مع كل ما كان يقوله الطبيب روس حول التحسن الكبير الحاصل في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والأمنية في المناطق الكردية الخاضعة لسلطة الأمير محمد. فبصدد تحسن تلك الأوضاع في عهد حكومة الأمير محمد، يكتب فريزر: «لقد تطابقت إلى حد كبير المعلومات التي قدمت لي من قبل أشخاص قابلتهم من الذين كانوا مؤهلين تماماً لإعطاء مثل تلك المعلومات عن (ذلك) الموضوع، مع تلك الملاحظات» (أي ملاحظات روس).<sup>٣٥٨</sup>

### صفات الأمير محمد باشا الشخصية:

### بين الواقع والخرافة

ان الانطباع السائد الآن في الأدب التاريخي حول الأمير محمد وعهده السياسي هو سلبي إلى درجة شبه مطلقة، والى حد ما ينطبق ذلك الاستنتاج على الأمير بدرخان وسنوات حكمه. من السهل ملاحظة ان معظم الذين كتبوا عن هاتين الشخصيتين في القرن العشرين اعتمدوا أما على أقاويل العامة التي لا تفرق بين الحقيقة والخيال واما على أطراف غير محايدة، لم تكن تهمها الحقيقة بقدر ما يههما حماية مصالحها الخاصة. إضافة إلى ذلك، لم يرحم التاريخ أو بالأحرى من كتب عن التاريخ، وكقاعدة عامة،

<sup>٣٥٤</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, p.255.

<sup>٣٥٥</sup> المصدر السابق، ص ٢٤٢.

<sup>٣٥٦</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.72.

<sup>٣٥٧</sup> المصدر السابق، ص ١٤٨.

<sup>٣٥٨</sup> المصدر السابق، ص ٧٩-٨٠.

الشخصيات التي خسرت معاركها في النهاية. ان عدم وجود وثائق ومستندات كردية تخص مباشرة الأمراء الكرد، الذين دخلوا في صراعات دموية مع السلطات التركية، وكذلك الذين جاءوا من بعدهم من قادة الحركات القومية الكردية الأوائل هي المسؤولة بشكل كبير عن غياب الموضوعية والتفسير الأحادي للأحداث التاريخية. ان كل ما هو مكتوب حالياً يعود إلى ما قاله الآخرون عن الكرد والشخصيات الكردية. وهؤلاء، أي الآخرون، كانوا يمثلون الطرف الخصم في اغلب الاحيان.

ان الوسيلة الوحيدة المتوفرة التي يمكن ان تساعد على رسم صورة تاريخية اقرب إلى الموضوعية هي التركيز على الخلفية العرقية والدينية والسياسية لشهود العيان من اجل معرفة دوافعهم الشخصية أو غير الشخصية فيما ذكروا، وكذلك الكشف عن نقاط التناقض فيما ذكره شاهد العيان عن الأحداث والشخصيات التاريخية وإجراء مقارنة استقرائية بين عدة شهادات قدمت من أناس مختلفين. يقول واغمر بخصوص الشهادات التي قدمها رجال الإرساليات والموظفون الاوربيون وقادة النساطرة عن الصراع الكردي- النسطوري في عام ١٨٤٣ (التفاصيل في الفصل التالي) أنه «من الصعب جداً دوماً معرفة الحقيقة في تلك البلدان لأن الشرقيين هم أساتذة في فن الخداع، وان الأوربيين، الذين زاروهم، نادراً ما كانوا غير متحيزين ومراقبين متعمقين» للأحداث.<sup>٣٥٩</sup>

أما فيما يتعلق بشخصية الأمير محمد والسياسات التي تبناها، توجد هناك وجهتا نظر تتناقض الواحدة مع الأخرى تماما. فقد وصف ريتشارد وود، الموظف الدبلوماسي البريطاني، الأمير محمد وحكومته بالظلم والفساد، بينما قدم الطبيب روس، كما تم ذكره سلفاً، صورة إيجابية إلى أبعد الحدود عن سمات الأمير الشخصية والإجراءات التي كان يتبناها. ويسخر روس من الدعايات التركية المنتشرة آنذاك والتي ادعت ان الأمير محمد قد سمل عيني والده بقضيب حديد ساخن من اجل ان يتسلم هو السلطة.<sup>٣٦٠</sup> فالمعروف ان الأمير محمد هو الذي بادر بإرسال رسول، أي عمه بايزيد، إلى الطبيب روس في بغداد يدعوه فيه لزيارة المنطقة الكردية لمعالجة عيني والده، الذي فقد البصر. وبعد إجراء الفحوص على عيني والد الأمير، ذكر روس

<sup>٣٥٩</sup>Wagner, Travels in Persia, Georgia, Kurdistan, p.264.

<sup>٣٦٠</sup> المصدر السابق، ص ٧٠.

في ملاحظاته بأن سبب فقدان بصر والد الأمير يعود إلى مرض طبيعي، وانه لم يكن في مقدوره شفاؤه.

و يبدو من ملاحظات روس، انه كان يحمل أفكار مسبقة سلبية تماماً عن الأمير محمد، قبيل مغادرته مدينة بغداد إلى المناطق الكردية الخاضعة للحكومة الكردية. لهذا لم يخف روس دهشته واعجابه بما شاهده من تحسن كبير في أوضاع السكان الاجتماعية والاقتصادية والأمنية في المدن والقرى الخاضعة للحكومة الكردية، التي حتمت عليه ان يقارنها بالفساد والظلم السائد في ولايتي بغداد والبصرة الخاضعة لحكومة علي باشا. ولم يتردد روس في كيل المديح لشخص الأمير محمد في ملاحظاته اليومية. فكما تم ذكره سابقاً، اعطى الكرد المعاصرين أيضاً، الذين التقى بهم فريزر، صوراً إيجابية جداً عن شخصية الأمير محمد وعن حكومته. ففي كتابه *Travels in Kurdistan and Mesopotamia* يعطي فريزر رأيه الخاص عن محمد باشا، وهو شبيه بما ذكره ميكافيلي عن مواصفات الحاكم المثالي في كتابه "الأمير":

يملك (الأمير محمد) طموحات جامحة، لا يتورع في اتخاذ أي وسيلة في سبيل تحقيقها، ويطبق الحكمة ومفاهيم العدالة إلى أبعد حدود ممكنة ليس لقيمتها الذاتية، بل وسيلة تزيد من العظمة الذاتية. فهو لا يتورع عن سفك الدماء، لكنه لا يقتل لرغبة في نفسه، أو دون سبب. برغم ذلك، لا يتردد في تنفيذ (الاعدام) عند الحاجة مهما كان السبب بسيطاً.

ويستنتج فريزر بأن الأمير محمد «أما كان محبوباً جداً أو كان يخشى منه كثيراً، لربما بسبب صرامة أسلوب حكمه».<sup>٣٦١</sup>

ان النقطة الجوهرية التي عجز فريزر عن ملاحظتها هي الخلفية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأمنية التي ظهرت حركة الأمير محمد رد فعل لها. بتعبير أدق، لم يكن في الامكان التغلب على حالة فقدان الأمن والاستقرار بسبب انتشار العداوة القبلية والانقسامات السياسية والتدخلات الخارجية المضرة وتدهور الوضع التجاري والزراعي دون فرض حكومة صارمة إلى أبعد الحدود، خصوصاً ان هدف

<sup>٣٦١</sup> المصدر السابق، ص ٨٠.

الأمير الأساسي كان هو توحيد المناطق الكردية في كيان سياسي واحد تسوده حياة طبيعية.

بالمقارنة مع ملاحظات روس الشخصية، اعطى ريتشارد وود صورة مختلفة تماماً عن الأمير محمد وحكومته في رسائله العديدة إلى السفارة البريطانية في استنبول والقنصلية البريطانية في بغداد. ولم يخف ريتشارد وود، ومنذ البداية، معارضته لوجود حكومة الأمير محمد الكردية لتناقضها مع المصالح البريطانية أثناء مرحلة التنافس المصري- التركي من أجل السيطرة على الأقاليم الآسيوية في الشرق الأوسط. لم يكن ريتشارد وود مجرد شاهد عيان للفترة الحساسة ١٨٣٦-١٨٣٧ فحسب، وإنما لعب دوراً مؤثراً ومباشراً في الأحداث السياسية والعسكرية التي انتهت بذهاب الأمير محمد إلى استنبول بحثاً عن مساومة، وباغتياله من قبل السلطات التركية بعد مدة قصيرة. لقد انسجمت وجهات نظر ريتشارد وود وتفسيراته للأحداث بالدرجة الأولى تماماً مع الموقف البريطاني الرسمي العام تجاه مسألة مستقبل الإمبراطورية العثمانية، الذي تحدد بأمرين فأما الاسهام في عملية انهيار تلك الامبراطورية واما الدفاع عن وحدتها الإقليمية.

كان ريتشارد وود بريطاني من حيث الجنسية. أمه أرمنية الأصل، واسمها لوسي، وأبوه يهودي، يدعى جورج وود، كان تاجراً مقيماً في بيراقرب استنبول. في البداية، اتخذ ريتشارد خطى والده واشتغل في المجال التجاري، قبل ان ينضم إلى السفارة البريطانية كموظف. ترك ريتشارد عمله في السفارة ليزاول مهنة التجارة مرة أخرى لبضع سنوات، لكنه قرر في عام ١٨٢٣ العودة إلى عمله الدبلوماسي في السفارة البريطانية. في المدة التي فصلت الحرب المصرية- التركية الأولى عن الثانية، ارسل السفير البريطاني في استنبول، لورد بونسونبي (١٨٣٣-١٨٣٩) ريتشارد وود في مأمورية مهمة إلى سوريا والمناطق الكردية القريبة منها كي يرسل تقارير عن أوضاعها السياسية والعسكرية، بعد ان عزز إبراهيم باشا سيطرته على سوريا.<sup>٣٦٢</sup>

كان ريتشارد وود، حاله حال السفارة والحكومة البريطانية، يحمل تصورات مؤيدة للسلطات التركية، ومعادية بشكل لا لبس فيه لأي قوة محلية أو خارجية تهدد وحدتها الإقليمية في الجزء الآسيوي من الشرق الأوسط. ونظراً لوجود دوافع

<sup>٣٦٢</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, p.3.



سياسية- استراتيجية قوية، كانت تصورات ريتشارد وود غير محايدة أو موضوعية عن الأوضاع السائدة في المناطق الكردية، إذا قورنت، مثلاً، بالمعلومات التي قدمها الطبيب روس، الذي لم تكن له مصلحة مباشرة أو غير مباشرة في تقديم صورة إيجابية عن أوضاع المناطق الكردية في عهد الأمير محمد. لربما كانت خلفية ريتشارد وود العرقية والدينية سبباً آخر جعله يتخذ موقفاً عدائياً تجاه الحكومة الكردية، وان يتخذ موقفاً لا أبالياً تجاه السكان الكرد. لكل تلك الأسباب المذكورة، ونظراً لأن ريتشارد وود لم يزر المناطق الكردية الخاضعة إلى سيطرة سوران حتى خريف عام ١٨٣٦، لا يمكن ان تُعد السمات التي الصقها بالحكومة الكردية موضوعية. فضلاً عن هذا، لم يقم ريتشارد وود باستطلاع رأي السكان عن موقفهم تجاه الأمير محمد، كما فعل روس أو فريزر. ولأنه رافق الجيش التركي طوال مدة غزوه المناطق الكردية المستقلة، فان من المنطقي استنتاج أن مصدر الكثير مما قاله في رسائله إلى السفير البريطاني في استنبول يعكس إلى حد كبير وجهة النظر التركية الرسمية من الأحداث. أبرز مثال على ذلك هو ترديده لما قالته الدعاية التركية عن محمد في إحدى رسائله إلى لورد بونسونبي: «لقد وصل إلى عظمته الحالية عن طريق اغتيال رب نعمته (أي والد الأمير محمد) واغتصاب سلطته».<sup>٣٦٣</sup>

في أعقاب انطلاقة الحملة العسكرية التركية الشاملة ضد مواقع جيش سوران، حمل ريتشارد وود الحكومة الكردية المسؤولية عن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي زعم وجودها في المناطق الكردية المستقلة. وادعى ريتشارد وود أيضاً بان الحكومة الكردية تحمل الصفات التالية: أولاً، انها كانت تعسفية، تصادر ثروات الريف الكردي، بحجة ان الفلاحين لا يحتاجون إلى مصوغاتهم الذهبية والفضية. ثانياً، فرض الأمير محمد، الذي يصفه ريتشارد وود بـ«شخص يملؤه الكراهية»، نظاماً سياسياً صارماً ذا عقوبات قاسية، مثل فقء عيني الضحية وبتريديه ورجليه. أخيراً، كان الأمير محمد، على حد زعم ريتشارد وود، مسلماً متعصباً عبر عن كراهية كبيرة تجاه قبائل الايزديين، التي شن عليها حرب إبادة.<sup>٣٦٤</sup>

<sup>٣٦٣</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, pp.92-92.

<sup>٣٦٤</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, pp.92-94 .

على العكس من الأوصاف التي قدمها ريتشارد وود، تصف شهادة روس الأمير محمد بأنه حاكم متنور يهتم برفاهية الأهالي العامة، والذي استطاع، عن طريق إقامة حكومة صارمة، تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية بشكل كبير. لقد كان على الأمير محمد أن يكون حاكماً حازماً وصارماً إذا ما أراد أن يتغلب على الكثير من المعضلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي أنهكت المجتمع الكردي. بتعبير آخر، ان الأسلوب الذي حكم به الأمير دولته كان انعكاساً مباشراً للأوضاع السائدة في عهده، والمعضلات الكبيرة التي واجهها المجتمع الكردي آنذاك. فلم تكن رغبة الأمير محمد تكمن في الاستيلاء على الحكم فقط وإنما في تغيير الأوضاع السائدة بشكل إيجابي. وتدلل محاوراته الطويلة مع الطبيب روس على ان للأمير محمد نية حقيقية في مواصلة تحسين أوجه الحياة العامة في دولته. فقد تناولت محاوراته مواضيع عديدة من أهمها نظام التعليم في بريطانيا، استعمال الأدوية وآثارها، الطاعون والكوليرا. كما تحدث الأمير محمد وروس عن الوضعين الإقليمي والدولي، ومنها علاقات بريطانيا بإيران القاجارية وبالإمبراطورية الروسية ومساحة الإمبراطورية العثمانية في آسيا والأسلحة الحديثة.<sup>٣٦٥</sup> كما كشف موقف الأمير محمد تجاه مشكلة توارث الحكم، التي كانت من الأسباب الرئيسية لضعف السلالات الكردية، عن حكمته. فقد سارع الأمير محمد إلى تعيين أخيه رسول خليفة له ليمنع نشوب صراع من أجل السلطة داخل السلالة الحاكمة بعد موته.<sup>٣٦٦</sup> أما ما يخص مواقف الأمير محمد من الأقليات الدينية، فلا يذكر روس ولا فريزر وجود أي اضطهاد ديني ضد الايزديين أو المسيحيين.

نهاية حكم الأمير محمد:

### الحرب الكردية-التركية، حزيران-أيلول ١٩٣٦

يستلزم استقرار الظروف التي رافقت زوال سلطة الأمير محمد في النصف الثاني من عام ١٩٣٦ ربطها بالسياق الإقليمي للأحداث السياسية والعسكرية، التي مرت بها منطقة الشرق الأوسط في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، في مقدمتها الخلاف التركي- المصري. لم يكن السلطان محمود الثاني راضياً عن بنود اتفاقية

<sup>٣٦٥</sup>Fraser, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, p.77.

<sup>٣٦٦</sup>المصدر السابق، ص ٧٢.

السلام التي عقدها مع محمد علي باشا. لهذا، بدأ الجيش التركي بجهز نفسه بأسلحة حديثة ويستعد من أجل الدخول في حرب أخرى مع القوات المصرية، أملاً في استعادة الأقاليم العثمانية السابقة، خاصة بلاد الشام. ففي ظل تلك الظروف أصبح أمراً حيوياً بالنسبة إلى الأتراك أن يعززوا سيطرتهم السياسية والعسكرية في المناطق الكردية القريبة من جبهات الحرب المرتقبة بين الجيشين التركي والمصري. بتعبير آخر، كان على السلطات التركية تدمير الدولة الكردية المستقلة، التي سيطرت على جزء حيوي من الطريق البري الاستراتيجي الذي ربط ميسوبوتاميا العربية بالأقاليم الواقعة تحت السيطرة التركية المباشرة. لقد انشغل بال الأتراك كثيراً بالقوة المتعاظمة للأمير محمد في فترة ما بعد الحرب التركية- المصرية الأولى، وربما كانوا يخشون من احتمال قيام تحالف كردي- مصري موجه ضدهم.

لقد منحت اتفاقية السلام التركية- المصرية لعام ١٨٣٣ السلطات التركية الوقت اللازم من أجل تعبئة كل إمكانياتها العسكرية والتركيز على احتواء الخطر الكردي في كردستان الجنوبية. وبعد ثلاثة أعوام من اتخاذ الاستعدادات اللازمة، بدأ الأتراك عملياتهم العسكرية في المناطق الكردية عن طريق التركيز على جبهتين عريضتين. كانت الجبهة الأولى تمتد على طول نهري الزاب الكبير والخزير، بينما امتدت الجبهة الثانية على طول نهر الزاب الصغير. جرت تلك الحملات العسكرية التركية تحت إشراف والي بغداد علي باشا، الذي قاد بنفسه الجيش الزاحف من بغداد نحو مدينة كركوك. يبدو أن الأمير محمد قرر عدم مقاومة الجيش التركي في كركوك، لضعف استحكاماتها العسكرية مقارنة بأربيل. لهذا انسحبت القوات الكردية من كركوك قبيل دخول الجيش التركي إليها. كانت أهداف علي باشا العسكرية المعلنة هي الاستيلاء على المناطق والمدن الكردية كافة التي عدها خاضعة إلى سلطته مثل داقوق والتون كوبري واربييل وكويسنجق. من جهة ثانية، قاد حاكم الموصل التركي الجديد، أوغلو ممت باشا والمعروف ببيرقدار، جيشاً تركياً ثانياً. بدأ ذلك الجيش حملته بمهاجمة المواقع العسكرية الكردية في بادينان، حيث تسنى له فرض حصار شامل على مدينة عقرة.<sup>٣٦٧</sup>

<sup>٣٦٧</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, from Colonel Taylor, Baghdad, (to Wood), 27 June 1836, p.92.

نظرا للمقدرة العسكرية الكبيرة التي أبدتها القوات الكردية في مواجهاتها مع الجيشين التركيين القادمين من بغداد والموصل، اضطرت السلطات التركية إلى فتح جبهة عسكرية ثالثة إلى الغرب وشمال الغرب من منطقة بادينان. كان الجيش التركي الثالث كبيراً جداً في حجمه، والذي ضم مقاتلين مسلمين جلبوا من منطقة كارس (أو قارص) حيث كانوا يحرسون الحدود العثمانية في قوقازيا.<sup>٣٦٨</sup> قاد الجيش التركي الثالث محمد رشيد باشا، أشهر القادة الأتراك، الذي تقدم نحو بادينان من جهة الغرب عبر بعض المناطق الكردية مثل جزيرة. احتل جيش رشيد باشا مدينة زاخو. وطبقا إلى شهادة ريتشارد وود، كان اللجوء إلى أعمال العنف المتطرف والنكث باليهود من قبل رشيد باشا هو السبب الرئيس في تقدم جيشه في المناطق الكردية.<sup>٣٦٩</sup> لم يستطع ريتشارد وود ولا أي من شهود العيان الادعاء بأن أهالي المناطق الكردية رحبوا بالقوات التركية، ناهيك عن دعم عملياتها العسكرية. وبرغم غزو الجيوش التركية من ثلاث اتجاهات، ظلت القوات الكردية تسيطر على مدن عمادية واربيل والتون كوبري وعقرة حتى أوائل شهر تموز. فقد فشلت الجيوش التركية في إلحاق هزيمة عسكرية حاسمة بالقوات الكردية في كافة الجبهات العسكرية. كانت تلك خلفية الرسالة المتشائمة التي بعثها ريتشارد وود إلى لورد بونسونبي، يبلغه فيها بأن الأمير محمد ((في تحديه للباشاوات (أي رشيد وعلي ويرقدار)، سيدحر مساعيهم المنسقة من أجل إخضاعه)).<sup>٣٧٠</sup>

لكن الوضع العسكري والسياسي تغير وبشكل كبير على أثر تقدم القوات الإيرانية القاجارية نحو المنطقة الواقعة مباشرة إلى الشمال من راوندوز. لقد اضعف هذا التطور المفاجئ من وضع الأمير محمد العسكري في مواجهته للجيوش التركية الغازية. إن من المنطقي القول بأن الأمير محمد لم يكن سعيداً بمحاربة الأتراك، في الوقت الذي تخندق جيش أجنبي معادٍ آخر خلف قواته متحيناً الفرصة من أجل

<sup>٣٦٨</sup> Lieutenant Colonel J. Shiel, Notes on a Journey from Tabriz through Kurdistan via Van, Bitlis and Arbil to Sulaimaniya in July and August 1836, Journal of the Royal Geographical Society, p.90.

<sup>٣٦٩</sup> Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, pp.92-94.

<sup>٣٧٠</sup> المصدر السابق، ص ٩٥.

مهاجمة عاصمته السياسية راوندوز. تشير المصادر المتوفرة إلى ان الإيرانيين لم يسعوا من وراء زحف قواتهم نحو المناطق الكردية المستقلة إلى إعادة مقاطعاتها التي ضمت إلى الدولة الكردية فحسب، وإنما أيضاً إلى ابتزاز كلا الطرفين الكردي والتركي. فمن جهة، طالب الإيرانيون الأمير محمد بدفع مبالغ مالية كبيرة تعويضاً للأضرار التي ألحقت بهم خلال احتلال القوات الكردية للمقاطعات الكردية الخاضعة إلى السيطرة القاجارية، مثل سردشت وسلدوز. من جهة ثانية سعت السلطات القاجارية إلى أخذ تنازلات اقليمية من الأتراك في كردستان الجنوبية. لكل هذه الأسباب لم يكن في مصلحة الإيرانيين تحقيق انتصار تركي أو كردي في الحرب الجارية آنذاك.

كانت العلاقات التركية- الإيرانية في حالة سيئة جداً، عندما شن الأتراك عملياتهم العسكرية ضد القوات الكردية. فقد طالب علي باشا السلطات القاجارية بعدم التدخل في شؤون كردستان الجنوبية، خاصة في منطقة السليمانية، كما طالبها بإعادة مقاطعة زهاو طبقاً إلى بنود الاتفاقية الثنائية الأخيرة بين تركيا وإيران. وفي الوقت نفسه، طالب الإيرانيون الأتراك بتطبيق أحد بنود تلك الاتفاقية المتعلقة بالحجاج الإيرانيين.<sup>٣٧١</sup> فمن جهة، لم يكن الإيرانيون مستعدين للدخول في تعاون عسكري مع السلطات التركية ضد الأمير محمد دون الحصول على تنازلات اقليمية، ومن جهة ثانية، لم يكن الأتراك على استعداد لطلب دعم عسكري من الحكومة القاجارية ضد القوات الكردية، في الوقت الذي طالبوها بعدم التدخل في شؤونهم الداخلية. فمن وجهة نظر الأتراك، سيتم تفسير أي طلب منهم بمساعدة خارجية ضد الكرد على انه علامة ضعف من قبل خصومهم الإيرانيين.

كانت للحرب الكردية- التركية بعداً دولياً، فضلاً عن بعدها الإقليمي، وتمثل في التدخل السياسي البريطاني المباشر في النزاع بين الأمير محمد والسلطات التركية. لقد كانت مواقف البريطانيين تجاه الدولة الكردية امتداداً لسياستهم العامة تجاه المستقبل السياسي للشرق الأوسط في ظل الصراع المصري- التركي من اجل الهيمنة الإقليمية. فمن وجهة النظر البريطانية، لم يكن الوضع الكردي فقط مسؤولاً عن تشتيت تركيز الأتراك تجاه الخطر الأكبر المتمثل بوجود القوات المصرية في

<sup>٣٧١</sup> المصدر السابق،

بلاد الشام وإنما كان مسؤولاً أيضاً عن استنزاف طاقات تركيا العسكرية. ولم يكن البريطانيون راغبين بمشاهدة توسع النفوذ المصري في المناطق الكردية المستقلة، التي كانت تعزل عملياً ميسوبوتاميا العربية عن الأقاليم الخاضعة إلى السلطان العثماني في أناضوليا. في ذلك الوقت تبنت بريطانيا مبادرة دبلوماسية واسعة تمخض عنها موقف أوربي موحد يدعم وحدة أراضي الدولة العثمانية، في الوقت نفسه، مارست تلك القوى الكبرى الضغط على محمد علي باشا من أجل إيقاف زحف قواته على أناضوليا.

فيما يتعلق بالصراع الكردي- التركي في كردستان الجنوبية، سعت السفارة البريطانية في طهران، في أول الأمر، إلى التوسط بين الحكومتين العثمانية والقاجارية، أملاً في التوصل إلى تعاون عسكري بين الطرفين ضد القوات الكردية. لقد خابت آمال الموظفين البريطانيين الميدانيين، خاصة تايلور وريتشارد وود، بسبب عدم قيام تحالف إيراني- تركي عسكري ضد الأمير محمد. ففي هذا السياق، بعث تايلور برسالة يشوبها التشاؤم إلى ريتشارد وود: «من ناحية بلاد فارس، لا يوجد أمل في التعاون ضد البيك (الأمير محمد)، في الحقيقة، لا أمن أنا بحصول تعاون ودي أو ذا نتيجة مفيدة بين الطرفين (أي التركي والإيراني)».<sup>٣٧٢</sup> كان البريطانيون ساخطين بشكل خاص على الإيرانيين، لغياب النية الصادقة لديهم. فالإيرانيون، طبقاً إلى تصورات تايلور، عرضوا على الأتراك مساعدات عسكرية، في نفس الوقت الذي عقدوا اتفاقاً سرياً مع الأمير محمد من أجل مساعدته عسكرياً.<sup>٣٧٣</sup> كما كان ريتشارد وود غاضباً هو الآخر لكونه كان مقتنعاً بحصول اتفاق سري بين الطرفين الإيراني والكردي.

ونظراً لضعف احتمال قيام تعاون عسكري تركي- إيراني ضد الدولة الكردية، بدأ البريطانيون عن طريق ممثلهم ريتشارد وود بالتوسط بين الجانبين التركي والكردي وذلك في نهاية شهر آب وأوائل شهر أيلول عام ١٨٣٦. وقد سبق

<sup>٣٧٢</sup> المصدر السابق،

from Colonel Taylor, Baghdad, 27 June 1836, p.92

<sup>٣٧٣</sup> المصدر السابق،

from Colonel Taylor, Baghdad, to Henry Ellis, The British Minister at Tehran, u.d., p.104.

الوساطة البريطانية وقوع عدة نكسات عسكرية عانت منها القوات الكردية في حربها مع الجيوش التركية. ففي منتصف شهر تموز، استولى الجيش التركي الأول، الذي قاده والي بغداد علي باشا، على التون كوبري.<sup>٣٧٤</sup> وفي أوائل شهر آب، استولى ذلك الجيش أيضاً على مدينة أربيل،<sup>٣٧٥</sup> حيث أظهرت القوات الكردية مقاومة شديدة.<sup>٣٧٦</sup> نفذ علي باشا مجزرة بحق قوة كردية مؤلفة من ٤٠٠ مقاتل داخل قلعة أربيل، بعد ان نكث وعدا بضمنان سلامتهم لقاء تسليم القلعة إليه.<sup>٣٧٧</sup> لم يسلم أهالي أربيل أيضاً من القتل العشوائي التركي، حيث تعرض العديد منهم إلى الموت. ولم يبق في مدينة أربيل سوى ٦,٠٠٠ شخص عقب الاحتلال التركي لها.<sup>٣٧٨</sup> ان ما زاد من سوء الأوضاع في المناطق الكردية عقب احتلالها من قبل الجيش التركي هو انتشار الطاعون في كركوك والتون كوبري واربيل،<sup>٣٧٩</sup> الذي حصد أرواح الكثير من الأهالي. أما في منطقة بادينان، فقد انسحبت القوات الكردية سراً من قلعة عقرة، التي سقطت، نتيجة لذلك، بيد الجيش التركي الثاني بقيادة اينجه بيرقدار.<sup>٣٨٠</sup>

بالرغم من تحقيقها عدة انتصارات عسكرية في كردستان الجنوبية وتبنيها لسياسة وحشية ضد أهالي المناطق المحتلة، لم تستطع الجيوش التركية الثلاثة من إلحاق هزيمة حاسمة بقوات الأمير محمد، التي تراجعت إلى معاقها، في منطقة راوندوز الجبلية المنيعه. ففي ظل ذلك الوضع العسكري، برزت إيران على مسرح الأحداث فجأة عن طريق تدخلها في الصراع التركي - الكردي، سواء من خلال نشر قواتها في

<sup>٣٧٤</sup> المصدر السابق،

to Mr. Sandison, Baghdad, July 1836, p.100.

<sup>٣٧٥</sup>Shiel, 'Notes on a Jounrey from Tabriz through Kurdistan', p.87.

قام شيل بزيارة كردستان في قمة الصراع الدائر بين الإمارات الكردية والسلطات العثمانية، وقد اجرى على تعديل مسار رحلته الأصلية عن طريق تجنب زيارة المناطق الكردية الوسطى والغربية.

<sup>٣٧٦</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, p.242.

<sup>٣٧٧</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, to Lord Ponsonby, Baghdad, 24 August 1836, p.100.

<sup>٣٧٨</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, p.242.

<sup>٣٧٩</sup>Shiel, Notes on a Jounrey from Tabriz through Kurdistan, pp.99-100.

<sup>٣٨٠</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, to Lord Ponsonby, Baghdad, 2 August 1836, p.102.

مواضع تقع خلف خطوط القوات الكردية التي كانت تواجه الجيش التركي الثالث بقيادة رشيد باشا، أو من خلال إرسال مبعوثين إلى الطرفين الكردي والتركي.

كان ريتشارد وود يخشى كثيراً من أن الوضع العسكري والسياسي الجديد الناتج من بروز العامل الإيراني سيجبر الأمير محمد على الوصول إلى اتفاقية مع السلطات القاجارية تسمح لقواته بالانسحاب إلى داخل الأراضي الإيرانية في مقابل دفع إتاوة كبيرة. بهذه الطريقة، حسب اعتقاد ريتشارد وود، سيتمكن الأمير محمد وقواته من العودة مستقبلاً إلى راوندوز عندما تتغير الأوضاع.<sup>٢٨١</sup> ولمنع وقوع هذا الامر مستقبلاً، اقترح ريتشارد وود على الدوائر الدبلوماسية البريطانية في استنبول وطهران إعطاءه تفويضاً رسمياً يمكنه من القيام بالوساطة بين الطرفين المتحاربين، التركي والكردي.<sup>٢٨٢</sup> كان ريتشارد وود يعتقد بأن بريطانيا ستجني كثيراً من عملية إحلال السلام: أولاً، ستضمن بريطانيا لنفسها صديقاً قوياً في راوندوز، أي الأمير محمد. ثانياً، سيتمكن إعادة استقرار السلام في كردستان الجنوبية علي باشا من تركيز إمكانياته العسكرية على الجبهة السورية، حيث كانت تحصل الانتهاكات المصرية باستمرار. الجدير بالملاحظة هو ان ريتشارد وود لم يكن يثق مطلقاً بنوايا رشيد باشا من ما يتعلق بدوره في احتواء الخطر المصري. وأخيراً، سيفشل إحلال السلام في المناطق الكردية المخططات الروسية في منطقة الشرق الأوسط، بحسب تعبير ريتشارد وود.<sup>٢٨٣</sup> في نهاية الامر، نجح ريتشارد وود في إقناع الدوائر الدبلوماسية البريطانية بوجهة نظره تلك، ولذلك منحه صلاحية كاملة تمكنه من التوسط بين الجانبين الكردي والتركي بالنيابة عن الحكومة البريطانية.

قبيل مغادرته إلى مدينة راوندوز، بعث ريتشارد وود برسالة إلى الأمير محمد يسأله فيها عن وعد يضمن سلامته الشخصية. كتبت تلك الرسالة باللغة العربية، واحتوت على تهديد ضمني للأمير الكردي بأنه لا يعد عدواً للأتراك فقط وإنما

<sup>٢٨١</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Baghdad, 26 August 1836, p.104.

<sup>٢٨٢</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby. Baghdad, 10 July 1836, p.97.

<sup>٢٨٣</sup> المصدر السابق.



لبريطانيا أيضاً إذا رفض الجنوح إلى السلام.<sup>٣٨٤</sup> غادر ريتشارد وود برفقة مترجم كردي إلى المعسكر الكردي حيث التقى بالأمير محمد. ادعى ريتشارد وود في إحدى رسائله إلى اللورد بونسونبي بأنه شاهد وفداً إيرانياً في المعسكر الكردي يحث الأمير محمد على قبول مساعدة عسكرية إيرانية لقاء دفع مبلغ كبير من المال.<sup>٣٨٥</sup> في مباحثاته مع الأمير، قدم ريتشارد وود وعوداً من الأتراك لضمان سلامته الشخصية في حالة إيقاف الحرب واللجوء إلى المفاوضات،<sup>٣٨٦</sup> وان السفير البريطاني تدخل لصالح إبقائه في السلطة في راوندوز.<sup>٣٨٧</sup> بسبب تلك الوعود والضمانات استطاع ريتشارد وود من ان يقنع الامير لا في رفض العرض الإيراني فقط وإنما في التوجه إلى استنبول من اجل التباحث مباشرة مع السلطات التركية فيها.<sup>٣٨٨</sup>

لم يكن يعني إنهاء الحرب الكردية- التركية في بداية شهر أيلول وقرار الأمير محمد الذهاب إلى استنبول استسلاماً دون قيد أو شرط للسلطات التركية. فقبل مغادرته راوندوز، عين الأمير خاله بايزيد أميراً مؤقتاً حتى رجوعه من السفر. وهذا دليل على انه لم تكن في نية الأمير محمد بتاتا التنازل عن الحكم لصالح ممثلي السلطات التركية. في استنبول، ذهبت محاولات الأمير محمد سدىً في إقناع السلطان محمود الثاني بضرورة الاعتراف بحكومته في راوندوز. وفي بيرا قرب استنبول، التقى الأمير محمد بريتشارد وود والسفير البريطاني اللذين خدعاه. ففي إحدى رسائل ريتشارد وود إلى اللورد بونسونبي هناك إشارة واضحة تؤكد أنه كان يعلم بعدم صدق نوايا السلطات التركية عندما وعدت بضمان سلامة الأمير الشخصية.<sup>٣٨٩</sup> وبالفعل،

<sup>٣٨٤</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Baghdad, 2 August 1836, p.103.

<sup>٣٨٥</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Rownduz Castle, 3 September 1836, pp.105-106 .

<sup>٣٨٦</sup> المصدر السابق،

Lord Ponsonby, Camp of Ali Pasha at Hazis, 26 August 1836, p.104.

<sup>٣٨٧</sup> المصدر السابق،

to Lord Ponsonby, Rownduz Castle, 3 September 1836, pp.105-106.

<sup>٣٨٨</sup> يخطئ نيكيتين مرة اخرى في كتابه عندما يشير إلى أسر الأتراك للأمير محمد. نيكيتين، "الكرد"،

ص٣٠٢.

<sup>٣٨٩</sup> المصدر السابق، ص١٠٦.

وكما يبين فريزر، كانت السلطات التركية قد خططت مسبقاً لعملية اغتيال الأمير محمد،<sup>٣٩٠</sup> وقد نفذته في عام ١٨٣٧، عندما كان في طريقه إلى راوندوز، عقب فشله في التوصل إلى حل سياسي مع الأتراك.

## نهاية الفصل

كان لاختفاء الأمير محمد من المسرح السياسي في كردستان الجنوبية تأثير مباشر في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فبعد مرور عام على اغتيال الأمير محمد، شاهد راولينسون انتشار الفوضى في مقاطعات سوران المركزية.<sup>٣٩١</sup> وبدلاً من الاستقرار السياسي والسلام والنظام الذي كان الأمير محمد قد أدخله إلى الأقاليم الكردية، جلبت الجيوش التركية معها كل سمات الإدارة التركية السلبية كفرض الضرائب التعسفية والخراب الاقتصادي والفساد والرشوة والفوضى وتأجيج الصراعات القبلية. لقد دمرت ونهبت الجيوش التركية الثلاثة خلال غزوها إمارة سوران كل المدن الكردية والقرى التي صادفتها في الطريق. حتى رشيد باشا، الذي كان يعد من أشهر القادة العسكريين الأتراك، قام شخصياً بنهب ممتلكات مدينة راوندوز بعد دخوله إليها.<sup>٣٩٢</sup>

لم تكن هناك إذن دوافع حضارية أو إنسانية وراء الغزو التركي لكردستان الجنوبية، وإنما، وكما يعترف ريتشارد وود نفسه، وجود رغبة تركية في زيادة الدخل المالي للسلطات المركزية عن طريق فرض الضرائب على السكان وإجبار ٦٠,٠٠٠ شاب كردي على الانضمام إلى جيوش الإمبراطورية العثمانية التي كانت تستعد لمهاجمة الجيش المصري في سوريا، وأخيراً وليس آخراً، فتح طريق للاتصالات المباشرة مع ولاية بغداد عبر المناطق الكردية.<sup>٣٩٣</sup> في المدة التي تلت مقتل الأمير

<sup>٣٩٠</sup>Fraser, Mesopotamia and Assyria, p.255.

<sup>٣٩١</sup>Rawlinson, Notes on a Journey from Tabriz through Persian Kurdistan, p.19.

<sup>٣٩٢</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, to Lord Ponsonby, Aleppo, 2 December 1836, p.113 & to Lord Ponsonby, Pera, 12 and 25 April 1938, p.120.

<sup>٣٩٣</sup>المصدر السابق،

محمد، استمرت قوة إمارة سوران وهيبتها بالتدهور السريع حتى وصل الامر بها إلى حد عجز حكامها عن مقاومة قرار السلطات التركية بإلغائها، الذي تم تنفيذه من قبل والي بغداد في عام ١٨٤٧.



---

to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, p.95.

## الفصل الخامس

### الأمير بدرخان

#### وتشكيل الكونفدرالية الإماراتية الكبرى، ١٨٣٩-١٨٤٧

قاد الأمير بدرخان (١٨٠٦<sup>٣٩٤</sup>-١٨٦٩) اخر الحركات السياسية وأقواها في كردستان خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، التي استهدفت توحيد المناطق الكردية في كيان سياسي مستقل.<sup>٣٩٥</sup> انتمى بدرخان إلى السلالة الأيزيدية العريقة في قدمها والتي حكمت إمارة بوتان لعدة قرون وتحت مختلف الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. انقسمت تلك الإمارة، نتيجة لوقوع إحدى أزمات توارث السلطة، إلى ثلاثة كيانات، وهي الجزيرة وفينيق وگوركيل. ظل أعضاء من السلالة الأيزيدية يديرون تلك الكيانات. لكن حاكم الجزيرة، وبسبب قوته العسكرية والاقتصادية ومكانته السياسية، نظر إليه على انه الأمير العام لإمارة بوتان.

<sup>٣٩٤</sup> طبقاً إلى شهادة ابن بدرخان، عبد الرحمن، مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة شكور مصطفى، (أربيل: ١٩٩٨)، ص ٣٥.

<sup>٣٩٥</sup> في الأعوام القليلة الماضية، ظهرت بعض الدراسات الخاصة والمتعلقة بحياة الأمير بدرخان وعهده السياسي ومن اهمها مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، وكذلك كتاب صلاح هروري، "إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان ١٨٢١-١٨٤٧". يحاول هذا الفصل تسليط الضوء بصورة أقوى على جوانب حيوية من مساعي الأمير بدرخان السياسية والعسكرية وكذلك الكشف عن التعقيدات المحيطة بوضع كردستان السياسي خاصة في العقدين الرابع والخامس الناتجة عن تزايد النفوذ الأوربي في الصيغhe السياسية والدبلوماسية والاقتصادية والدينية- التبشيرية.

وكعادتها، استغلت السلطات التركية انقسام بوتان عن طريق ضرب حاكم بأخر بهدف تقوية نفوذها السياسي. بالرغم من كل المصاعب التي واجهتها، تمتعت الجزيرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر بمكانة سامية بين الإمارات الكردية بسبب درجة استقلالها السياسي وقدراتها العسكرية وازدهارها التجاري. كما جسد ظهور الشعارين ملاي جزيري واحمد خاني ذروة التقدم الثقافي الذي وصلت إليه الإمارة البوتانية في عهد امرائها الكرد.

عندما حل القرن التاسع عشر، كانت الجزيرة قد فقدت الكثير من مكانتها السياسية والثقافية. وخلال زيارة ريج لمدينة السليمانية، وصل نفوذ السلالة الأريزية إلى ادنى درجاته، إذ كانت عاصمتها، الجزيرة، تمر في «ظروف مزرية جداً».<sup>٣٩٦</sup> رافق ضعف الإمارة البوتانية العسكري تدهور اقتصادي نتيجة لغياب الأمن والاستقرار، الذي اضعف النشاط التجاري في الجزيرة، التي ارتبط رخاؤها المادي بموقعها الجغرافي، حيث كانت تطل على الطرق التجارية التي تربطها بالموصل وديار بكر وحلب وغيرها من المدن الأخرى. بين عامي ١٨٢٥ و ١٨٢٦، اعتمدت الجزيرة، على ما يبدو، على تجارة الجوز فقط، الذي كان يجلب إلى أسواقها من المناطق الجبلية الكردية المحيطة كي يتم تصديره إلى حلب.<sup>٣٩٧</sup>

لم يثن وجود تلك الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية المتدهورة عزم الأمير بدرخان على تحويل بوتان إلى اقوى كيان سياسي مستقل في كردستان في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر. واللافت للنظر انه وقبل ظهور بدرخان، لم يستطع أي أمير اخر خلق ذلك النفوذ الواسع والوصول إلى تلك المكانة السامية التي تمتع هو بها منذ قيام اولى الإمارات في منتصف القرن العاشر. سيبحث هذا الفصل الظروف المحيطة ببروز الأمير بدرخان على الساحة السياسية في كردستان، وكيف نجح في تكوين تحالف إماراتي واسع استهدف تحقيق الوحدة والاستقلال السياسي من خلال لجوئه إلى وسائل سياسية وسبل عسكرية. كما

<sup>٣٩٦</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, vol.1, p.157.

<sup>٣٩٧</sup>J.C. Buckingham, Travels in Mesopotamia, vol.2, (London: Henry Coloun, 1827), pp.5-6.

سيتناول الفصل هذا وبالتفصيل مسار الأحداث السياسية والعسكرية والدبلوماسية التي أدت إلى القضاء على النظام الإماراتي في كردستان.  
سياسة بدرخان تجاه الإمارات الكردية الأخرى:

### قيام الكونفدرالية الكردية الكبرى

بلغ بدرخان الثامنة عشرة من عمره عندما تولى السلطة في عام ١٨٢١،<sup>٣٩٨</sup> ومات في المنفى في عام ١٨٦٩،<sup>٣٩٩</sup> عن عمر ناهز ٦٧ عاماً. على النقيض من ادعاء ليارد حول اغتصابه للسلطة السياسية من عمه الأمير سيف الدين،<sup>٤٠٠</sup> ورث الأمير بدرخان الحكم عن أخيه الأكبر الذي اعتزل الحياة السياسية. على غرار محمد باشا أمير سوران، كان الأمير بدرخان شاباً طموحاً عكف على إنهاء تدخلات السلطات العثمانية في شؤون بوتان الداخلية وتحقيق الوحدة والاستقلال السياسي في كردستان.<sup>٤٠١</sup> تميزت شخصية بدرخان بفعالية وجاذبية منقطعة النظير مقارنة ببقية الأمراء سواء الذين عاصروه أو الذين سبقوه. صار حكم بدرخان ومقاومته الأتراك جزءاً من التراث الفولكلوري الغنائي الكردستاني، القائم حتى هذا اليوم. لقد ارتبطت سمعة بدرخان لا بشجاعته ومقاومته الأتراك فقط وإنما أيضاً بعدالة حكمه وازدهار

<sup>٣٩٨</sup> طبقاً إلى أحد احفاد بدرخان، جلادت بدرخان، جلادت بدرخانبلج شيركو، ماضي الكرد وحاضرهم، (بيروت: ١٩٨٦)، ص ٥١.

<sup>٣٩٩</sup> مالميسانز، "بدرخانيو جزيرة بوتان"، ص ٥١.

<sup>٤٠٠</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.54.

لم يكن سيف الدين عم بدرخان وإنما ابن عمه. فضلاً عن هذا، ازاح سيف الدين عمه، أي والد بدرخان، عن السلطة في جزيرة. بعد مرور عدة أعوام، استطاع بدرخان وشقيقه استرجاع السلطة من سيف الدين، لكن الخلافات العائلية داخل السلالة الأيزيدية استمرت حتى سقوط إمارة بوتان في عام ١٨٤٧. للتفاصيل انظر مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٤٥.

<sup>٤٠١</sup> زكي، "خلاصة تاريخ الكورد وكوردستان"، ص ٢٣٦؛ ن. أ. خالفين، "الصراع على كردستان"، المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر"، ترجمة أحمد عثمان أبو بكر، (بغداد: ١٩٦٩)، ص ٥١؛ قاسم، "كردستان والاكرد، دراسة سياسية اقتصادية"، (بيروت: ١٩٧٠)، ص ٦٥ وكريس كوجيرا، "ميثووى كورد له سهدهى ١٩-٢٠"، ترجمها إلى الكردية محمد ريانى، (تهران: ١٣٦٩ش)، ص ٤٣.

بوتان، ونظر إليه عامة الناس من فلاحين ورجال عشائر كما لو كان «قديساً» أو «أميراً للمؤمنين» أو حتى «نبياً».<sup>٤٠٢</sup>

في رأي ارشاق سافرستيان، مؤرخ ودبلوماسي بريطاني من اصل أرمني، كان بدرخان «من أشجع المحاربين ومن أكثر رجال السلطة حكمة وبصيرة».<sup>٤٠٣</sup> يعتقد ذلك الباحث بأن بدرخان اتخذ خطواته ومبادراته طبقاً إلى خطة سياسية مسبقة ومنسجمة.<sup>٤٠٤</sup> لو سلط الضوء عن قرب على نشاطات بدرخان السياسية والعسكرية والاقتصادية لتم الكشف، في اقل تقدير، عن وجود أهداف مسبقة واضحة في تفكيره. لقد سعى هذا الأمير حثيثاً، سواء عن طريق الأساليب السلمية أو القسرية، إلى تحقيق أهدافه الواحد بعد الآخر، أي إعادة توحيد إمارة بوتان، وتأكيد استقلالها السياسي، والقيام بإجراءات اجتماعية واقتصادية وأمنية من أجل تحسين الأوضاع العامة، وتحقيق الوحدة السياسية عن طريق تشكيل كونفدرالية كبرى تشمل أكبر عدد ممكن من الإمارات المستقلة وشبه المستقلة فضلاً عن المناطق الكردية التي كانت تخضع إلى السيطرة الأجنبية.

يبدو ان إعادة توحيد إمارة بوتان من خلال اخضاع فينيق وكوركيل تماما إلى سلطته كانت من أولى الخطوات التي اتخذها بدرخان بعد توليه الحكم التي استهدفت تقوية معقله السياسي والعسكري في الجزيرة. من اجل تأكيد استقلاله السياسي، تجاهل الأمير بدرخان الدعوات التي وجهت إليه من قبل السلطات التركية للاشتراك مع قواتها في الحرب التركية- الروسية في عامي ١٨٢٨-١٨٢٩.<sup>٤٠٥</sup> كما رفض بدرخان تقديم أي نوع من الولاء الحقيقي إلى السلطان العثماني محمود الثاني.<sup>٤٠٦</sup> بحلول العقد الرابع، كان بدرخان، وكما تكشف محاورته مع جيمس فريزر، يرغب في تلقي دعم خارجي أوربي لحركته الاستقلالية. لقد اخبر ضيفه البريطاني عن شدة

---

<sup>٤٠٢</sup> كوجيڤرا، "ميثووي كورد له سهدهي ١٩-١٥٢٠، ص ١٣-١٤؛ وطبقاً إلى مصدر تركي، سليمان ناظف، "المناسطة، صوك تلغراف، استنبول، ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٤، ص ٢، اقتبسه مالميسانز، "بدرخانيو جزيرة بوتان، ملحق ٨، ص ٢٢٣-٢٢٥.

<sup>٤٠٣</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.54.

<sup>٤٠٤</sup> المصدر السابق، ص ٥٥-٥٦.

<sup>٤٠٥</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.55.

<sup>٤٠٦</sup>Shiel, Notes on a Journey from Tabriz through Kurdistan, p.87.

سخط الكُرد من معاملة الأتراك لهم إلى الحد الذي اصبحوا فيه على استعداد للانضمام إلى أي جيش أوربي إذا ما زحف نحو المناطق الكُردية.<sup>٤٠٧</sup> بين عامي ١٨٣٣ و١٨٣٤، عانت نشاطات بدرخان السياسية من نكسة كبيرة على أثر احتلال محمد باشا، أمير سوران، عاصمته، الجزيرة. يمكن القول، في ضوء عدم وقوع اشتباك عسكري بين سوران وبوتان وانسحاب قوات الأخير إلى حسنكيف، بأن بدرخان لم يرغب في تصعيد الصراع مع الأمير محمد. موقف بدرخان هذا ربما ساعده على التوصل إلى سلام مع أمير سوران، الذي لم يحاول منعه من العودة إلى الجزيرة.

وبعد مرور عامين تقريبا، تعرضت إمارة بوتان إلى نكسة أخرى، عندما احتل الجيش التركي بقيادة رشيد باشا الجزيرة وهو في طريقه إلى احتلال الدولة المستقلة التي أقامها الأمير محمد في كُردستان الجنوبية. دمر الجيش التركي الجزيرة ونهب ممتلكات أهاليها.<sup>٤٠٨</sup> كما قتل الذكور وسبيت النساء والأطفال، طبقاً إلى شهادة هميلتون مولتكه، الضابط البروسي الكبير الذي كان موجوداً في المناطق الكُردية مع الجيش التركي.<sup>٤٠٩</sup> برغم فرض سلطته في الجزيرة مرة أخرى، خرجت كوركيل وفينيق، على ما يبدو، من سيطرة بدرخان. فقد حكم الأولى الأمير سعيد وحكم الثانية صهره الأمير سيف الدين، ابن عم بدرخان.

لقد عززت التجريبتان المريرتان أنفتا الذكر من قناعة الأمير بدرخان بضرورة تحسين علاقاته السياسية مع الإمارات الكُردية الأخرى بصفته شرطاً أساسياً لمسألة إنهاء النفوذ الأجنبي في المناطق الكُردية وتوحيدها. أدرك الأمير بدرخان تماماً بأن الأتراك والإيرانيين عملوا على احتواء قدرات الإمارات الكُردية عن طريق ضرب أمير كُردي بأمير آخر. بتعبير آخر، على النقيض من الأمير محمد الذي اعتمد بشكل أساسي على القوة في توحيد المناطق الكُردية، لجأ الأمير بدرخان إلى وسائل سياسية

<sup>٤٠٧</sup>Mignan, A Winter Journey through Russia, the Caucasian Aslp and Georgia, vol.1, p.285 & vol.2, p.174.

<sup>٤٠٨</sup> جليلي جليل، "من تاريخ الإمارات الكُردية في الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر"، ترجمة محمد عبدو النجاري، (بيروت: ١٩٨٧)، ص ١٠٠.

<sup>٤٠٩</sup> عبد الفتاح علي يحيى، الكورد وكوردستان في رسائل الفيلد مارشال هميلتون كارل مولتكه، مجلة الأديب الكُردية، العدد ٤، بغداد، ١٩٩٢، ص ١٤.



في مساعيه لتوحيد صفوف الإمارات في اطار كونفدرالية كبيرة تستند لا إلى دعم الأمراء الرئيسيين والثانويين فقط وإنما كذلك القادة الدينيين ووجهاء المدن.

بدا الأمير بدرخان، ومنذ اوائل العقد الرابع، بعقد سلسلة من الاتصالات السرية مع العديد من الأمراء ورؤساء القبائل وكبار رجال الدين واعيان المدن في مختلف ارجاء كردستان، واستطاع في نهاية الامر تشكيل تحالف سياسي - عسكري واسع انضم إليه معظم الأمراء الكرد. سرعان ما تحول التحالف إلى كونفدرالية سياسية كبرى نالت تأييد كبار رجال الدين وقادة القبائل. لقد شكل ظهور الكونفدرالية الإماراتية أهم تطور سياسي في التاريخ الكردي منذ أوائل القرن السادس عشر عندما تحالف الكثير من الأمراء الكرد سياسياً وعسكرياً في سبيل إنهاء السيطرة الصفوية على المناطق الكردية. يجب النظر الى قيام الكونفدرالية على انه كان إنجازاً سياسياً عظيماً، بسبب كثرة المعوقات الداخلية، كالتبعية القبلية للمجتمع الكردي حينئذ وكثرة الصراعات السياسية، وكذلك كثرة التدخلات الخارجية في الشؤون الكردية الداخلية.

على النقيض من الجانب المؤقت في التحالف الذي دخل فيه الأمراء الكرد في أوائل القرن السادس عشر، اتخذت الكونفدرالية شكل ميثاق بين مختلف الأمراء استهدف الوحدة السياسية والقضاء على أي نفوذ أو سيطرة خارجية على المناطق الكردية.<sup>٤١٠</sup> يقول سافرستيان ان الأمير بدرخان بذل كل ما في وسعه من اجل إقناع خان محمود، أمير محمودي، ونور الله، أمير هكاري، في تنفيذ مخططه الذي استهدف إقامة كردستان موحدة ومستقلة.<sup>٤١١</sup> يبدو ان نجاح بدرخان في كسب هذين الأميرين البارزين قد سهل من مهمته في إقناع الكثير من الأمراء والقادة القبليين الآخرين بالانضمام إلى حركته من مناطق خزان وفان وموكریان<sup>٤١٢</sup> وقارص وآجر<sup>٤١٣</sup>. ان من أهم الشخصيات التي انضمت إلى الميثاق الكردي هو أمير بادينان وأمير بتليس وزعيم

<sup>٤١٠</sup> طبقاً إلى جلادت بدرخان عرف هذا الميثاق بالاتفاق المقدس أو المبارك. راجع كتابه ماضي الكرد وحاضرهم، الذي نشره باسم شيركو.

<sup>٤١١</sup> Safrstian, Kurds and Kurdistan, pp.55-56 & Wagner, Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, vol.3, pp.261 & 263.

<sup>٤١٢</sup> ماليسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٤٢.

<sup>٤١٣</sup> نيكيكين، الكرد، ص ٣٠٣.

برادوست وشيروان. يبدو ان أمير اردلان اعلن في السر تأييده لقيام الكونفدرالية الإماراتية.<sup>٤١٤</sup>

وفضلاً عن الأمراء وقادة القبائل، استطاع بدرخان كسب تأييد أهم كبار رجال الدين ذوي النفوذ في مقدمتهم الشيخ طه النهري في منطقة هكاري<sup>٤١٥</sup> والشيخ محمود الموصللي والشيخ يوسف زاخوي والشيخ محمد هروري في منطقة بادينان.<sup>٤١٦</sup> طبقاً إلى قول البرت حوراني، تحالف الأمير أيضاً مع أعيان الموصل الساخطين على الحكم التركي.<sup>٤١٧</sup> على هذا النحو، وبحلول نهايات العقد الرابع، حلت الجزيرة محل راوندوز بوصفها معقلاً رئيساً لحركة سياسية-عسكرية جديدة كبرى، وتحول الأمير بدرخان، في الوقت نفسه، إلى قائد لكيان كونفدرالي كردي مستقل. كان يشار إلى بدرخان على انه حاكم وأمير كردستان كما كانت تُقرأ خطبة الجمعة باسمه زهاء ١٢ عام.<sup>٤١٨</sup> بهذا النحو استطاع بدرخان كسب احترام وولاء الأمراء الكرد المعاصرين، فضلاً عن عامة السكان من فلاحين وعشائريين، مسلمين وغير مسلمين. لكل هذه الأسباب شكل بدرخان اقوى تهديد للمصالح التركية منذ ١٥١٤-١٥١٥، والذي شعرت به حتى الدوائر الدبلوماسية والسياسية الأوربية (البريطانية والفرنسية والروسية) في كردستان وفي استنبول.

كان لقيام الكونفدرالية الإماراتية تأثير مباشر في الوضع السياسي الكردي، حيث بادر عدة أمراء الى تحرير المدن والمقاطعات الكردية التي خضعت للحكم التركي المباشر. بدعم عسكري من لدن بدرخان ونور الله، استطاع سعيد باشا، أمير بادينان

<sup>٤١٤</sup> جليلي جليل، "من تاريخ الإمارات الكردية"، ص ٢١٤؛ مستوروي كوردستاني، "ميژووي ئهدهلان"، ترجمه إلى الكردية حسين جاف وشوكر مصطفى، (بغداد: ١٩٨٩)، ص ١٩٤-٢٠٣؛ نيكيئين، الكرد، ص ٣٠٣.

<sup>٤١٥</sup> Layard Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.

<sup>٤١٦</sup> شيركو، "ماضي الكرد وحاضرهم"، ص ٥٢؛ ماليسانز، "بدرخانيو جزيرة بوتان"، ص ٤٢.

<sup>٤١٧</sup> Hourani Ottoman Reform and the Politics of Notables, p.63.

<sup>٤١٨</sup> ماليسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٣٥، نقلاً عن "الأمير بدرخان"، ناشره لطفلي، ماليسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٤٥، باسم جمعية الكرد، مطبعة الاجتهاد، ص ١٣.

السابق، من دخول عاصمة الإمارة، العمادية، ليفرض سلطته عليها مرة أخرى،<sup>٤١٩</sup> في حين بسط أمير بتليس، شرفخان، سيطرته على المقاطعات الكُردية المحيطة بإمارته.<sup>٤٢٠</sup> وهاجمت بدورها قوات خان محمود، التي تمركزت سلطته في قلعة موكس إلى الجنوب من بحيرة فان، مدينة فان واستولت عليها.<sup>٤٢١</sup> لاحظ جي شيل أثناء سفرته أنه، ومنذ أواسط عام ١٨٣٦، انحسر نفوذ والي فان التركي إلى السهول القريبة بسبب ازدياد قوة خان محمود، الذي كان الحاكم الفعلي للمقاطعات الكُردية.<sup>٤٢٢</sup> أما أخوا الأمير خان محمود، عادل ومراد، فقد سيطرا على خوشناو وقلعتها الاستراتيجية والمقاطعات الكُردية القريبة منها.<sup>٤٢٣</sup> في أعقاب انتهاء الصراع العسكري بين أمير سوران والسلطات التركية، بدأ بدرخان باسترجاع المناطق التي فقدها، وفرض سيطرته على مقاطعتي ويرانشهر وسنجان. بحلول عام ١٨٤٠، بسط الأمير بدرخان سيطرته المباشرة وغير المباشرة على مناطق كُردية شاسعة امتدت من اطراف مدينة دياربكر في الغرب إلى ما وراء الحدود القاجارية- العثمانية في الشرق.<sup>٤٢٤</sup>

امتد تأثير قيام الكونفدرالية الإماراتية إلى مدن كُردستان الصغرى وقراها، خاصة تلك التي خضعت إلى السيطرة القاجارية. فقد انتشرت أنباء انتصارات الأمراء الكُرد ضد الأتراك والنساطرة إلى المدن والقرى الكُردية القريبة من الحدود القاجارية- العثمانية، حيث رحب السكان الكُرد، خاصة في اورمية وسابلاغ ومياندواب بتلك التطورات. كان قادة القبائل الأذربيجانية قد استولوا على الأراضي

<sup>٤١٩</sup> في عام ١٨٣٩، نظم بيرقدار والي الموصل حملة جديدة أخرى ضد إمارة بادينان نتج عنها سقوط العمادية وعقرة ودهوك، واسر بعض افراد السلالة الحاكمة الذين ارسلوا إلى الموصل وبغداد، Grant, 'The Nestorians or the Lost Tribes', pp.39-40. لونغريك، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص٢٨٦. أما الأمير سعيد فقد فر إلى اشنوية ومن ثم التجأ إلى اميري هكاري وبوتان بامل اعداد حملة عسكرية جديدة لتحرير بادينان من سيطرة بيرقدار.

<sup>٤٢٠</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.35.

<sup>٤٢١</sup> المصدر السابق، ص٣٩١.

<sup>٤٢٢</sup> Shiel, 'Notes on a Jounrey from Tabriz through Kurdistan', p.66.

<sup>٤٢٣</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.385.

<sup>٤٢٤</sup> لم يسيطر بدرخان على مدينتي ديار بكر والموصل، كما اعتقد نيكيتين في كتابه "الكُرد"، ص٣٠٣.

التابعة للقبائل الكُردية في تلك المناطق، وتحول أبناء تلك القبائل وكذلك المسيحيين إلى مجرد رعية تزرع الأرض مقابل إعطاء حصّة الاسد من المحصول إلى قادة القبائل الأذربيجانية الذين كانوا، في الوقت نفسه، ممثلي الحكومة المركزية. ويكشف واغندر بعد اطلاعه على تلك المناطق الكُردية (الذي تزامن مع قيام الكونفدرالية الإماراتية) عن سوء طالع السكان في سهل اورمية، الذين لم يقدرُوا إلا بشق الأنفس على حماية أبنائهم من الجوع، وحيث عانوا من «سراقات فظيعة وظلم الملاكين الفرس»<sup>٤٢٥</sup> وأعيانهم الذين وزع عليهم الشاه القرى»، إضافة إلى ذلك، كان على الرعية من السكان، طبقاً إلى شهادة واغندر، تسديد ضريبة كبيرة مباشرة إلى الخزينة المركزية في طهران، حيث بلغت ٦٥،٠٠٠ تومان سنوياً.<sup>٤٢٦</sup>

شجعت التطورات السياسية السريعة في كُردستان الكبرى أهالي اورمية وصابلاغ ومياندواب على عدم تسديد اية أموال إلى جباة الضرائب الإيرانيين، مهددين في الوقت ذاته بأنهم سينضمون إلى الكونفدرالية الكُردية.<sup>٤٢٧</sup> يقول واغندر بأن الأحداث السياسية في كُردستان الكبرى أثارت السكان الكُرد على جانبي سلسلة جبال زاكروس، حيث اتخذوا «مواقف تهديدية» تجاه الحكم القاجاري.<sup>٤٢٨</sup> وقد خلقت أُنباء القتال بين إمارتي بوتان وهكاري، من جانب، والنساطرة، من جانب ثانٍ، ردود فعل قوية في اورمية وصابلاغ وغيرها من المقاطعات الكُردية المجاورة،<sup>٤٢٩</sup> حيث عبر سكانها الكُرد عن تضامنهم التام مع الأمير بدرخان، واتخذوا الاستعداد، بحسب التقارير البريطانية، من أجل المشاركة في القتال.<sup>٤٢٩</sup> كما تخوف كثيراً ممثلو السلطات القاجارية المركزية في

<sup>٤٢٥</sup> المقصود هنا الأذربيجانيين.

<sup>٤٢٦</sup>Wagner, Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, vol.3, p.239.

في عام ١٨٣٣، أي قبل عشرة أعوام تقريباً على زيارة واغندر، اعطى اثنان من المبشرين المسيحيين الأميركيان نفس الصورة للوضع الاقتصادي المزري الذي عانى منه السكان.

Smith and Dwight, Missionary Researches in Armenia.

<sup>٤٢٧</sup>Wagner, Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, vol.3, p.202.

<sup>٤٢٨</sup> المصدر السابق، ص ٢٠٣، ٢٢٣.

<sup>٤٢٩</sup>British Documents on Foreign Affairs (B DFA): Reports and Papers from the Foreign Office Confidential Prints, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, Editor David Gillard, (University Publications of America, 1984), Memorandum Respecting the Persecution of the Nestorian Christians by the Turks, Persians and the Kurdish Chiefs, E. Hertslet, 2 December 1876: Colonel-Lieutenant

المناطق الكُردية من تلك التطورات، التي كانت تحصل على جانبي الحدود. ولم يبد حكام المقاطعات اية مقاومة تذكر عندما بسط بدرخان سيطرته على اورمية وصابلاغ واشنوية. هكذا وفي أوج قوته السياسية والعسكرية، امتدت سيطرة الأمير بدرخان المباشرة وغير المباشرة من اطراف مدينة دياربكر ومقاطعة سنجار غرباً إلى سواحل بحيرة اورمية الغربية وصابلاغ شرقاً (أنظر خريطة رقم ٥).

هناك عامل هام جديد ساعد على تقوية الروح الاستقلالية عند الإمارات ويتمثل بتأسيس المؤسسة الصوفية النقشبندية. قبل تناول التحول النوعي في مواقف هذه المؤسسة من الضرورة الحديث قليلاً عن الصوفية. ان الصوفية تقاليد قديمة ضمن إطار الثقافة الإسلامية التي تجمع معاً التهذيب وحُب المعرفة والنقاء الاخلاقي والقوة الروحية. يبشر الصوفيون بالاخوة شاملة والتسامح والمحبة بغض النظر عن الدين والعرق والعمر. ارتبطت الصوفية في كُردستان بمحبة الشعر والموسيقى. استمدت النقشبندية قوتها من توغلها في جميع أقسام المجتمع الكُردى بسبب عجز المؤسسات الدينية التقليدية المرتبطة بالدول الإسلامية المجاورة في فرضها سيطرتها الروحية بمختلف الوسائل السلمية والقسرية. ولم تكن المؤسسة النقشبندية (والأمر نفسه ينطبق كذلك على القادرية) موازية للمؤسسات الدينية التقليدية فحسب وإنما كانت في كثير من الاحيان المؤسسة القيادية الوحيدة التي كانت تؤدي وظائف اجتماعية وتعليمية وروحية. حتى عام ١٨٧٩، فضل قادة الطريقة الصوفية النقشبندية العمل وراء الستار في المجال السياسي تاركين تمثيل المصالح الاجتماعية والاقتصادية للقيادات العلمانية الكُردية خاصة أبناء الاسر الأميرية. تغير الوضع تماماً بسبب الفراغ السياسي الذي تركه غياب الاسر الأميرية واشتداد الانقسامات القبلية بسبب سياسة تفرقة الصفوف التي اتبعها الأتراك، واضطر قادة النقشبندية في عهد عبيد الله النهري إلى ملء ذلك الفراغ بتنظيم أول حركة سياسية قومية الملامح وذلك بالاستفادة من شبكاتهم المتشعبة في كُردستان من الانصار والمريدين.

في عهد الأمير بدرخان برز الشيخ سيد طه النهري كأبرز زعيم ديني في كُردستان عقب وفاة الشيخ خالد في عام ١٨٢٧ نتيجة لقيادته الطريقة النقشبندية

---

Sheil, no.70, 31 August 1843, pp.2772, Consul Abbott, 21 August 1843, Inclosure in Sir S. Canning no.208, 1 October 1843, p.274.

الصوفية. شكل دعم هذا الشيخ المطلق لفكرة استقلال الإمارة عن حكم السلطان العثماني أحد عوامل الجذب المهمة نحو الكونفدرالية لدى عامة الكُرد. كانت الطريقة النقشبندية قد بدأت بالانتشار السريع على حساب منافستها القادرية في الأجزاء المركزية والشمالية والغربية من كُردستان. استمدت النقشبندية أهميتها الروحية والسياسية نتيجة للتغيير الحاصل في علاقة الشيخ خالد مع السلطات التركية. ففي فترة ما بين عامي ١٨٢٠ و١٨٢٧، ازداد نفوذ الشيخ خالد بسرعة كبيرة بالانسجام مع انتشار النقشبندية في أوساط الكُرد وغير الكُرد إلى الحد الذي أثار فيه مخاوف السلطات التركية. لم تتجاهل تعاليم النقشبندية القيم الدينية التي مثلها حكم السلطان التركي بوصفه خليفة لكل المسلمين فقط وإنما رفضت الأوضاع الاجتماعية والسياسية المتدهورة في المناطق الكُردية. فوق ذلك، كانت النقشبندية تبشر بحياة روحية جديدة خلافاً للارثودوكسية الإسلامية السائدة القائمة على القبول بما هو موجود والتكيف معه. بدأ رئيس الطريقة النقشبندية يمثل بالنسبة إلى الكثير من الكُرد، وبغض النظر عن خلفيتهم الاجتماعية، قائداً روحياً سامياً، بدلاً عن السلطان التركي أو الشاه الإيراني.

بدأت السلطات التركية باضطهاد الشيخ خالد واتباعه حالما تيقنوا من انه لن يكون أداة بيدهم يستخدمونها متى شاءوا. ففي عام ١٨٢٠، اجبر والي ولاية بغداد ذلك الشيخ على ترك المدينة. وواصلت السلطات التركية في الأقاليم نشاطاتها في مضايقة الشيخ خالد وراقبت عن كثب تحركاته واتصالاته في سوريا، التي استقر ومات فيها بعد تركه لمدينة بغداد. في عام ١٨٢٦، اتخذ اضطهاد السلطات التركية اتباع الشيخ خالد والنقشبنديين طابعاً رسمياً، عندما اصدر السلطان محمود الثاني فرماناً يحرم نشاطات خلفاء (ممثلي) الشيخ خالد. كما قامت السلطات التركية باعتقال ممثليه في مدينة استنبول، حيث تم إرسالهم إلى بغداد من اجل التخلص منهم. كانت لتلك الإجراءات المعادية للطريقة النقشبندية آثار وأبعاد كبيرة بالنسبة إلى الوضع السياسي في كُردستان. فنتيجة للاضطهاد الرسمي والعلني من جانب السلطات التركية، حول العديد من النقشبنديين نشاطاتهم إلى المناطق الكُردية الجبلية البعيدة حيث يوجد حكام كُرد أقوياء قادرين على توفير الحماية لهم. تلك كانت الخلفية التاريخية لتحول نهري، وهي مدينة كُردية صغيرة في إمارة هكاري، إلى

معلقل رئيس للطريقة النقشبندية وقادتها خلال العقد الرابع من القرن التاسع عشر. لقد ساعد موقع نري الجغرافي في قلب كُردستان، من ناحية، وتوفير الحماية من قبل الأمراء وقادة القبائل، من ناحية ثانية، النقشبنديين على نشر تعاليمهم في المناطق الكُردية المجاورة المستقلة أو شبه المستقلة.

في نهايات العقد الرابع من القرن التاسع عشر، صارت النقشبندية مؤسسة قوية ذات طابع شعبي لم تجذب إلى صفوفها أبناء القبائل فقط وإنما كذلك أفراد الفئات الاجتماعية الدنيا، الذين أهملتهم المؤسسة القادرية، مثل الفلاحين والباعة والحرفيين وغير القبليين من الكُرد بشكل عام. كما انجذب الأمراء، الذين تحدوا السلطات التركية في تلك الفترة، إلى النقشبندية بسبب خلافاتها مع تلك السلطات ولما تملكه من شبكة متشعبة واسعة من الانصار والمُريدين. لقد ساعد الوضع السياسي المتأزم الناتج عن صراع الامارات الكُردية مع الإمبراطورية العثمانية وقدم رجال الإرساليات المسيحية الإنكليزية والأمريكية قادة النقشبندية تدريجياً على ان يلعبوا دورا ملحوظا في القضايا المحلية السياسية والاجتماعية في المناطق المستقلة الكُردية. ففي تلك المرحلة بالضبط التي تسيّست فيها المؤسسة النقشبندية برز الشيخ طه قائد أعلى للنقشبنديين في العديد من مناطق كُردستان الكبرى والصغرى، والذي رأى فيه الكُرد «قديساً عظيماً» على حد تعبير ليارد. وكلما اتخذت النقشبندية في نشاطاتها ومواقفها اتجاهاً مناوئاً للسلطات التركية، كلما تَكَرّدت في توجهاتها إلى الحد الذي أصبحت في أذهان الكُرد، أو نخبهم الحاكمة في الاقل، تعبير جديد عن الإرادة الاستقلال والتضامن الداخلي. ومن جانبهم، رأى قادة النقشبندية في اتحاد الأمراء الكُرد ودخولهم في صراع مع السلطات التركية فرصة تسهل من تعزيز نفوذهم الروحي بين السكان الكُرد. لكل تلك الأسباب لم يتردد الشيخ طه في إعلان مساندته الكبيرة إلى الكونفدرالية الإماراتية في حربها مع جيوش الإمبراطورية العثمانية. لقد شعر الأمراء والقادة المحليون بالفخر، كموسى بك رئيس مقاطعة شمدينان، لدى قيام الشيخ طه بمباركة نشاطاتهم المعادية للحكومة التركية.<sup>٤٣٠</sup>

في الوقت الذي اقر بقيادة بدرخان السياسية للكونفدرالية الإماراتية، اتخذ الشيخ طه دور الممثل الروحي لها. كان دور الشيخ طه هذا حيويًا. نظرًا لان الكُرد

<sup>٤٣٠</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.376.

كانوا في صراع مع جيوش السلطان العثماني، الذي استندت شرعيته على فكرة انه خليفة جميع المسلمين، كان من الضروري جدا ان يملك الأمراء الكُرد تبريراً دينياً لموقفهم المعادي للخليفة- السلطان. لقد اعطى الشيخ طه الأمراء الكُرد مثل هذا التبرير من خلال شجبه علنا لسياسة حكومة السلطان باعتبارها «كافرة»، على حد تعبير ليارد.<sup>٤٣١</sup> في ضوء ما تقدم يمكن القول بان جذور الترابط المستقبلي بين القيادة الوصفية النقشبندية والحركات القومية التحررية الكُردية، التي بدأت تظهر منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، تعود إلى فترة صراع الكونفدرالية الإماراتية مع الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من ذلك القرن، عندما قرر الشيخ طه، والد الشيخ عبيد الله النهري زعيم اولى الحركات القومية الكُردية، تقديم دعمه لها.

### **سمات عهد الأمير بدرخان الاجتماعية والاقتصادية والسياسية**

بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٤٧، شهدت المناطق الكُردية الخاضعة لسلطة الكونفدرالية الإماراتية، خاصة المقاطعات البوتانية، تحولات إيجابية ملحوظة في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العامة للسكان. يرجع السبب الرئيسي في حدوث تلك التحولات إلى شخص الأمير بدرخان ووعيه التام بضرورة تغيير كافة اوجه الحياة في المناطق الكُردية المستقلة. بتعبير اخر، عد الأمير بدرخان تحسين أوضاع المجتمع الكُردى امتدادا لمساغيه السياسية والعسكرية في تشكيل كيان كُردى موحد ومستقل. يؤمن الكثير من الباحثين الكُرد والأجانب كجليلي جليل ورسول هاوار وسافرستيان، بأن للأمير بدرخان العديد من الصفات السامية التي ميزته عن بقية الأمراء المعاصرين له، كبعد النظر، والتسامح الديني في تعامله مع الجماعات غير المسلمة، خاصة المسيحية. ولم يكن بدرخان في نظرهم مجرد داعية إلى الوحدة السياسية والاستقلال فقط وإنما أيضاً إلى السلم والاستقرار والعدالة والتطور.<sup>٤٣٢</sup>

<sup>٤٣١</sup> المصدر السابق.

<sup>٤٣٢</sup> جليل، "من تاريخ الإمارات"، محمد رسول هاوار، سمو: "ئيسماعيل ناغاي شكاك وبزوتنه وهى نهتهوايه تي كورد"، (السويد: ١٩٩٦).



على النقيض من تصورات هؤلاء الباحثين، يصف هنري ليارد بدرخان بأنه ليس سوى «رجل متعصب دموي» (اضطهد المسيحيين)<sup>٤٣٣</sup> (المزيد من التفاصيل عن وجهة نظر ليارد في الصفحات التالية). ان ما يستحق التأكيد في هذا الصدد هو وجود جملة دوافع سياسية وراء الصورة السلبية المطلقة التي يقدمها ليارد (وغيره من الموظفين البريطانيين) عن صفات بدرخان الشخصية ومميزات عهده، ألا وهي دعمه المطلق لفرض حكم تركي مباشر في المناطق الكُردية المستقلة وهو ما كان ينسجم مع المصالح البريطانية الاستراتيجية والاقتصادية في منتصف القرن التاسع عشر. إضافة إلى ذلك، تناقضت آراء ليارد تماماً مع شهادات عدد من المعاصرين الأجانب، خاصة مستر رايت ومستر بريث، وهما من رجال الإرسالية الأمريكية في اورمية، الذين دعاهما بدرخان لزيارة مقره في داركوله في شهر حزيران عام ١٨٤٦.<sup>٤٣٤</sup> قدم هذان الرجلان «افضل واكمل صورة عن بدرخان»، على حد تعبير سافرستيان،<sup>٤٣٥</sup> لأنهما كانا ضمن عدد محدود من الزوار الأجانب الذين شاهدوا ولمسوا عن قرب التحسن الكبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المناطق الكُردية المستقلة الخاضعة لحكم الأمير بدرخان. فضلاً عن هذا، ونظراً لكونهما مبشرين مسيحيين أجانبين، لم تكن لرايت وبريث مصلحة شخصية في إعطاء صورة إيجابية عن شخص كان الموظفون البريطانيون (على رأسهم سي أي رسام، نائب القنصل البريطاني في الموصل وستيفنز، القنصل البريطاني في طرابزون) يتهمونه جهاراً بمعاداة المسيحية.

<sup>٤٣٣</sup>Layard, *Autobiography and Letters from his Childhood*, vol.1, p.299.

<sup>٤٣٤</sup>Wright and Breath, *Visits of Messrs Wright and Breath to Bader Khan Bey*, in *Missionary Herald*, vol. 42, November 1846, pp.378-381 or *The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870*, Part One., vol.42, 1846, pp.625-628.

إضافة عبارة "شمال العراق" من قبل مُعدي إلى عنوان المجلدات الثلاثة التي تضمنت تقارير ورسائل المبشرين تتنافى مع القواعد الاخلاقية والأمانة التاريخية التي تدعو إلى ضرورة الالتزام بالمصطلحات التاريخية التي تم ذكرها في تلك التقارير والرسائل. لم يذكر ولو لمرة واحدة أي من المبشرين عبارة "شمال العراق" ولم تكن المسرح الرئيسي للأحداث كُردستان الجنوبية والتي يحلو لبعض الأفراد ممن لا يحملون موقف ودي تجاه الشعب الكُرد بتسميته "شمال العراق". كانت المناطق المركزية والشرقية من كُردستان هي المسرح الرئيسي لنشاطات رجال الإرساليات المسيحية، الأمريكية منها والإنكليزية. وكل هذه المناطق تقع خارج حدود الدولة العراقية الحديثة.

<sup>٤٣٥</sup>Safrastian *Kurds and Kurdistan*, p.54.

طبقاً إلى مشاهدات رايت وبريث، كان بدرخان قائداً عطوفاً لم يتردد بصورة منتظمة على تقديم المساعدات المادية لكل الذين لجئوا إليه من فقراء ومعوقين وإيتام وأرامل:

في ظل حكومة بدرخان، لن يستطيع المذنب التهرب من المسؤولية إذ لم يكن هنالك وجود للرشوة والمحسوبية الخ، التي غالباً ما كانت تقف في طريق العدالة في تلك البلدان... كان الأمن مهيمناً في تلك الأجزاء النائية من كردستان إلى الدرجة التي لا يعي فيها الفرد بأنه في مكان قيل عنه انه كان مسرحاً للسرقة والقتل.<sup>٤٣٦</sup>

وأكد لوري، أحد المبشرين الامريكان، هو الآخر على الأمن الكبير الذي وفره بدرخان للمسافرين في المناطق الكردية.<sup>٤٣٧</sup> كما أثنى عدد من الأجانب الذين زاروا المناطق الكردية المستقلة، من بينهم مراسل فرنسي ودبلوماسي فرنسي ورحالة روسي،<sup>٤٣٨</sup> حكومة الأمير بدرخان لتوفيرها العدالة وفعاليتها في فرض الاستقرار وتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لعامة السكان، خاصة الفلاحين. ينقل نيكيتين في كتابه "الكرد" إحدى الشهادات الارمنية التي اكدت بان بدرخان «كان يُمارس سياسية دينية مثالية، وكان يعد نفسه بمثابة زعيم روحي للمناطق المحررة من الاحتلال التركي».<sup>٤٣٩</sup> بهذا الصورة تتناقض شهادة عدد من رجال الإرسالية الأمريكية والزوار الأوربيين تماماً مع ادعاءات ليارد حول تعصب بدرخان الديني وتعسف سلطته.

مثملاً كان الحال عند الأمير محمد، ادرك بدرخان ان تحقيق الوحدة والاستقلال يتطلب اتخاذ خطوات عاجلة تنهي حالة التسبب الأمني والانقسام السياسي والفوضى الاجتماعية في المناطق الكردية.

<sup>٤٣٦</sup>Wright and Breath, Visits of Messrs Wright and Breath to Bader Khan Bey, pp.378-383 & The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.42, 1846, pp.625-626.

<sup>٤٣٧</sup>The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.40, 1844, p.508.

<sup>٤٣٨</sup>كريس كوجيرا، "ميثووي كورد له سهدهى ١٩-٢٠ دا"، ص ٤٣-٤٥.

<sup>٤٣٩</sup>نيكيتين، الكرد، ص ٣٠٣.

بتعبير اخر، لم يبشر بدرخان بتحرر سياسي فقط وإنما باستقرار اجتماعي وأمني وازدهار اقتصادي. كان إعادة تفعيل النشاط الزراعي من أهم الخطوات التي تبناها الأمير بدرخان. يقول ديتيل، المستشرق الروسي، في ضوء مشاهداته شخصياً في عام ١٨٤٢:

يقدم بدرخان بك إلى كل شخص قطعة صغيرة من الأرض، ويدفع عنها كل كردي بضعة قروش... وفضلاً عن ذلك، فانه يفرض ضريبة الرأس على الماشية، الا ان هذه الاجرة زهيدة أيضاً. ومقابل ما يحصل عليه الكردي، يقدم إلى الخان ثلث الكمية التي تنتجها ارضه.<sup>٤٤٠</sup>

ليس من المصادفة ان تشجع خطوة بدرخان تلك العديد من الفلاحين على الهجرة إلى المناطق الكردية المستقلة الواقعة تحت سيطرته لتوفر فرص حياة اجتماعية واقتصادية وامنية افضل بكثير من المناطق الخاضعة إلى الحكم التركي المباشر. وليس من المصادفة أيضاً ان تنتعش الزراعة في المناطق الكردية الخاضعة لحكم الأمير بدرخان. فقد لاحظ أحد الدبلوماسيين الفرنسيين خلال مروره في بوتان في عام ١٨٤٥ تحسناً ملحوظاً في أوضاع فلاحي تلك المناطق، والتي استتب الأمن تماماً فيها.<sup>٤٤١</sup> وتدلل مشاهدات ديتيل على تحسن ملموس في معيشة الكرد من الرحل وشبه المستوطنين.

من الطبيعي ان يساعد استتباب الأمن والاستقرار وتنشيط الزراعة في عهد الأمير بدرخان على تفعيل النشاطات التجارية في المناطق الكردية الغربية. كانت الجزيرة، التي وقعت على مفترق للطرق التجارية، تعاني ومنذ أعوام عديدة من تدهور مستمر في نشاطها الاقتصادي بسبب عجز الحكام المحليين في توفير الأمن والحماية

<sup>٤٤٠</sup> دانتسيغ، "الرحالة الروس في الشرق الأوسط"، ص ٢٤٠.

يجب التذكير هنا بان نسبة الثلث من المحصول الزراعي التي كانت تذهب إلى خزينة بوتان هي نسبة قليلة بشكل ملحوظ مقارنة بالاستغلال اللامحدود الذي كان يتعرض له الفلاح في المناطق الخاضعة إلى السيطرة الإيرانية والتركية المباشرة حيث كان عليه إعطاء القسم الأكبر من محصوله والذي كان يتراوح ما بين نسبة ٧٥٪ و ٩٠٪.

<sup>٤٤١</sup> شيركو، ماضي الكرد وحاضرهم، ص ٤٢ وماليسانز، "بدرخانوي جزيرة بوتان"، ص ٣٩. راجع أيضاً هروري، "إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان ١٨٢١-١٨٤٧".

للقوافل التجارية المارة. فضلاً عن ذلك، يقال ان بدرخان بدأ بصنع السفن وتنشيط ملاحه السفن في بحيرة وان من اجل تشجيع النشاط التجاري بين المناطق المحيطة بها.<sup>٤٤٢</sup> في عام ١٨٤٢، سك بدرخان نقوداً كُردية. لم يكن هذا الاجراء المالي أو ذكر اسم بدرخان في خطبة الجمعة بظاهرة جديدة. فقد اعتاد الكثير من الأمراء اتخاذ مثل تلك الإجراءات في القرون السابقة. لكن، نظرا لان تلك المرحلة كانت تشهد صراعا مصيريا بين الإمارات والإمبراطورية العثمانية صار لمسالة سك النقود وذكر اسم الأمير في صلاة الجمعة أهمية خاصة لتأكيدهما الواضح على استقلال المناطق الكُردية السياسي. ربما كان بدرخان يهدف أيضا من وراء إصدار عملة كُردية إلى تعزيز مكانة بوتان المالية والتجارية داخل الكونفدرالية الإماراتية. بتعبير أدق، كان بدرخان يهدف من وراء إصلاحاته الاقتصادية والمالية والعسكرية إلى توطيد مكانة بوتان القيادية داخل الكونفدرالية.

لم يكن في مقدور بدرخان فرض الاستقرار والأمن وحل الكثير من المعضلات الأخرى دون ان يحكم بيد من حديد وبحزم شديد. فهو لم يكن غافلاً أيضاً عن ان تحقيق طموحاته السياسية وتطوير قدرته العسكرية يتطلب إجراء تحسين كبير وسريع في كافة اوجه الحياة في بوتان والمناطق الكُردية المجاورة. يعود الفضل في القضاء على ظاهرة قطاعي الطرق والعداءات القبلية وفي توفير الأمن للممتلكات والأفراد، بغض النظر عن خلفيتهم الاجتماعية والدينية، إلى الأسلوب الحازم الذي حكم به بدرخان، بحيث حول بوتان إلى واحة يعمها الاستقرار على النقيض من المناطق التي كانت تخضع لحكم الأتراك مثل بغداد وحلب والبصرة.

لقد ازدادت وبسرعة كبيرة قدرة بدرخان وسمعته بين سكان مختلف المناطق الكُردية نتيجة لاعماله المختلفة، بحيث اصبح قائدا للكونفدرالية الكُردية اقر له بالزعامة دون إجبار العديد من الأمراء المهمين، أمثال أمير بتليس ومحمودي وهكاري وبادينان. يقول كل من رايت وبريث:

قام أغلبية الرؤساء في كردستان الشمالية بزيارة بدرخان بك احتراماً له. يبدو ان حتى نور الله الهكاري، ذو الشأن الكبير والذي كان اقوى منه في الماضي،

<sup>٤٤٢</sup> جليلي، من تاريخ الإمارات، ص ١٣٥.

وخان محمود الموكسي تشرفا في ان يكونا في خدمته... ولم يجرؤ الكثير من

الرؤساء الشجعان على إبداء أية معارضة تجاهه.<sup>٤٤٣</sup>

كان الإقرار بقيادة الأمير بدرخان من قبل الكثير من الأمراء إنجازاً سياسياً غير مألوف، نظراً لانقسام كردستان ومنذ قرون طويلة إلى كيانات سياسية صغيرة لم تستطع الواحدة منها توفيق مصالحها مع الأخرى. تحول بدرخان بفضل إنجازاته الداخلية، من ناحية، وتحديه العلني للإمبراطورية العثمانية، من ناحية ثانية، إلى شخصية جذابة جداً بين السكان من المسلمين وغير المسلمين حتى بعد وفاته بعقود طويلة، حيث توارث أهالي بوتان، إلى يومنا هذا، الكثير من الأناشيد والقصص الشعبية التي تناولت شجاعة الأمير بدرخان وعدالته.

اتصفت الكونفدرالية الإماراتية بميزتين خاصتين مقارنة بالحركة التي قادها محمد باشا، أمير سوران. أولاً، وسع الأمير بدرخان كثيراً من القاعدة الجماهيرية لحركته السياسية من خلال تامين دعم سكان المناطق الكردية من مسلمين ومسيحيين وايزديين. ثانياً، سعى الأمير بدرخان وبجدية إلى تقليص الآثار السلبية للميول القبلية بين أنصاره. ففي هذا الشأن، أقام بدرخان علاقة وثيقة مع رجال الدين الكبار كالشيخ طه الذي تمتع بنفوذ روحي كبير تعدى الحدود القبلية والمقاطعة الواحدة. بقدر ما تشير إجراءاته المتنوعة، سعى بدرخان إلى إيجاد ولاء سياسي أوسع من الانتماء إلى قبيلة أو الجماعة الدينية. ويبدو ان بدرخان قد نجح إلى حد ملحوظ في مسعاه حيث أكد المبشر الامريكي لوري على الولاء الحقيقي الذي قدمه الكرد له، حتى انه احتل مكانة مرادفة لمكانة الخليفة (السلطان التركي) في صلوات الكثير منهم.<sup>٤٤٤</sup> ضرورة إيجاد ولاء أسمى من القبيلة قد تجسد أيضاً في الطريقة التي منح بدرخان فيها اهتمامه الخاص لقواته العسكرية، حيث سعى الى تقوية درجة انضباطها ووحدتها، خاصة لأنها كانت تضم محاربين من مختلف القبائل والمعروفين بافتقارهم إلى الانضباط.

<sup>٤٤٣</sup>Wright and Breath, 'Visits of Messrs Wright and Breath to Bader Khan Bey', pp.378-383.

<sup>٤٤٤</sup>The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.40, 1844, p.508.

لم يكن بدرخان غافلاً عن التغييرات التي شهدتها هياكل الجيوش التركية، حيث تمتعت بفضل التحديث العسكري المستمر بحسن التنظيم والتسلح. فبينما ترك قادة القبائل يقودون وحدات الخيالة كما كان الامر في السابق، قام بدرخان بتأسيس جيش دائمى جديد يخضع لسيطرته المباشرة ومؤلف من وحدات منتخبة خاصة، حيث تم اختيارهم من بين افضل محاربي القبائل الكُردية. عن طريق هذه الخطوة المحسوبة قدم بدرخان نفسه زعيماً وطنياً، لا رئيس قبيلة أو منطقة محددة. يقول برونسن بهذا الصدد بأنه كان لتشكيل تلك الوحدات المنتخبة العسكرية تأثير في تقليل نفوذ القادة القبليين بسبب خسرانهم أفضل مقاتلي القبائل.<sup>٤٤٥</sup> ومن اجل تقوية قدرته العسكرية، شيد بدرخان مصنعين للبارود في عقر داره في بوتان.<sup>٤٤٦</sup>

ولم يكتف بدرخان بكسب ولاء الأمراء وقادة القبائل الصغيرة والكبيرة على حد سواء، بل وطاف في الكثير من المناطق الكُردية داعياً الفلاحين الكُرد والمسيحيين إلى مؤازرة حركته الاستقلالية من خلال تقديم الدعم لمجهوده الحربي ضد الجيش التركي. طبقاً إلى سافرستيان، أينما حل الأمير بدرخان في جولاته نظر إليه «كأمير لكُردستان من قبل الفلاحين المسيحيين والكُرد، على حد سواء».<sup>٤٤٧</sup> يبدو ان بقية الأمراء اقتفوا خطى بدرخان في أسلوب تعاملهم مع الأهالي. يشير جيمس برانت، القنصل البريطاني في مدينة ارزوم في عام ١٨٤٠، إلى ان أهالي المناطق المستقلة والمؤلفين من الكُرد والأرمن قاتلوا معاً وبإخلاص الجيوش التركية تحت قيادة الأمراء الكُرد في خزو وليجه وخيني وبانوكه. ويقول برانت ايضاً: «وصلت أخبار حول مقارعة الأرمن (للأتراك) بصورة حسنة، وكانوا يعاملون على قدم المساواة مع الكُرد».<sup>٤٤٨</sup>

يدعي بعض الباحثين الأرمن بان بدرخان كان «يسير بالاتفاق مع الارمن على سياسة واعية، هدفها السيطرة على مساحة واسعة من كُردستان» كما يشير هؤلاء

<sup>٤٤٥</sup>Bruinessen, Agha, Sheikh and State, p.179.

<sup>٤٤٦</sup>شيركو، ماضي الكُرد وحاضرهم، ص٤٢، وطبقاً إلى زكي انشأ بدرخان مصنعا واحدا فقط، زكي، "خلاصة تاريخ كُرد وكُردستان"، ص٢٣٥.

<sup>٤٤٧</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.57.

<sup>٤٤٨</sup>James Brant, Notes of a Journey through part of Kurdistan, 1838, JRGS, vol.x, 1840, pp.356-358 & 378.

إلى إيمان بدرخان برابطة «الأخوة بالدم» بين الكُرد والأرمن، وانه كان يشجع التزاوج بين أبناء الشعبين عن طريق توزيع الهبات. ومما لا شك فيه ان المقاتلين الأرمن شكلوا جزءاً هاماً من قوات بوتان وقوات بقية الإمارات المتحالفة معها. طبقاً إلى الباحثين الأرمن، كان لبدرخان مستشارون وقادة عسكريون من الأرمن مثل ستيفان مانوغوليان واوغانيس جالكترين ومير هارتو.<sup>٤٤٩</sup>

حتى تلك المرحلة التاريخية، لم يكن من المؤلف بشكل عام أن يسمح أمير كُردي (كبقية الحكام المسلمين) للمسيحيين بحمل السلاح أو الانضمام إلى قواته في حالة نشوب حرب. لقد منعت القوانين الإسلامية غير المسلمين من حمل السلاح أو الانضمام إلى الجيوش الإسلامية. لكن الكونغرالية الإماراتية استطاعت وبفضل مواقفها المتسامحة وتجاهلها للتقاليد القديمة ان تحصل على تأييد ومساندة الأهالي الذين جاءوا من خلفيات دينية وعرقية واجتماعية متعددة، وبالتالي ضمت القوات الكُردية إلى صفوفها افراداً ينتمون إلى أعراق وأديان وفئات اجتماعية متنوعة. كان جيش بوتان يحتوي على وحدة خيالة من الايزدية. قام ليارد وبعض رجال الإرساليات المسيحية الأجنبية، مثل الإنكليزي جي بي بادجر،<sup>٤٥٠</sup> بنشر معلومات تتنافى مع الوقائع حول قيام بدرخان بمجازر ضد المسيحيين بسبب تعصب ديني أعمى مزعوم (التفاصيل في القسم التالي). من المؤسف ان تعتمد اغلب المؤلفات التاريخية، خاصة الاوربية، على ما قاله ليارد بوصفه تفسيراً موضوعياً حيادياً لاحداث تلك المرحلة التاريخية الحساسة دون التشكيك بدوافعه الشخصية والسياسية.

<sup>٤٤٩</sup> نقلها مالميسانز في كتابه "بدرخانيو جزيرة بوتان"، ص ٣٩، عن "الحركات القومية الكُردية والعلاقات الارمنية- الكُردية"، ستوكهولم، ١٩٨٦، ص ٧٠-٧٥.

<sup>٤٥٠</sup> G.P. Badger, The Nestorians and their Rituals, vol.1& 2, (London: 1852).

## العلاقات الكردية- النسطورية: قضية المار شمعون

شكلت قضية المار شمعون واحدة من أهم التطورات التي حدثت في مسار صراع الكونفدرالية الإماراتية مع السلطات التركية ما بين عامي ١٨٣٩ و ١٨٤٧. أماطت هذه القضية اللثام عن تعقيدات الوضع السياسي في كردستان وعن العوامل الداخلية والخارجية التي أثرت فيه. لكل هذه الأسباب يتوجب الوقوف قليلا عند قضية مار شمعون والخلفية التاريخية للنساطرة المسيحيين. يبدو ان استقرار النساطرة في منطقة هكاري يرجع إلى أواخر القرن السادس عشر عقب نشوء صراع طائفي مثير بين النساطرة والكلدان في مقاطعات بادينان. فبينما بقي النساطرة متمسكين بكنيسة نسطورس القديمة وبزعامة البطريك (أو المار شمعون وهو لقب الزعيم الروحي للنساطرة)، تحول الكلدان إلى المذهب الكاثوليكي حيث قدموا ولاءهم إلى المؤسسة البابوية في روما.

كانت واحدة من أهم نتائج اندلاع ذلك الصراع الطائفي هجرة المار شمعون بصحبة العديد من أنصاره إلى منطقة هكاري الجبلية، حيث نقلوا في الوقت نفسه مركزهم الديني من الموصل إلى جولمرك.<sup>٤٥١</sup> يبدو ان أمراء هكاري لم يعترضوا على مجيء النساطرة، وإنما قاموا بتنظيم العلاقات الكردية- النسطورية وفقاً لترتيبات معينة. فقد ظل المار شمعون يدير الشؤون الدينية والديوية للجماعة النسطورية، المتنامية في عددها بمرور الزمن، مقابل تقديم الولاء إلى أمير هكاري. إضافة إلى هذا، كان على المار شمعون تقديم حصة من الضرائب السنوية التي يجنيها من افراد جماعته إلى أمير هكاري، وقيادة وحدة عسكرية تشارك في الحروب التي يدخل فيها الأمير الكردي. وقد لاحظ ريج بأن المار شمعون قاد دوماً وحدة عسكرية داخل القوات الهكارية خلال حروبها مع الجيش القاجاري.<sup>٤٥٢</sup> بفضل تلك الترتيبات الكردية- النسطورية الثنائية، التي استمرت حتى قيام الكونفدرالية الإماراتية في نهاية العقد

<sup>٤٥١</sup>Perkins, A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, p.18.

يذكر سون بان الاضطهاد المغولي والتتري كان السبب الذي أجبر النساطرة وزعيمهم الروحي المار شمعون على الهجرة إلى هكاري.

Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.154-155.

<sup>٤٥٢</sup>Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, vol.1, Footnote p.277.



الرابع من القرن التاسع عشر، عاش الهكاريون من كُرد و نساطرة حياة مستقلة بعيدة عن اية هيمنة أجنبية، إيرانية أو تركية.

على صعيد اخر، استمرت العلاقات النسطورية- الكلدانية تتدهور، حيث سعت كل من تلك الجماعتين إلى إضعاف وضعية الاخرى. يبدو ان الكلدانيين، وبفضل الدعم الذي تلقوه من المؤسسة الكاثوليكية ذات النفوذ العالمي الكبير، كانوا اكثر توفيقاً من خصومهم النساطرة في نيل دعم القوى الخارجية في تلك الصراعات الطائفية. ففي بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر وفي خضم خلافاتهم مع نساطرة منطقة بادينان، التجأ الكلدانيون إلى الأمير محمد في سبيل ضرب قادة الكنيسة النسطورية. وإستناداً إلى جستين بركينز، قام رجال الدين الكلدان بتحريض الأمير محمد ضد المار ياس، زعيم النساطرة، بهدف إجباره على اعتناق المذهب الكاثوليكي.<sup>٤٥٣</sup>

في منطقتي هكاري وبادينان، كان الكُرد المسلمون جيران النساطرة الوحيدين لمئات من الأعوام.<sup>٤٥٤</sup> ولا تشير المعلومات التي وفرها الرحالة والمغامرون الأجانب، مثل تافيرنر وجلبي، إلى وجود أي عداة أو حروب دينية بين الكُرد المسلمين والمسيحيين حتى مطلع العقد الرابع من القرن التاسع عشر. يستنتج سون من ما قاله المسيحيون الكلدان ومن الوثائق القديمة التي قدموها له خلال زيارته إلى كُردستان بان الجماعات المسلمة والمسيحية عاشت في ظل علاقات جيدة طوال تاريخهما المشترك منذ القرن الرابع عشر.<sup>٤٥٥</sup> ولكن، لا يعني هذا عدم وقوع صراعات محلية بين الكُرد المسلمين والمسيحيين، شبيهة بتلك التي كانت تقع داخل القبائل الكُردية والكلدانية والنسطورية. كان من المألوف جداً، في ظل هيمنة العلاقات القبلية وتكرار المصاعب الاقتصادية والمشكلات السياسية، ان تندلع خلافات حول الأراضي الزراعية والمراعي والحيوانات والزعامة بين القبائل المحلية، بغض النظر عن خلفيتها الدينية أو العرقية. فمثل تلك الخلافات التي تحركها الرغبة في الهيمنة كانت تحصل بين القبائل الكُردية،

<sup>٤٥٣</sup>Perkins, A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, P.200.

<sup>٤٥٤</sup> حتى المصادر التركية تؤكد على خضوع النساطرة سياسياً للأمرء الكُرد حتى عهد السلطان عبد المجيد. انظر مثلاً مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، الملحق ٨، سليمان ناظف "النساطرة".

<sup>٤٥٥</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.156.

مثلما كانت تحصل بين القبائل المسيحية.<sup>٤٥٦</sup> لكن، وبشكل عام، لا توجد دلائل كافية تشير إلى وجود أسباب دينية صرفة وراء الخلافات القبلية في كردستان.

بمرور الزمن، وقع نساطرة وكلدان كردستان تحت تأثير الثقافة الكردية إلى الحد الذي اتخذوا فيه الكردية لغة أساسية لهم، فضلاً عن السريانية التي تكلم الكثير منهم بها. في منطقة هكاري، ظلت الجماعتان الكردية والنسطورية تعيشان تحت الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية نفسها، والتي ساعدت على تقليل الفوارق الثقافية بين الطرفين إلى أبعد الحدود. على غرار جيرانهم الكرد، انقسم النساطرة إلى عدة قبائل، تخضع كل منها لسيطرة ملك وهو بمثابة رئيس قبلي. من حيث الانقسام الاجتماعي، كان هناك في هكاري ملاكو ارض نساطرة كما كان هناك فلاحون نساطرة. أما المالك الكردي فكان عنده فلاحون كرد ونساطرة. في بعض الاحيان كان عند مالك الأرض النسطوري فلاحون من النساطرة ومن الكرد أيضاً. يقول بيركنز عن مشاهداته في العقد الرابع من القرن التاسع عشر بان النساطرة تشابهوا مع جيرانهم الكرد ((ليس فقط في أسلوب المعيشة، وإنما أيضاً في السمات الشخصية المفرطة بالتهور والشراسة والشجاعة)).<sup>٤٥٧</sup> وبعد مرور سبعة عقود تقريباً على زيارة بيركنز، تكونت عند سون الانطباعات نفسها أثناء زيارته للمناطق التي يوجد فيها الكرد والمسيحيون: [www.zheen.org](http://www.zheen.org)

في احضان الكرد الأقوياء والخشنيين، اصبح (النساطرة والكلدان) شرسين أيضاً. اصبح من المستحيل تقريباً، من خلال اقتباسهم للباس وللطبائع الكردية، امكانية تفريقهم عن الجبلين المتوارثين (اي الكرد)، الذين عاشوا معهم تحت ظل افضل الاوضاع.<sup>٤٥٨</sup>

جاءت نقطة الانعطاف في العلاقات الكردية- النسطورية في عام ١٨٣٩، عندما تدهورت العلاقات الثنائية بين الأمير نور الله والمار شمعون. في ذلك الوقت، اقتصرت سلطة الأخير على قسم واحد من الجماعة النسطورية نتيجة للنشاطات التي كان يقوم

<sup>٤٥٦</sup>Perkins, A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, p.7.

<sup>٤٥٧</sup> المصدر السابق.

<sup>٤٥٨</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.154-156.

بها رجال الإرساليات الأمريكية والإنكليزية في القرى النسطورية. وكانت واحدة من أهم نتائج تلك النشاطات التبشيرية هي تقوية موقع قادة القبائل، خاصة في أشتيا، على حساب المار شمعون، الذي بدأ يفقد الكثير من سلطته وهيئته. لكن العلاقات الكُردية مع القسم الآخر من الجماعة النسطورية ظلت حسنة حتى عام ١٨٤٦. تعود أسباب اندلاع الصراع الدموي الكُردى- النسطوري في أربعينيات القرن التاسع عشر إلى عوامل خارجية بالدرجة الأولى، أي إلى ازدياد النفوذ الأوربي ومجيء الإرساليات التبشيرية المسيحية، الأمريكية منها والأوربية. وكان ذلك الصراع نتيجة عملية طويلة نسبياً تركت في مراحلها الأولى، تأثيراً سلبياً على العلاقات الداخلية بين أبناء الجماعة النسطورية، لتشمل، في مرحلة لاحقة، العلاقات بين الجماعتين الكُردية والنسطورية.

شكل مجيء رجال الإرساليات البروتستانتية الأمريكية والإنكليزية إلى كردستان والمناطق المجاورة لها واحدة من تلك العوامل الخارجية الهامة التي تركت آثارها السلبية على العلاقات الكُردية- المسيحية بشكل عام والعلاقات الكُردية- النسطورية بشكل خاص. ظهر المبشرون الأمريكيان لأول مرة في آسيا الصغرى في عام ١٨١٨، وأقاموا أولى مراكزهم التبشيرية في اورمية في عام ١٨٣٤.<sup>٤٥٩</sup> طبقاً إلى أحد الرحالة الروس، اكلويواكين تعود كل البعثات التبشيرية الأمريكية المقامة في تركيا وإيران إلى «المجلس الأمريكي لمبشري البعثات الخارجية»، التي تأسست في بوسطن.<sup>٤٦٠</sup> تبع مجيء رجال الإرسالية الأمريكية قدوم إرسالية بعثتها الكنيسة الإنكليزية بعد عدة أعوام. ويعود بداية اهتمام البريطانيين على المستويين الرسمي والكنسي إلى وقت بعثة الفرات الاستكشافية بقيادة الكولونيل جزني، الذي أرسلته الحكومة البريطانية في عام ١٨٣٥.<sup>٤٦١</sup>

<sup>٤٥٩</sup>Gabril, Ptotestant Diplomacy and the Middle East, p.8.

يعتقد واغمر بان الأمريكيان أقاموا مركزهم التبشيري الأول في عام ١٨٣١.  
Wagner, Travels in Persia, Georgia, Kurdistan, p.235.

<sup>٤٦٠</sup> دانتيغ، "الرحالة الروس في الشرق الأوسط"، ص ٣٣١-٣٣٢.

<sup>٤٦١</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. Cit.,  
Lieutenant-Colonel Shiel, no.70, 31 August 1843. p.270.

في عام ١٨٣٨، أوصت عصبة المعرفة المسيحية ( Christian Knowledge Society) اينسورث ورسام بإجراء بحث عن أوضاع النساطرة في كُردستان. وأكد هذان الأثنان على تدهور أوضاع تلك الجماعة المسيحية، داعيين إلى الاهتمام بها.<sup>٤٦٢</sup> وجدت لندن والسفارة البريطانية في استنبول في إثارة «مسألة» وضعية النساطرة فرصة لنشر نفوذها في قلب المناطق الكُردية المستقلة، لهذا شجعت موظفيها الميدانيين على التعاون وبشكل وثيق مع الكنيسة البروتستانتية الإنكليزية، حيث كان رسام، الذي كانت له علاقات قوية مع المار شمعون، يقوم بدور حلقة وصل بين الجماعة النسطورية والسفارة البريطانية في استنبول. أما الكنيسة الإنكليزية فأرادت هي الأخرى احتواء نفوذ منافستها الإرسالية الأمريكية المتنامي في وسط وشرق كُردستان. الملفت للنظر هو ان الخطاب السياسي لتبرير التدخلات البريطانية أُنخذ أيضاً شكلاً دنيئاً. يقول ستراتفورد كاننج «ان استبدادية القران تتراجع بشكل واضح أمام نفوذ المسيحية، التي هي ديانة الحضارة» و«تنزلق الإمبراطورية التركية سريعاً نحو انهيارها بشكل مشهود، وان التقرب إلى الحضارة المسيحية يمنحها فرصة وحيدة كي تحافظ على نفسها مهما طال الزمن».<sup>٤٦٣</sup> كلمات كاننج الواضحة تلك تكشف عن الصلة الوثيقة التي كانت تتشكل ما بين مصالح بريطانيا الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، من جهة، وبين الإرساليات البروتستانتية الأمريكية والإنكليزية، من جهة ثانية.

بحلول العقد الخامس، كان الموظفون البريطانيون الميدانيون، من جهة، والكنيسة الإنكليزية، من جهة ثانية، يحثون لندن على التدخل في الشؤون الكُردية بشكل مؤثر ومباشر. في الوقت نفسه، وجد مار شمعون في الكنيسة الإنكليزية حليفاً يمكن استخدامه لا في احتواء النفوذ المتزايد للمبشرين الأمريكان فقط وإنما في تشكيل كيان نسطوري مستقل في هكاري تحت الحماية البريطانية الرسمي و الكنسي. تلك كانت خلفية دعوة المار شمعون للكنيسة البروتستانتية الإنكليزية في بداية عام ١٨٤٢ إلى إرسال مندوبين قادرين على «تثقيف وتحسين أوضاع»

<sup>٤٦٢</sup>Ibid, Memorandum, 24 March 1842, p.270.

<sup>٤٦٣</sup> to Lord Palmerston, xii, 7 March 1832, in *The Life of Stratford Canning*, from his *Memories and Private and Official Papers*, by Stanley Lane-Poole, vo.2, (London: Longsman, 1888), pp.77-78.

النساطرة.<sup>٤٦٤</sup> ووقع اختيار الكنيسة الإنكليزية على الواعظ جي بي بادجر، المعروف بتعصبه ضد المسلمين، الذي كون إرسالية إنكليزية تبشيرية في هكاري. سحبت تلك الإرسالية في نهاية الامر، عقب فشل بادجر في اداء مهماته.<sup>٤٦٥</sup>

أدى فشل الإرسالية الإنكليزية إلى اعتماد البريطانيين كلياً على المبشرين الأمريكيان، الذين كونوا نفوذاً ملحوظاً في عدة مناطق كردية، منها هكاري وأورمية. ضاعفت الوضعية تلك من مخاوف المار شمعون الذي بدأ يواجه معارضة قوية لسلطته الدينية والدنيوية من قسم كبير من أبناء الجماعة النسطورية حيث فقد السيطرة تماماً على نساطرة مقاطعة أشتيا. في البداية، وكما لاحظ غابريل، لم يتبنى رجال الإرسالية الأمريكية موقفاً هجومياً في سياستهم التبشيرية في نشر المسيحية أو فيما أسموه «بتنوير» السكان المحليين. لكن ازدياد نفوذ القوى الأوربية المسيحية وتدخلاتها في الشؤون الداخلية للإمبراطورية العثمانية والقاجارية قاد إلى تشجيع رجال الإرسالية الأمريكية تدريجياً على تبني سياسة جريئة هجومية.

بحلول العقد الرابع من القرن التاسع عشر، قرر البروتستانت الأمريكيان ان يكونوا اكثر فعالية في إضعاف الكنائس الشرقية القديمة، خاصة الارمنية الكاثوليكية والنسطورية. بقدر ما يتعلق بالجماعة الارمنية الكاثوليكية، استطاع المبشرون الأمريكيان من إقناع مجموعة منهم باعتناق المذهب البروتستانتي، لتبرز إلى الوجود بهذا النحو طائفة أرمنية بروتستانتية. ووصل الخلاف بين المبشرين الأمريكيان وبطريك الكنيسة الارمنية إلى ذروته في منتصف العقد الخامس، عندما أمر الثاني بعزل اي ارمني اعتنق البروتستانتية وسجنه وتعذيبه. أما المبشرون الأمريكيان فناشدوا البريطانيين طلباً للدعم السياسي. وعلى اثر الضغوط التي مارسها البريطانيون على الحكومة التركية منح الأمانة البروتستانت مرتبة «الملة»<sup>٤٦٦</sup> (أو

<sup>٤٦٤</sup>BDFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. Cit., to Sir S. Canning, no.31, 24 March 1842, p.271.

<sup>٤٦٥</sup>Badger, Nestorians and their Rituals, p.171.

<sup>٤٦٦</sup> في النظام العثماني، قسمت الجماعات غير المسلمة إلى عدة ملل. اتخذت شكلاً إدارياً على أساس الدين والطائفة. تمتعت كل ملة بحكم ذاتي نسبي خاصة في القضايا الدينية والثقافية والقضائية والمالية. حكم كل ملة قادتها الدينيين الذين تمتعوا بصلاحيات دنيوية فضلاً عن صلاحياتها

الأمة الدينية) ضمن النظام السياسي - الاجتماعي العثماني.<sup>٤٦٧</sup> على هذا النحو، لم يكن في إمكان بطريرك الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية إلحاق أي أذى بكل الذين تحولوا إلى المذهب البروتستانتي. وشجع هذا الأمر، إضافة إلى منح مرتبة الملة للطائفة الأرمنية البروتستانتية، المبشرين الأمريكيين على إقناع الكثير من الأرمن على اعتناق البروتستانتية.

كان من الطبيعي أن يركز المبشرون الأمريكيين والإنكليز البروتستانت نشاطهم الديني في المناطق التي عاش فيها النساطرة، كاورمية وهكاري، خاصة لأنهم قاوموا مختلف الضغوط الخارجية التي استهدفت إجبارهم على الدخول إلى الكنيسة الكاثوليكية. في منطقة هكاري، شكل النساطرة جماعة منغلقة على نفسها، معزولة جغرافياً عن العالم الخارجي، وهذا الوضع كان بمثابة ضمان أمني يقوي النساطرة من التدخلات الأجنبية المؤذية في أشكالها السياسية والدينية. في البدايات الأولى، كان أمير هكاري، نور الله، قلقاً جداً من نشاطات المبشرين الأمريكيين الذين سبقوا خصومهم الإنكليز في الوجود في منطقة هكاري، حيث تركز معظم النساطرة. كان قلق نور الله هذا مبرراً بسبب دخوله في صراع مرير مع ولي العهد القاجاري في مدينة تبريز، من جهة، وتدهور علاقاته مع السلطات الإقليمية العثمانية في مدينة فان، من جهة ثانية. لهذا كان الهكاريون الكرد ينظرون بعين الريبة والشك إلى كل الغرباء، خاصة القادمين من الأقاليم الخاضعة إلى الحكومة القاجارية. لقد خشى الهكاريون من أن يكون بعض من هؤلاء الغرباء جواسيس بعثتهم السلطات القاجارية بهدف تسريب المعلومات عن أوضاع هكاري الداخلية وقدرتها العسكرية وممراتها السرية الجبلية. ويبدو أن أمير هكاري كان يخشى أيضاً من أن يستخدم وجود رجال الإرساليات المسيحية الأجنبية من قبل الحكومتين الإيرانية والتركية تبريراً لتدخل سياسي وعسكري في شؤونه الداخلية.

لا بد ألا تغفل حقيقة أن الهكاريين الكرد كانوا مسلمين وبالتالي لم تنسجم نشاطات المبشرين مع معتقداتهم الدينية. ومن الطبيعي أن يتخوف أمير هكاري

---

الدينية. كانت هؤلاء القادة الدينيين مسؤولين أمام السلطان أو ممثليه في الأمور المتعلقة بدفع الضرائب وتطبيق الإجراءات الجنائية.

<sup>٤٦٧</sup>Gabril, P, *Protestant Diplomacy and the Middle East*, pp.8 & 12-14.

ورجال الدين الكُرد من محاولات قد يقوم بها المبشرون الأمريكيان من خلال وسائل الترغيب والإغراء في إقناع عامة الكُرد باعتماد المسيحية، والذي كان سيضعف من سلطة الامير السياسية ومن النفوذ الروحي لرجال الدين المحليين. يعطي غرانت، المسؤول عن المحطة التبشيرية الأمريكية في اورمية، ثلاثة مبررات سياسية واقتصادية وعسكرية جعلت أمير هكاري، في اعتقاده، قلقاً من النشاطات التبشيرية المسيحية. أولاً، ظن الكُرد المسلمون وقادتهم بان هدف المبشرين الأجانب هو تقوية اخوتهم في الدين، اي المسيحيين النساطرة، من اجل فرض هيمنتهم على السكان من المسلمين. ثانياً، سيوجه مبنى الإرسالية الكبير الذي أنشأه غرانت وزملاؤه في موقع قلعة قديمة في اشتيا ضربة اقتصادية إلى عاصمة هكاري، جولمرك. أخيراً، نظراً لوقوع مبنى الإرسالية الأمريكية في مكان استراتيجي يطل على جولمرك، شكل الأمريكيون بذلك تهديداً مباشراً إلى أمن إمارة هكاري.<sup>٤٦٨</sup>

لقد طمأن المبشرون الأمريكيان الأمير نور الله من خلال تقديم وعود، أكدوا فيها ان مبنى الإرسالية في اشتيا لن يستخدم ضد السكان الكُرد. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، اقام الأمير نور الله وبقية الأمراء خاصة بدرخان علاقات ودية إلى ابعد الحدود مع رجال الإرساليات الأمريكية. فأينما حل الأمريكيان، كالذين دعاهم الأمير بدرخان إلى زيارة منطقتهم، تلقوا معاملة طيبة من قبل الحكام الكُرد. ان ما استنتجه المستكرد سون كان صحيحاً تماماً حول تمييز المبشرين الأمريكيان عن نظرائهم الأوربيين في «قدرتهم على إقامة روابط جيدة مع الكُرد».<sup>٤٦٩</sup> لكن هذا الامر يمنع بعض المبشرين الأمريكيان، خاصة غرانت وجاستين باركينز، من إعطاء صور سلبية جداً عن الكُرد في رسائلهم ومؤلفاتهم، بسبب تحيزهم الديني الاعمى.

من الممكن تقسيم رجال الإرسالية الأمريكية إلى فريقين أكثرية متشددة وأقلية معتدلة من حيث التفسيرات التي أعطوها عن الأوضاع السائدة والمواقف التي اتخذوها تجاه الأحداث الجارية آنذاك. وقف على رأس الأكثرية المتشددة كبار رجال الإرسالية جاستين باركينز ودكتور غرانت اللذان أعطيا صورة سلبية مطلقة لا عن

<sup>٤٦٨</sup>Letter from Dr Grant, 5 July 1842 Missionary Herald, xxxix, no.11, November 1843, p435 & 2 September 1842, Missionary Herald, xxxix, no.8, August 1843, pp.317-318.

<sup>٤٦٩</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.159-160.

الاسر الاميرية الكُردية فقط وإنما أيضاً عن الشعب الكُردى عموماً. حمل هؤلاء تصورات ومفاهيم سلبية مسبقة عن الكُرد قبل ان يصلوا إلى كُردستان. كان باركينز مثلاً يصف الكُرد «بالوحوش» في رسائله الأولى التي بعثها إلى امريكا قبل ان تطأ قدماه ارض كُردستان.<sup>٤٧٠</sup> وادعى باركينز في إحدى تلك الرسائل بأنه بسبب تحريم القرآن السرقة من الأحياء، لجأ الكُرد إلى قتل البشر قبل سرقتهم كي يُحلبوا تلك العملية.<sup>٤٧١</sup> وادعى غرانت بان بدرخان اكثر «المُحمدين تعصباً». فهو «عمود الايمان» و«عدو علني للمسيحية، وانه من غير المحتمل ان يبدي اية شفقة تجاه معتنقيها حالما وقعوا تحت حكمه». واتهم غرانت بدرخان «بشن حرب ابادة ضد المسيحيين بتحريض من شيوخ الصوفية والملالي الذين اعتبروها إحسان خاص».<sup>٤٧٢</sup> ولم يُخفي هذا الفريق من المبشرين، ومنهم لوري وسميث، تأييدهم للأتراك إذا ما حاولوا إسقاط الإمارات الكُردية.<sup>٤٧٣</sup> وكتب باركينز في أعقاب سقوط الإمارات الكُردية بأن سلطة الكُرد الرهيبة التي استمرت لعد قرون قد انتهت. وان «الرّب قد فتح الآن الجبال الكُردية امام الإنجيل».<sup>٤٧٤</sup>

أما الفريق الثاني من المبشرين الامريكيين فحاولوا إعطاء صورة عن الأوضاع والاحداث كما رأوها دون الاستناد إلى مفاهيم مسبقة. ومن ابرز هؤلاء المبشرين رايت وبريث اللذان قاما بزيارة إمارة بوتان والتقى بالأمير بدرخان كما تم الإشارة اليه. تعدلت بعض الشيء صورة الكُرد بشكل عام وبدرخان بشكل خاص في الرسائل التي بعثها هذان المبشران بعد وفاة غرانت في عام ١٨٤٤. على النقيض من بقية المبشرين، تمنى بريث ان يبسط بدرخان سلطته على جميع المناطق التي تواجد فيها النساطرة كي يضع حداً للخلافات الداخلية كالتي وقعت بين سكان توحما وديس حول المراعي. كما رأى بريث في الأمن الذي وفره حكم بدرخان المناخ الملائم لمزاولة النشاطات التبشيرية.<sup>٤٧٥</sup>

<sup>٤٧٠</sup>The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.29, 1833, p.2.

<sup>٤٧١</sup>Ibid, vol.31, 1835, p.22.

<sup>٤٧٢</sup>Ibid, vol.39, 1843.

<sup>٤٧٣</sup>Ibid, vol.40, 1844, 528.

<sup>٤٧٤</sup>Ibid, vol.43, 1849, Part Two, p.129.

<sup>٤٧٥</sup>Ibid, vol.42, 1846, Part One, p.629.



عموماً، احتفظ الأمراء الكُرد بعلاقات طيبة مع جميع رجال الإرسالية الأمريكية. ولكن، لم تكن علاقة الأخيرين جيدة مع المار شمعون بعد مرور مدة قصيرة نسبياً على وجودهم في هكاري. كان المار شمعون ساخطاً جداً على الأمريكيان لأن نشاطاتهم أضعفت من سلطته الدينية والدينيوية على قسم كبير من أبناء الجماعة النسطورية. ومنذ منتصف العقد الرابع من القرن التاسع عشر تقريباً، واجه المار شمعون معارضة قوية لسلطته من قبل بعض قادة القبائل النسطورية واحد القساوسة المحليين البارزين، انقسمت الجماعة النسطورية على أثرها إلى فئتين متخاصمتين. كانت إحداها موالية إلى المار شمعون، بينما كانت الثانية موالية إلى قادة القبائل. ان ما زاد من تعقيد الوضع المتأزم بين النساطرة هو نشوء المنافسة بين رجال الإرساليات الأمريكية والإنكليزية من أجل فرض «هيمنة روحية» على الجماعة النسطورية. وفي سبيل تحقيق ذلك الهدف، لم يتردد الطرفان الأمريكي والإنكليزي من التدخل مباشرة في شؤون الجماعة النسطورية الداخلية. فمن ناحية، ساند المبشرون الإنكليز، بقيادة بادجر، المار شمعون وجبهته، ومن ناحية ثانية، قدم المبشرون الأمريكيان الدعم إلى خصومه.<sup>٤٧٦</sup>

ظلت علاقة المبشرين الأمريكيين بالمار شمعون تزداد سوءاً، خاصة عندما شرع الأخير بإنزال العقوبات الشديدة شملت أحياناً قتل أولئك النساطرة الذين هجروه واتبعوا تعاليم الإرسالية الأمريكية الدينية. بهذا الشكل، كان الوضع متأزماً إلى أبعد الحدود سواء داخل الجماعة النسطورية أو بين قادتها وممثلي الإرساليات الإنكليزية والأمريكية، ولم يلعب أمير هكاري، نور الله، أو أمير بوتان، بدرخان، أي دور يذكر في تفاقم ذلك الوضع حتى أوائل العقد الخامس. يقر غرانت في كتابه *The Nestorians or the Lost Tribes* بأن العلاقة بين المار شمعون والامير نور الله كانت حسنة في عام ١٨٣٩.<sup>٤٧٧</sup> كما كانت علاقة الأمير بدرخان جيدة جداً برعيته من النساطرة واليعاقبة، الذين شاركوا في مقاومة قواته للحصار التركي لمدينة الجزيرة في عام ١٨٣٦.<sup>٤٧٨</sup> وأكد المؤرخان السوفيتيان خالفين ونيكتين وجود علاقة طيبة بين

<sup>٤٧٦</sup>Jwaideh, *The Kurdish Nationalist Movement*, p.188.

<sup>٤٧٧</sup>Grant, *The Nestorians or the Lost Tribes*, pp.87-88.

<sup>٤٧٨</sup>جليل، "من تاريخ الإمارات"، ص ١٠١.

بدرخان والجماعات المسيحية التي خضعت إلى سلطته.<sup>٤٧٩</sup> تأسيساً على ما قيل آنفاً، يمكن دحض الرأي السائد الذي وقف وراءه البريطانيون عن تعصب الأمير بدرخان الديني الأعمى ضد الجماعات المسيحية (التفصيل في القسم التالي).

ترك عامل خارجي آخر أثره الكبير في العلاقات الكردية-النسطورية، ألا وهو تدخل السلطات التركية المغرضة. ان نشر الفرقة والشكوك كانت إحدى الوسائل الرئيسية التي توسلت اليها السلطات التركية عندما كانت تحاول احتواء الخطر الذي شكله قيام الكونفدرالية. ولأنه لم يعد في إمكانها ضرب أمير كردي بأخر، بسبب الوحدة السياسية التي تجسدت في قيام الكونفدرالية، أو استمالة القيادات الدينية الكردية المحلية إلى جانبها، التجأت السلطات التركية إلى كسب القادة الدينيين لمختلف الجماعات المسيحية الساكنة في المناطق الكردية كالأرمنية والنسطورية إلى جانبها في صراعها مع الإمارات الكردية. ان سعي السلطات التركية إلى تنشيط دور القادة المسيحيين جاء لغرض إضعاف الوحدة الداخلية في مناطق كردستان الكبرى. كانت تلك الخلفية الحقيقية لإصدار القادة الدينيين للجماعات المسيحية الموجودة في المناطق الكردية نداءً جماعياً للباب العالي يدعونه فيه إلى القضاء على الأمراء الكرد. ولم يكتف أولئك القادة المسيحيون بذلك العمل وإنما أرسلوا تعليمات رسمية إلى المجالس الإقليمية والشخصيات المسيحية المحلية تدعوهم، حسب تعبير سافرستيان، ((إلى الانتفاضة دعماً للجيش الإمبراطوري العثماني تحت قيادة عثمان باشا من أجل قمع التمرد الكردي)).<sup>٤٨٠</sup>

اتخذ المار شمعون أكثر المواقف تشدداً في معارضته للكونفدرالية الكردية من خلال عقد اتصالات سرية مع والي الموصل بيرقدار في سبيل تسهيل حملة الغزو الذي كان يقوم به الجيش التركي ضد إمارة بادينان في عام ١٨٤٢. ويقر اثنان من المبشرين الأمريكيين بعد زيارتهما لأشتيا وجولمرك بان النساطرة شكلوا خطر على أمير هكاري.<sup>٤٨١</sup> كم أكد المبشر الإنكليزي، بادجر، الذي لم يخفي كراهيته للكرد، بأن

<sup>٤٧٩</sup> خالفين، "الصراع على كردستان"، ص٦٠؛ باسيل نيكيوتين، "الاكرد، اصلهم، تاريخهم وموطنهم"، (بيروت: دار الروائع، ١٩٩٣)، ص١٨٥.

<sup>٤٨٠</sup> Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.58.

<sup>٤٨١</sup> The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.40, 1844, p.535.

المار شمعون تراجع عن وعد كان قد قدمه، يتمثل بمشاركته هو وقواته في القتال إلى جانب الجيش الكردي، بقيادة بدرخان ونور الله، والمتوجه إلى مناطق بادينان دعماً للأمير سعيد باشا المحاصر في مدينة العمادية من قبل جيش بيرقدار التركي.<sup>٤٨٢</sup> يقول غرانت في إحدى رسائله في ذلك الوقت:

برهنت حملة الكرد الهكاريين (العسكرية) على فشلها الذريع، بسبب، على حد ما قيل، رفض بطريك النساطرة التعاون (معهم)، والآن سقط معقل كردستان (أي عمادية) بيد الجيش التركي المحاصر.<sup>٤٨٣</sup>

كان لتعاون المار شمعون مع السلطات التركية تأثير مخرب كبير في وضع الكونفدرالية الإماراتية. ففي أعقاب الهزيمة الكردية، قام الأتراك بنفي الأمير سعيد وأفراد السلالة الحاكمة وبإلغاء إمارة بادينان من الوجود. من ناحية ثانية، شجعت أحداث بادينان، فضلاً عن مؤازرة المبشرين الإنكليز والموظفين البريطانيين خاصة رسام، المار شمعون على إعلان استقلاله وتحديه علناً لسلطة الأمراء الكرد.

ان من الأسباب الرئيسية التي دفعت بالمار شمعون إلى اتخاذ موقف عدائي تجاه السلطات الكردية هو نجاح الأخيرة في تعبئة الجماعات المسيحية الموجودة في كردستان الكبرى ومنها النساطرة. لقد اعتبر المار شمعون قيام الكونفدرالية الإماراتية تهديداً جديداً لسلطته داخل الجماعة النسطورية، بالرغم من تمتعه بحكم ذاتي حينئذ. لم يتردد هو وبقية قادة النساطرة الدينيين من التذمر والشكوى لدى زوارهم الأجانب، من مبشرين إنكليز وأمريكان، من الظلم الكردي،<sup>٤٨٤</sup> أملاً في نيل دعم القوى الكبرى المسيحية، خاصة بريطانيا، لمشروع تشكيل كيان نسطوري في هكاري وبادينان تحت حماية بريطانية. كما نظر المار شمعون إلى المواجهة العسكرية بين الكونفدرالية الإماراتية والإمبراطورية العثمانية في بادينان بوصفها فرصة ملائمة تمكنه من إلحاق الهزيمة بخصومه الداخليين من قادة القبائل النسطورية المدعومين من قبل رجال الإرساليات الأمريكية.

<sup>٤٨٢</sup>Badger, The Nestorians and their Rituals, vol.1, p.265.

<sup>٤٨٣</sup>Letter from Dr Grant, 12 September 1842, Missionary Herald, xxxix, no.2, 14 February 1843, p.67.

<sup>٤٨٤</sup>Layard, Autobiography and Letters from his Childhood, vo.1, p.406 & Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.374-377.

شكلت مواقف المار شمعون الموالية للأتراك تهديداً داخلياً جدياً للكونفدرالية الإماراتية، خاصة بسبب تمركز أنصاره في منطقة هكاري الاستراتيجية. إذا أخذ بنظر الاعتبار ان بدرخان كان ينظر إلى تماسك الجبهة الداخلية ليس بين الكُرد انفسهم فقط وإنما بين الكُرد والجماعات المسيحية «كأهم عنصر ثمين بالنسبة إلى نجاح استقلال كُردستان المخطط له»، على حد تعبير سافرستيان،<sup>٤٨٥</sup> فإنه من الحيوي بالنسبة إليه ان يقوي من قبضته على المناطق الكُردية بشكل عام والاستراتيجية منها بشكل خاص، وان يتخذ التدابير العسكرية اللازمة لاحتواء الخطر الذي مثله المار شمعون في منطقة هكاري الجبلية الاستراتيجية. يمكن القول، تأسيساً على ما سبق، ان التعاون التركي- النسطوري، الذي نال تشجيع الموظفين البريطانيين، شكل نقطة الانعطاف في علاقات الأمراء الكُرد مع المار شمعون، والتي دفعت بدرخان لاحقاً إلى قيادة حملة عسكرية كبيرة نجحت في إلحاق الهزيمة بقوات المار شمعون في أوائل شهر تموز عام ١٨٤٣، وذلك بعد سقوط العديد من القتلى من الجانبين طبقاً إلى ما قاله غرانت.<sup>٤٨٦</sup>

لقد راقب رجال الإرسالية الأمريكية عن كثب التدهور السريع في العلاقات ما بين الأميرين بدرخان ونور الله، من جهة، والمار شمعون، من جهة ثانية. طبقاً لقول واغنز، قام رئيس الإرسالية الأمريكية غرانت بمحاولة توسط فاشلة استهدفت منع اندلاع مواجهة عسكرية بين الفريقين الكُرد والناسطوري.<sup>٤٨٧</sup> من الغريب ان لا يذكر غرانت شيئاً في كتابه عن ما دار من حديث بينه وبين الأمير بدرخان حول تدهور العلاقات الكُردية- النسطورية، خاصة لأنه حمل الأخير مسؤولية وقوع الحرب في هكاري. في أعقاب فشل وساطة غرانت مباشرة، قاد الأمير بدرخان جيشاً كُردياً، هاجم بواسطته مواقع قوات المار شمعون المؤلفة من التياريين والديزيين النساطرة. أسفر الهجوم عن سيطرة القوات الكُردية على أشتيا وشيمبا وديس وتياري بعد إلحاق

<sup>٤٨٥</sup>Safrastian, Kurds and Kurdistan, p.56.

<sup>٤٨٦</sup>أدى غرانت شكوكه بصحة ارقام القتلى من النساطرة.

The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.39, 1843, p.475.

<sup>٤٨٧</sup>Wagner, Travels in Persia, Georgia, Kurdistan, pp.261-262.

الهزيمة بالطرف النسطوري،<sup>٤٨٨</sup> بينما هرب المار شمعون إلى مدينة الموصل،<sup>٤٨٩</sup> محتما بمنزل نائب القنصل البريطاني.<sup>٤٩٠</sup> رغم ما أطلقه رسام وليارد من إشاعات حول قسوة بدرخان تجاه الطرف النسطوري، أطلق هذا الأخير سراح جميع الأسرى النساطرة.<sup>٤٩١</sup>

بعد مرور ثلاثة أعوام على المواجهة العسكرية الكردية-الناسطورية الأولى، تفجرت أزمة جديدة، وللأسباب نفسها المذكورة آنفاً،<sup>٤٩٢</sup> بين الأمراء الكرد والقسم الثاني من الجماعة النسطورية غير الموالية للمار شمعون والمدعومة من قبل رجال الإرسالية الأمريكية. تطورت هذه الأزمة إلى حرب دموية جديدة انتهت بهزيمة الطرف النسطوري، الذي قتل منه ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ مقاتل، بحسب تقارير الموظفين البريطانيين.<sup>٤٩٣</sup> مرة أخرى أطلق سراح جميع الأسرى النساطرة عدا ٦ اعتنقوا الإسلام.<sup>٤٩٤</sup> وأكد بريث في إحدى رسائله برجوع الغالبية العظمى من النساطرة الذين تم أسرهم أو إخراجهم من مناطقهم. وانهم لا يعانون من عبء الضرائب عدا ضريبة الأفراد (poll-tax) ولم يتم زرع قوة عسكرية كردية أو فرض حاكم كردي من أجل



<sup>٤٨٨</sup>The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.39,1843, p.473.

<sup>٤٨٩</sup> Ibid., & Wagner, Travels in Persia, Georgia, Kurdistan, pp.252 & 267.

<sup>٤٩٠</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Sir S. Canning, no.179, 1843 & Colonel-Lieutenant Shiel, no.70, 31 August 1843, p.271.

<sup>٤٩١</sup> لم يتجاوز عدد قتلى الجانب النسطوري ٢,٠٠٠ رجل، بحسب ما قاله بدرخان للقنصل البريطاني ستيفنز. في حين حدد المار شمعون القتلى بـ ٥,٠٠٠ رجل، رغم هروبه في بداية القتال. شكك بريث بصحة عدد ضحايا النساطرة.

The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.42, 1846, p.629; B DFA The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Mr Stevens' Report, 10 July 1844, Inclosure in Sir S. Canning, no.169, 2 August 1844, p.282.

<sup>٤٩٢</sup> بحسب أحد الباحثين الروسيين، قمع بدرخان النساطرة مرة أخرى بسبب امتناعهم عن دفع الضرائب، نيكيتين، الكرد، ص ٣٠٣.

<sup>٤٩٣</sup> Ibid, Wellesley, no.146, 2 December 1846, 287.

<sup>٤٩٤</sup> 42, 1846, pp.627-628.

إخضاع هؤلاء النساطرة. ويشير بريث إلى عودة الحياة الطبيعية تدريجياً حيث بدأ النساطرة يزاولون النشاط في ميداني الرعي والزراعة.<sup>٤٩٥</sup>

في حين تشير الدلائل وبوضوح إلى وجود دوافع سياسية واستراتيجية وراء مهاجمة الكونغرالية الكُردية للقوات النسطورية، يدعي ليارد، ودون تقديمه لأي برهان، أن بدرخان كان يلبي أوامر الحكومة التركية عندما قام «بإبادة النساطرة العزل ونهبهم».<sup>٤٩٦</sup> ويضيف ليارد بان بدرخان كان مسلماً متعصباً تجاه المسيحيين، الذين عددهم «كفرة».<sup>٤٩٧</sup> ولربما استند ليارد في ادعائه ذلك إلى نفوذ الشيخ طه الكبير، الذي كان أحد الداعمين المتحمسين للتمرد الكُردى ضد السلطان العثماني. تتناقض أقوال ليارد تلك مع شهادة العديد من الأجانب، خاصة مندوبي الإرسالية الأمريكية سميث ولوري، حول التسامح الديني الذي اتسمت به معاملة بدرخان للجماعات الدينية غير المسلمة المختلفة في المناطق الخاضعة إلى سيطرته الخاصة. فقد لاحظ سميث ولوري وجود الكثير من المحاربين الايزديين في صفوف جيش بوتان، حيث تشكل منهم حرس بدرخان الخاص.

من غير المعقول، إذا اخذ بنظر الاعتبار غياب حملات عسكرية ضد المناطق الايزدية، أن يجبر الأمير بدرخان، تحت تهديد الموت، العديد من الايزديين الكُرد على اعتناق الإسلام والانضمام إلى قواته. ان التعدد العرقي والديني كان من السمات اللافتة للنظر في القوات الكُردية الخاضعة للكونغرالية، التي ضمت محاربين مسلمين

<sup>٤٩٥</sup>Ibdi, pp.629.

<sup>٤٩٦</sup> الجدير بالذكر، مر ليارد بشكل عابر من منطقة هكاري بعد مرور ثلاثة أعوام على وقوع المجابهة العسكرية الكُردية- النسطورية الأولى وقبل اندلاع المجابهة العسكرية الثانية في عام ١٨٤٦. ان استخدام مصطلح «الإبادة الجماعية» من قبل ماليسانز في كتابه (ص٣٨-٣٩) غير دقيق تماماً. فهو يستند في كتابه إلى ما قاله أحد الاتراك، وهو صالح سان.

<sup>٤٩٧</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.431.

كرر العديد من الكتاب الأجانب ما ادعاه ليارد عن طبيعة وملابسات الصراع الكُردى-النسطوري، دون ان يلتفتوا إلى دوافعه الخاصة المتعلقة بالموقف البريطاني العام من الأحداث الجارية في منطقة الشرق الأوسط آنذاك. راجع مثلاً:

Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, W.A. Wigram, The Assyrians and their Neighbours, (London: 1929) & Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement.

وغير مسلمين. فضلاً عن غياب التعصب الديني، لم تكن الحملتان العسكريتان ضد الجماعة النسطورية شاملة، حيث كانت تميز بين الذين اتخذوا موقفاً معادياً تجاه الإمارات الكردية وبين الذين لم يعادوها. ففي الحملة الأولى، هاجم الجيش الكردي القوات النسطورية الموالية للمار شمعون في مقاطعة تيارى،<sup>٤٩٨</sup> بينما في الحملة الثانية هاجمت القوات النسطورية العائدة إلى خصومه من رجال القبائل في مقاطعة أشتيا. نقطة هامة أخيرة يستوجب طرحها هو أنه لم يصب أي من رجال الإرساليات المسيحية بأذى في مدة الخلاف الكردي- النسطوري، أو طوال مدة الصراع الإماراتي- التركي. ان وجود تلك الحقائق لهو دليل اخر على عدم لعب العامل الديني أي دور اساسي في خلافات وصراعات تلك المدة التاريخية.

إلى حد ما، كان المبشرون الإنكليز محقين في إلقاء اللوم على عاتق خصومهم من رجال الإرسالية الأمريكية بشأن تأزم العلاقات الكردية- النسطورية، التي لم يسبق لها مثيل من قبل. فقد ادت النشاطات التي قام بها رجال الإرسالية الأمريكية إلى خلق الشكوك والريبة عند الحكام الكرد والسلطات التركية من جهة، وبين أبناء الجماعة النسطورية،<sup>٤٩٩</sup> من جهة ثانية. لكن رجال الإرسالية الأمريكية رفضوا تحمل اية مسؤولية تجاه أحداث هكاري الدامية<sup>٥٠٠</sup> ومن أجل تحويل الأنظار بعيداً عن دور رجال الإرسالية الأمريكية السلبي في تأزم أوضاع منطقة هكاري اجتماعياً وسياسياً، ألقى غرانت اللوم على الشيوخ الدينيين ومن أسماهم بدراويش النقشبندية، الذين حرضوا بدرخان، على حد زعمه، على شن «حرب إبادة ضد النساطرة».<sup>٥٠١</sup> لكنه في

<sup>٤٩٨</sup> Smith and Laurie, Missionary Herald, no. 4, April 1845, p.118.

<sup>٤٩٩</sup> Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, p.199 & Grant, The Nestorians and their Rituals, vol.1, p.260.

<sup>٥٠٠</sup> لم تقتصر الآثار السلبية التي تركتها نشاطات المبشرين الأمريكان على العلاقات الداخلية بين الجماعات المحلية على كردستان فقط إذ يذكر القنصل الروسي في سوريا وفلسطين. بازيلي كيف انه وبسبب «دسائس ومكائد» المبشرين الامريكيين في لبنان انتشرت في لبنان بذور «الخصومة والخلاف» في الكنائس المسيحية المحلية. كما يذكر سائح روسي اخر الطريقة التي أدت فيها نشاطات المبشرين الأمريكان إلى اثاره الاضطرابات بين المارونيين الكاثوليك وطائفة الدروز. داننتسيغ، "الرحالة الروس في الشرق الاوسط"، ص ٢٠٤، ٢٥٧.

<sup>٥٠١</sup> Letters from Dr Grant, 5 July 1843, Missionary Herald, xxxix, no.11, p.434.

إحدى رسائله، يؤكد غرانت ان بدرخان هاجم النساطرة بناءً على أوامر وجهها اليه والي ولاية ارزوم التركي.<sup>٥٠٢</sup>

تتناقض تفسيرات غرانت فيما بينها حول الأحداث التي وقعت في هكاري، فضلا عن كونها أحادية الجانب في تفسير ما حصل. ففي رسائله، يتحدث غرانت عن تدهور الوضع في هكاري قبيل الهجوم الكردي ضد مواقع النساطرة دون ان يذكر وجهة نظر بدرخان حول خلافه مع المار شمعون، الذي التقى به من اجل التوصل إلى تسوية سلمية. هناك عدة نقاط جوهرية يجب ذكرها عن الصراع الكردي-النسطوري، أولاً، كان بدرخان وبقية الأمراء الكرد المؤتلفين معه حينذاك في صراع طويل مع السلطات التركية اختلفت شدته من منطقة إلى أخرى ومن مدة لاخرى. لهذا السبب لم تكن في مصلحة الطرف الكردي آنذاك تشتيت طاقاته وقدراته العسكرية من خلال الدخول في حروب جانبية داخلية مع الجماعات المسيحية، ناهيك عن خلق أزمات كتلك التي وقعت بينه وبين النساطرة.

ثانياً، لم يكن والي ارزوم وإنما والي ولاية دياربكر مسؤولاً امام السلطات المركزية التركية عن الشؤون المتعلقة ببدرخان وحكومته. من ناحية البعد الجغرافي، كانت ارزوم بعيدة جداً عن مركز سلطة بدرخان في الجزيرة ومن هكاري، مسرح المواجهة الكردية-النسطورية، التي كانت عائدة نظرياً إلى ولاية شهرزور. لكل تلك الأسباب لم يكن من العملي أو المنطقي ان يكون والي ارزوم الشخصية المناسبة التي كان في مقدورها التأثير في أحداث كانت تجري في مناطق نائية وخارجة حتى نظريا عن صلاحياته الإدارية. بينما كان غرانت يؤكد ان بدرخان كان مجرد أداة تركية استخدمت لتحطيم النساطرة، لا يوضح لماذا أراد الأتراك تحطيم النساطرة أو السبب الذي يدفع بدرخان إلى إطاعة أوامر استنبول في الوقت الذي كان يتحدى فيها سلطتها؟ إضافة إلى ذلك، اتهم غرانت بيرقدار، والي الموصل، بخيانة النساطرة عندما لم يقدم الدعم لهم في مواجهة القوات البوتانية والهكارية.<sup>٥٠٣</sup> كان غرانت قد أكد في

<sup>٥٠٢</sup>Letters from Dr Grant, August 1843, *Missionary Herald*, xl, no.1, January 1844, pp.23-24.

<sup>٥٠٣</sup>Letters from Dr Grant, 5 July 1843 *Missionary Herald*, xxix, no.11, November 1843, pp.435-437 & August 1843, *Missionary Herald*, xl, no.1, January 1844, pp.23-24.



رسالة سابقة قبيل وقوع الحرب الكُردية- النسطورية على وجود اتصالات سرية بين باشا الموصل التركي ومار شمعون حيث وعد الأول الثاني بالمساعدة في حالة دخوله في حرب مع الكُرد.<sup>٥٤</sup> تدلل رسائل غرانت وبوضوح على وجود اتفاق سري قبل بداية أحداث الحرب بين المار شمعون والجانب التركي، ضد الكونفدرالية الكُردية.

يمكن الاستنتاج في ضوء ما سبق ذكره بأن المار شمعون هو الذي غدر بالجانب الكُرد، عندما تعاون مع بيرقدار والي الموصل، الذي غزا جيشه إمارة بادينان، وهو ما أدى إلى سقوط تلك الإمارة ونفي السلالة الكُردية الحاكمة فيها. كما لم يكن هجوم قوات بدرخان العسكري ضد القوات النسطورية مفاجئاً، حيث لم يخفي نيته تلك عن رجال الإرسالية الأمريكية أو عن المار شمعون. بعبارة أخرى، كان النسطورة مستعدين عسكرياً لمواجهة الحملة العسكرية الكُردية، خاصة عندما رفض المار شمعون الاعتراف بوجود السلطة الكُردية في منطقة هكاري وتأكيده على استقلاله السياسي.

لقد وقعت أحداث الحرب الداخلية الكُردية- النسطورية الأولى (١٨٤٣) والثانية (١٨٤٦) في الفترة التي كانت الكونفدرالية الإماراتية تتحدى علناً سلطات استنبول. من المعقول القول هنا ان نشوب القتال الداخلي في هكاري في ظل تلك الظروف الحرجة، حينما كان الأتراك يشكلون عدواً مشتركاً للكُرد وللجماعات المسيحية على حد سواء، لم يكن أمراً يرحب به الأمراء الكُرد. كانت السلطات التركية المستفيد الأول من الصراعات الداخلية تلك في المناطق الكُردية الجبلية، وهو الامر الذي يفسر تشجيع والي الموصل لمار شمعون على التمرد ضد الأمراء الكُرد. ومن جانبها، استغلت القوى الأوربية، خاصة بريطانيا، قضية المار شمعون والصراع الكُرد- النسطوري في الضغط على السلطات التركية من اجل التعجيل بعملية تدمير الإمارات الكُردية المستقلة وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية. يقال ان القوى الأوربية

---

تضم رسائل الطبيب غرانت الكثير من المعلومات المتناقضة والمبالغات التي يصعب تصديقها. على سبيل المثال لا الحصر. لا يدحض الادعاءات التركية والنسطورية التي قدرت الجيش الكُرد ما بين سبعين ومائة ألف مقاتل، رغم انه زار معسكر بدرخان قبيل مهاجمة القوات النسطورية.

<sup>٥٤</sup>The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Part One, vol.39,1843, p.471.

وعدت بتقديم المساعدة إلى الجيوش التركية في حربها ضد الأمراء الكُرد. <sup>٥٥</sup> ان الامر الذي لا يمكن إنكاره هو مشاركة العديد من الخبراء العسكريين الأوربيين في الحملات التي شنتها الجيوش التركية ضد الإمارات الكُردية المستقلة، والموقف العدائي السافر الذي اتخذته كل القوى الأوربية الكبرى تجاه الكُرد.

ان وجود البعدين الإقليمي والدولي لكل ما كان يجري في كُردستان من أحداث وتطورات سياسية جعل الكثير من الباحثين الكُرد يعتقدون بان التدخلات الخارجية كانت السبب الرئيس في نشوء الصراع الكُردى- النسطوري. يقول جليل جليل بأن البريطانيين حثوا النساطرة على عدم التوصل إلى اية تسوية مع الأمراء الكُرد. <sup>٥٦</sup> وما يدعم صحة هذا الاستنتاج هو عدم تشجيع البريطانيين لمار شمعون في مسالة الدخول في مفاوضات مع الأمراء الكُرد من اجل حل الخلافات، وإنما أجبرته على التوصل إلى تفاهم مع سلطات استنبول كي توفر له الحماية. ومن جهة نظر عبد الرحمن قاسم، حث الأتراك قادة النساطرة على التمرد ضد الكُرد، <sup>٥٧</sup> بينما يعتقد كندال نزان بان النشاطات المعادية للكُرد التي قام بها رجال الإرساليات المسيحية الأمريكية والبريطانية تقف وراء المعارضة المسيحية المحلية لحركة الأمير بدرخان. <sup>٥٨</sup>

ان من الصعب جداً التشكيك في حقيقة ان قيام الكونفدرالية الإماراتية في كُردستان الكبرى لم ينسجم مع مصالح القوى الأوربية الكبرى، خاصة بريطانيا وروسيا، أو مع أهداف الإرساليات المسيحية التبشيرية في الهيمنة الدينية، حتى وان لم يبد أي من الأمراء الكُرد موقفاً عدائياً تجاه تلك الاطراف الأجنبية. فمن وجهة نظر الإرساليات التبشيرية المسيحية، ان وجود امراطورية تركية ضعيفة عرضة لضغوط القوى المسيحية الكبرى سيسهل لها من تكثيف نشاطاتها الدينية وتوسيعها إلى ابعد الحدود.

<sup>٥٥</sup>Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, p.206.

<sup>٥٦</sup> جليل، من تاريخ الإمارات، ص ٢٤٢.

<sup>٥٧</sup> عبد الرحمن قاسم، كُردستان والكُرد، دراسة سياسية اقتصادية، (بيروت: ١٩٧٠)، ص ٤٨.

<sup>٥٨</sup>Nezan, A People without a Country, p.21.

باختصار، عكس وقوع الصدام العسكري بين الكرد والنساطرة في هكاري في عامي ١٨٤٣ و١٨٤٦ جملة تناقضات وتعقيدات داخلية وخارجية تخللت الوضع الكردي. من جهة، حاول الأمراء الكرد تعزيز الجبهة الداخلية الكردية- الكردية والكرديّة- المسيحية، في حين سعى طرفاً الجماعة النسطورية المتنافسين، سواء الموالي منها إلى المار شمعون (والمدعومة من المبشرين الإنكليز) أو المتمرد منها على سلطة المار شمعون الدينية والدنيوية (والمدعومة من المبشرين الأميركيين) إلى تحقيق استقلال سياسي تام في ظل حماية أحد القوى المسيحية الكبرى. من جهة ثانية، اراد المبشرون المسيحيون والقوى الأوربية تعزيز نفوذهم في المناطق التي خضعت إلى سيطرة الكونفدرالية الإماراتية في سبيل تأمين مصالحها واهدافها الخاصة التي استلزمت حماية الإمبراطورية العثمانية من تهديدات اقليمية تهدف إلى تغيير الواقع السياسي القائم. أما السلطات التركية فسعت من خلال الدسائس السياسية ومن خلال شن غزوات عسكرية كبيرة إلى إنهاء الحكم السياسي الكردي المستقل وإلحاق المناطق الكردية بالامبراطورية العثمانية مقارنة بوجود كونفدرالية قوية في المناطق الكردية.

### بريطانيا ومستقبل كردستان السياسي

هنري أوستن ليارد وسي أي رسام

ان آراء ونشاطات البريطاني ليارد (١٨١٧-١٨٩٤)، الذي عمل مراسلاً ودبلوماسياً، وصار رجل أعمال وصاحب اهتمام في شؤون الآثار في أوقات مختلفة من حياته، هي التعبير الحقيقي عن موقف الدولة البريطانية تجاه الكونفدرالية الإماراتية وصراعها مع السلطات التركية. لعل هذا الامر يفسر لماذا كان هناك تشابه كبير بين مواقف ليارد ومواطنه ريتشارد وود فيما يتعلق بمناصرتهم التامة لمصالح الدولة التركية، وعدائهم الغير متحفظ تجاه قيام دولة كردية مستقلة. فعلى غرار ريتشارد وود الذي اعطى معلومات سلبية عن حكومة الأمير محمد في كردستان الجنوبية، شوه ليارد صورة الأمير بدرخان وحكمه تماماً. الغريب انه لم يزر كلاهما المناطق الكردية عندما كانت تدار من قبل الأميرين محمد وبدرخان، وان كلاهما تجاهلا شهادة العديد من الأجانب الذين أعطوا صورة إيجابية عن ما شاهدوه خلال زيارتهم للمناطق

الكردية المستقلة والتقاءهم بالأميرين المذكورين. والأغرب من ذلك هو ان ليارد لم يلتقي أبداً ببدرخان. ان الفرق الرئيسي ما بين ليارد وريتشارد وود هو ان ما قاله الأول أثر بشكل كبير على ما كتبه الغربيون من باحثين ورحالة ومبشرين في فترات لاحقة عن عهد الأمير بدرخان. لقد اغفل هؤلاء حقيقة ان ليارد، شأنه شأن الكثير من الموظفين البريطانيين في استنبول وطهران، كان طرفاً غير محايد، تدخل بشكل مباشر في الشؤون التركية والكردية، خاصة في العقدين الرابع والخامس.

قدم ليارد نفسه في كتاباته عن عمليات التنقيب الأثرية في نينوى وعن رحلاته في المناطق الكردية وفي ميسوبوتاميا على انه خبير لا في ميدان الحضارة الآشورية فقط وإنما أيضاً في الشؤون الكردية برغم انه لا يعرف شيئاً عن تاريخ الكرد ولغتهم وثقافتهم وتقاليدهم. كان ليارد يعرف شيئاً من العربية. لقد وصف ليارد الكرد على انهم قبائل متوحشة تعارض الإصلاحات التقدمية التي كان يقوم بها الأتراك العثمانيون وتضطهد بشدة الجماعات المسيحية المحلية لأسباب دينية.<sup>٥٠٩</sup> يتجاهل ليارد بذلك عن قصد التنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي القائم في ظل النظام الإماراتي السائد في المناطق الكردية في العقدين الرابع والخامس. الغريب أيضاً هو اراء ليارد المعادية للطائفة الايزدية الكردية،<sup>٥١٠</sup> في الوقت التي كان يتعرض ابناًؤها إلى القتل والنهب والاسر من قبل الجيوش التركية.

ان فهم خلفية ليارد السياسية والثقافية والوظيفية هي الوسيلة المثلى في تحليل تصوراتته التي كونها عن الكرد والوضع السياسي في كردستان. في أواخر العقد الرابع، أي عندما كان ليارد في العشرينيات من عمره، عمل مراسلاً في استنبول لعدد من الصحف. في ذلك الوقت، عاش ليارد في بيرامع عائلة أرمنية. شكل رجال الأرمن ونسأؤهم المحيط الاجتماعي الذي وجد فيه بليارد، الذي سرعان ما اصبح من دعاة تحسين أوضاع الأرامنة في الإمبراطورية العثمانية. من المحتمل جداً ان يخلق وجود جماعة أرمنية كبيرة في المناطق الكردية تصوراً مسبقاً عند ليارد بان الكرد المسلمين يشكلون الفئة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت تضطهد الجماعات

<sup>٥٠٩</sup>Layard, *Autobiography and Letters from his Childhood*, vo.1, pp.294, 300 & 303.

<sup>٥١٠</sup>. المصدر السابق، ص ٢٨٤-٢٩٨.

المسيحية المحلية. ولا بد ان محيط ليارد الاجتماعي الأرمني في بيرا قد عزز من قوة ذلك التصور عنده.

في مقالاته الصحفية، اتخذ ليارد موقفاً صريحاً مناصراً للإمبراطورية العثمانية ومعادٍ تماماً لروسيا القيصرية، والذي انسجم حينذاك مع موقف السفير البريطاني كانيغ ستراتفورد في استنبول. فكلا الرجلين عارضا انحلال الإمبراطورية العثمانية مؤمنين في الوقت نفسه ان تنفيذ بعض الاصلاحات الداخلية فيها سيعزز من حكم السلطان ونفوذه في الأقاليم غير التركية. لقد تدخل ليارد بشكل فعال في الشؤون السياسية الداخلية التركية عندما استخدمه السفير ستراتفورد كواسطة ارتباط مع رشيد باشا، القائد المزعوم للجناح الاصلاحى.<sup>٥١١</sup> كما اعطى السفير البريطاني مهاماً أخرى إلى ليارد لكتابة تقرير طويل عن جغرافية وقبائل المناطق الحدودية التركية- الإيرانية ودراسة الدلائل المقدمة من قبل الحكومتين التركية والإيرانية بشأن مشاكلها الحدودية.<sup>٥١٢</sup>

في فترتي ١٨٤٥-١٨٤٧ و ١٨٤٩-١٨٥١، ترأس ليارد بعثتين بريطانيتين للتنقيب في موقع نمروود الأثري قرب مدينة الموصل، حيث ارسل، وبتمويل من كاننج، عدة قطع آشورية ضخمة إلى المتحف البريطاني في لندن في عام ١٨٤٨. طوال مدة التنقيب عن الآثار في منطقة الموصل، احتفظ ليارد بصلاته القوية بالسفارة البريطانية في استنبول، لاحتياجه لها كي تقنع السلطات التركية بخصوص عدم عرقلة نشاطاته في التنقيب عن الآثار. بينما زود هو السفارة بمعلومات مفصلة عن أوضاع المناطق الكردية الجبلية أثناء صراع الإمارات الكردية مع الإمبراطورية العثمانية في النصف الثاني من العقد الخامس. في عام ١٨٤٦، تدخل ليارد علناً في الشؤون الكردية من خلال تشجيع والي الموصل وحثه على غزو إمارة هكاري بحجة حماية الأقلية المسيحية النسطورية فيها من اضطهاد بدرخان لها.<sup>٥١٣</sup> لقد عد ليارد الخدمات التي كان يقدمها إلى السفارة البريطانية في استنبول وسيلة يمكن من خلالها تحقيق

<sup>٥١١</sup>Gordon Waterfield, Layard of Nieveh, (London: John Murray, 1963), pp.99-105.

<sup>٥١٢</sup> المصدر السابق، ص ٩٣-٩٨.

<sup>٥١٣</sup>Gordon, Layard of Nieveh, p.151.

طموحاته السياسية والوظيفية. ففي إحدى رسائله إلى عمته، يقول ليارد («أني أرى مهنة رائعة تفتح لي الأبواب في الشرق، وسأضحى في سبيلها بكل الاعتبارات»)<sup>٥٤</sup>.

في أوائل العقد السادس من القرن التاسع عشر، عاد ليارد إلى بريطانيا حيث انتخب عضواً في مجلس العموم البريطاني، وشغل منصب مساعد وزير في وزارة الخارجية لمدة قصيرة. في خطابه داخل البرلمان، واصل ليارد دعمه لتركيا ضد روسيا، محذراً الحكومة البريطانية من أن أي إذلال روسي للسلطان التركي وتدمير هيئته («سيطلق العنان لقبائل آسيا الصغرى المتوحشة»). بحسب اعتقاد ليارد، كانت الهيئة السياسية والأخلاقية للحكومة التركية مسؤولة عن تماسك أركان الإمبراطورية العثمانية. ولم يكن هناك بديل لتركيا، حسب وجهة نظره، سوى روسيا، إلا إذا كانت بريطانيا مستعدة لفرض سيطرتها على آسيا الصغرى، ميسوبوتاميا وسوريا ومصر.<sup>٥٥</sup>

لم تجعل الحسابات الاستراتيجية وحدها ليارد من أنصار أطروحة توطيد وحدة الأراضي التركية، وإنما الطموحات الاقتصادية أيضاً. لقد كانت أقاليم «رجل أوروبا المريض» مسرحاً ومنذ فترة للتنافس الحاد بين مختلف القوى الأوربية الكبرى. في عام ١٨٥٥، عمل ليارد مع أصدقائه العاملين في مركز لندن التجاري على إقامة بنك في استنبول. خسر ليارد مقعده في مجلس العموم وتبع ذلك استقالته من منصبه في البنك.<sup>٥٦</sup> لقد اهتم ليارد خلال زيارته للمناطق الكردية والمناطق المحيطة بها بالإمكانيات الاقتصادية الكامنة فيها. وركز خصوصاً على مدى توغل البضائع البريطانية في الأسواق المحلية. لم يخفي ليارد فرحته مثلاً من وجود التجار البريطانيين في بغداد بغية إقامة نشاط تجاري بين الأقاليم الجنوبية-الشرقية من كردستان مع بريطانيا.<sup>٥٧</sup> كما تم ذكره في الفصل السابق، أثنى ليارد كثيراً على القنصل البريطاني في ارزروم، جيمس برانت، لنشاطاته في دعم النفوذ الاقتصادي

<sup>٥٤</sup> المصدر السابق، ص ٩٦.

<sup>٥٥</sup> المصدر السابق، ص ٢٤٠.

<sup>٥٦</sup> المصدر السابق، ص ٢٧٨، ٢٨٠ و ٢٨٧.

<sup>٥٧</sup> Layard, Autobiography and Letters from his Childhood, vo.1, p.330.

البريطاني في آسيا الصغرى.<sup>٥٨</sup> لقد تحققت بعض من طموحات ليارد السياسية عندما عين سفيراً في اسبانيا في عام ١٨٦٩ ومن ثم في استنبول بين عامي ١٨٧٧ و ١٨٨٠، حيث واصل دعمه لوحدة الإمبراطورية العثمانية الإقليمية وعبر عن عداته تجاه أولى الحركات السياسية القومية الكردية التي قادها الشيخ عبيد الله النهري في أعقاب نهاية الحرب الروسية- التركية في ١٨٧٩.

كان رسام، والذي شغل منصب نائب القنصل البريطاني في الموصل لسنوات طويلة، أحد الموظفين الذين لعبوا دوراً كبيراً لا في التأثير على وجهات نظر ليارد تجاه الكرد، عندما كان الأخير في منطقة الموصل، فحسب وإنما أيضاً في مواقف السفارة البريطانية في استنبول من خلال مراسلاته العديدة التي كانت تدعو إلى القضاء على الأمراء الكرد بحجة حماية الجماعات المسيحية، خاصة النسطورية. كان رسام من أصول مسيحية كلدانية،<sup>٥٩</sup> وتمكن بفضل ذلك من إقامة علاقات وثيقة بالمار شمعون وبقية قادة الجماعات المسيحية، بحيث أصبح يعبر عن آرائهم وأحلامهم. لقد وطد رسام علاقة صداقة مع ليارد، ووفر للأخير كل الدعم لنشاطاته الأثرية. وتحت تأثير رسام، صار ليارد من دعاة فكرة انحدار الكلدان والآثور من الآشوريين القدماء وصديقاً حميماً يعبر عن مصالح تلك الجماعات المسيحية المحلية.

ان المعلومات التي نقلتها مراسلات رسام وليارد مع السفارة البريطانية عن قضية المار شمعون تتطابق بشكل ملفت للنظر من حيث الطرح والحل وكذلك من حيث تأجيج المشاعر الدينية المفرطة في المبالغة في ما عاناه النساطرة من خسائر مادية وبشرية أثناء هزيمتهم امام القوات الكردية المتحالفة. الغريب ان كلاً الشخصين كانا بعيدين جداً عن مركز الأحداث في هكاري ولم يكتفيا بما رده المار شمعون من اقوال وإنما أضافاً إليه الكثير. ففي حين ادعى المار شمعون بمقتل ٥,٠٠٠ من اتباعه، يذكر ليارد في كتبه ومراسلاته مقتل اكثر من ١٠,٠٠٠ نسطوري. وفي حين لم يذكر

<sup>٥٨</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.8.

<sup>٥٩</sup> كانت عائلة رسام واحدة من اشهر العائلات التجارية المشهورة في مدينة الموصل إلى عهد قريب، راجع حنا بطاطو، "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العراق: الكتاب الثالث، الشيعيون والبعثيون والضباط الاحرار"، ترجمة عفيف رزان، (مؤسسة الأبحاث العربية: بيروت ١٩٩٥)، ص ١٨٠.

رجال الإرساليات الأمريكية الموجودين في هكاري شيئاً عن حرق الكنائس أو تحويل البعض منها إلى مساجد، ادعى رسام بان الكُرد أحرقوا جميع الكنائس.<sup>٥٢٠</sup> كما رفض بدرخان<sup>٥٢١</sup> الادعاءات التي كان قد قدمها رسام حول مصادرة القوات الكُردية للآلاف من المواشي والخراف العائدة للنساطرة وغيرها من اعمال النهب.<sup>٥٢٢</sup> لقد تطابقت وإلى ابعد الحدود تفسيرات رسام وليارد عن أسباب النزاع الكُردى- النسطوري. فمن وجهة نظريهما، يعود السبب في وقوع القتال إلى تعصب بدرخان الديني الأعمى، وقد تجاهلا عمداً الجذور السياسية للخلاف القائم بين الأمراء الكُرد وقادة النساطرة. فوق ذلك، دعا كل من رسام وليارد إلى ممارسة الضغط على استنبول من اجل القضاء على الإمارات الكُردية بحجة حماية الجماعة النسطورية.

عندما سنحت له الفرصة كي يدافع عن موقفه خلال محادثاته مع رسول الحكومة التركية، كمال أفندي، ولقائه مع القنصل البريطاني المقيم في طرابزون، ستيفينز، قدم الأمير بدرخان صورة مخالفة تماماً للأحداث التي سبقت صدامه العسكري الأول مع المار شمعون عن تلك التي كان قد قدمها رسام وليارد. يقول بدرخان ان أنصار المار شمعون قتلوا عدداً من رعاياه الكُرد وهو ما اضطره إلى الانتقام من النساطرة، وتطورت تلك الاعمال الفردية في شكل فعل ورد فعل إلى نزاع عسكري عام. وفي نفس الوقت، كان أنصار المار شمعون قد هاجموا وسلبوا عدداً من القرى الكُردية الخاضعة لسلطة أمير هكاري. تلك كانت، بحسب ما قاله بدرخان، سبب تشكيل قوة كُردية عسكرية مشتركة بين إمارتي هكاري وبوتان بهدف فرض السيطرة على قبائل مقاطعة تيارى النسطورية. في الهجوم الأول، استطاعت القوات الكُردية دحر القوات النسطورية حيث قدم الطرفان خسائر بشرية بسيطة مماثلة. قبل خروجه من تيارى، ترك بدرخان ثكنة عسكرية كُردية في حصنها بقيادة أحد قادته العسكريين زينال. ويضيف بدرخان، ان النساطرة سرعان ما حاصروا الثكنة

<sup>٥٢٠</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Vice-Consul Rassam, 29 July 1843, In closure in Sir S. Canning, no.179, 17 August 1843. pp.271-272.

<sup>٥٢١</sup>Ibid, Vice-Consul Rassam, 27 August 1843, Inclosure in Sir S. Canning, no.208, 1 October 1843, pp.273-4.

<sup>٥٢٢</sup>Ibid, Mr Stevens, 18 May 1844, inclosure in Sir S. Canning, no.126, 17 June 1844, p.279.



الكردية لمدة تسعة ايام. وعندما استسلم زينال وافراد الثكنة الكردية، قام النساطرة بقتل العديد منهم. اضطر زينال وبقيّة افراد الثكنة إلى الدخول مرة أخرى إلى الحصن، حيث استنجد بالأمير بدرخان. ولدى وصول تلك الأنباء إليه، قاد بدرخان جيشاً قوامه ٢٦,٠٠٠ رجل من اجل اعادة السيطرة على تيارى ومعاقبة النساطرة. يقر بدرخان بهذا الصدد بأنه فقد السيطرة على افراد قواته التي بدأت تهاجم بشكل عشوائي رجال النساطرة انتقاما للقتلى الكرد. حدد بدرخان قتلى النساطرة بأقل من ٢,٠٠٠ رجل طوال تلك المدة، لكنه نفى بشكل قاطع بان قوته قامت بنهب ممتلكات النساطرة، واكد ان أنصار المار شمعون كانوا هم المعتدون. لم يبدي بدرخان أي استعداد لسحب الثكنة العسكرية الكردية، مكتفياً باستبدال زينال بقائد عسكري اخر.<sup>٥٢٣</sup> ورغم استتباب الأمور، ظل رسام يصر على ان الكرد ما زالوا يرتكبون «الجرائم الشنيعة»، داعياً إلى استبدال الثكنة الكردية بقوات عسكرية تركية لحماية النساطرة.<sup>٥٢٤</sup>

## السياسة البريطانية

### تجاه الشؤون الكردية خلال عهد الأمير بدرخان

لم يختلف موقف بريطانيا تجاه بدرخان والكونفدرالية الإماراتية عن موقفها السابق تجاه الكيان السياسي المستقل الذي أسسها الأمير محمد في كردستان الجنوبية، الذي استند في كلتا الحالتين إلى حسابات استراتيجية بصورة أساسية. ولم يكن الموقف البريطاني من النزاع الكردي-النسطوري سوى امتداداً لسياسة لندن العامة تجاه منطقة الشرق الأوسط التي استندت إلى تقوية وحدة الإمبراطورية العثمانية ومساعدتها في مواجهة التهديدات الإقليمية. فيما يتعلق بتطور النزاع الكردي-النسطوري، لم يحاول الموظفون البريطانيون أبداً التوسط بين الجانبين عندما تدهورت العلاقة بين الجانبين، وإنما ركزوا جهودهم في إقامة علاقة سياسية

<sup>٥٢٣</sup>Ibid, Mr Stevens, 18 May 1844, inclosure in Sir S. Canning, no.126, 17 June 1844, p.279 & Mr Stevens' Report, 10 July 1844, Inclosure in Sir S. Canning, no.169, 2 August 1844, p.282.

<sup>٥٢٤</sup>Ibid, Mr Rassam ١٨ ,.May 1844, Inclosure in Sir S. Canning, no.126, 17 June 1844, p.280.

مباشرة بين المار شمعون والسلطات التركية مضادة للأمراء الكُرد. لقد تميز الموقف البريطاني بالتخبط والتناقض. فمن جهة، تؤكد تقارير الموظفين البريطانيين، على رأسهم رسام، على الاضطهاد الذي مارسه حكام الأقاليم الأتراك ضد الجماعات المسيحية، خاصة بيرقدار باشا الموصل. ومن جهة ثانية، تضغط السفارة البريطانية في استنبول على الحكومة التركية من اجل إرسال تعليمات خاصة إلى ولاية الأقاليم تلزمهم باتخاذ اقوى الإجراءات من اجل حماية الجماعة النسطورية من الأمراء الكُرد. لقد نسقت بريطانيا خطاها الدبلوماسية مع روسيا<sup>٥٢٥</sup> وبقيّة القوى الأوروبية الكبرى بهدف ممارسة اكبر ضغط ممكن على السلطان كي يتدخل بحزم لصالح المار شمعون. أبدت القنصلية الفرنسية في الموصل رغبة في ان يقوم الأتراك بهجوم عسكري ضد بدرخان بحجة حماية النساطرة.<sup>٥٢٦</sup> أما القنصل الروسي فقد حذر الأتراك من وحدة الأمراء الكُرد بوصفها تهديدا لدولتهم.<sup>٥٢٧</sup>

ومن لندن، ارسل وزير الخارجية البريطاني اللورد أبدين (١٨٤٦-١٨٤١) تعليمات عاجلة ولأكثر من مرة إلى السفارة البريطانية في استنبول تطلب من كاننج ان يفهم السلطات التركية بان الحكومة البريطانية تتوقع منها «دار اوامر حازمة إلى باشا الموصل من اجل ان يتبنى اكثر الإجراءات فعالية لحماية المسيحيين».<sup>٥٢٨</sup> وقد هدّد أبدين الحكومة التركية، في حالة تجاهل مشاعر «الامم الأوربية» بعواقب سلبية في المستقبل. في الوقت نفسه، شرح كاننج للأتراك المطالب البريطانية وهي ضرورة ارجاع الاسرى النساطرة من ضمنهم النساء والأطفال وتعويضهم عن الممتلكات التي فقدوها، والتوصل إلى تفاهم خاص بين استنبول والمار شمعون.<sup>٥٢٩</sup> لكن سرعان ما تشددت المطالب البريطانية، في ضوء المعلومات التي كان يرسلها رسام، حيث طالبت لندن بإخلاء هكاري من القوات الكُردية وبمنح حماية سياسية- عسكرية تركية

<sup>٥٢٥</sup>Ibid, Sir S. Canning to the British Commissioners at Erzerum, 13 September 1843, Inclosure in Sir S. Canning, no.208, 1 October 1843, p.274.

<sup>٥٢٦</sup> مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٦٠-٦١.

<sup>٥٢٧</sup> المصدر السابق.

<sup>٥٢٨</sup>BDFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit.,to Sir S. Canning, no.108, 26 August 1843, p.272.

<sup>٥٢٩</sup>Ibid, Sir S. Canning, no.194, 1 september 1843, p.272.

للسيطرة عن طريق إقامة اتفاق ثنائي بين الحكومة التركية والمار شمعون. فضلا عن ذلك، طالب البريطانيون السلطات التركية بارسال ممثلين عنها إلى المناطق الكردية لتقصي الحقائق.<sup>٥٣٠</sup>

يمكن الاستنتاج من المراسلات البريطانية سواء بين وزارة الخارجية والسفارة البريطانية، من جهة، أو بين تلك السفارة والموظفين البريطانيين الميدانيين، من جهة ثانية، بان البريطانيين كانوا يعلمون جيداً بان الأتراك لا يملكون أي نفوذ في المناطق الكردية المستقلة، خاصة في هكاري وبوتان، وان هدف البريطانيين وبمساعدة بقية القوى الأوربية الكبرى وراء ممارسة ضغوط متواصلة على السلطات التركية هو إخراجها، وبالتالي دفعها إلى اتخاذ خطوات عسكرية من أجل القضاء على الإمارات الكردية. ففي رسالة إلى رسام، يقدم كاننج النصيحة الآتية:

يجب ان تكون حذراً، وان تتذكر في نفس الوقت بان تدخلنا ذا صفة ودية، ان يتطلب ادارته، من قبلك، بحساسية وحكمة، ولربما من المناسب، إذ لم يكن من غير العملي، تنفيذه بواسطة وسائل ملائمة، وانه من المحتمل ان السلطات التركية، ورغم ميولها الصادقة، ستجد من الضروري كسب الوقت لدى التعامل مع رئيس، كبدرخان، الذي يمتلك تلك الدرجة من القوة وروح التمرد.<sup>٥٣١</sup>

لو تم إلقاء نظرة فاحصة على الطريقة التي أثارت بريطانيا فيها قضية النساطرة ورفعت مطالبها في توفير الحماية لهم لتكشفت الأمور التالية: أولاً، ان إصرار البريطانيين على ان النساطرة كانوا رعايا السلطان التركي، والتي استهدفت إخراج السلطات التركية، تتنافى مع حقيقة ان النساطرة لم يكونوا خاضعين لتلك السلطات، حيث لم يعلنوا الولاء لها أو دفعوا الضرائب لها طوال وجودهم التاريخي في هكاري. فوق ذلك، لم يشكل نساطرة هكاري «ملة» ضمن النظام العثماني. لقد تمتع النساطرة بحكم ذاتي مستمر في هكاري، ولم يكن المار شمعون على استعداد لتقديم

<sup>٥٣٠</sup> Ibid, Memorandum, 1 November 1843, inclosure in Sir S. Canning, no.245, 20 November 1843, p.277.

<sup>٥٣١</sup> Ibid, Stratford, Buyukdery, 28 September 1843. Addressed to Rassam, p.276.

الولاء إلى السلطان، في الوقت الذي كان يسعى فيه إلى خلق كيان سياسي نسطوري مستقل تحت الحماية البريطانية في هكاري. في نهاية الامر وتحت ضغوط الموظفين البريطانيين قدم المارشون الولاء إلى السلطان العثماني وطلب حمايته.

ثانياً، سعت بريطانيا بقوة إلى إخلاء هكاري من القوات الكردية واحلال ثكنة تركية فيها بحجة حماية الجماعة النسطورية. لا بد ان الموظفين البريطانيين يعرفون حق المعرفة ان ذلك الامر سيعقد الوضع السياسي، ويقود إلى نزاع بين الكرد، من جهة، والأترك والنساطرة، من جهة ثانية، خاصة لان الأمراء الكرد تمتعوا باستقلال سياسي وعملوا على توسيع سيطرتهم الإقليمية، وليس على تحجيمه. ثالثاً، ان إخلاء هكاري من القوات الكردية كان مطلباً تعجيزياً بالنسبة إلى الأمراء الكرد بسبب الموقع الإستراتيجي الذي تمتعت به، وكذلك وجود أكثرية كردية سكانية، التي ستكون حتماً، في غياب حماية عسكرية كردية، تحت رحمة الأترك وقادة النساطرة. بتعبير اخر، لا يعني وجود الثكنة العسكرية التركية والتعاون النسطوري معها تدمير أمانة هكاري فقط وإنما تعريض أمن عدة إمارات كردية أخرى إلى خطر جدي. أخيراً، ركز البريطانيون جهودهم السياسية والدبلوماسية في إقناع السلطات التركية على ضرب الأمير بدرخان. ولا يرجع سبب التركيز البريطاني على بدرخان لانه هاجم النساطرة عسكرياً، حيث اشترك عدة أمراء كرد في تلك الحملة، وإنما لانه كان اقوى الحكام الكرد سياسياً وعسكرياً، ولأن هزيمته في أية مواجهة عسكرية مع الأترك ستمهد الطريق إلى اخضاع بقية الإمارات الكردية. طبقاً إلى كاتب تركي، سليمان نظيف، مارس البريطانيون الضغوط على الأترك، إذ حثوهم على إزاحة بدرخان من الحكم.<sup>٥٢٢</sup>

من جهة ثانية، لم يكن الأترك مهياًين لا عسكرياً ولا سياسياً للدخول في حرب كبيرة مباشرة مع الإمارات الكردية في عام ١٨٤٣، وكان البريطانيون على علم بذلك تماماً. وتلك الحقيقة تفسر لماذا رفض باشوات الموصل واربزوم ودياربكر التدخل في شؤون هكاري سياسياً أو عسكرياً. كان نشوء الخلاف الكردي-النسطوري يصب في خدمة استنبول لأنه أشغل بدرخان بمشكلة داخلية، وفي الوقت نفسه أضعف موقف النساطرة، كما استغل الأوربيون ورجال الإرساليات الوضع القائم من اجل تقوية نفوذهم. في خضم تلك التطورات انشغلت السلطات التركية في تعبئة

<sup>٥٢٢</sup> الميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ملحق ٨، سليمان ناظف، "النساطرة"....

قواها العسكرية وتتحين الفرصة من اجل القضاء على الكونفدرالية الإماراتية ليس بهدف حماية النساطرة وإنما لأنها كانت تريد اخضاع المناطق الكُردية إلى سيطرتها المباشرة. استناداً إلى ما قاله كاننج، بالرغم من اقرار الحكومة التركية «أن النساطرة كانوا هم المعتدون»، فأنها أبدت استعداداً لتلبية المطالب البريطانية بقدر الامكان. في الوقت ذاته، لم تخف الحكومة التركية عن السفير البريطاني بأنها «لم تكن قوية بشكل كاف من اجل الدخول في حرب مع الرؤساء الكُرد الأقوياء».<sup>٥٢٣</sup> فبينما كان الأتراك يتهيئون بقدر ما يستطيعون لتنظيم حملة عسكرية ضخمة ضد الإمارات، كان البريطانيون يحثون على التعجيل بها.

هناك نقطتان مهمتان يجب التذكير بهما، أولاً كان كاننج على علم بان الحكومة التركية لم ترد الدخول فوراً في حرب خاسرة مع الإمارات الكُردية والتي ستعرضها إلى الإحراج وتعري حقيقة انها لا تملك أي نفوذ فعلي في المناطق الكُردية.<sup>٥٢٤</sup> ثانياً، لم يكن من المهم بالنسبة إلى البريطانيين من كان الطرف المعتدي في الصراع الكُردى- النسطوري بقدر ما يهمها نتائجه السياسية. فحتى كاننج بدأت الشكوك تتسرب إلى مراسلاته حول صحة ما كان يدعيه المار شمعون بان الكُرد هم الذين بدعوا بالعدوان على النساطرة. فلو صح خبر ان النساطرة بادروا بالهجوم على إحدى القرى الكُردية، فانه وبحسب تعبير كاننج «سيعطي بشكل ملحوظ تفسيراً للوضع الكارثي الذي عانت منه هذه القبائل المسيحية، لسوء الحظ».<sup>٥٢٥</sup> حتى ان القنصل برانت يعترف مكرها بان الحملة الكُردية جاءت كُرد فعل على ما اسماه بمحاولة النساطرة لتحرير انفسهم من ظلم الكُرد.<sup>٥٢٦</sup>

---

<sup>٥٢٣</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Sir S.

Canning, no.203, 17 September 1843, pp.272-273.

<sup>٥٢٤</sup>Ibid, Sir S. Canning, Buyukdery, 28 September 1843. Addressed to Rassam, p.276 .

<sup>٥٢٥</sup>Ibid, Sir S. Canning, Buyukdery, 28 September 1843. Addressed to Rassam, p.276.

<sup>٥٢٦</sup>Ibid, Consul Brant, 31 October 1843, Inclosure in Sir S. Canning, no.245, 20

November 1843, p.277 .

طبقاً إلى التفاهم البريطاني- التركي، توجه وفد تركي رفيع المستوى مكون من كمال أفندي وشريف باشا في شباط ١٨٤٤.<sup>٥٣٧</sup> كما امر كاننج القنصل البريطاني، ستيفنز، في طرابزون بمرافقة الوفد التركي كي يرسل له بشكل سري كل المعلومات المتعلقة عن لقاء ذلك الوفد بالأمير بدرخان.<sup>٥٣٨</sup> في لقائه مع الوفد التركي، أكد بدرخان على شرعية ما قام به ضد أنصار المار شمعون لأنهم بدعوا بالعدوان ضد السكان الكرد، ورفض كل ما قد روجه المار شمعون حول أسباب القتال وعمليات السلب والتدمير وكذلك حجم الخسائر البشرية التي تكبدها الطرفان. في الوقت نفسه، أكد بدرخان أيضاً بأنه بدأ العمل في تحسين الأوضاع من خلال فرض الأمن واستبدال حاكم أشتيا، زينال، بحاكم جديد، وانه لا يوجد لديه مانع من عودة النساطرة الهاريين أو المأسورين إلى قراهم. يتضح من سير المحادثات بين بدرخان والوفد التركي بان استنبول لم تكن تملك أي نفوذ بتاتا عند الأمير بدرخان، وان الوفد التركي قد استغل الموقف الأوربي والبريطاني المعادي للكرد كي يهدد به بدرخان، حيث أكد كمال أفندي على ان بريطانيا ستتدخل عسكرياً، كما فعلت في الصين، ضد حكم الأمير بدرخان، إذا لم تستجب استنبول إلى ضغوطها.<sup>٥٣٩</sup>

لقد نتج عن لقاء الأمير بدرخان بالوفد التركي وتحت الضغط البريطاني اتفاق يسمح لكل النساطرة الهاريين والأسرى بالرجوع إلى مناطقهم من ضمنهم المار شمعون. فضلا عن ذلك، تنازل بدرخان عن مقاطعة قديات التي كان يسكنها المسيحيون خاصة في جبل طور، والتي ألحقت بدياربكر. الملفت للنظر لم يلقي ذلك الاتفاق رضى رسام. فقد حاول الأخير، وعن طريق إرسال تقارير جديدة عن مواصلة الكرد اضطهاد النساطرة في أشتيا إلى إقناع السفارة البريطانية في استنبول بضرورة إخراج الحامية العسكرية الكردية واستبدالها بقوات تركية.<sup>٥٤٠</sup> على النقيض من

<sup>٥٣٧</sup>Ibid, Memorandum, 1 November 1843, inclosure in Sir S. Canning, no.245, 20 November 1843, p.277.

<sup>٥٣٨</sup>Ibid, to Mr Stevens, 21 December 1843, inclosure in Sir S. Canning, no.279, 31 December 1843, p.278.

<sup>٥٣٩</sup>Ibid, Mr Stevens, 18 May 1844, inclosure in Sir S. Canning, no.126, 17 June 1844, p.279.

<sup>٥٤٠</sup>Ibid, Mr Rassam, 18 May 1844, inclosure in Sir S. Canning, no.126, 17 June 1844, p.280 .

رسام، اعترف ستيفنز بان الكثير من التقارير التي كانت تأتي إليه باستمرار عن اضطهاد النساطرة أما كان مبالغاً فيها أو غير صحيحة تماماً. وقد اخبر ستيفنز السفير كاننج، وخلافاً لكل الدعايات المنتشرة حينذاك، بان أسرى النساطرة في الجزيرة وديركوله الخاضعتين لسيطرة الامير بدرخان في افضل الاحوال، وقد ارتدوا ملابس جيدة لدى عودتهم إلى قراهم الأصلية في اشنتيا.<sup>٥٤١</sup> تطابقت هذه المعلومات مع شهادة المبشر الامريكي بريث، التي سبق الإشارة إليها.

لم يكن موقف المار شمعون وبقيّة النساطرة ايجابياً تجاه الاتفاق الذي تم التوصل إليه في حضور القنصل ستيفنز. فقد استمر قادة النساطرة وعن طريق التقارير التي كان يبعث بها رسام إلى السفير كاننج أو التي كان يرسلها بادجر إلى الكنيسة الإنكليزية في لندن يشتكون من ظلم الكُرد وتدهور أوضاعهم. بهذا النحو، ظل قادة النساطرة ومن ضمنهم المار شمعون يعتقدون بأن استمرار المشاكل وتصعيد الموقف في هكاري مع الأمراء الكُرد سيَجبر بريطانيا آجلاً أم عاجلاً على التدخل سياسياً وعسكرياً من اجل تشكيل كيان سياسي نسطوري تحت حمايتها في هكاري. إذا اخذ بنظر الاعتبار عزم الأمراء الكُرد في المحافظة على استقلال ووحدة الإمارات، من جهة، ورفض النساطرة الاعتراف بالسلطة الكُردية وطموحاتهم في تشكيل كيان خاص بهم في هكاري، من جهة ثانية، ليس من الغريب ان تتطور الخلافات الى اصطدام دموي ثانٍ بين الطرفين. للمرة الثانية لم يتدخل الموظفون البريطانيون لتهدئة الأوضاع، رغم علمهم بتدهورها بين الكُرد والنساطرة.<sup>٥٤٢</sup> وفور وقوع الصدام وهزيمة قبائل توخما النسطورية على يد جيش بوتان، التجأ البريطانيون إلى السلطات التركية حيث طلبوا منها التدخل عسكرياً لصالح النساطرة.

لقد اخبر المار شمعون بادجر بان سبب الحملة العسكرية الكُردية ضد قبائل توخما النسطورية هو قيام الاخرين باتصالات سرية مع باشا الموصل بهدف إقامة حماية تركية في مناطقها.<sup>٥٤٣</sup> كما كان المار شمعون قد تسلم رسائل من الحكومة

<sup>٥٤١</sup>Ibid, Mr Stevens, 15 June 1844, inclosure in Sir S. Canning, no.137, 2 July 1844, p.280.

<sup>٥٤٢</sup>Ibid, Mr Wellesley, no.89, 17 October 1846, p.284.

<sup>٥٤٣</sup>Badger The Nestorians and their Rituals, p.270.

التركية تؤكد على منح الحماية التركية للجماعة النسطورية.<sup>٥٤٤</sup> وربما كانت تلك خلفية رفض القبائل النسطورية دفع الضرائب إلى الأمراء الكرُد.<sup>٥٤٥</sup> مرة أخرى قدم ليارد وباجر صورة غير حقيقية عن خسائر النساطرة، حيث اخبر الأول، الذين كان يرافق أحد القادة الأتراك في جولة له في سنجار وماردين، رسام بأن أعداداً كبيرة من النساطرة قد قتلوا على يد القوات الكرُدية، دون تفريق بين النساء والرجال أو بين المسلحين والعزل، وأنه تم إحراق القرى المسيحية في هكاري كافة.<sup>٥٤٦</sup> أما بااجر فقال بان ضحايا النساطرة في عام ١٨٤٦ فاق بكثير ضحاياهم في عام ١٨٤٣، وان الكرُد قتلوا حتى الأطفال وقطعوا اذان الجرحى والقتلى.<sup>٥٤٧</sup> كانت تلك المعلومات كسابقاتها مخالفة للواقع. ففي إحدى رسائله إلى السفارة البريطانية يعترف رسام بأنه «لم يعاني نساطرة توخماً بقدر ما عاناه (نساطرة) تيارى في عام ١٨٤٣، وان معظم الذين قتلوا كانوا رجالاً مسلحين... ولم يؤسر أي شخص ولم تدمر القرى»<sup>٥٤٨</sup> حيث بلغ عدد قتلى القوات النسطورية ما بين ٥٠٠ و ٦٠٠ رجل، بحسب ادعاءات النساطرة انفسهم.<sup>٥٤٩</sup>

على الرغم من تواطؤ النساطرة مع السلطات التركية المركزية والي الموصل للمرة الثانية، اتهمت السفارة البريطانية حكام الأقاليم الأتراك بالمسؤولية عن هزيمة النساطرة.<sup>٥٥٠</sup> ونظمت بريطانيا بقيادة وزير الخارجية الجديد، اللورد بالمرستون،<sup>٥٥١</sup> حملة دبلوماسية أوربية واسعة جديدة تطالب السلطات التركية بتدمير سلطة الأمراء الكرُد. ان إرسال الحملة العسكرية التركية الكبيرة في عام ١٨٤٧، والتي نالت مباركة وتأييد القوى الأوربية الكبرى كافة وعلى رأسها بريطانيا، لم تكن

<sup>٥٤٤</sup>B DFA The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Mr Rassam, 3 October 1846, Inclosure in Mr Wellesley, no.101, 27 October 1846, p.287.

<sup>٥٤٥</sup> نيكيوتين، الكرُد، ص ٣٠٣.

<sup>٥٤٦</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Mr Rassam, 19 October 1846, Inclosure in Mr Wellesley, no.101, 27 October 1846, p.285.

<sup>٥٤٧</sup> Badger, The Nestorians and their Rituals, p.276.

<sup>٥٤٨</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Mr Rassam, 31 October 1846, Inclosure in Mr Wellesley, no.101, 27 October 1846, p.285.

<sup>٥٤٩</sup>Ibid, Wellesley, no.146, 2 December 1846, p.287.

<sup>٥٥٠</sup>Ibid, Wellesley, no.123, 17 November 1846, p.287 .

<sup>٥٥١</sup>Ibid, to Wellesley, no.2 January 1847, pp.288-289.



تستهدف حماية النساطرة إذ ان السلطات التركية كانت تعد العدة لشن هجوم عام ضد الكونغفدرالية الإماراتية منذ عدة اعوام. فقد اخبر الأتراك الوزير البريطاني في استنبول ريتشارد ولسلي بان لديهم مخططاً عسكرياً يستهدف القضاء على بدرخان،<sup>٥٢</sup> وانهم كانوا قد اجلوا حملتهم العسكرية كي يعيّنوا قوات عسكرية كبيرة كافية تقدر على إلحاق الهزيمة بجيش بوتان المؤلف من ٦٠,٠٠٠ محارب.<sup>٥٣</sup> وتحت الحاح السفارة البريطانية، حدد وزير الخارجية التركي، رشيد باشا، بدء حملة تركيا العسكرية المرتقبة ضد الإمارات الكردية في ربيع عام ١٨٤٧،<sup>٥٤</sup> بعد ان رفض بدرخان دعوة مبعوث تركي خاص لزيارة استنبول<sup>٥٥</sup> بحجة حل المشاكل (التفاصيل في القسم التالي).

### الصراع الكردي-التركي، ١٨٣٤-١٨٤٧

المرحلة الأولى، ١٨٣٤-١٨٣٩

اتخذ الصراع بين الإمارات الكردية والدولة التركية سمات متميزة في عهد الأمير بدرخان، أولها، استمرار ذلك الصراع مدة طويلة (١٨٣٤-١٨٤٧)، حيث تخللتها عدة فواصل زمنية سادتها حالة من السلام القلق بين الطرفين الكردي والتركي. يقسم سافرستيان سير العمليات العسكرية التركية في كردستان إلى فترتين مختلفتين.<sup>٥٦</sup> استغرقت الفترة الأولى ٦ أعوام من ١٨٣٤ إلى ١٨٣٩. ففي هذه الفترة، كان تحدي بدرخان للإمبراطورية العثمانية ذا طابع محلي ضيق، أي محصوراً في المقاطعات التابعة إلى إمارة بوتان. بين عامي ١٨٣٦ و١٨٣٧، وهي الفترة التي شهدت اغتيال محمد باشا، أمير سوران، خلال عودته إلى كردستان من قبل الأتراك، أضفى بدرخان بعداً كردستانياً على نطاق واسع على صراعه مع استنبول من خلال إقامة

<sup>٥٢</sup>Ibid, Mr Wellesley, no.89, 17 October 1846, p.284.

<sup>٥٣</sup>Ibid, Mr Wellesley, no.101, 27 October 1846, p.284 & to Wellesley, no.31, 1 February 1847, 289-290.

<sup>٥٤</sup>Ibid, Wellesley, no.146, 2 December 1846, p.286-287 .

<sup>٥٥</sup>Ibid, to Wellesley, no.61, 27 November 1846, pp.287-288.

<sup>٥٦</sup>Safsrstian, Kurds and Kurdistan, pp.50-60.

مجموعة اتصالات مع الأمراء الكُرد الآخرين والتي أسفرت عن قيام الكونفدرالية الإماراتية. بهذا النحو اتخذ نضال الإمارات الكُردية طابعاً مشتركاً ملموساً لأول مرة في تاريخها ضد سلطات استنبول. أما الفترة الثانية من الصراع الكُردى- التركي في عهد الأمير بدرخان فقد استغرقت أكثر من ٧ أعوام، أي من ١٨٤٠ إلى ١٨٤٧. شهدت تلك الأعوام، ونتيجة لمبادرات عسكرية منسقة، بسط سلطة قادة الكونفدرالية على الجزء الأكبر من كُردستان الكبرى، حيث اقتصر النفوذ التركي على اطراف المناطق الكُردية والمحيطية بالإمارات الكُردية. طوال مدتي الصراع الأول والثاني، قام الأتراك بعدة محاولات من خلال وسائل الترغيب والترهيب لإخضاع بدرخان إلى سلطة استنبول، وباعت كل تلك المحاولات بالفشل.

ثانياً، ركزت السلطات التركية مساعيها السياسية والعسكرية على تدمير إمارة بوتان وسلطة أميرها بدرخان فيها نظراً للدور القيادي الذي لعبته في الصراع الكُردى- التركي. كانت تلك السلطات تأمل في ان تؤدي هزيمة بدرخان إلى إحباط معنويات بقية الأمراء الكُرد وبالتالي تنتهي المقاومة الكُردية ويستقر الحكم التركي المباشر بأسرع ما يمكن. ثالثاً، صعّدت الجيوش التركية من أعمالها القمعية والتخريبية بشكل كبير. ففي يومياته، ألقى مولتكه، الذي كان يرافق الجيش التركي في كُردستان كخبير عسكري، الضوء على «الأسلوب التركي التقليدي» في تنفيذ مجازر دون تمييز ضد الأهالي، شاملة النساء والأطفال، وفي تدمير مقاطعات كُردية كاملة وحرقتها.<sup>٥٥٧</sup>

أخيراً، أبدت المدن والقرى الكُردية عموماً مقاومة كبيرة تجاه الغزوات العسكرية التركية. واتخذ الصراع الكُردى- التركي تدريجياً طابعاً عرقياً واضحاً، تجسد في معاقبة الأتراك أهالي المدن والريف الكُردستاني كافة التي احتلتها قواتهم. لقد واجهت الجيوش التركية مقاومة كُردية شديدة خاصة في سنجار والجزيرة وموكس وبتليس وهكاري وخزو وخيني حيث انبهر مولتكه بالشجاعة التي أبداها المقاومون الكُرد، نساء ورجالاً، تجاه الزحف التركي مؤكداً ان «النسوة الكُرديات أطلقن النيران على الجنود العثمانيين، وان إحداهن أردت أحد المهاجمين صريعاً بخنجرها».<sup>٥٥٨</sup>

<sup>٥٥٧</sup> المصدر السابق.

<sup>٥٥٨</sup> المصدر السابق. انظر كذلك عن مقاومة السكان من كُرد ومسيحيين للزحف التركي:

قاد رشيد باشا القوات التركية التي زحفت على المناطق الكردية المستقلة، حيث استولى على الجزيرة في عام ١٨٣٦، وواصل زحفه المدمر نحو المقاطعات التي كان يسكن فيها الايزديون الكرد كويرانشهر وسنجار. استغرقت عملية اخضاع المقاطعات الايزدية إلى الحكم التركي نحو عامين، ارتكب خلالها الجيش التركي المجازر بحق سكانها ونهب ودمر المدن والقرى والممتلكات. وكانت قبيلة ميركاني الايزدية قد عانت على الأخص من التدمير والنهب التركي.<sup>٥٥٩</sup> كان هناك دافع استراتيجي وراء تركيز رشيد باشا حملته ضد المقاطعات الايزدية، إضافة إلى العامل الديني. فسنجار وويرانشهر شكلتا حزاماً يفصل المناطق الكردية المستقلة عن تلك التي خضعت للحكم المصري في سوريا. على ما يبدو، استهدف رشيد باشا من وراء مهاجمة الايزديين احتواء أي مسعى محتمل إلى إقامة خط اتصال بري مباشر بين المناطق الخاضعة إلى الجيش المصري وتلك التي خضعت إلى الأمراء الكرد، بتعبير آخر، أراد الاتراك تجنب قيام جبهة كردية-مصرية مشتركة ضدهم في المستقبل. بقدر ما تشير المصادر المتوفرة، لم يحصل أي اتصال بين إبراهيم باشا، قائد الجيش المصري، والأمراء الكرد، ومنهم بدرخان، قبل استيلاء الجيش التركي على ويرانشهر وسنجار. كما انه لا يوجد أي دليل يثبت وجود نوع من التنسيق في المجهود الحربي بين الكرد والمصريين ضد الجيش التركي في المدة ما بين ١٨٣٩-١٨٤٠، التي شهدت اندلاع الحرب المصرية-التركية الثانية.

عقب احتلاله سنجان، توجه الجيش التركي مرة أخرى نحو الجزيرة، بعد ان استعاد بدرخان سيطرته عليها.<sup>٥٦٠</sup> وأبدت القوات البوتانية مقاومة كبيرة، حيث تكبد الجيش التركي، المدعوم من بعض الوحدات القبلية الكردية، خسائر كبيرة. في النهاية، استطاع رشيد باشا الاستيلاء على الجزيرة في عام ١٨٣٨.<sup>٥٦١</sup> برغم ان الجزيرة لم تكن مدينة محصنة مثل العمادية أو جولمرك، لم يستطع الجيش التركي دخولها إلا بعد

---

Brant, Notes of a Journey through part of Kurdistan, pp.356-358 & 376.

<sup>٥٥٩</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.250.

<sup>٥٦٠</sup> لم يستطع مواصلة رحلته عبر المناطق التي سيطر عليها بدرخان، بسبب وقوع القتال فيها بين قوات إمارة بوتان والجيش التركي.

Shiel, Notes on a Journey from Tabriz through Kurdistan, p.87.

<sup>٥٦١</sup> المصدر السابق.

فرض حصار استمر ٤٠ يوماً بحسب ما ذكره مولتكة. وحتى بعد دخوله الجزيرة، لم يستطع الجيش التركي إلحاق هزيمة نهائية بقوات الأمير بدرخان التي تراجعت إلى حصن أوروخ في الجبال المجاورة، ليشن منها هجماته المفاجئة ضد مواقع الجيش التركي. واستطاع الأمير بدرخان مرة أخرى ان يستعيد سيطرته على عاصمته، بعد انسحاب الأتراك منها. الجدير بالذكر انه وفي نهاية المرحلة الأولى تقريباً من الصراع بين إمارة بوتان والدولة التركية، توفي رشيد باشا والكثير من افراد جيشه بسبب انتشار وباء الكوليرا في دياربكر. وخلف حافظ باشا رشيد باشا في منصبه حتى نهاية المرحلة الأولى من الحملات العسكرية التركية ضد المناطق الكردية. التجأ القائد التركي الجديد إلى سياسة تشتيت الصفوف التقليدية عن طريق توزيع الأموال وتقديم وعود سخية للرؤساء المحليين، مثل فدهخان في منطقة شيروان، من اجل كسر مقاومة الإمارات الكردية المستقلة.

نظراً لفشلها في إلحاق هزيمة حاسمة ببوتان والإمارات المتحالفة معها قبل شن هجومها المرتقب ضد مواقع الجيش المصري في سوريا، اضطر الجيش التركي إلى إيقاف عملياته العسكرية في كردستان. على ما يبدو، سعى الأتراك حينذاك إلى كسب بدرخان مؤقتاً إلى جانبهم أملاً في تجنيد أكبر عدد ممكن من الكرد في الحرب ضد الجيش المصري. وبدوره استغل بدرخان توقف الحملات العسكرية التركية ضده في العمل على اعادة تنظيم قواته واستعادة المقاطعات التي فقدتها خاصة كوركيل، التي سيطر عليها الأمير سعيد من الاسرة العريزية الحاكمة.<sup>٥٦٢</sup> يذكر مولتكة بهذا الخصوص ان السلطات التركية منحت الأمير بدرخان رتبة كولونيل في الجيش الاحتياطي التركي مكافأة له على مساعدته الأتراك في إلحاق الهزيمة بحاكم فينيق.<sup>٥٦٣</sup> الجدير بالملاحظة ان بدرخان اعاد فرض سيطرته على تلك المدينتين ولم يسمح بخضوعها إلى السيطرة التركية. كما تبين الأحداث اللاحقة، لم تستمر الهدنة والتعاون المحدود بين بدرخان والسلطات التركية إلا لفترة قصيرة جداً، إذ سرعان ما بادر بدرخان وبمساعدة الأمير نور الله الى تقديم دعم عسكري إلى حليفهما سعيد باشا، أمير

<sup>٥٦٢</sup> مالميسانز، "بدرخانيو جزيرة بوتان"، ص٤١.

<sup>٥٦٣</sup> Bruinessen, Agha, Sheikh and State, foot-note101, p.202.

بادينان المنفي، الذي استولى على العمادية وفرض سلطته على سائر المقاطعات المجاورة في عام ١٨٣٩.

#### المرحلة الثانية، ١٨٤٠-١٨٤٧

كان السلطان محمود الثاني، الذي قبل بنود اتفاقية كوتاهيا للسلام على مضمض، مصمماً على طرد المصريين من بلاد الشام في أقرب فرصة ممكنة. لذلك السبب، نفذ السلطان مجموعة إصلاحات حسنت كثيراً من وضع الأسطول التركي والاهم من ذلك هو حصوله على دعم أغلبية القوى الأوربية ضد مصر، باستثناء فرنسا. لقد شجع اندلاع انتفاضة معادية لحكم إبراهيم باشا في سوريا السلطان محمود على إعلان الحرب ضد مصر، حيث ارسل جيشاً تركيا مؤلفاً من ٢٠,٠٠٠ جندي بقيادة حافظ باشا، حيث عبر نهر الفرات قرب بير في نيسان عام ١٨٣٩. كان للأتراك حينذاك ٨٠,٠٠٠ مقاتل في أناضوليا، بينما كان لمحمد علي، حاكم مصر، ٤٥,٠٠٠ جندي في بلاد الشام. بلغ عدد المقاتلين الكرد الذين كانوا ضمن الجيش التركي حوالي ٣,٠٠٠ فرد،<sup>٥٦٤</sup> وشكلت هذه نسبة ضئيلة جداً إذا اخذ بنظر الاعتبار ان هدف السلطات التركية في عام ١٨٣٦ كان هو تجنيد ٦٠,٠٠٠ شاب كردي، طبقاً إلى ريتشارد وود.<sup>٥٦٥</sup> وتكشف تلك النسبة كذلك عن فشل السلطات التركية في إقناع أو إجبار الكرد وقادتهم على تقديم دعم عسكري لها في الحرب ضد الجيش المصري. فقد لاحظ ليارد، الذي كان يمر عبر المناطق الكردية الغربية في عام ١٨٤٠، كيف كان سكان المناطق الجبلية قد أبدوا ترحيبهم بتقديم الجيش المصري، بينما كان السوريون، وعلى العكس منهم، يتمنون انتصار الأتراك.<sup>٥٦٦</sup> كان من الطبيعي ان يراقب الأمراء والسكان الكرد عن كثب سير المعارك التركية- المصرية خاصة لأن نتائجها كانت ستؤثر بشكل مباشر على الوضع السياسي في كردستان.

<sup>٥٦٤</sup>Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, p.145.

<sup>٥٦٥</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richard Wood, to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, p.95.

<sup>٥٦٦</sup> كانت الجزيرة تحت سيطرة بدرخان عندما مر بها ليارد في طريقه إلى الموصل.  
Layard, Autobiography and Letters from his Childhood, vo.1, p.285.

بالرغم من تفوقه العددي الكبير، تكبد الجيش التركي هزيمة كبيرة، عند مهاجمته مواقع الجيش المصري في نزيب في حزيران عام ١٨٤٠، حيث قتل ١,٠٠٠ مقاتل تركي واسر ١٧,٠٠٠ اخرون، إضافة إلى استيلاء الجيش المصري على ١٣٥ مدفع. بعد تلك الهزيمة بأيام، التحق الأسطول التركي بالأسطول المصري. غيرت تلك الحادثتان تماماً ميزان القوى لصالح المصريين.<sup>٥٦٧</sup> الجدير بالذكر انه في مارس ١٨٣٩ وقعت انتفاضة عفوية في المناطق الكردية الخاضعة إلى السيطرة التركية في ولاية دياربكر، واستمرت عدة أشهر. يذكر غرانت، الذي كان شاهد عيان، كيف ان الفوضى والعنف قد انتشرا بسرعة، وكيف انتقم الأهالي الكرد من الأتراك عن طريق مهاجمة جيشهم المتقهقر من ساحات المعارك امام الجيش المصري. كما اندلعت انتفاضة دموية أخرى في ماردين، حيث قتل سكانها الكرد فيها الحاكم التركي والموظفين الرسميين.<sup>٥٦٨</sup>

استغل بدرخان على ما يبدو فرصة اندلاع الحرب التركية- المصرية الثانية لاعادة سيطرته على الجزيرة وطرده الأتراك منها. كما قام عدد من الامراء الاخرين بمهاجمة الحاميات التركية وطردها من عدة مدن ومقاطعات كردية. وكما ذكر سابقاً، اعاد سعيد باشا سيطرته على العمادية بمساعدة عسكرية من بدرخان ونور الله. كانت الخريطة السياسية والعسكرية في تلك الفترة بالشكل التالي: شكلت مدينة أورفا الكردية والخاضعة إلى المصريين نهاية المناطق التي كان يسيطر عليها إبراهيم باشا، بينما كان الأتراك يسيطرون عموماً على المناطق الشمالية المجاورة.<sup>٥٦٩</sup> أما المقاطعات الكردية الممتدة من اطراف أورفا وماردين الشرقية إلى شواطئ بحيرة اورمية فقد كانت خاضعة لسيطرة قادة الكونفدرالية الإماراتية.

في ٣٠ حزيران عام ١٨٤٠، اصبح عبد المجيد الثاني السلطان الجديد على اثر موت محمود الثاني. وبينما كان السلطان الجديد يقدم تنازلات كبيرة لمحمد علي باشا، والتي من أبرزها انسحاب الجيش التركي ومنح أسرته الحق في توارث السلطة في

<sup>٥٦٧</sup>Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, p.146.

<sup>٥٦٨</sup>Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, pp.20-22.

<sup>٥٦٩</sup>Layard, Autobiography and Letters from his Childhood, vo.1, pp.286 & 299.

مصر، عازمت جميع القوى الأوربية الكبرى على اعادة فرض الحكم التركي في بلاد الشام والجزيرة العربية وكريت. كانت بريطانيا قلقة جداً من تعاظم قوة الأسطول الحربي المصري، لهذا صممت على إجبار محمد علي باشا على إرجاع الأسطول التركي الهارب إلى السلطان. كما كانت روسيا ومنذ بداية الخلافات التركية- المصرية تنوي التدخل لصالح الإمبراطورية العثمانية،<sup>٥٧٠</sup> لكونها كانت قلقة على مصالحها التجارية في البحر الأسود وعلى تدهور الوضع السياسي في المناطق القوقازية التي تمرد المسلمون الجبليون فيها ضد الوجود الروسي.<sup>٥٧١</sup>

نظرا لعدم امتلاك الإمبراطورية العثمانية قدرات عسكرية وبحرية كافية لاحتواء محمد علي باشا، وقع ممثلو بريطانيا والنمسا وروسيا وبروسيا وتركيا اتفاقية ضد مصر في ١٥ تموز عام ١٨٤٠. طبقاً إلى بنود تلك الاتفاقية، تدخلت القوى الأوربية الكبرى بقيادة بريطانيا في الحرب التركية- المصرية عن طريق فرضها حصاراً بحرياً واسعاً ضد الموانئ المصرية والسورية. بتلك الطريقة، حرم الجيش المصري في بلاد الشام من الإمدادات غير المكلفة، لأنها كانت تأتيه من مصر عن طريق البحر، وهو طريق قصير وسهل وسريع. بعد مرور ثلاثة أسابيع، احتل الحلفاء الأوربيون والجيش التركي صيدا وعكا الاستراتيجيتين، وبدأ الجيش المصري على اثر ذلك بالانسحاب سريعاً من أقاليم بلاد الشام. في النهاية، اجبرت القوى الأوربية محمد علي باشا على اعادة الأسطول التركي إلى السلطان وقبول شروط السلام التي عرضها السلطان عبد المجيد في شباط عام ١٨٤١. طبقاً إلى تلك الشروط، كان على مصر إرسال ربع دخلها السنوي إلى استنبول وتحديد قوتها العسكرية بـ ١٨٠٠٠٠ رجل. كما تعهد حكام مصر بالامتناع عن بناء السفن دون موافقة مسبقة من السلطان.<sup>٥٧٢</sup>

---

<sup>٥٧٠</sup> انعكس الموقف السياسي لروسيا القيصرية المعادية لمصر في كتابات الدبلوماسيين والرحالة الروس، الذين كانوا قد وجدوا في منطقة الشرق الأوسط، والذين أسهبوا في شرحهم لمعاناة الشعوب الخاضعة لحكم محمد علي باشا. دانتسيغ، "الرحالة الروس في الشرق الأوسط"، خاصة ص ١٨٧-١٨٨ و ٢٤٩-٢٥٠.

<sup>٥٧١</sup> Daly, Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, pp.136-137.

<sup>٥٧٢</sup> Ibid., p.165.

حالما تم احتواء الخطر المصري، واستعاد السلطان العثماني سيطرته على بلاد الشام بفضل تدخل القوى الأوربية الكبرى، اتخذ الجيش التركي الاستعدادات من أجل شن حملات عسكرية جديدة ضد الكونفدرالية الكردية التي كانت قد فرضت سيطرتها على القسم الأعظم من كردستان الكبرى. لم يعد هناك أي شيء يمنع تسخير الإمبراطورية العثمانية كل طاقاتها العسكرية والسياسية في عملية تدمير الإمارات الكردية وضمها بالقوة، خاصة وان القوى الأوربية الكبرى عبرت قولاً وفعلاً عن مساندتها للسلطات التركية ضد المخاطر الإقليمية في الشرق الأوسط. حتى روسيا القيصرية عدوة تركيا التقليدية لم تكن على استعداد في ان تغض النظر عن وجود كيانات مستقلة في آسيا الصغرى، ناهيك عن دعمها.

بدأت المرحلة الثانية من الحملات العسكرية التركية ضد الكونفدرالية في أوائل عام ١٨٤١ التي تزامنت مع اندلاع وباء الكوليرا في المناطق الكردية المستقلة مثل الجزيرة وبتليس. كانت النكسة العسكرية الأولى التي عانى منها الأمراء المتحالفون هي سقوط العمادية في عام ١٨٤٢، كما أشير سابقاً. لكن تلك النكسة العسكرية والسياسية لم تؤدي إلى انهيار المقاومة الكردية في بقية المناطق الكردية المستقلة. هكذا، وبالرغم من تسخير كل ماكينتها العسكرية لعملياتها ضد الكونفدرالية، لم تستطع الحكومة التركية إلحاق الهزيمة النهائية بقوات الأمير بدرخان. استتب سلام قلق بين الإمارات الكردية والسلطات التركية ما بين بداية عام ١٨٤٣ ونهاية ١٨٤٦. سعت الإمارات الكردية طوال تلك الأعوام إلى توطيد سلطتها وبسطها على المناطق الكردية بقدر الامكان، بينما كانت استنبول مشغولة في تعبئة قوتها العسكرية بهدف تنظيم حملة عسكرية كبيرة ضد الإمارات في الوقت والمكان المناسبين.

في ظل ظرف دولي خاص معاد للكرد على اثر نشوب الصراع الكردي-النسطوري، بدأت القوات التركية حملتها العسكرية الكبيرة ضد الكونفدرالية في ربيع عام ١٨٤٦، والتي نالت دعم وتأييد وزارة الخارجية البريطانية. ركزت القوات التركية عملياتها على امانة بوتان بسبب قوتها العسكرية، حيث قدر الأتراك عدد المقاتلين الكرد بـ ٢٦,٠٠٠. وفي نهاية شهر تموز تقريباً، وبعد دخولها في عدة معارك دموية التجأت فيه إلى سياسة حربية وحشية ضد السكان المدنيين، نجحت القوات التركية في



الاستيلاء على الجزيرة قبل ان تلحق الهزيمة النهائية بقوات إمارة بوتان. كعادته، دمر الجيش التركي ونهب القرى والمدن الكُردية ومنها مدينة الجزيرة.<sup>٥٧٣</sup>

ان واحداً من الأسباب التي ذكرها سافرستيان والتي ادت إلى سقوط الجزيرة نهائياً بيد الجيش التركي بقيادة عثمان باشا، كان نجاح ذلك الجيش في منع قوات الأمير خان محمود من تقديم مساعدة عسكرية مباشرة إلى قوات الأمير بدرخان عبر نقطة تلاقي نهري دجلة وبوتان، وذلك من خلال نصب الكمائن واستخدام المدافع. لقد اضطر خان محمود وقواته الى الانسحاب، عندما كانت الجزيرة ما زالت محاصرة من قبل القوات التركية.<sup>٥٧٤</sup> وبعد إبداء مقاومة شديدة استمرت حتى الوقت الذي استنذفت فيه قواته العسكرية، اسر الأمير بدرخان في عام ١٨٤٧، ومن ثم أرسل فوراً إلى المنفى مع افراد أسرته.

لقد كان الأتراك على علم تماما بان انتصارهم على جيش بوتان شكل نقطة انعطاف في مساعيهم العسكرية والسياسية في إلحاق الإمارات الكُردية بإمبراطوريتهم وان الأمير بدرخان شكل اكبر عقبة واجهوها في كُردستان الكبرى منذ القرن السادس عشر. لم يكن غريباً أن ان تحيي استنبول ذكرى انتصارها على الأمير بدرخان من خلال صنع ميدالية جديدة سميت حرب كُردستان،<sup>٥٧٥</sup> التي منحت إلى أولئك الضباط الأتراك الكبار الذين اشتركوا في الحملات العسكرية ضد الكونغفدرالية الإماراتية. حالما تم أسر الأمير بدرخان، بدأت السلطات التركية المركزية بإجراء تغييرات إدارية في إمارة بوتان التي قسمت مقاطعاتها ما بين ولايتي دياربكر وشهرزور.<sup>٥٧٦</sup>

لم يثن سقوط إمارة بوتان ولا السياسة الوحشية التي كان يلجأ إليها القادة العسكريون الأتراك عزيمة بقية الأمراء المتحالفين على مقاومة الغزو التركي لبقية المناطق الكُردية المستقلة. يقول ليارد بهذا الصدد انه وبعد اسر بدرخان بمدة طويلة، استمر خان محمود واخوته وكذلك نور الله وشرفخان وغيرهم من الأمراء في

<sup>٥٧٣</sup> Safstian, Kurds and Kurdistan, p.60.

<sup>٥٧٤</sup> Ibid., p.51 & Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.50.

<sup>٥٧٥</sup> مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ص ٦٢-٦٣.

<sup>٥٧٦</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.202-203.

المحافظة على استقلالهم.<sup>٥٧٧</sup> لقد اسر الأمير خان محمود بعد ان افشل عدة محاولات عسكرية تركية لاحتلال مدينة فان.<sup>٥٧٨</sup> وقتل الأتراك أسيرهم خان محمود بطريقة بشعة، لكن أنصاره واصلوا مقاومتهم للجيش التركي قرب شواطئ بحيرة فان لفترة. أما أخواه فقد تم أسرهما بعد سقوط خوشاو بيد الجيش التركي في نهاية ربيع عام ١٨٤٨.<sup>٥٧٩</sup>

كما قاومت إمارة بتليس وبشدة هجمات عسكرية تركية متتالية عدة أشهر قبل اسر أميرها شرفخان في إحدى المعارك في عام ١٨٤٨.<sup>٥٨٠</sup> في منطقة موتكان-ساسون المجاورة، استطاع الجيش التركي فرض حكم مباشر بعد دحره مقاومة كبيرة أبداهها سكانها من الكرد والأرمن. وفور أسرهم للأمرء والقادة المحليين في بتليس وخزو وليجه وبانوكه وسليخان ونارجيك، قام الأتراك بنفيهم مباشرة إلى خارج كردستان.<sup>٥٨١</sup> عندما حل عام ١٨٤٩، كان قد تعرض بقية الأمرء والقادة المحليون أما إلى الأسر أو النفي، أو استطاعوا الهروب إلى خارج المنطقة. في كردستان الجنوبية، لم تبدي إمارتا بابان وسوران مقاومة تذكر عندما تم إلغاؤهما من قبل والي بغداد بسبب ما كانت تعانيه من ضعف عسكري شديد.

بغية اجتثاث جذور فكرة الحكم الذاتي والشرعية السياسية التي كانت قائمة في المناطق الكردية منذ منتصف القرن العاشر، انصبت جهود السلطات التركية بشكل خاص على اعتقال جميع أبناء السلالات الكردية الحاكمة الواحدة بعد الأخرى، سواء الذين قاوموا أو لم يقاوموا الحكم التركي، حيث تم نفيهم جميعاً إلى أماكن بعيدة خارج كردستان، مثل الموصل وبغداد. أما الأمرء الأكثر خطورة، مثل الأمير بدرخان ونور الله فقد تم نفيهما إلى كريت وكانديا حسب التسلسل.<sup>٥٨٢</sup> وحل محل الأمرء حكام وموظفون من عسكريين ومدنيين، عينتهم السلطات المركزية في استنبول في الولايات

<sup>٥٧٧</sup> المصدر السابق، ص ٣٥-٣٦.

<sup>٥٧٨</sup> المصدر السابق، ص ٣٩١.

<sup>٥٧٩</sup> BDEFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. cit., Mr Alison, no.113, 17 June 1848, p.291.

<sup>٥٨٠</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.10 & 20.

<sup>٥٨١</sup> Brant, Notes of a Journey through part of Kurdistan, pp.356-358 & 376.

<sup>٥٨٢</sup> المصدر السابق، ص ٣٨٢.

والمقاطعات الكردية التي تم دمجها بالامبراطورية العثمانية. أصبح أسد باشا، المقيم في دياربكر، حاكماً عاماً لعدد من المناطق التي كانت خاضعة للكونفدرالية الإماراتية، مثل بتليس وموش والمناطق المجاورة لهما. بينما عين محمد باشا، الذي شارك في الحملات العسكرية التركية، والياً لولاية فان.<sup>٥٨٣</sup>

أما الضباط من غير الاصول التركية، مثل إسماعيل آغا الذي قاد وحدة البانية مؤلفة من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجل خلال الحملات العسكرية التركية ضد خان محمود وأخيه عادل،<sup>٥٨٤</sup> فقد عينوا قادة للعديد من المحميات العسكرية التركية التي تم إنشاؤها بعد انهيار الكونفدرالية. ظل عدد من المقاطعات الجبلية الصغيرة (كالتي احتوتها ولاية ارزوم) تواصل مقاومة فرض الحكم التركي المباشر عليها،<sup>٥٨٥</sup> مما تطلب من قائد القوات التركية العام في أناضوليا شن عمليات عسكرية جديدة ضدها.<sup>٥٨٦</sup> وهناك عدد من المقاطعات الجبلية الأخرى التي اكتفى الأتراك بقبول ولاء اسمي منها كزيبار وبرادوست، التي لم توجد فيهما محميات عسكرية تركية أو موظفون أتراك رسميون. فرئيس الزيباريين، نعمة آغا، سيطر على منطقة واسعة نسبياً امتدت من عقرة إلى شمال راوندوز، أي قرب الحدود التركية- الإيرانية.<sup>٥٨٧</sup> في فترة ما بعد غياب الإمارات، وجدت السلطات التركية من الصعب جداً فرض حكم مباشر في جميع أنحاء كردستان الكبرى، لهذا اكتفت بالسيطرة مباشرة على المدن الكردية المهمة، في حين أديرت بقية المناطق الكردية، خاصة الجبلية بشكل غير مباشر، عن طريق قادة القبائل والأعيان المحليين. بهذا الشكل اختفى من كردستان نوع من القيادات السياسية التي فرضت سيطرتها على مناطق وقبائل متعددة وعلى مختلف المدن والقرى، ليحل محله نوع من سيطرة القادة القبليين الذين انحصرت سلطتهم في نطاق إقليمي وسكاني صغير حيث تركزت خارج المدن. أما المدن فقد خضعت إلى الحكم التركي المباشر حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى.

<sup>٥٨٣</sup> المصدر السابق، ص ٣٥، ٣٨٩.

<sup>٥٨٤</sup> Frederick Millingen, *Wilde Life among the Kurds*, (London: Hurst and Blackett, 1870), p.340.

<sup>٥٨٥</sup> Layard, *Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon*, pp.9-10.

<sup>٥٨٦</sup> المصدر السابق، ص ٣٧٤-٣٧٦.

<sup>٥٨٧</sup> المصدر السابق، ص ٣٧١-٣٧٢، ٣٧٤.

في إيران القاجارية المجاورة، كانت عملية ضم بقية الإمارات والمقاطعات الكردية التي ظلت تتمتع بحكم ذاتي سلمية وتدرجية. فاخر أمراء إمارة اردلان، مثلاً، كان متزوجاً من بنت الشاه القاجاري، ناصر الدين. وعندما توفي هذا الأمير، ولحين بلوغ ابنه سن النضوج، حكمت زوجته في نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر. شكلت هذه المدة الانتقالية في الحكم النهاية الحقيقية لعهد السلالة الاردلانية، عندما قرر الشاه عدم توارث أبنائها للسلطة. منذ تلك الفترة أصبح حكام سنندج يعينون ويزاحون من مناصبهم من قبل الحكومة المركزية في طهران.<sup>٥٨٨</sup>

### نهاية الفصل

إذا كان شرفخان بتليسي أول كردي طرح تساؤلاً أمام الكرد حول الوحدة السياسية الكردية في كتابه القيم "شرفنامه"، وإذا كان احمدي خاني أول كردي آمن بقوة بإمكانية تحقيق تلك الوحدة السياسية، ودعا إلى تحقيقها في كتابه الكبير "مم وزين" عن طريق تقديم الأمراء الكرد الولاء إلى أمير واحد، فإن بدرخان كان أول كردي سعى حديثاً إلى انجاز تلك الوحدة السياسية واستطاع عملياً، وعن طريق وسائل سلمية بشكل رئيس، تحقيق أمنية احمدي خاني في تشكيل كونفدرالية اماراتية واسعة، تحالف من خلالها ابرز الأمراء تحت قيادته.

كما تنبأ احمدي خاني أيضاً، فقد قاد التحالف السياسي للزعماء الكرد إلى تحسن ملموس على مختلف الاصعدة حيث شهدت المناطق الكردية المستقلة في أعوام ١٨٤٦-١٨٤٢ تحسينات بارزة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية. لقد حملت تلك المدة مؤشرات داخلية إيجابية ملموسة عن مسار تطور المجتمعات الكردية مستقبلاً. فلأول مرة تبلور شكل من أشكال الوحدة السياسية بين الإمارات الكردية. والتطور الهام الثاني هو تزامن وجود الكونفدرالية الإماراتية مع تحسن اجتماعي واقتصادي وسياسي ملموس والذي عبر عن وعي النخب الحاكمة انذاك بضرورة تغيير أوضاع المناطق الكردية نحو الأحسن من اجل تعزيز الاستقلال السياسي التام، التي كانت تحاول ان تحققه.

<sup>٥٨٨</sup>Blue, Kurdish Written Literature, pp.218.

ثالثاً، صار للنضال ضد الإمبراطورية العثمانية قاعدة جماهيرية واسعة، لم يشهد لها مثيل من قبل. فهي كانت أوسع بكثير من القاعدة الشعبية التي خلقتها حركة محمد باشا السابقة لقيام الكونفدرالية، حيث شملت المسلمين وغير المسلمين من سكان كُردستان. يشكل انخراط جميع الجماعات العرقية والدينية في الحياة الاجتماعية والسياسية وفي عملية المقاومة العسكرية للغزو التركي تقدماً كبيراً لأنه شكل انقطاعاً واضحاً عن جميع المفاهيم الدينية الإسلامية والقيم القبلية التقليدية السائدة، التي حصرت الدور الفاعل في المجتمع على أبناء القبيلة من محاربين وقادتهم، فضلاً عن رجال الدين وموظفي الإمارة.

لكنه، وفي الوقت نفسه، شكلت المدة ما بين ١٨٤٢-١٨٤٦ مفترق طرق في مسار عملية تطور المجتمعات الكُردية اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً وثقافياً على المدى البعيد. أي بتعبير آخر، كان هناك بديلان امام الكُرد: أما ان تنجح مساعي النخب السياسية الكُردية في تحقيق الاستقلال والوحدة السياسية بعيداً عن اية هيمنة خارجية، أو ان تفشل تلك المساعي بسبب عدم قدرة تلك النخب على إفضال التدخلات العسكرية الخارجية، التركية على الخصوص. لسوء الحظ، تحقق البديل الثاني، وكنتيجة مباشرة لها، تراجعت المجتمعات الكُردية خطوات كبيرة نحو الوراء. لقد ترك الوضع الإقليمي والدولي في العقدین الرابع والخامس أثره الملحوظ في مستقبل كُردستان السياسي بشكل عام والكونفدرالية الإماراتية بشكل خاص. في هذا الخصوص، يكرر برونسن وجهة نظر المؤرخ جويده بأن قمع بدرخان الدموي للجماعة النسطورية خلق ردود فعل قوية في أوروبا المسيحية. وتحولت ردود الفعل تلك إلى ضغوط أوروبية قوية ضد تركيا من اجل التدخل عسكرياً، وهي التي ادت في النهاية إلى سقوطه من السلطة.<sup>٥٨٩</sup> لا تكفي وجهة النظر تلك في إدراك خبايا الموقف الأوربي، خاصة البريطاني تجاه مستقبل كُردستان السياسي، التي أفرزت صراعات وخلافات متداخلة سواء بين الكُرد والنساطرة أو بين الكُرد والأتراك. ففي مذكرته إلى الوزير البريطاني في استنبول، اللورد كولي، لا يخفي ليارد بان الموقف البريطاني تجاه بدرخان لم يكن مجرد رد فعل لما حصل من أحداث في جبال هكاري وإنما كان ضمن سياسة حكومتها العامة تجاه مستقبل الإمبراطورية العثمانية. فبالنسبة الى ليارد، لا

<sup>٥٨٩</sup>Jwaideh, The Kurdish Nationalist Movement, p.182 & Bruinessen, Agha, Sheikh and State, p.160.

يكفي اسر بدرخان ومحمود خان من قبل الأتراك فيما يخص مسألة ما يسميه «بتهدئة كُردستان» و«استقرار حكم السلطان التركي التام في الجبال». لهذا كان ليارد يأمل ان تلتجى الحكومة التركية إلى وسائل جديدة لدى تنفيذها تغييرات عامة، تعزز من خلالها السيطرة على كُردستان الكبرى.<sup>٥٩٠</sup>

لم تكن قضية المجازر المزعومة ضد النساطرة إذن إلا مجرد حجة لدى البريطانيين مارسوا من خلالها الضغوط على السلطات التركية من اجل إنهاء الوضع الاستقلالي التي تمتعت به غالبية المقاطعات الكُردية في كُردستان الكبرى. في منطقة اورمية مثلاً عانى الفلاحون المسيحيون والكُرد على حد سواء من اضطهاد الافشاريين الذين شكلوا الفئة المهيمنة اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً. وقد أشارت تقارير الموظفين البريطانيين ورسائل الإرساليات المسيحية المختلفة إلى أشكال الظلم الذي تعرضت إليه الجماعات المسيحية في اورمية مثل السخرة، والعبودية والتعذيب والابتزاز على يد الحكام الإيرانيين والقادة الافشاريين.<sup>٥٩١</sup> وحتى عام ١٨٦٣، اقتصر الدور البريطاني على لفت أنظار السلطات القاجارية وبشكل «غير رسمي» إلى ما كان يحدث للمسيحيين من اضطهاد على يد الحكام وقادة القبائل الافشارية المحلية في اورمية.<sup>٥٩٢</sup> والجدير بالذكر انه وفي الفترة التي أعقبت انهيار الكونفدرالية الإماراتية، لم يبد أي من ممثلي القوى الأوربية وقادة مختلف الإرساليات التبشيرية بأي شكل من أشكال التعاطف تجاه المصائب التي لحقت بعامة السكان الكُرد الذين تعرضوا، هم وممتلكاتهم، إلى حملات مدمرة قامت بها الجيوش التركية الغازية في المناطق الكُردية في العقدين الرابع والخامس. ان موقف اللامبالاة الذي اتخذته القوى الأوربية والإرساليات المسيحية التبشيرية تجاه الكُرد أو تجاه مسيحيي منطقة أورمية يكشف عن نفاق مواقفها تجاه ما كان يخدم وما لا يخدم مصالحها مما كان يحصل من أحداث

---

<sup>٥٩٠</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, op. Cit., Memorandum on Kurdistan by Mr Layard, inclosure in Lord Cowley, no.360, 17 October 1847, p.290.

<sup>٥٩١</sup>Ibid., Lieutenant-Colonel Shiel, no.9, 31 Janaury 1845 & no.118, 27 Ocober 1845, p.283. Lieutenant-Colonel Shiel, no.113, 9 July 1851 & no.96, 19 September 1851, p.291.

<sup>٥٩٢</sup>Ibid, Mr Alison, no.3, 30 July 1863, p.294 .

في كُردستان. ولم يكن قرار السلطات التركية في شن حملات عسكرية واسعة ضد الإمارات الكُردية هو الآخر مربوطاً بالوضع العام بين الكُرد والنساطرة أو حتى بضغوط أوربا المسيحية، أو في رغبتها في إجراء إصلاحات تقدمية، وإنما كان يرتكز أساساً على رغبتها في إلحاق كُردستان الكبرى بالإمبراطورية العثمانية والقضاء على الخطر الجدي الذي شكله قيام الكونفدرالية الإماراتية.



## الملاحظات الختامية

### الإرث التاريخي للإمارات

والعواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الناتجة عن تدميرها  
تعرقل بصورة مفاجئة مسار تطور المناطق الكردية بسبب فرض الحكم  
المباشر الأجنبي قسراً عليها، حيث أدى إلى بروز مشاكل اجتماعية واقتصادية  
مختلفة وأشكال جديدة من الصراعات الدينية- السياسية، خاصة في كردستان  
الكبرى. كما أصبحت المناطق الكردية في عهد ما بعد اختفاء الإمارات مسرحاً للعديد  
من الانتفاضات المعادية للحكومة المركزية، وقد تفاوتت من حيث الشدة والانتعاش  
والأهداف والأهمية. تنقسم الملاحظات الختامية لهذه الدراسة على قسمين رئيسيين،  
حيث يتناول كل قسم مواضيع واستنتاجات خاصة تتعلق بانتهاء النظام الإماراتي  
وما أورثته على الصعيد الثقافي والسياسي، وكذلك بروز الحركات القومية الكردية في  
عصر ما بعد اختفاء الإمارات. يحلل القسم الأول، وبعض التفاصيل، العواقب  
الاجتماعية والاقتصادية الناتجة عن إلحاق المناطق الكردية بالإمبراطوريتين التركية  
والإيرانية، فضلاً عن الوضع السياسي في عصر ما بعد اختفاء الإمارات. أما القسم  
الثاني فيتناول مكانة النظام الإماراتي وأهميته في تاريخ كردستان الحديث، من خلال  
التركيز على إرثها السياسي والثقافي، وكيف أن جذور القومية الكردية وحركاتها  
السياسية في الفترات التالية تعود إلى ذلك الإرث الكبير.



## النتائج المترتبة عن اختفاء النظام الإماراتي

يكشف أي تحليل دقيق للإجراءات المتبناة من قبل الحكومتين المركزيتين في استنبول وطهران في المناطق الكردية الملحقة في عهد ما بعد اختفاء الإمارات عن ان العلاقات السياسية والاقتصادية بين الكرد وتلك الحكومتين اتسمت بطابع استعماري قديم. ولان السلطتين التركية والإيرانية كانتا ذات طبيعة متخلفة معادية للحدثة، لم يؤد إلحاق المناطق الكردية بالامبراطورية العثمانية والقاجارية إلى أي تطور اجتماعي واقتصادي أو ثقافي، وانما على العكس من ذلك تماما. فقد تدهورت حياة الكرد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية بشدة. هذا لأن الحكومتين التركية والإيرانية نظرنا إلى كردستان بوصفها مصدراً غنياً لدفع الضرائب التي تحتاجها الخزينة المركزية بإزدياد مستمر ومصدر بشري كبير يزود ماكينتهما العسكرية بالجنود التي هي في أمس الحاجة إليهم. لقد حد إلحاق المناطق الكردية بتلك الإمبراطوريتين من تقدمها، حيث أدى إلى قلب عمليات التطور الاجتماعي والاقتصادي رأسا على عقب، التي كانت تجري في ظل النظام الإماراتي، خاصة في مجالي الاستيطان والتمدن.

بالمقارنة مع السياسة التركية والإيرانية المتبعة في كردستان عقب اختفاء الإمارات، ساعدت السيطرة الأوربية الاستعمارية في آسيا وأمريكا الجنوبية وأفريقيا على تطوير البنية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات المستعمرة (بفتح العين). بتعبير آخر، كان على المستعمرين (بكسر العين) الأوربيين، وبهدف استغلال ثروات مستعمراتها، بناء الطرق والجسور والسدود وسكك الحديد والموانئ وغيرها من المنشآت الأساسية، إضافة إلى إنشاء إدارة محلية حديثة. وقد أدت هذه التغييرات في أسس المجتمعات المستعمرة الغير مقصودة إلى تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية، من ضمنها ظهور المدن الجديدة وتوسيع الاسواق المحلية والمؤسسات التعليمية ونشوء فئات اجتماعية جديدة واحتكاك الشعوب الزراعية والرعية المتأخرة بالشعوب الصناعية المتطورة. بتعبير آخر، ساعدت الهيمنة الغربية على بناء أسس اقتصادية وسياسية وثقافية قامت على اساسها الدول الحديثة في الأقاليم المستعمرة.

## تدهور الوضع السياسي

### في عصر ما بعد اختفاء الإمارات الكردية

ان واحدة من سمات الاستعمار السياسي في كردستان الملحقة هي تدمير كلي للنخب السياسية الكردية فيها. فمنذ البداية تجسد فرض الحكم المباشر التركي والإيراني ليس فقط في تنصيب الحكام الأجانب على الولايات والمقاطعات الكردية الملحقة وإنما أيضاً في اجتثاث جذور السلالات الكردية تماماً. بتعبير آخر، استهدف إرسال أبناء السلالات الحاكمة إلى المنافي إلى حرمان الكرد من امتلاك نخب سياسية خاصة بهم يمكن ان تكون نقطة استقطاب للأهالي وتعبئتهم في صراعات مستقبلية مع السلطات التركية أو الإيرانية. لقد برهنت الإجراءات الاحتياطية في تدمير السلالات الكردية القديمة عن فاعليتها كما دلت على ذلك غياب اية محاولات لحياء الإمارات في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، باستثناء قيام انتفاضتين كرديتين كبيرتين قادهما كل على حدة يزدان شير وولدي بدرخان (عثمان وحسين)، فشلتا في اعادة بناء إمارة بوتان. فقد قاد الاول انتفاضة مسلحة منظمة كبيرة في كردستان العثمانية في عامي ١٨٥٣ و١٨٥٤. ورغم سيطرته على مناطق كردية واسعة، لم يستطع يزدان شير إحياء سلطة السلالة الأيزيدية. كما فشل عثمان وحسين، اللذين هربا من استنبول، في اعادة إنشاء إمارة بوتان المفقودة في نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، ورغم سيطرتهم السريعة على مناطق كردية كثيرة، منها جولمرك وميديات وماردين ونصيبين وزاخو والعمادية والجزيرة. لقد اعتقل الأتراك هذين الأخوين بالخدعة وتم نفيهما إلى الخارج.

طوال عدة قرون، حاول الأتراك والإيرانيون تحويل السلالات الكردية إلى مجموعات متعاونة يمكن السيطرة عليها أو التخلص منها بسهولة عند الضرورة. انحصرت النجاحات الإيرانية والتركية في تطبيق تلك السياسة في المناطق الواقعة عند اطراف كردستان، بينما ظلت بقية المناطق الكردية الداخلية تدار من قبل سلالات كردية بصورة مستقلة أو شبه مستقلة. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً، أي عقب اختفاء الامارات، اعتمدت الحكومات المركزية على المجموعات المتعاونة المحلية المتكونة من القادة القبليين والأغوات وبعض الشيوخ في ملء الفراغ السياسي

في المناطق الكردية الناتج عن تحطيم السلالات الحاكمة وبعد ان عجز الولاة الجدد عن السيطرة على الأوضاع العامة فيها. فبدون نظام التعاون (system of collaboration) المبني على مبدأ فرق تسد، لوجدت السلطات الإقليمية التركية حفظ سيطرتها على سكان كردستان في غاية الصعوبة ومكلفة جداً من حيث الالتزامات المالية والبشرية. كان من الضروري منح المتعاونين المحليين امتيازات اقتصادية وسياسية من قبل السلطات المركزية مقابل تنفيذ عدة مهام حيوية، منها تسديد مبالغ سنوية إلى الخزينة المركزية وإرسال وحدات خيالة في حالة اندلاع حرب خارجية وقمع الانتفاضات الداخلية وأخيراً وليس أخراً تأمين ولاء السكان للسلطان أو الشاه. لقد ترك تدمير السلالات الكردية أراضٍ واسعة بيد الدولتين العثمانية والإيرانية. ومن خلال إعادة توزيع تلك الأراضي ومنح امتيازات اجتماعية والقاب استطاع الأتراك والإيرانيون من تعزيز وضع المجموعات المتعاونة معهم في كردستان. كان التحالف ما بين السلطات المدنية والعسكرية التركية والمجموعات المتعاونة عاملاً مؤثراً نسبياً في منع قيام انتفاضات كردية عامة أو ظهور حركات سياسية موحدة ضد السلطات المركزية.

تمثلت السمة السياسية الأخرى للاستعمار القديم في كردستان في منح سلطات مطلقة إلى المسؤولين الأتراك والإيرانيين وكذلك إلى عناصر أجنبية في إدارة شؤون السكان. لقد منح العديد من الألبان والجورجيين والجرکس من عديمي الخبرة والمؤهلات مناصب إدارية وعسكرية سامية في المناطق الكردية الملحقة، مع انهم كانوا يجهلون التقاليد والثقافة واللغة الكردية. وكما تبين الدلائل المتوفرة، كان العديد من حكام الولايات والمقاطعات الكردية والقادة العسكريون فيها من الأجانب الذين لم يأبهوا بمصالح الأهالي الغربيين عنهم. ان من احد العوامل الرئيسية التي جعلت هؤلاء الحكام والقادة العسكريين لا يأبهون بمصالح ورفاهية الأهالي هي حقيقة انهم كانوا على علم بان فترة بقائهم في مناصبهم كانت قصيرة زمنياً. لهذا عمل هؤلاء وبسرعة على تكديس الثروة قبل إزاحتهم من مناصبهم من قبل السلطات المركزية. وهذا الامر بدوره عزز من مكانة المجموعات المتعاونة، باعتبارها العنصر الدائم الوحيد الذي كان بمثابة امتداد للسلطة المركزية. لقد كان والي ولاية فان الجديد محمد باشا وهو قائد عسكري تركي يجهل كل شئ عن الكرد وعن مناطقهم.<sup>٥٩٢</sup> بينما

<sup>٥٩٢</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.389.

كان حاكم مقاطعة كولي في ولاية ارزروم مهاجراً داغستانياً، انضم والده إلى الجيش التركي خلال الحرب ضد روسيا في عامي ١٨٢٩-١٨٣٠.<sup>٥٩٤</sup> وكان عزت باشا التركي حاكماً لولاية كردية واسعة ضمت المناطق الجبلية الملحقة في هكاري وبرواري والعمادية. ففي فترة زيارة ليارد للمناطق الكردية، كان عزت منشغلاً في التنقيب عن المعادن في ولايته لاستغلالها لمصلحته الشخصية. (أما شقيقه، عادل بك، فقد عين مديراً لمقاطعة ديزه الكردية).

لم تشهد المناطق الكردية الملحقة قدوم موظفين إداريين وضباط عسكريين أجانب من كبار الرتب فقط وإنما الكثير من الجنود الأتراك ووحدات خيالة أجنبية متعددة، خاصة الألبانية والجركسية واللازية. زرع الأتراك في كل مقاطعة كردية تقريباً ثكنة عسكرية، كانت تضم غالباً وحدة خيالة البانية وجركسية غير منظمة. عرفت الوحدات الألبانية بالبوشيبوزوك، حيث كانت تتحول، في حالة وقوع الحرب، إلى قوات خفيفة تنضم إلى الجيش التركي النظامي، بينما كانت، في الأحوال الاعتيادية، تستخدم في بعض المناطق بديلاً غير مكلف للقوات النظامية.<sup>٥٩٥</sup> لقد زرع الأتراك الوحدات الألبانية والجركسية واللازية بشكل خاص في المناطق الكردية التي صعبت عليهم السيطرة عليها، خاصة في أقاليم فان وارزروم. وكانت عدة ثكنات البانية توجد في مقاطعتي كراسو وماكو إلى الشرق من فان وكذلك في مقاطعة خنس إلى الغرب منها.<sup>٥٩٦</sup> ولم يخفي أحد قادة البوشيبوزوك الألبان عن ليارد عدم اعتماده على راتبه الضئيل من الدولة التركية في معيشته، وإنما على انتزاع الإتاوة من سكان القرى الكردية والمسيحية.<sup>٥٩٧</sup>

وفضلاً عن مراقبة السكان الكرد المحليين وحراسة الحدود التركية-الإيرانية، كانت وحدات البوشيبوزوك الألبانية والجركسية تستخدم خلال عمليات جباية الضرائب من الرعيتين الكردية والمسيحية. وقد اشتهرت تلك الوحدات بقسوتها وفسادها، حيث قضت معظم أوقاتها في نهب وتدمير أملاك وممتلكات الأهالي

<sup>٥٩٤</sup> المصدر السابق، ص ١٣-١٤..

<sup>٥٩٥</sup> Millingen, Wild Life among the Kurds, p.334.

<sup>٥٩٦</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.371 & 386.

<sup>٥٩٧</sup> المصدر السابق، ص ٢٨٠ و ٢٨٢.

أو في قمع التمردات المحلية أو المشاركة في الحروب التركية الخارجية. في عام ١٨٧٠، عينت استنبول ضابطاً بريطانياً اسمه فردريك ميلينكن قائداً لوحدة البانية قوامها من ٣٠٠ إلى ٤٠٠ محارب. يقول ميلينكن في ذكرياته عن تلك الأيام التي قضاها في كردستان بان إسماعيل أغا، القائد الألباني للبوشيبوزوك عاش في المنطقة الكردية منذ أكثر من ٢٥ عام بعد مشاركته هو وقواته الألبانية في عمليات الجيش التركي ضد الإمارات الكردية. لقد كانت مهمة إسماعيل أغا الرئيسية هي حراسة الحدود التركية-الإيرانية والسيطرة على الكرد. واستناداً إلى ميلينكن، كان إسماعيل أغا ينال حصة الأسد من كل عمليات النهب في المنطقة الكردية الخاضعة إلى سيطرته. فالثروة التي كدسها هذا الضابط الألباني، وبحسب تعبير ميلينكن، كانت «كافية في ان تضعه في مصاف مليونير كردستان».<sup>٥٩٨</sup>

### التدهور السريع في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية

في فترة ما بعد اختفاء الامارات

احتل تفكيك المجتمعات الكردية أهمية خاصة في سياسة السلطات التركية في فرض سيطرة متشددة على المناطق الكردية الملحقة في فترة ما بعد غياب الإمارات. لا يوجد أي تناقض، كما يبدو للوهلة الأولى، بين السياسة التركية في تفكيك وبعثرة القبائل الكردية، من ناحية، وبين تقوية النظام القبلي في المناطق الكردية، من ناحية أخرى. بتعبير أدق، تركزت التدخلات التركية، العسكرية منها والسياسية، في شؤون المناطق الكردية في تشجيع ظهور قبائل صغيرة وضعيفة جديدة عن طريق زرع الخلافات بين قادة القبيلة الواحدة أو ضرب قبيلة بأخرى. وقد ادت بالفعل سياسة التشتيت التركية وشن عمليات عسكرية ضد الكونغفدراليات القبلية القوية إلى تفكيكها وتحولها إلى قبائل صغيرة ضعيفة متعددة، بحيث كان قادتها أكثر عداءً الواحد للآخر من عدائهم للدولة المركزية. كانت تلك الطريقة التي التجأت إليها السلطات التركية في تفكيك البنية الاجتماعية من أجل تفرقة الكرد سياسياً، وإخضاعهم إلى حكمها.

منذ أوائل العقد الرابع من القرن التاسع عشر، كانت السلطات التركية قد ركزت عملياتها العسكرية في تدمير الكونغفدراليات القبلية والقبائل الكردية الكبيرة.

<sup>٥٩٨</sup>Millingen, Wild Life among the Kurds, pp.340-341.

كانت هفركان إحدى الكونفدراليات القبلية الكبيرة في عهد الأمير بدرخان قد انحلت نتيجة للصراعات الداخلية بين قادتها في ظل الهيمنة التركية على مناطقها.<sup>٥٩٩</sup> وكانت ميللي وكايد ضمن القبائل الكبيرة التي هوجمتا ونهبتا من قبل الجيوش التركية. فهاتان القبيلتان، كسائر القبائل الكبيرة الأخرى، تقلصتا من حيث العدد والثروة بشكل كبير.<sup>٦٠٠</sup> لقد كانت القبائل الأيزدية من أكثر القبائل تعرضاً إلى التدمير من حيث العدد والثروة نتيجة للعمليات العسكرية التركية المستمرة ضدها. ففي كردستان الجنوبية، تعرضت القرى والمدن الأيزدية كافة إلى التدمير والسلب، بينما تعرض سكانها إلى القتل والتشريد على يد الجنود الأتراك. ومن أجل قطع أية علائق اجتماعية واقتصادية نمت في ظل النظام الإماراتي، التجأت السلطات التركية إلى تنفيذ التغييرات الإدارية في المناطق الكردية الملحقة. فالموطن الأصلي للقبائل الهركية والارتوشية، مثلاً، قد قسمت ما بين اثنتين إلى ثلاث مقاطعات إدارية، كانت تقع ضمن ولايتين مختلفتين.

كانت عملية توكيل أحد الرؤساء القبليين مسؤولية جمع الضرائب من القبائل المجاورة وإرسالها إلى حكام الولايات الأتراك واحداً من الأساليب التركية في ضرب رئيس قبيلة بآخر أو قبيلة بأخرى. وتم اللجوء إلى هذا الأسلوب بشكل خاص في المقاطعات الجبلية. ففي المقاطعات الوسطى من كردستان العثمانية، وكل والي شهرزور المقيم في الموصل نعمت آغا، رئيس قبيلة زيبار، مهمة جبي الضرائب المختلفة الخاصة بالزراعة أو بالحيوانات من القبائل الكردية في المقاطعات المجاورة، كبرادوست وشيروان وكردى وشمدينان.<sup>٦٠١</sup> فإذا لم يقدر نعمت آغا أو رفض ان يقوم بعمله تعرضت مقاطعة زيبار إلى غزو تركي يرافقه الكثير من أعمال القتل والنهب المألوفة. وفي حالة رفض القبائل تسليم الضرائب إلى نعمت آغا لأي سبب من الأسباب، كان عليه ان يرغمها بالقوة على تسديد الضرائب كي يمنع غزواً عسكرياً تركيا لقرى الزيباريين. وفي الاحوال كافة، سواء جمعت الضرائب وأرسلت إلى حكام الولايات أم لا، فإن الأتراك قد نجحوا في تشديد حدة الخلافات بين القبائل الكردية.

<sup>٥٩٩</sup>Bruinessen, Sheikh, Agha and the State, p.101.

<sup>٦٠٠</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.89 & 315.

<sup>٦٠١</sup>المصدر السابق، ص ٣٧١.

استمر حكام الولايات والمقاطعات الكردية الذين عينتهم السلطات المركزية في تمسكهم بسياسة تفكيك المجتمعات الكردية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ففي نهايات القرن التاسع عشر، التجأت استنبول إلى عسكرة العديد من القبائل الكردية من خلال تشكيل وحدات فرسان الحميدية ، التي استهدف من ورائها منع ظهور معارضة قومية سياسية للحكم التركي، كتلك التي نظمها الشيخ عبيد الله النهري بين عامي ١٨٧٨-١٨٨١، من خلال تقوية الأحاسيس الدينية الإسلامية بين الكرد. وفي الوقت ذاته، استخدمت وحدات فرسان الحميدية في احتواء نشاطات القوميين الأرمن السياسية التي انطلقت من أقاليم أرمينيا الروسية، وبتشجيع من السلطات الروسية. كما ان فشل الذريع الذي اصاب محاولات الأتراك في تجنيد اكبر عدد ممكن من الشبان الكرد في جيوشهم النظامية<sup>٦٠٢</sup> قد اجبرتهم على اللجوء إلى فكرة تشكيل وحدات الحميدية تحت قيادة رؤساء العشائر.

على النقيض من الضرائب التي كانت سائدة في الإمارات الكردية، فرضت السلطات المركزية نظاما تعسفيا للضرائب لم يأخذ بنظر الاعتبار الأوضاع الاقتصادية في المناطق الكردية، وإنما حاجة الخزينة المركزية إلى المزيد من المصادر المالية بغض النظر عن كيفية إيجادها. كما استغل حكام الولايات نظام الضرائب لصالحهم وسيلة للثراء الشخصي بشكل سافر. ورغم ميوله التركية المفرطة، اقر ليارد بفساد وبغبي الحكام الأتراك الذين تعينهم استنبول، ويكتب ليارد بخصوص بيرقدار، والي شهرزور،

مادام الحاكم يدفع الأموال إلى استنبول، فان الحكومة المركزية لا تهتم إلا بالقدر اليسير، هذا إذا اهتمت إطلاقا، بأوضاع الباشلاق وسكانه. في الواقع، كان الباشا مستقلا تقريبا عن سيطرة (استنبول)، وكان في استطاعته اضطهاد الرعية... الخاضعة له، ابتزاز الأموال منها وان يعرضها إلى الخراب والبؤس التام كما يشاء.<sup>٦٠٢</sup>

<sup>٦٠٢</sup> في سبيل المثال، شرح الرحالة الروسي، كوليباكين، الذي زار كردستان في عام ١٨٨٥ كيف ان مسالة تطبيق قانون التجنيد الإجباري من قبل السلطات التركية في مناطق ولاية ارزروم الكردية قد واجهت "صعوبات كبيرة واعتراضات شديدة من الجماهير (الكردية) جميعها". دانتسغ، "الرحالة الروس في الشرق الاوسط"، ص ٣٢٣.

<sup>٦٠٢</sup>Layard, Autobiography and Letters, vol.1, pp.307-308.

إذا اخذت بنظر الاعتبار الأوضاع السائدة الأنفة الذكر، فإنه ليس من الغريب الا يحصل أي تقدم اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي في كردستان العثمانية. على العكس من ذلك، شهدت المناطق الكردية تدهوراً شديداً في أوجه الحياة كافة. ولم تكن هناك وسائل الاتصال الحديثة كي ينتفع منها الكرد، كالسكك الحديدية وخطوط التلغراف، أو مؤسسات تعليمية أو ثقافية جديدة، كالمدراس والمعاهد، مثل التي يستفيد منها الأتراك والفرس. لقد شكل وجود الأجهزة الإدارية والعسكرية التركية والإيرانية في كردستان عبئاً مالياً ثقيلاً جداً على سكانها. ولم تستهدف السلطات المركزية من وراء إجراء الإصلاحات تحسين أوضاع الشعوب الخاضعة وإنما تشديد قبضتها وحكمها الاستبدادي المطلق على الأقاليم كافة.

كانت المرافق العامة واحدة من تلك المجالات التي تأثرت بشكل سلبي كبير في عصر ما بعد اختفاء الإمارات. لقد كان هناك وعي جماعي عام استمر عبر القرون بين أوساط النخب السياسية والاجتماعية الكردية مفاده ان تدهور أوضاع الخانات التجارية والأسواق الداخلية وتخريب الجسور وفقدان الأمن على الطرق التجارية سيعرقل النشاط الاقتصادي عموماً والتجاري خصوصاً، وبالتالي سيؤدي إلى إلحاق أضرار كبيرة بالوضع المادي للطبقات الاجتماعية كافة. ففي العصر الإماراتي، كان الأمير يعتبر من «مهامة المقدسة» ان ينفذ المشاريع العامة، التي تهم السكان كافة، وان يرهم المرافق الضرورية، كالجسور ومصادر مياه الشرب ونظام الري والحمامات العامة والأسواق والطرق التجارية والخانات التجارية والمدارس والمساجد وحتى دور العبادة العائدة لغير المسلمين. على العكس من الأمير الكردي، لم يقدم الحاكم التركي أو الإيراني على تنفيذ المشاريع العامة فقط وإنما أهمل جميع المرافق العامة الموجودة والتي بدأت تندثر بسرعة. ان إهمال مصالح الناس والمرافق العامة، وكما يقر ليارد، كانت «واحدة من النتائج الشريرة المتعددة لنظام المركزية» الذي تبنته الحكومة التركية في المناطق الكردية.<sup>٦٠٤</sup>

كان طبيعياً ان لا يولي الحكام المعينون مركزياً اهتماماً يذكر بتطور الولايات والمقاطعات التي يحكمونها، مادامت السلطات المركزية لا تسمح لهم في البقاء في السلطة إلا لفترة قصيرة. ولم تكن من أولويات السلطات المركزية أو

<sup>٦٠٤</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.5.



السلطات الإقليمية تخصيص نسبة معقولة من الضرائب التي جبتها لبناء أو ترميم المرافق العامة في المناطق الكردية الملحقة. أما الموظفون الإداريون والقادة العسكريون الكبار ذوي الرواتب المحدودة فكان مهمهم الأول والأخير الاستحواذ على أموال الرعية بقدر المستطاع عن طريق الرشوة والابتزاز. لقد وقعت اعباء تمويل الإدارة والوجود العسكري والحروب الخارجية على عاتق سكان المناطق الكردية. إضافة إلى ذلك، كانت المناطق الكردية تتعرض إلى التدمير واعمال النهب من قبل الجيوش المركزية، سواء تلك التي وقعت فيها انتفاضات أو تلك التي صادف وقوعها في مسار زحف تلك الجيوش. الجدير بالذكر، ان رواتب الجنود كانت يسيرة جداً وأحياناً لا يتسلمون اية مساعدات مالية مددا طويلة، وقاد هذا بالتالي إلى اعتمادهم على أعمال النهب والسلب في تلبية حاجاتهم الحياتية المادية. ان الاستنزاف المستمر للثروات المحلية من قبل السلطات المركزية والإقليمية منع تراكماً أولياً لرأس المال الضروري لحدوث اية تطورات اقتصادية جديدة في كردستان.

لقد اتسم تاريخ المدن الكردية في عصر ما بعد اختفاء الإمارات بالانحدار الشديد من حيث الثروة المادية والانتساع السكاني والعمراني. ولم تقم السلطات الإقليمية بتعمير أي من المدن أو القرى الكردية التي دمرت ونهبت خلال الحملات العسكرية في العقدين الرابع والخامس من القرن التاسع عشر. ففي اعقاب الحملات العسكرية للجيوش التركية الثلاثة التي هاجمت غرب كردستان وجنوبها في العقد الرابع تم تدمير ونهب المدن والقرى الكردية، وتشريد العديد من سكانها وقتلهم. وكانت الحملات العسكرية التركية في ما بين عامي ١٨٤٧ و١٨٤٩ قد خلفت وراءها اضراراً مادية وبشرية مماثلة في المناطق الوسطى والشمالية والغربية من كردستان. كانت راوندوز وعقرة والعمادية والجزيرة واربيل وزاخو وسنجار وبتليس من اكثر المدن الكردية التي تعرضت في العقدين الرابع والخامس إلى اعمال التدمير والنهب المستمر. طبقاً إلى شهادة ريتشارد وود، قاد رشيد باشا عملية نهب عامة لعاصمة سوران، راوندوز، في خريف عام ١٨٣٦. ودمر الجيش التركي بقيادة بيرقدار قلعة عقرة ونهب المدينة ذاتها لعدة مرات.<sup>٦٠٠</sup> وفي نهاية العقد الرابع، كانت العمادية مدينة شب

<sup>٦٠٠</sup>Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, p.45.

خالية، عانت من انتشار الأمراض وتدمير ثلاثة أرباع المنازل فيها، في أعقاب حدوث غزوات تركية متتالية.<sup>٦٠٦</sup>

ما بين عامي ١٨٣٦ و١٨٤٧، وقعت الجزيرة تحت السيطرة التركية عدة مرات، قامت القوات التركية خلالها بنهب المدينة وتدميرها مراراً. ففي العام ١٨٣٦، دخل رشيد باشا الجزيرة ودمر مبانيها وقتل جميع الأسرى من الذكور، واصر النساء والأطفال.<sup>٦٠٧</sup> كما عانت مدن وقرى كردية أخرى من سياسة تركية مماثلة. فبعد سقوط إمارة محمودي، قام الجنود الأتراك «بنهب المقاطعة تماماً وقتلوا النساء الكرديات والأطفال».<sup>٦٠٨</sup> وأصبحت مساجد ومدارس وجسور وحمامات الإمارة، والتي كانت مزدهرة في الماضي، في حالة خراب. فلم يبق الأتراك ببناء تلك المرافق أو ترميمها.<sup>٦٠٩</sup>

ان اللفت للنظر هو انه في ظل الحكم المباشر التركي والإيراني لم تبنى اية مدينة جديدة في كردستان ولم تنمو اية قرية سكانيا وعمرانيا بحيث تصبح نواة لمدينة جديدة. بشكل عام، شهدت المدن والقرى الكردية في فترة ما بعد اختفاء الإمارات تراجعاً عكسياً في عملية التمدن والاستيطان بين الكرد. كان ريج، مثلاً، قد قدر عدد منازل مدينة السليمانية ب ٢,١٤٤ تقريباً في نهاية العقد الثاني من القرن التاسع عشر،<sup>٦١٠</sup> أي عندما كانت تلك المدينة في حالة من الخراب الكبير في أعقاب الغزوات القاجارية والمملوكية. وقد سون عدد منازل السليمانية ب ١٠٠٠ تقريباً في نهاية العقد الأول من القرن العشرين. بتعبير آخر، لم تتوسع تلك المدينة وإنما تقلصت إلى الحد الذي أصبحت فيه، وعلى حد تعبير سون، «مدينة غير مهمة»، إذ فقدت حتى «البساتين الكثيفة التي كانت تحيط بها».<sup>٦١١</sup>

<sup>٦٠٦</sup> المصدر السابق، ص ٤٥.

<sup>٦٠٧</sup> جليل، من تاريخ الامارات، ص ١٠٠؛ مالميسانز، بدرخانوي جزيرة بوقان، ص ٤٦؛ يحيى، "كورد وكوردستان"، ص ١٤.

<sup>٦٠٨</sup> Safrstian, Kurds and Kurdistan, p.59.

<sup>٦٠٩</sup> Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.385& 420.

<sup>٦١٠</sup> Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan, p.120.

<sup>٦١١</sup> Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.182-183.

نظراً لتراجع دور المدن الكردية الكبير في عهد ما بعد اختفاء الامارات، بدأت الحياة الثقافية تعاني من الجمود وحتى من التراجع. فحتى منتصف القرن التاسع عشر، كان التقدم الثقافي مرتبطاً بشكل وثيق مع النظام الإماراتي. بتعبير آخر، تطورت الحياة الثقافية في مؤسسات الإمارة، أي دواوين الأمراء، الذين رعوا النشاطات الثقافية، والمدارس التعليمية والدينية والمساجد. عندما اختفت الإمارات، تأثرت الحياة الثقافية سلباً لغياب الدعم والرعاية الرسمية. هذا العامل، إضافة إلى المواقف المعادية للثقافة الكردية في عهد ما بعد غياب الامارات، تفسر لماذا استند التطور الثقافي في كردستان على المبادرات الفردية وليس على الدولة. هذا الترابط الوثيق بين تطور الثقافة ووجود الإمارة يجسد نفسه بشكل حي في اختفاء اللغة الأدبية الكورانية في أعقاب إلغاء إمارة اردلان، عندما قرر القاجاريون الإيرانيون منع تلك اللغة من الاستخدام، جاعلين اللغة الفارسية اللغة الأدبية والرسمية الوحيدة في كردستان الصغرى.

ان من أسوأ الظواهر التي رافقت فرض الحكم المباشر الأجنبي هو ما يمكن تسميته «بالاستغلال غير المحدود» الذي مورس ضد الطبقة الفلاحية والقبائل الكردية التي اعتمدت في معيشتها على تربية المواشي والماعز والاعنام. في العديد من المناطق الكردية، كان على الاغا الكردي انتزاع ضرائب باهظة من فلاحيه كي يستطيع دفع ضريبة الملكية السنوية الكبيرة إلى الخزانة المركزية. كما كان الموظفون الاداريون والقادة العسكريون المرتشون ينتزعون حصة من الثروة التي ينتجها الفلاح (وكذلك الرعاة والتجار والحرفيون). بتعبير آخر، لم يؤد استيلاء الدولة التركية على الأرض في المناطق الكردية الملحقة إلى تحسين الوضع الاجتماعي والاقتصادي فيها وإنما إلى ترديها السريع. ففي مقاطعة خنس، كانت الأراضي الزراعية تعود إلى حاكم موش في عهد إمارة بتليس.<sup>٦١٢</sup> وعندما استولت الدولة التركية على تلك الأراضي منحت مسؤولية ادارتها إلى عدد من الاغوات الكرد. نظرياً، كان على هؤلاء الاغوات دفع ضريبة سنوية إلى الدولة. ولكنهم كانوا مضطرين عملياً إلى تقديم الرشوة إلى جباة الضرائب والسلطات الإدارية والعسكرية الإقليمية لتأمين مصالحهم الشخصية. تلك كانت الطريقة التي قسمت فيها الثروة التي انتجها الفلاح بين الاغا، والمسؤولين الاداريين والعسكريين في الإقليم والدولة المركزية.

<sup>٦١٢</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.20.

ان ظاهرة «الاستغلال اللامحدود» للطبقة الفلاحية، والتي كانت مسؤولة اساساً عن تدهور الزراعة وعملية الاستيطان، لم تكن قائمة في ظل النظام الإماراتي، إذ ان الأمير الكردي لم يكن يشجع على الاستغلال المفرط لرعاياه من مسلمين وغير مسلمين لأنه كان يعي بان ازدهار الإمارة المادي وسمعتها مرتبطان بالكيفية التي عمل فيها الفلاح والراعي والتاجر والحرفي. في معظم المناطق الكردية، لم يكن الاغا الكردي في حاجة ماسة إلى استغلال الفلاح بشكل إفراطي لأنه لم يكن تحت الضغط المباشر من قبل الدولة التركية أو الإيرانية وموظفيها في الأقاليم.

وفضلاً عن الطبقة الفلاحية، تدهورت بشدة اوضاع القبائل الكردية التي كانت تعتمد في معيشتها على تربية الحيوانات في فترة ما بعد اختفاء الإمارات. ناهيك عن ملاحظات الدولة المركزية لها كي تستقر نهائياً في مكان محدد لا بهدف مساعدتها مادياً وإنما من اجل تجنيد أفرادها في الجيش النظامي وعلى انتزاع الضرائب بانتظام لصالح الخزينة المركزية. كانت القبائل الكردية الرحل وشبه الرحل تجبر على دفع ضرائب سنوية عالية، عرفت بـ«سالانه» إلى الخزينة المركزية. وتعرضت تلك القبائل أيضاً إلى مضايقات السلطات الإقليمية الإدارية والعسكرية التي كانت غالباً ما تقوم بنهب ممتلكاتها بحجة عصيان الأوامر. أدت الضغوط والمضايقات التي تقوم بها السلطات المركزية وممثلوها في الأقاليم ضد الكثير من القبائل الكردية الرحل إلى العيش في حالة من العصيان المستمر، حيث كانت تنتقل باستمرار من منطقة إلى أخرى وعبر الحدود التركية- الإيرانية. اتفق الكثير من رجال الإرساليات المسيحية الأجنبية والرحالة الأوربيون، مثل جيمس فليكس جونز و آر اي مغنان، على ان الطابع التعسفي لنظام الضرائب في الدولتين التركية والإيرانية قد تجاهل مقدرة الأهالي المادية على تسديد الضرائب، التي كان يرافقها في أغلب الاحيان دفع مختلف الإتاوات إلى المسؤولين في الأقاليم.

ان استغلال المصادر البشرية الموجودة في الإمارات الكردية كانت أيضاً من اهم اهداف ضمها إلى الإمبراطورية. كانت تركيا، على الخصوص، في حاجة متزايدة إلى مجندين كرد في حروبها الخارجية والداخلية في مختلف مناطق الشرق الأوسط والقوقاز والبلقان. فقد كان أحد اهداف الحملات العسكرية التركية ضد أمير سوران،

محمد باشا، في عام ١٨٣٦ هي محاولة تجنيد ٦٠,٠٠٠ كردي بالقوة،<sup>٦١٣</sup> عندما كان الأتراك يتخذون الاستعدادات العسكرية لشن حرب جديدة ضد الجيش المصري المتواجد في سوريا. ولدى تدميرها للكونفدرالية الإماراتية، قامت السلطات التركية فوراً بتطبيق الخدمة العسكرية الإلزامية في المناطق الكردية المحتلة. وحاولت تلك السلطات أيضاً تطبيق الخدمة العسكرية على الأيزيديين الذين جرت العادة على إعفائهم لكونهم من غير المسلمين. لقد تم تطبيق الخدمة العسكرية الاجبارية، وبحسب تعبير ليارد، «بطريقة متشددة جداً وأدت إلى ممارسة العديد من الاعمال الوحشية والاضطهاد من قبل السلطات المحلية».<sup>٦١٤</sup>

إذا اخذ بالحسبان تورط الجيوش التركية في قمع انتفاضات داخلية مستمرة وفي موجات عسكرية كبيرة مع القوى الخارجية، كروسيا القيصرية، فإن من المنطقي ان تلقى الخدمة العسكرية الاجبارية عداة الشعوب غير التركية ، خاصة الكرد، الذين لم يلتحقوا، وبشكل عام، بجيوش الإمبراطورية في عصر الإمارات الكردية. لقد ادت محاولات الأتراك إجبار الكرد على الالتحاق بجيوشهم إلى اندلاع انتفاضات دامية كالتى حصلت في دياربكر وماردين والمناطق القريبة منهما في عام ١٨٣٩،<sup>٦١٥</sup> والتي قمعها رشيد باشا بعنف.<sup>٦١٦</sup> لقد اجبرت حملات التجنيد الإجباري التركية العديد من السكان الكرد على ترك مدنهم وقراهم. يقول ليارد في هذا الصدد «ان الخوف من التجنيد قد دفع العديد من العائلات (الكردية) إلى اللجوء إلى بلاد فارس، وإلى المقاطعات الكردية التي تمتعت باستقلال أكبر».<sup>٦١٧</sup> بالرغم من عدم وجود إحصاء دقيق عن عدد الكرد الذين قتلوا في الحروب التركية والإيرانية، سواء الخارجية منها أو الداخلية، يمكن القول بان عشرات الآلاف منهم قد فقدوا حياتهم ما بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى. وكانت لتلك الخسائر البشرية عواقب اقتصادية واجتماعية مدمرة، كتهور الصناعة الحرفية والوضع الزراعي والرعي والتجاري، إضافة إلى تدمير المدن والقرى وانتشار الفقر والمرض والجوع.

<sup>٦١٣</sup>Cunningham, The early Correspondence of Richards Wood, to Lord Ponsonby, Mosul, 28 June 1836, p.95.

<sup>٦١٤</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.3.

<sup>٦١٥</sup>Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, pp.20-22.

<sup>٦١٦</sup>Jewiaidh, Kurdish Nationalist Movement, p.49.

<sup>٦١٧</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.385.

## تدهور العلاقات الداخلية

بين الجماعات الدينية والعرقية في مرحلة ما بعد اختفاء الإمارات

اتسمت مرحلة ما بين اختفاء الإمارات الكردية ونهاية الحرب العالمية الاولى بتصاعد حدة العداء بين الكرد المسلمين والجماعات المسيحية خاصة الأرمنية والنسطورية، والذي تحول فيما بعد إلى اعمال عنف جماعية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. في عصر الامارات، وبرغم احتلال المسلمين لمنزلة اجتماعية (سمى من غير المسلمين فيها، كحال بقية المجتمعات الاسلامية، كان التسامح الديني هو الطابع الغالب في العلاقات الجماعية، ولا توجد اية دلائل تنفي ذلك. فلم يلاحظ العديد من الرحالة الأوربيين وجود أي عداء ديني بين الكرد المسلمين والجماعات المسيحية، من ضمنهم النساطرة والكلدان. لقد اكد سون مثلاً على العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين نساطرة وكلدان كردستان والكرد المسلمين لمئات السنين.<sup>٦١٨</sup> ولم يستطع أي من رجال الإرساليات المسيحية والموظفين البريطانيين، من ضمنهم غرانت وليارد، المتميزين بمواقفهم العدائية ضد الكرد، الادعاء بوجود عداء ديني تاريخي بين الكرد والجماعات المسيحية المقيمة في كردستان قبل العقد الخامس من القرن التاسع عشر. وعند اختفاء الإمارات الكردية، كانت الجماعة الأرمنية الساكنة في الوديان الواقعة بين بحيرة فان والجزيرة، مثلاً، تعيش في بجموحة اقتصادية.<sup>٦١٩</sup> ونتيجة للتعايش السلمي والاحتكاك المستمر بين الكرد وبقية الجماعات المسيحية عبر القرون اتخذت أغلبية افراد تلك الجماعات الكردية لغة رئيسة لهم، وكانت الكردية بالنسبة إلى الكثير منهم لغتهم الوحيدة. واقتبست تلك الجماعات المسيحية الكثير من التقاليد والعادات الاجتماعية والثقافة الكردية بشكل عام، بحيث أصبح من الصعب جداً تمييزها عن الأغلبية الكردية.<sup>٦٢٠</sup>

ويتساوى مع العامل الثقافي من حيث الأهمية الاعتماد المتبادل الذي اتسمت

به العلاقة الاقتصادية بين الكرد والجماعات المسيحية واليهودية في مدن وقرى

<sup>٦١٨</sup>Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, pp.154-155.

<sup>٦١٩</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.419.

<sup>٦٢٠</sup> انظر مثلاً:

Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise, p.16.

كردستان، حيث شكل المسيحيون واليهود أغلبية التجار والباعة. ففي نري وسندج وكروشان وجد العديد من التجار والحرفيين اليهود. واستقر في مدينة السليمانية عقب إنشائها تجار نساطرة، فضلاً عن مدينتي كركوك واربيل. وفي المناطق الشمالية من كردستان، سيطر الأرمن على الحياة التجارية في المدن الكردية، حيث استوردوا البضائع التي كان يحتاجها الكرد، وفي الوقت نفسه، اشترى منهم منتجاتهم الزراعية والحيوانية، والتي كانوا يقومون بتصديرها إلى خارج المناطق الكردية. ففي مقاطعتي ماكو ونهري والعديد من المقاطعات الكردية الأخرى، اعتمد الكثير من الأرمن واليهود في معيشتهم على نسج وصنع الملابس التي كان يرتديها السكان الكرد فقط.<sup>٦٢١</sup> وبالرغم من مواقفه المتعصبه ضد الكرد، يقر ليارد بأن أوضاع الفلاحين المسيحيين كانت افضل بكثير في عهد الأمراء الكرد مقارنة بأوضاعهم في ظل الحكم التركي المباشر:

كان الرؤساء المتوارثون (الكُرد) ينظرون إلى رعاياهم من المسيحيين كملكية يجب الاعتناء بها كما هي الأرض. فهم (أي المسيحيين) كانوا مصدراً للدخل، ولهذا نادراً ما فرضت عليهم ضرائب ثقيلة، كتلك التي كانت تعرقل عمل الفلاح وتجبره على هجر الأرض.<sup>٦٢٢</sup>

بالرغم من ذلك، ظل ليارد يعتقد بأنه «ي ظل حكومة السلطان السمحة»، سيلعب الأرمن دوراً قيادياً في تطوير العلاقات التجارية وفي «تمدين» المناطق الكردية. لكنه لم يخف خيبته الأولية من حكم الموظفين الأتراك في المناطق الكردية الملحقة، الذين لم يبدووا أي اهتمام بالرفاهية المادية للجماعات المسيحية، على عكس الأمراء الكرد:

لم توفي الحكومة التركية بتعهداتها إلى السفارة البريطانية، بل ارسلت موظفين إلى الجبال (في هكاري)، اساعوا بشكل سافر معاملة السكان المسيحيين وظلموهم... على هذا النحو، ساءت أحوال (النساطرة جميعهم) إلى ابعاد درجات البؤس والحاجة. لقد استخدمت ضدهم كل أساليب القسوة والتعذيب

<sup>٦٢١</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.376 & 471.

<sup>٦٢٢</sup> المصدر السابق، ص ١٢، ٤١٩.

بهدف تسليم القليل مما كانوا يملكونه، والذي خباؤها بعيدا عن أعين السلطات التركية.<sup>٦٢٣</sup>

كانت الضرائب التركية عالية إلى الحد الذي فاقت فيه ما كان يملكه النساطرة من ممتلكات في هكاري. والتجأ جباة الضرائب الأتراك حتى إلى مصادرة بذور الموسم الزراعي المقبل، فضلاً عن حبوب الدخن، التي صنع منها النساطرة خبزهم. وقد اضطرت العديد من النساطرة إلى الهجرة من قراهم في هكاري بسبب الاضطهاد التركي وعجزهم عن تسديد الضرائب.<sup>٦٢٤</sup> ولم يتوقف النساطرة وقادتهم من التشكي خاصة لدى البريطانيين عن تردّي أوضاعهم والاضطهاد الذي كانوا يتعرضون اليه في ظل حكم الموظفين الأتراك والإيرانيين. ففي عام ١٨٥٧، ارسل نساطرة كردستان العثمانية عريضة شكوى إلى السفير البريطاني، كانيغ، بخصوص اضطهادهم على يد الأتراك والکرد.<sup>٦٢٥</sup> وفي عام ١٨٦٣، بعث النساطرة بشكوى إلى ملكة بريطانيا، فيكتوريا، بصدد الظلم الذي كانوا يتعرضون إليه على يد الأتراك والإيرانيين.<sup>٦٢٦</sup> في ضوء ما قيل آنفاً، يمكن القول انه مهما بالغ النساطرة في شكاواهم فان النقطة الجوهرية التي يصعب الشك في صحتها هي انهم فقدوا في ظل حكم الموظفين الأتراك كل من ما كانوا يتمتعون به من استقلال اجتماعي واقتصادي وسياسي في عصر الإمارات الكردية.

لقد تمنى قادة الكنيسة المسيحية الارمنية، سواء في استنبول أو في الأقاليم انتصار الجيوش التركية في حروبها ضد الإمارات الكردية. فقد دعا كبير أساقفة الكنيسة الكاثوليكية الارمنية في استنبول أرامنة كردستان إلى تقديم الدعم إلى الجيوش التركية في غزوها للإمارات الكردية. على ما يبدو، اعتقد أولئك القادة الدينيون بان تقديمهم الولاء مجدداً للسلطان التركي سيعود عليهم بامتيازات مختلفة تعزز من مكانة الجماعات المسيحية اجتماعياً وقانونياً ومادياً. ويعني ذلك في المناطق الكردية الملحقة إعلاء شأن الأقلية الارمنية على حساب الاغلبية الكردية.

<sup>٦٢٣</sup> المصدر السابق، ص ٤٢٥-٤٢٦.

<sup>٦٢٤</sup> المصدر السابق، ص ٤٢٨-٤٣١.

<sup>٦٢٥</sup>BDF A , The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, series B, vol.6, op. cit., Sir S.

Canning, no.787, 2 September 1857 & no.857, 22 September 1857, p.293.

<sup>٦٢٦</sup>BDF A, 31 July 1863, p.295.



والجدير بالذكر انه في المدن الكردية التي كانت خاضعة لحكم تركي مباشر، كفان ودياربكر، تحالفت العائلات الارمنية الثرية مع السلطات التركية الإقليمية. هكذا فان الموقف المعادي الذي اتخذته المؤسسة الدينية الارمنية تجاه الإمارات كانت تحركه دوافع سياسية واقتصادية ودينية.

لم يؤد اختفاء الإمارات إلى تعميق الانقسامات الاجتماعية فحسب، بل أدى كذلك إلى تشديد الخلافات بين الجماعات المختلفة والى الاضطهاد الديني. تطورت الخلافات الدينية تدريجياً حتى اتخذت طبيعة سياسية نتيجة لتدخل الإرساليات المسيحية الأجنبية والقنصليات الأوربية وكذلك سياسة تفريق الصفوف التي تبنتها السلطات التركية من اجل توطيد نفوذها في المناطق الكردية. فرجال الإرساليات كانوا يأملون ان يؤدي تدمير الإمارات إلى تسهيل نشاطاتهم التبشيرية وكذلك «تمدين» المسيحيين المحليين وتقويتهم في مواجهة جيرانهم المسلمين. ليس من الغريب ان تشهد المناطق الكردية بناء العديد من المراكز التبشيرية والمعاهد التابعة لها. ففي مدينة فان، وعقب القضاء على سلطة خان محمود، قامت الإرساليات الغربية ببناء خمسة معاهد إرسالية.<sup>٦٢٧</sup> أما الروس فقد حاولوا استخدام مسالة الاضطهاد الديني للجماعات المسيحية أداة في تعزيز نفوذهم، وحتى في تحقيق اهدافهم التوسعية الإقليمية في كردستان. ففي حربهم مع الأتراك في عامي ١٨٢٨-١٨٢٩، وعد الروس الأرمن، خاصة أولئك الذين يعيشون في المقاطعات الحدودية الاستراتيجية، الحماية ومنح الأراضي. وقد رافق العديد من الأرمن الجيش الروسي عند انسحاب الأخير إلى جورجيا، سواء بسبب وعود الروس أو بسبب ممارسة الضغوط ضدهم. وطبقاً إلى ليارد، خسر جزء من ولاية ارزروم المحاذي للحدود الروسية تقريباً معظم سكانه الأرامنة، الذين هاجروا إلى الأقاليم الروسية. ومنذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأ الروس بتحريض أبناء الجماعات الارمنية الساكنة في قوقازيا على القيام بنشاطات سياسية تحريضية عبر الحدود بين الأرامنة، خاصة في كردستان، بهدف زعزعة الأوضاع فيها.

لقد اشتدت المنافسات بين القوى الأوربية حول السيطرة على الجماعات المسيحية الموجودة في كردستان بعد منتصف القرن التاسع عشر. فمن جهة، لاحظ

<sup>٦٢٧</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, p.404.

الموظفون البريطانيون كيف حاول الفرنسيون إقناع النساطرة في تقديم الولاء إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من أجل توفير حماية فرنسية لهم.<sup>٦٢٨</sup> وظل الموظفون البريطانيون يدعون، من فترة لأخرى، اضطهاد رجال الإرساليات الكاثوليكية الفرنسية للنساطرة في الجزيرة.<sup>٦٢٩</sup> من جهة ثانية، سعى الروس إلى إقناع المسيحيين المحليين بضرورة التحول إلى الكنيسة اليونانية كي يمكن منحهم الحماية الروسية.<sup>٦٣٠</sup> أما البريطانيون فقد عزموا على إفشال المحاولات الفرنسية والروسية تلك عن طريق الإقناع أو ممارسة الضغوط السياسية والدبلوماسية على السلطات المركزية في استنبول بعدم منح الروس أو الفرنسيين حق حماية الجماعات المسيحية. تركت تلك المنافسات سواء بين القوى الأوربية أو بين الإرساليات التبشيرية آثاراً سلبية بين الجماعات المسيحية. وكان إحد أهم تلك الآثار هو حدوث تصدع في وحدة الجماعة المسيحية الواحدة. ففي سبيل المحافظة على سلطته الروحية والدينية، مارس المار شمعون الاضطهاد ضد أولئك النساطرة الذين تحولوا إلى البروتستانتية.<sup>٦٣١</sup>

لم تكن الجماعات المسيحية في كردستان وحيدة في معاناتها من الاضطهاد التركي في مرحلة ما بعد اختفاء الإمارات. فقد شدد الأتراك من اضطهادهم الديني للعلويين والايديين الكرد. كانت المناطق التي يعيش فيها العلويون معرضة إلى الحملات العسكرية التركية التي غالباً ما ترافقها اعمال القتل والأسر والتدمير والتهجير. بالرغم من كل تلك الحملات العسكرية، استطاع العلويون في معاقلم الجبلية إفشال العديد من محاولات استنبول في فرض سيطرة تركية مباشرة عليهم حتى بداية القرن العشرين. أما الايديون فكانوا اقل حظاً بكثير من العلويين حيث تعرضوا باستمرار إلى حملات القتل والتشريد المستمرة على يد الحكام والعسكريين الأتراك خاصة في مناطق ويرانشهر وسنجار وبادينان. يصف ليارد المقاومة الايزدية

<sup>٦٢٨</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, series B., vol.6, op. cit., Mr Stevens, no.22, 2 July 1847 & Badger, The Nestorians and their Rituals, p.279.

<sup>٦٢٩</sup>B DFA, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, series B., vol.6, op. cit., Mr Thomson, no.179, 20 September 1854, Lord Stratford, no.878, 7 October 1857, Mr Murray, no.6, 15 February 1857, p.293.

<sup>٦٣٠</sup>B DFA, Mr Abbott, no.11, 6 May 1862, p.294.

<sup>٦٣١</sup>B DFA, Consular Taylor, no.17, 5 September 1867, p.301.

المستميّنة للحكم التركي، وكيف تعرض الكثير منهم إلى الموت تحت التعذيب، وتعرض اطفال الايزديين إلى البيع علنا من قبل الحكام الأتراك.<sup>٦٣٢</sup> ولم تكن ادعاءات ليارد بخصوص منح الأتراك للايزديين «حرية الضمير والتمتع بالملكية» صحيحة،<sup>٦٣٣</sup> لأن الدلائل تشير إلى العكس من ذلك تماماً. فقد ظلت قرى الايزديين ومدنهم وباستمرار هدفاً للحملة العسكرية التركية، التي لم تميز في ممارسة القتل والتعذيب بين الرجال و النساء أو بين الشيوخ والأطفال. كان الايزديون باختصار من أكثر الجماعات الدينية تعرضاً للاضطهاد على يد الحكام الأتراك بسبب معتقداتهم الدينية. وكباقي الشعب الكردي، لم يصغي أحد إلى شكاواهم. فلم تكن هناك إرساليات أجنبية خاصة (على غرار الجماعات المسيحية المحلية) تقدم الخدمة والمساعدة لهم أو تسمع أصواتهم إلى العالم الخارجي كي تخلق ردود فعل في أوروبا، ولا كانوا أيضاً على اتصال وثيق بدبلوماسيي القوى الأوربية الكبرى كي يمارسوا الضغط على استنبول من أجل الحد من درجة الاضطهاد الذي تعرضوا له.

## النظام الإماراتي وإرثه التاريخي

### تشكيل هوية كردية منفصلة

لم تترك الإمارات وراءها تأثيرات ثانوية أو عرضية بالنسبة إلى الكرد ومجتمعاتهم. فمنذ القرن السادس عشر، تقدمت المجتمعات الكردية اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً، برغم ان زخم التغيير كان بطيئاً نسبياً. عبر تقدم المجتمع الكردي عن نفسه في توسيع المدن القديمة وبناء مدن جديدة. فقد ازدادت وتيرة عملية التمدن والتحول من حياة البداوة إلى الاستيطان بين الكرد بالموازاة مع توسع السوق المحلية والتطورات السياسية وازدياد الاتصالات والتقارب بين مختلف المناطق الكردية. ان بناء العاصمتين الجديدتين، سنج و السليمانية، على يد أمراء اردلان وبابان ما هو إلا انعكاس لوعيهم التام بضرورة تسريع التقدم الاقتصادي والثقافي والحضاري وكذلك طموحاتهم السياسية المتنامية.

<sup>٦٣٢</sup>Layard, Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, pp.3-4.

<sup>٦٣٣</sup> المصدر السابق، ص ٨٣-٨٢.

عبر التقدم الثقافي عن نفسه في تطور ثلاث لغات كردية ادبية في كردستان. تكمن أهمية تحول اللهجة السورانية إلى لغة ادبية في انها حولت لغة الشارع أو السوق إلى لغة عامة رسمية تربط ثقافياً الطبقات الدنيا بالطبقات العليا (أي الاشراف والرعية) وهي بهذه الطريقة غير المقصودة قد ساهمت بشكل كبير في تشكيل هوية ثقافية كردية مشتركة في القسم الأكبر من كردستان الجنوبية بنفس الطريقة التي ساعد تحول اللهجة الكرمانجية إلى لغة ادبية تشكيل هوية كردية مشتركة في العديد من الأقاليم الكردية في شمال وغرب ووسط كردستان. بمعنى أدق واشمل، لعبت اللغات الأدبية دور العامل الموحد والتماثلي إذ أوجدت روابط مشتركة جديدة بين مختلف عناصر المجتمع الكردي، على الرغم من جود الانقسامات العمودية (أي الاجتماعية-الطبقية) والانقسامات الأفقية (تنوع الجماعات الدينية والمذهبية والطرق الصوفية). وفي مرحلة تاريخية لاحقة، اصبحت تلك اللغات الأدبية القاعدة الثقافية للحركات السياسية الحديثة التي استهدفت إقامة دولة قومية كردية كبرى.

كما تجسد التقدم الثقافي في ظهور العديد من الشعراء والمختصين في الفكر الإسلامي والتصوف والتاريخ، وكذلك في وجود حياة روحية غنية ناشطة بشكل عام. ففي بداية القرن التاسع عشر، كانت كردستان تشهد منافسة بين الطريقتين القادرية والنقشبندية الصوفيتين، اللتين لم تنشطاً أو تغنياً الحياة الثقافية فقط، وإنما تركتا أثراً مباشرة على الوضع السياسي العام بعد تسيّسهما. كانت مساندة الشيوخ للكونفدرالية الإماراتية في صراعها مع الإمبراطورية العثمانية إحد افرازاتها. ولم يكن من المصادفة ان تتزامن جهود أميرى سوران وبوتان، محمد باشا وبدرخان، في خلق ولاء يتعدى حدود القبلية والمحلية من خلال تعبئة مختلف الفئات الاجتماعية مع انتشار افكار النقشبندية في وسط وشمال كردستان الكبرى. لقد خلقت النقشبندية، على الخصوص، روابط مشتركة متينة تعدت الحواجز القبلية والمحلية. كما تبنى قادتها قضايا سياسية عامة، وعبروا عن الشكاوى الاجتماعية والسياسية لمختلف فئات المجتمع الكردي، خاصة في عصر ما بعد اختفاء الإمارات.

يجب إرجاع أسباب وجود حس قوي انفصالي بين الكرد أساساً إلى الوجود التاريخي الطويل للإمارات، الذي ترادف في مضمونه مع المقاومة الدؤوبة ضد كل محاولات فرض سيطرة سياسية وعسكرية وثقافية أجنبية. بتعبير آخر، شكلت

الإمارات، على المدى البعيد، الذاكرة التاريخية المشتركة لجميع الكرد. من الغريب ان تندلع حروب خارجية كبرى وتقع غزوات أجنبية عديدة وان تتكرر صراعات داخلية في كردستان دون ان تؤدي إلى اندماج الكرد بالمجتمعات الأجنبية الكبيرة المحيطة بهم، وإنما إلى العكس من ذلك. ففي خضم تلك التجارب المريرة، التي شكلت الخلفية التاريخية لظهور عملي "شرفنامه" و"مم وزين" وغيرهما من الملاحم الشعرية الشعبية، تقوت المناعة عند الكرد إلى درجة صعبت فيها عملية دمجهم اجتماعياً و ثقافياً في المجتمعات الإيرانية والتركية، على العكس من الأرمن أو حتى من الأذربيجانيين الجنوبيين مثلاً. اعتز أكثرية الكرد بهويتهم الكردية وبتاريخهم المتميز.<sup>٦٣٤</sup> وما كانت كراهية الكرد للحكم التركي والإيراني المباشر ومقاومتهم لها عبر القرون إلا تأكيداً لكرديتهم. لقد نضجت تدريجياً هوية ثقافية متميزة عند الكرد عندما تبلورت مفاهيم خاصة عن كردستان كحيز مكاني يخص الكرد وعن تاريخ ومصير سياسي ومعاناة مشتركة وعن انتماء عرقي واحد. وجاء نضوج الهوية الكردية على الرغم من قوة الصلات القبلية وتنوع اللهجات الكردية. بتعبير آخر، تجسدت كردية الكرد في مجالات متعددة: في تطور اللغة الكردية، وفي استمرارية النشاطات الأدبية والثقافية المتميزة، في وحدة التقاليد والعادات الاجتماعية، في تمايز العلاقات الاجتماعية واخيراً وليس أخراً في خصوصية الحياة الروحية- الدينية.

تكمُن أهمية الإمارات فيما يتعلق الأمر بتشكيل هوية ثقافية منفصلة في الطريقة التي أبدى فيها الكرد مقاومة ملحوظة لسياسة الامتثال الديني (religious conformity) التي تبناها الصفويون في مراحل تاريخية متفاوتة. سعى الصفويون إلى إجبار الكرد على اعتناق المذهب الشيعي، بينما حاول الأتراك بوسائل سلمية وتدرجية وذلك عبر تعيين القضاة والمفتيين إضعاف المذهب الشافعي الأكثر ليبرالية لصالح المذهب الحنفي الأكثر تزمناً.<sup>٦٣٥</sup> ولم يكن إطلاق وصف «أنصاف مسلمين»

<sup>٦٣٤</sup> راج مثلاً:

Rich, Narrative of a Residence in Kurdistan and Fraser, A Winter Journey from Constantinople to Tehran.

<sup>٦٣٥</sup> لقد قاومت وبشدة المجموعات الدينية الأخرى كالعلوية الايزدية المحاولات التركية والإيرانية في تغيير عقيدتهم الدينية.

على الكرد، من قبل الأتراك<sup>٦٣٦</sup> إلا تعبيراً عن عجزهم في ميدان التماثل المذهبي. ان هيمنة الطابع غير الديني لسلطة الأمراء قد ساعد على ان يفسر الكرد التعاليم الإسلامية بشكل اكثر ليبرالية من جيرانهم المسلمين الآخرين. عموماً، كان التأثير الثقافي التركي في المجتمع الكردي محدود، ولم تستطع التركية ان تكون اللغة الثقافية للنخب المحلية. لقد لاحظ العديد من الزوار الأجانب تمييز الكرد عن الأقوام المسلمة المجاورة من حيث علاقاتهم الاجتماعية وتقاليدهم وأعرافهم السائدة. وعبرت خصوصية الثقافة الكردية عن نفسها بشكل حي في انتشار نفوذ الفكر والممارسات الصوفية وسيطرة قادتها، في مرحلة لاحقة، على الحياة السياسية في معظم المناطق الكردية، بالمقارنة مع المناطق المجاورة الإيرانية والتركية والعربية.

لقد مر مفهوم «من هو كردي» و«من هو ليس بكردي» بتغييرات سريعة منذ أوائل القرن التاسع عشر. على النقيض من أرستقراطية السليمانية، وسعت الحركات السياسية التي قادها الأمير محمد باشا والأمير بدرخان من مفهوم «من هو كردي» ليشمل الطبقات الاجتماعية الدنيا. وكانت الطبقة الفلاحية على الخصوص تستثنى من الهوية الكردية من قبل أرستقراطية بعض المناطق الكردية، بسبب افتقار أعضائها للحرية التي يتمتع بها أبناء القبيلة. بتعبير آخر، كان على الفرد، من وجهة نظر تلك الأرستقراطية، ان يكون حراً ومسلماً ومحارباً وقبلياً كي يكون كردياً. هذا التعريف الضيق لمن هو كردي أو لا استمر بين اقلية من القبليين الكرد حتى أوائل القرن العشرين وحتى في فترات لاحقة. أثناء زيارته إلى السليمانية، لاحظ ريج بان أرستقراطيتها لم تكن تعترف بكردية الفلاح. بينما لم تشكك عموماً أرستقراطية إمارتي اردلان وموكريان المجاورة بكردية الفلاحين، طبقاً إلى ما ذكره كل من ريج وراولينسن. والجدير بالملاحظة ان الفلاحين الكرد في مختلف مناطق كردستان، سواء كانوا تحت سيطرة الإمارات أو تحت الحكم التركي والإيراني، عرفوا انفسهم للأجانب على انهم كرد.

منذ أواخر القرن الثامن عشر تقريباً، بدأ الرحالة والتجار والموظفون الأوربيون تعريف الكرد كشعب قائم بحد ذاته بسبب قوة السمات القومية المشتركة. والكردية، كما لاحظوا، قد يكون قبلياً أو غير قبلي، مستوطناً أو من الرحل، مدنياً أو

<sup>٦٣٦</sup>Grant, The Nestorians or the Lost Tribes, p.41.

ريفياً. فقبل زيارتهم إلى المناطق الكردية، كان التصور السائد عند هؤلاء الأوربيين بأن تلك المناطق كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطوريتين التركية والإيرانية ولا يمكن التفريق أيضاً بين الكردي والتركي أو الإيراني من النواحي الثقافية وطريقة المعيشة والهيئة الخارجية. لقد فوجئ العديد من الأوربيين، خاصة البريطانيين والروس، عندما اكتشفوا أن غالبية المناطق الكردية كانت إما مستقلة أو شبه مستقلة، على العكس من توقعاتهم الأولية. فوق ذلك، اكتشف هؤلاء بأن الكرد شعب منفصل ذو ثقافة متميزة عن الأتراك والإيرانيين وأن كردستان، بوصفه وطن، يختلف عن الأقاليم التركية والإيرانية من حيث خصائصها الجغرافية والسكانية. يعود السبب، على ما يبدو، في تقديم صورة غير حقيقية عن علاقة الكرد وكردستان بالدولتين التركية والإيرانية إلى ما كانت تدعيه الدولتان عن ماهية تلك العلاقة، وإلى تأخر اهتمام الرحالة والتجار والموظفين الأوربيين بالمناطق الكردية، خاصة الجبلية منها.

في أعقاب زيارتهما للمناطق الكردية خلال أعوام ١٧٩٩-١٨٠٠ و١٨١٠، لم يتردد ضابطان عسكريان بريطانيان، جون مالكوم وإدوارد فريدريك، في تأكيد امتلاك الكرد لسمة قومية (national character) منفصلة، وامتلاكهم لتجارب وخلفية تاريخية مماثلة.<sup>٦٣٧</sup> واندعش رحالة آخرون، من ضمنهم مغنان الذي زار كردستان في شتاء عامي ١٨٢٩-١٨٣٠، من قدرة الكرد على حماية ((عرقهم)) و((استقلالهم التام))، في الوقت الذي كانوا فيه محاطين بدولتين استبداديتين كبيرتين.<sup>٦٣٨</sup> أصبحت (كردستان) وبسرعة مصطلحاً شائعاً بين المطلعين الأوربيين، عندما تتم الإشارة إليها بوصفها وطناً لشعب متميز من حيث الخلفية الاجتماعية والثقافية والعرقية والتاريخية. كانت كردستان قائمة كمفهوم جغرافي، قبل أن يحاول عدد من الرحالة تعيين حدودها. ولربما كان جون مالكوم أول غربي يعين حدود كردستان. فاستناداً إليه، ((تحد (كردستان) من الشرق سهول إيران وأذربيجان، ومن الغرب نهر دجلة، ومن الشمال أرمينيا، ومن الجنوب أقاليم بغداد)).<sup>٦٣٩</sup> ولعب الأمراء

<sup>٦٣٧</sup>Edward Frederick, Frederick Papers, Mss. Eur. 'Kurdistan', India Office, pp.1-7.

<sup>٦٣٨</sup>Malcolm, John Malcolm's History of Persia and Mignan, A Winter Journey through Russia, the Caucasian Alps and Georgia, pp.viii-ix.

<sup>٦٣٩</sup> في كتابه، يستخدم مالكوم كلمة "العراق" عندما يشير إلى سهول إيران.

Malcolm, John Malcolm's History of Persia, p.72.

الکرد انفسهم، خاصة أمراء اردلان وبابان، دوراً في تعريف زائريهم الأجانب، مثل مالكوم وريج، عن كردستان وتاريخها.

يجب ربط قوة الإحساس بالكردية المتصاعد ونمو طموحات النخب السياسية بمرحلة التطور الذي وصلت إليه المجتمعات الكردية تحت ظل النظام الإماراتي الثاني عند اقتراب القرن الثامن عشر إلى نهايته. بتعبير آخر، واجهت الإمارات الكردية مفترق طرق من حيث تطور بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية: فأما أن تتجدد من خلال إجراء تغييرات سياسية أو ينهار النظام الإماراتي بفعل الضغوط الداخلية والخارجية. تلك كانت الخلفية التاريخية لظهور حركات سياسية استقلالية ووحودية متتالية قادها أمراء شباب عازمون لا على حماية الوضع القائم فحسب وإنما على تغييره. ولم يتردد هؤلاء الأمراء في سبيل تحقيق أهدافهم من التدخل في شؤون المناطق المجاورة لإماراتهم. وساعد إقامة اتحاد سياسي وعسكري بين عدد من الأمراء الشباب منذ نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر، إضافة إلى احياء النقشبندية وانتشار تكاياها ومريديها، على توثيق الصلات بين العديد من المناطق الكردية بحيث خلقت سمات ومصالح مشتركة فيما بينها تجاه تهديدات القوى الخارجية.

خضع تزايد وعي النخب السياسية وترسيخ الحس الكردي إلى تأثيرات وتطورات أخرى. وكان من أهم تلك التطورات أولاً انفتاح كردستان امام الرحالة والتجار الأوربيين ورجال الإرساليات الدينية الأوربية والأمريكية، وثانياً تزايد نفوذ القوى الأوربية السياسي والاقتصادي في الشرق الأوسط، وثالثاً نجاح بعض الأقاليم العثمانية، كاليونان ومصر، في تحدي السلطات التركية في استنبول. ان كل تلك التطورات الحاصلة في كردستان أو في خارجها عرت امام أعين النخب الكردية السياسية تآكل قدرة الإمبراطورية العثمانية، مسلطة في الوقت نفسه الضوء على تقدم القوى الأوربية الغربية المادي والثقافي الكبير. لقد نمت طموحات الأمراء الكرد الشباب السياسية مع حدوث تلك التطورات، التي شجعتهم على اتخاذ المبادرات الجريئة في تشكيل دولة كبيرة مستقلة في كردستان، غير خاضعة لأي شكل من أشكال النفوذ التركي أو الإيراني.



## غياب الإمارات وظهور المشاعر القومية الكردية

خلق استمرارية وجود إمارات مستقلة وشبه مستقلة لمدة ٩٠٠ سنة تقريبا أساسا لتشكيل كيان سياسي كبير يضم معظم المناطق الكردية. كانت لكردستان اسبقية واضحة مقارنة مع بعض البلدان المجاورة، كسوريا وميسوبوتاميا، التي عانت من غياب نخب سياسية محلية ومن هياكل سياسية تنظم نفسها ذاتيا لعدة قرون. علاوة على ذلك، وكما أشير سابقا، صاغت النخب الثقافية الإماراتية مفاهيم عن الوطن الواحد والاصل والتاريخ والمصير السياسي المشترك التي تبناها رواد القومية الكردية ما بين الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين. بالرغم من وجود ذلك الواقع السياسي والثقافي الملائم والقابل للتطور، لم تتطور دولة حديثة عن البنية الاجتماعية- السياسية الابوية في كردستان. كيف يمكن تفسير ذلك الامر؟ في محاولة للرد على ذلك السؤال المهم، شخصت الدراسة هذه مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية المتفاعلة فيما بينها، التي كانت مسؤولة عن غياب دولة كردية مستقلة كبرى بحلول منتصف القرن التاسع عشر. والاستنتاج الرئيس لهذه الدراسة هو ان موقع كردستان الجيوسياسي، إضافة إلى اندماج منطقة الشرق الأوسط التدريجي في السياسة الدولية وفي الاقتصاد الرأسمالي العالمي، التي هيمنت عليها قلة من القوى الأوربية الكبرى، كانت من أهم وبرزت تلك العوامل التي أثرت على مستقبل الكرد السياسي. لقد انحصرت الإمارات الكردية بين إمبراطوريتين قويتين، إيرانية وتركية، منذ بدايات القرن السادس عشر، مما أدى إلى وقوع الحياة السياسية فيها بشكل لا مفر منه تحت تأثير التطورات السياسية والعسكرية الحاصلة في ذلك البلدين المجاورين. ان قيام أنظمة سياسية- عسكرية قوية متتالية في دول الجوار شكلت عبر القرون عائقاً كبيراً في طريق اندماج المناطق الكردية في دولة واحدة على يد النخب السياسية الكردية.

لسوء حظ الكرد، انه عندما دخلت الإمبراطوريتان التركية والإيرانية طور الاضمحلال السريع، الذي اتضح ملامحه ما بين نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، واجهت النخب الكردية وضعا إقليمياً صعباً وغير ملائم أكثر بكثير من القرون الماضية. نتج الوضع الإقليمي الجديد مباشرة عن ترسيخ النفوذ السياسي والاقتصادي للقوى الأوربية الكبرى في الشرق الاوسط، من جهة، وبداية الحملات

الروسية التوسعية الإقليمية في قوقازيا باتجاه المناطق الكردية الشمالية، من جهة ثانية. بتعبير اخر، أصبحت الشؤون الكردية محط اهتمام قوى أوربية جديدة، من قبيل روسيا وبريطانيا، فضلاً عن تركيا وإيران بالطبع. بذلك الشكل، أصبحت التطورات السياسية في كردستان، وفي مقدمتها قيام دولة كردية كبيرة مستقلة، أمراً تتأثر به مصالح القوى الإقليمية والدولية في ان واحد. تفسر تلك النقطة بالذات سبب مواجهة الكونفدرالية الإماراتية موقفاً عدائياً قوياً ليس من قبل السلطتين التركية والإيرانية فقط وإنما أيضاً من قبل بريطانيا وروسيا وفرنسا.

يشير تاريخ الإمارات الكردية في النصف الأول من القرن التاسع عشر إلى انقطاع في عملية تشكيل دولة كردية كبرى في مقطع زمني مصري وحاسم. فلو لم تدعم القوى الأوربية الكبرى وحدة الإمبراطورية التركية الإقليمية وساندت حكومة السلطان ضد التهديدات الداخلية في الأقاليم غير التركية، لما كان هناك ما يمنع تشكيل دولة كبيرة ومستقلة في كردستان الكبرى سواء في العقدين الرابع والخامس أو في العقود التالية. لقد كان قيام مثل تلك الدولة أمراً محتملاً جداً، إذا اخذ بنظر الاعتبار وجود نخب سياسية كردية وحياء اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية مستقلة إلى حد كبير. علاوة على ذلك، كان كبار الأمراء الكرد قد شكلوا تحالفاً سياسياً - عسكرياً واسعاً ضم أهم الإمارات حيث فرض سيطرته على العديد من المناطق الكردية.

لا يعني تأكيد أهمية الدور الجيوسياسي ومواقف القوى الأوربية الكبرى في عدم قيام دولة كبيرة مستقلة ان عوامل أخرى لم تؤثر، بطريقة أو بأخرى، في مستقبل كردستان السياسي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. لقد عانت الإمارات الكردية دوماً، وبرغم ارتباط مصير الواحدة منها مع الأخرى، من غياب حد ادنى من التضامن والتفاهم السياسي بين السلالات المختلفة أو حتى داخل سلالة حاكمة واحدة. وظلت النزعة الانعزالية من حيث التفكير والطموحات هي الغالبة بين عدد ملحوظ من الإمارات. وقد اسهم في تقوية تلك النزعة غياب وسائل الاتصال والتنقل الحديثة بين مختلف المناطق الكردية التي غلبت عليها الطبيعة الجبلية. وحتى بعد تشكيل الكونفدرالية الإماراتية، ظلت السلطات التركية تعتمد على الدعم العسكري لبعض القبائل الكردية، وعلى موقف اللامبالاة أو الترقب السلبي الذي اتخذته بعض الإمارات الأخرى كبابان واردلان. ان ممارسة سياسة تشتيت الصفوف في كردستان

من قبل السلطات التركية والإيرانية، من جهة، وتحديث الجيوش التركية والإيرانية تحت إشراف الضباط الأوربيين، من جهة ثانية، قد أضعفت كثيراً من وضع الإمارات العسكري. وبالرغم من قيام بعض الامارات، كأمارة بوتان وبابان، باعادة تنظيم قواتها المسلحة، ظلت الهوة العسكرية كبيرة جدا بينها وبين استنبول وطهران.

لقد عكس ظهور الحركات الإماراتية نحو الاستقلال والوحدة بين نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ولادة أحاسيس قومية بدائية بين النخب السياسية الكردية. كانت تلك الأحاسيس أحد أهم إفرازات وجود حياة سياسية وثقافية مستقلة أو شبه مستقلة في أغلبية المناطق الكردية لعدة قرون. في فترة ما بعد اختفاء الامارات، لم تتلاش تلك الأحاسيس ولا المفاهيم الخاصة عن الوطن الواحد والتاريخ والأصل والهيم السياسي المشترك مع نفي افراد السلالات الكردية إلى الخارج وإنما وصلت إلى مرحلة النضوج تدريجياً مع استمرارية مقاومة السكان الكرد للحكم الأجنبي المباشر الذي كان هو رد فعل على تدهور أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية باستمرار.

تجلى نضوج الشعور القومي الكردي وبوضوح في أشعار حاجي قادري كويي<sup>٦٤٠</sup> (١٨١٧-١٨٩٦)، التي أعطت اصدق وصف للاوضاع الاجتماعية والسياسية في كردستان بعد غياب الإمارات. كان حاجي أحد صغار رجال الدين (ملا) المتنورين، الذي وسع من آفاقه الثقافية والسياسية خلال إقامته في استنبول. إضافة إلى إتقانه اللغات الكردية والفارسية والعربية والتركية، كان حاجي شاعراً ومصلاً كبيراً، تميزت أشعاره بمضامينها الاجتماعية والسياسية والثقافية النقدية والتعبوية. عاصر حاجي قادر واحدة من أهم المراحل المصيرية في تاريخ كردستان الحديث، أي فترة تدمير الجيوش التركية للإمارات، وفرض مختلف القيود من قبل استنبول وطهران على حريات الكرد الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. أثرت تلك التجارب المريرة على حاجي قادر بشكل كاسح، وعبرت عن نفسها في المواقف الحادة وغير

<sup>٦٤٠</sup> نسبة إلى كويسنجق التي ولد في إحدى قراها.

المساومة في انتقاده المباشر للمتعلمين وغير المتعلمين من الكرد، وفي مقدمتهم كبار رجال الدين.<sup>٦٤١</sup>

في الوقت نفسه الذي ظل يذكر فيه حاجي قادر أبناء جلدته بالحريات التي كانوا يتمتعون بها في عصر الإمارات التي شكلت ذاكرتهم التاريخية المشتركة، دعاهم إلى استخدام اللغة الكردية والاطلاع على تاريخهم والاعتزاز به. كان حاجي قادر مريباً ثورياً شعبوياً، لا يمكن، حسب اعتقاده، فصل القوة عن النهضة الثقافية، إذا أراد أبناء قومه إنهاء الاضطهاد السياسي وتوحيد كردستان عن طريق إقامة دولة مستقلة:

تقوم الدولة على السيف والقلم

عندي القلم (لكن) لا يوجد أثر للسيف

هو (حاجي) لا يملك الراية ولا الطبول

كتب (الرجل) الضعيف بقدر ما يستطيع

أنا أديت كل واجباتي

(لكن) قوام الأمة يعتمد على سيف الدولة<sup>٦٤٢</sup>

ظل حاجي قادر يناهض حتى النهاية بتشكيل دولة كردية موحدة مستقلة، بوصفها الحل الوحيد لتحسين أوضاع الشعب الكردي. والتزم حاجي قادر بالمفاهيم التي صاغها بتليسي وطورها خاني ومفادها ان كردستان وطن واحد، لا يمكن تقسيمه عشوائياً، وان سكانها (الأربعة ملايين بحسب اعتقاده في تلك المرحلة) تمتعوا بخلفية عرقية وتاريخية وثقافية ولغوية مشتركة. فضلاً عن ذلك، شكل الكرد، طبقاً إلى حاجي قادر، أمة (ملتت) قائمة بذاتها كالأمم الأوربية، ومؤلفة من كافة الفئات الاجتماعية: الاغوات، الفلاحين، الرعاة، الباعة، التجار، الأمراء، الحضر، الرحل، أبناء المدن، القرويين، القبليين وغير القبليين. كان على كل هؤلاء العناصر الاجتماعية ان

<sup>٦٤١</sup> للحصول على افضل تحليل مختصر لأشعار حاجي قادر، راجع: سلاح مهتدي، "حاجي قادر، تيوريسيه نى نه ته وايه تي كورد"، مهلبند، بهشى يه كه م، ژماره ٨٤، نوقه ميه ر ١٩٩٧، ل ٢٠-٢٣ & بهشى ودووم، ژماره ٨٥، فيبروه رى ١٩٩٨، ل ٦-٢١.

<sup>٦٤٢</sup> Hassanpour, Nationalism and Language in Kurdistan, 1918-1985.

تعمل معاً بهدف الوصول إلى الاستقلال والوحدة السياسية، وكذلك الاسهام معاً في إدارة شؤون الدولة الكردية المرتقبة.

على الرغم من خلفيته الدينية، لم يلتفت حاجي قادر إلى الحس الديني أداة تعبئة للكرد من اجل قضية الوحدة والاستقلال السياسي، ولم يدعو إلى إقامة دولة إسلامية وإنما إلى نظام سياسي علماني يتبنى بدوره تعليماً علمانياً. في ضوء ما تم ذكره آنفاً، يمكن القول ان حاجي قادر كان وبحق واحداً من رواد التيار الحديث الأوائل داخل الحركات القومية الكردية والمتميزة عن التيار التقليدي الذي هيمن عليه الشيوخ. وينظر حسنبور إلى اعمال حاجي قادر بوصفها «بداية مرحلة في الإيديولوجية القومية الكردية»، أي الانتقال من قومية «الإقطاع» إلى قومية «الطبقة الوسطى».<sup>٦٤٣</sup>

هنالك أربع ملاحظات ختامية خاصة، تلفت هذه الدراسة النظر إليها، تتعلق بسمات المشاعر القومية الكردية. أولاً، لم تكن القومية الكردية في جذورها شيئاً مستورداً من غرب أوروبا. فهي برزت بوصفها امتداداً طبيعياً للمفاهيم الخاصة المشار إليها سابقاً والتي وضعها البتليسي وطورها خاني، وفي مرحلة تالية، حاجي قادري كويتي. بهذا النحو، تمتد جذور القومية الكردية إلى العصر الإماراتي، خاصة وقت صراع الإمارات من اجل الوحدة والاستقلال السياسي في خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ونمت القومية الكردية بعد غياب النظام الإماراتي، كرد فعل على التدهور الحاد في مختلف اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية، إضافة إلى السياسات التعسفية المتخذة من قبل السلطات المركزية في استنبول وطهران. منذ أوائل العقد الخامس، تنبأ واغزر بأنه حتى لو انتصر الأتراك على بدرخان فان السكان الكرد لن يستسلموا بسهولة إلى الحكم الأجنبي، وانهم سيظلون يشكلون «مصدر خطر دائم للباب العالي بالارتباط مع تزايد الإفراغ السكاني للمدن وإفقارها، واستمرار تدهور الأوضاع في آسيا التركية».<sup>٦٤٤</sup> بالفعل، اثبت الكرد بأنهم من اكثر شعوب الشرق الأوسط تمرداً على السلطات المركزية بعد منتصف القرن التاسع عشر. لقد ظهرت

<sup>٦٤٣</sup> المصدر السابق.

<sup>٦٤٤</sup>Wagner, Travels in Persia, Georgia, Kurdistan, p.316.

أولى علامات الوعي القومي الناضج في الربع الأخير من ذلك القرن، عندما شكلت العصبة الكردية بقيادة الشيخ عبيد الله النهري، التي استهدفت تشكيل كردستان موحدة ومستقلة عن طريق العنف والوسائل السياسية.

ثانياً، منذ بداياتها الأولى لم تكن المشاعر القومية الكردية خالية من تأثيرات دينية أو قبلية لأنها، وفي التحليل الأخير، ظهرت في مجتمع سادته القبلية والطرق الروحية الصوفية. ويعود الدور القيادي الذي لعبه شيوخ الصوفية النقشبندية منها والقادرية، في الحركات القومية الكردية إلى فترة المجابهة بين الكونفدرالية الإماراتية والإمبراطورية التركية، عندما ساند أولئك الشيوخ، وفي مقدمتهم الشيخ سيد طه، الأمراء الكرد ضد السلطان العثماني. وقد مكنت الفوضى الاجتماعية والتشتت السياسي ونفي السلالات الكردية الحاكمة الشيوخ من ان يكونوا القوة الرئيسية في حياة كردستان الاجتماعية والسياسية، لأن نفوذهم ونشاطاتهم هي الوحيدة التي تعدت الأطر القبلية والمحلية، مقارنة ببقية العناصر الاجتماعية الأخرى كالأغوات وقادة القبائل.

ثالثاً، أدى التقهقر الاقتصادي وتدهور أوضاع المدن إلى ألا تتمركز الطبقات الوسطى بشكل رئيسي في كردستان وإنما في المناطق التركية والإيرانية، التي كانت تشهد تطوراً اجتماعياً واقتصادياً بطى الوتيرة. شكل أبناء السلالات الحاكمة المنفية إلى استنبول وطهران وبغداد والموصل نواة الطبقات الوسطى الكردية الحديثة، التي تألفت من الموظفين المدنيين الكبار والمتوسطين ومن الضباط العسكريين والمثقفين كالصحفيين والمعلمين. ومنذ نهايات القرن التاسع عشر، برز تيار حديث داخل الحركات القومية الكردية مؤلف من أبناء الطبقات الوسطى الكردية في المنفى وفي بعض المدن الكردية، كدياربكر، ينافس التيار التقليدي الذي قاده الشيوخ. كان أبناء وأحفاد الأمير بدرخان من أبرز ممثلي التيار الحديث، فضلاً عن الجنرال شريف خندان باشا<sup>٦٤٥</sup> وكرد مصطفى باشا، في مرحلة لاحقة.

ان الانقسام العميق بين قادة القبائل، من جهة، وضعف الطبقات الاجتماعية المدنية في كردستان، من جهة ثانية، ساعد الشيوخ على اداء دور رئيس في الحياة

<sup>٦٤٥</sup> ترجع أصول شريف باشا إلى خندان وهي عائلة أرستقراطية قريبة الصلة بالسلالة البابانية.

الاجتماعية والسياسية والثقافية بعد اختفاء الامارات، لأنهم كانوا العنصر الوحيد الذي أمتلك نفوذاً ملموساً في الريف وفي المدن على حد سواء. وحتى ظهور الشيخ محمود في العقد الثاني من القرن العشرين، هيمن شيوخ الطريقة النقشبندية على قيادة الحركات الكردية.

رابعاً، في الوقت الذي لم تكن هناك قاعدة اجتماعية-اقتصادية متطورة لظهور حركة سياسية قومية حديثة في كردستان، على غرار بعض أجزاء القارة الاوربية، اتخذت ردود أفعال الكرد تجاه تدهور أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية والاضطهاد السياسي الذي عانوه في ظل الحكم الأجنبي المباشر سمات قومية بمرور الوقت. فظهور المشاعر القومية الكردية كان عفويًا، وبدأ بالتطور في شكله السياسي ومن ثم شكله الثقافي خاصة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ودون ان تستند أساساً إلى مفاهيم إيديولوجية قومية مستوردة. ولم تكن للعديد من قادة الحركات الكردية خلفية اجتماعية برجوازية. من الخطأ ان نستنتج، من خلال إجراء مقارنة بين بروز المشاعر القومية الكردية وتلك التي تشكلت في عدد من المجتمعات الغربية، ان غياب طبقات وسطى قوية في كردستان لا يضيف على المقاومة الكردية للحكم الأجنبي طابعاً قومياً. كانت هناك، إضافة إلى وجود خلفية فكرية ثورية، قاعدة اجتماعية-اقتصادية حديثة لظهور وعي قومي في بعض المجتمعات الغربية. لكن في كردستان، كما في العديد من المجتمعات الغير متطورة، كانت المشاعر القومية الكردية وقبل كل شيء رد فعل للاضطهاد السياسي وتدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. استمدت تلك المشاعر الكثير من قوتها من الذاكرة التاريخية المشتركة عند الكرد التي خلقتها الإمارات عبر القرون ومن إرث الامارات الثقافي. كما ساعد تأثر القوميين الكرد الناشطين في المنفى بالمفاهيم الأوربية الليبرالية الحديثة على إبراز الهوية الثقافية الكردية وتميزها عن هوية الشعوب المجاورة.

أخيراً، ان أحد أهم النتائج المترتبة على هيمنة العلاقات القبلية والتراجع الاقتصادي الملازمة للحكم الأجنبي في كردستان هي ان تحقيق الاستقلال والوحدة السياسية شرط اساس للتطور الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، والذي أكد عليه حاجي قادر في أشعاره. وكما تدلل تجارب عدة دول شرق أوسطية خلال مرحلة بناء الدولة الحديثة، كانت الوحدة السياسية المتمثلة في تشكيل حكومة موحدة وبرلمان

وأحزاب ورسم الحدود الدولية والإدارية وتوحيد القوانين، شرطا أساسياً أولاً يسبق الاندماج الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.<sup>٦٤٦</sup> لو كانت الحركات التي قادها الأمراء الكرد قد نجحت في تحقيق الاستقلال والوحدة السياسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لشهدت المناطق الكردية تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، ولتكونت على المدى البعيد دولة قومية كردية نتيجة لتقليل الفوارق في مختلف نواحي الحياة. فكما يبين تاريخ منطقة الشرق الأوسط الحديث، كانت الدولة هي القوة الوحيدة التي تقدر على فرض نوع من التماثل في المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. ابرز مثال على ذلك، هو ان الدولة كانت القوة الوحيدة القادرة على إيجاد لغة رسمية واحدة وردم الهوية بين اللهجات المختلفة عن طريق تبني نظام تعليمي موحد والهيمنة على وسائل الاتصالات الجماعية، السمعية منها والبصرية.



<sup>٦٤٦</sup> لا يعني هذا ان بلدان الشرق الأوسط نجحت في إقامة دول-الامة بشكل حقيقي، لأنها ما زالت عاجزة عن التغلب على التناقضات الناجمة من اتخاذها سياسة الاندماج والتماثل الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعرقي القسري من خلال التطهير العرقي وإنكار وجود التعددية العرقية والدينية والثقافية وعدم تطبيق قوانين عصرية تجاه الجماعات المتنوعة كافة. لا وجود حقيقي كذلك لمفهوم المواطنة أو حد ادنى من التوازن بين واجبات الشخص وحقوقه. وبرز دولتين على ذلك هي العراق وتركيا.



## المصادر

### المصادر العربية

#### المصادر الرئيسية:

##### الكتب:

- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن، الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، (بيروت: ١٩٨٧)، الجزء الأول والثاني.
- الكركوكلي، الشيخ رسول، دوحة الوزراء في تاريخ وقائع بغداد الزوراء، ترجمة من التركية من قبل موسى كاظم، (قم: شريف الرضي، ١٤١٣).

#### المصادر الثانوية:

##### الكتب:

- اندرسون، بري، دولة الشرق الاستبدادية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية ١٩٨٣).
- بابانا، يوسف، القوش عبر التاريخ، (بغداد: ١٩٧٩).
- بطاطو، حنا، "الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العراق: الكتاب الثالث، الشيعيون والبعثيون والضبط الاحرار"، ترجمة عفيف رزاز، (مؤسسة الأبحاث العربية: بيروت ١٩٩٥).
- بلج شيركو (جلادت بدرخان)، ماضي الكرد وحاضرهم، (بيروت: ١٩٨٦).
- جليل، جليلي، من تاريخ الإمارات الكردية في الإمبراطورية العثمانية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة محمد عبدو النجاري، (بيروت: ١٩٨٧).
- خالفين، ن. أ، الصراع على كردستان، المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر، ترجمة أحمد عثمان أبو بكر، (بغداد: ١٩٦٩).
- دانتسيغ، ب. م، الرحالة الروس في الشرق الأوسط، ترجمة معروف خزندار، (دار الرشيد للنشر: بغداد ١٩٨١).
- الدمولوجي، صديق، (١) إمارة بهدينان أو إمارة العمادية، (الموصل: ١٩٥٢)
- (٢) اليزيدية، (الموصل: ١٩٤٩).
- زكي، محمد أمين (١) تاريخ الدول والإمارات الكردية في العهد الإسلامي، ترجمة محمد علي عوني، (القاهرة: ١٩٤٥).

- (٢) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من اقدم العصور حتى الآن،  
ترجمة محمد علي عوني، (بغداد: ١٩٦١) الجزء الأول والثاني.
- سعيد، سعدي عثمان، إمارة بابان في النصف الأول من القرن الثامن عشر: دراسة في علاقاتها السياسية مع السلطات العثمانية، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).
- شاولي، كاوه فريق، إمارة بادينان، ١٧٠٠-١٨٤٢: دراسة سياسية اجتماعية ثقافية، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).
- صائغ، سليمان، تاريخ الموصل، (مصر: ١٩٢٣).
- عمر، محفوظ محمد، إمارة بادينان العباسية (الموصل: ١٩٦٩).
- قاسم، عبد الرحمن، كردستان والكرد، دراسة سياسية اقتصادية، (بيروت: ١٩٧٠).
- مالميسانز، بدرخانيو جزيرة بوتان، ومحاضر اجتماعات الجمعية العائلية البدرخانية، ترجمة شكور مصطفى، (أربيل: ١٩٩٨).
- موكرياني، حسين حزني، أمراء سوران، ترجمة محمد ملا عبد الكريم، (١٩٦٧).
- مينورسكي، فلاديمير، الاكراد، ملاحظات وانطباعات، ترجمة معروف خزندار، (بغداد: ١٩٦٨).
- نيكيتين، باسيل، الاكراد، اصلهم، تاريخهم وموطنهم، (بيروت: دار الروائع، ١٩٩٣).
- نيكيتين، باسيل، الكرد، دراسة سوسولوجية وتاريخية، (لندن وبيروت: دار الساقى، ٢٠٠١، الطبعة الثانية).
- هروري، صلاح، إمارة بوتان في عهد الأمير بدرخان، ١٨٢١-١٨٤٧: دراسة تاريخية سياسية، (أربيل: مؤسسة موكرياني، ٢٠٠٠).

#### المقالات:

- بابان، جمال، "السليمانية من النواحي المختلفة"، مجلة المجمع الثقافي الكردي، بغداد، عدد ٨، ١٩٨١.
- حكيم، هلكوت ملا، "أبعاد ظهور الطريقة النقشبندية في كردستان في أوائل القرن التاسع عشر"، دراسات كردية (Kurdica Journal of Studia)، باريس، مجلد ١، عدد ٢، كانون الثاني، ١٩٨٥.
- يحيى، عبد الفتاح علي، "الكورد وكوردستان في رسائل الفيلد مارشال هميلتون كارل مولتكه"، مجلة الاديب الكردي، العدد ٤، بغداد، ١٩٩٢.

## المصادر الكردية

### المصادر الرئيسية:

#### الكتب:

- كورد له ميژووی دراوسیکانیدا: سیاحه تنامه‌ی ئەولیا چه‌له‌بی، ترجمه‌ها إلى الكردية سعید ناکام (أربیل: ۱۹۷۷).

### المصادر الثانوية:

#### الكتب:

- زکی، محمد أمين، ميژووی كورد و كوردستان، (لندن: ۱۹۸۲).
- علاء الدين سجادي، ميژووی ئەدهبی كوردی، (بغداد: ۱۹۷۱).
- قهفتان، توفیق، ميژووی حوكمدارانی بابان له قه‌لاچولان، (بغداد: ۱۹۶۹).
- كریس كوچیرا، ميژووی كورد له سه‌دهی ۱۹-۲۰، ترجمه‌ها إلى الكردية محمد ريانی، (تهران: ۱۳۶۹ش).
- مستوره‌ی كوردستانی، ميژووی ئەرده‌لان، ترجمه‌ها إلى الكردية حسين جاف وشكر مصطفى، (بغداد: ۱۹۸۹).
- هاوار، محمد رسول، سمكۆ: ئيسماعيل ئاغاي شكاك و بزوتنه‌وه‌ی نه‌ته‌وايه‌تی كورد، (السويد: ۱۹۹۶).

### المقالات:

- مسته‌فا، نه‌وشیروان، "میرایه‌تی بابان له‌نیوان به‌رداشی رۆم و عه‌جه‌م دا"، الجزء الأول والثاني، كوردستانی نوێ، عدد ۲۸، ۲۴ تشرين الثاني ۱۹۹۵ وعدد ۲۹، ۲۲ كانون الأول، ۱۹۹۵.

## المصادر الفارسية

### المصادر الثانوية:

#### الكتب:

- التوحيدى، كليم الله، حركة تاريخی كرد بسوی خراسان، جلد ۱، (مشهد: ۱۹۹۲).
- سندنجي، ميرزا شكرالله، تحفه ناصری در تاريخی و جغرافياى كردستان (تهران: امير كبير ۱۹۸۷).

- شيوا، مردوخي روحاني، تاريخي مشاهير كورد: أمراء وخانداينها، (تهران: سرش، ١٣٦٦).

## المصادر الإنكليزية

المصادر الرئيسية (الوثائق والرحلات والمذكرات واليوميات):

### الكتب والوثائق المنشورة:

- Badger, G.P., The Nestorians and their Rituals, vol.1&2, (London: 1852).
- British Documents on Foreign Affairs (BDFA): Reports and Papers from the Foreign Office Confidential Prints, The Ottoman Empire in Asia, 1860-1880, Series B, vol.6, Editor David Gillard, (University Publications of America, 1984).
- Buckingham, J.C., Travels in Mesopotamia, vol.2, (London: Henry Coloun, 1827).
- Cunningham, A.B .,The early Correspondence of Richard Wood, 1831-1841, (London: 1966).
- Diplomacy in the Near and the Middle East, vol.1, Edited by Hurewitz, J.C., (Princeton: D. Van Nostrand, 1956).
- Evliya Celebi in Bitlis (The Relevant Section of the Seyahatname), vol.2, Edited with Translation, Commentary and Introduction by Robert Donkoff, (Leiden, New York, Kobenhaaven and Koln: E.J. Brill, 1990).
- Evliya Celebi in Diyarbekir (The Relevant Section of the Seyahatname), vol.1, Edited with Translation, Commentary and Introduction by Martin van Bruinessen and Hendrik Boeschoten) ,Leiden, New York, Kobenhaaven and Koln: E.J. Brill, 1990.
- Fraser, James, Travels in Kurdistan and Mesopotamia, vol.1, (London: 1840).
- Grant, Asahel, The Nestorians or the Lost Tribes, (London: 1841).
- Layard, Austen Henry,
  - (١) Discoveries in the Ruins of Nineveh and Babylon, with Travels in Armenian, Kurdistan and the Desert, (London: John Murray, 1853).
  - (٢)Autobiography and Letters from his Childhood until his Appointment as H.M. Ambassador at Madrid, vol.1, Edited by William N. Bruce, (London: John Murray, 1903)

- Lynch, H.F.B .,Armenia, Travels and Studies, vol.2, The Turkish Provinces, (London: Longmans, Green & Co., 1901).
- Malcolm, John ,John Malcolm's History of Persia, Edited and Adopted by M.H. Corrt, (Lahur: 1888).
- Mignan, R. A ,A Winter Journey through Russia, the Caucasian Alps and Georgia; thence across Mount Zagros by the Pass of Xenophon and the Ten Thousand Greeks into Kurdistan, volo.1, (London: Richard Bentley, 1839).
- Millingen, Frederick ,Wilde Life among the Kurds, (London: Hurst and Blackett, 1870).
- Monteith, William ,Kars and Erzeroum, with the Campaign of Prince Paskevitch in 1828 and 1829, (London: 1856).
- Perkins, Justin, A Residence of Eight Years in Persia among the Nestorian Christians, (New York: 1843).
- Parliamentary Papers ,vol.C, 1881, Correspondence Regarding the Kurdish Invasion of Persia, Turkey no.5 (1881).
- Rich, Claudius Julius, Narrative of a Residence in Lurdistan, (London:1851).
- Salibi, Kamal & Khoury, Yusuf K. (eds.) The Missionary Herald: Reports from Northern Iraq 1833-1870, Parts One and Two (Amman: Royal Institute for Inter-Faith Studies; London: NABU, 1997).
- Smith, Eli and Dwight, H.G.O. Missionary Researches in Armenia, (London: George Wightman, Paternostee Rou, 1834).
- Southgate, Haratio ,Narrative of a Tour through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, (New York: 1846).
- Wagner, Mortiz ,Travels in Persia, Georgia and Kurdistan, vol.3, (London: Hurst & Blackett, 1856).
- Waterfield, Gordon ,Layard of Nieveh, (London: John Murray, 1963).
- Wigram, W.A .,The Assyrians and their Neighbours, (London: 1929).
- Xenophon ,The Persian Expedition, (London: Penguin, 1984)).

### المقالات:

- Rawlinson, E.C' ,.Notes on a Journey from Tabriz through Persian Kurdistan to Ruins of Takhti Soleiman, and from thence by Zinjan and Tarom to Gilan in October and November 1838', Journal of the Royal Geographical Soociety, vol.x, 1840.
- Shiel, J' .Notes on a Jounrey from Tabriz through Kurdistan via Van, Bitlis and Arbil to Sulaimaniya in July and August 1836', Journal of the Royal Geographical Soociety.

-Taylor, J.G' .Travels in Kurdistan, with Notices of the Sources of the Eastern and Western Tigris and Ancient Ruins in their Neighbourhood', The Journal of the Royal Geographical Society, vol.xxxvii, 1868.

## **المصادر الثانوية:**

### **الكتب:**

- Ahmad, Kamal Madhar ,Kurdistan during the First World War, Translated by Ali Maher Ibrahim, (London; Saqi Books, 1994).- Allen, W.E.D. and Muratoff, Paul, Caucasian Battlefields :A History of the Wars on the Turco-Caucasian Border, 1828-1921, (Cambridge: Cambridge University Press, 1953).
- Anderson ,M.S .,The Eastern Question, 1774-1923, (London: 1966).
- Arjomand, Said Amir The Shadow of God and the Hidden Imam. Religion, Political Order and Societal Change in Shi'ite Iran from the Beginning to 1890, Chicago & London: University of Chicago Press, 1984.
- Ayto, John,The Wordworth Dictionary of Foreign Words in English, (Hertfordshire: Wordsworth Ltd, 1995).
- Bruinessen ,Martin van ,Agha, Sheikh and State, the Social and Political Structures of Kurdistan, (London: Zed Book, 1990).
- Chesney, Francis Rawdon, Russo-Turkish Campaigns of 1828-1829, (London: 1858).
- Daly, John C.K .,Russian Sea-Power and the Eastern Question, 1827-1841, (Annapolis, Maryland: Naval Institute Press, 1991).
- Foran, John Fragile Resistance, Social Transformation in Iran from 1500 to the Revolution, Boulder, San Francisco & Oxford: 1993.
- Gabrill, Joseph I., Protestan Diplomacy and the Near East, Missionary Influence on American Policy, 1810-1927, (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1971).
- Hassanpour, Amir ,Nationalism and Language in Kurdistan, 1918-1985, (San Francisco: Mellen Research University Press, 1992).- Longrigg, Stephen H., Four Centuries of Modern Iraq, (Oxford: 1925).
- Hoskins, H .,British Routes to India, (New York: 1928).
- Izadi, M.R .,The Kurds: a Concise Handbook, (London: Taylor & Francis, 1992).
- Jwaideh, Wadie ,The Kurdish Nationalist Movement: its Origins and Development, (Unpublished Dissertation Submitted to the Syracuse University, January 1960), pp.25-27.

- Kennedy, Hugh ,The Prophet and the Age of Caliphate :The Islamic Near East from the Sixth to the Eleventh Centuries, (London & New York: Longman, 1980).
- Khoury, Dina Rizk ,State and Provincial Society in the Ottoman Empire, Mosul 1540-1834, (Cambridge: University of Cambridge Press, 1993).
- Kung, Hans, A Global Ethic for Global Politics and Economics, Translated by John Bowden (London: SCM Press, 1997).
- McDowall David ,A Modern History of the Kurds) ,London: I.B. Tauris, 1996 .(
- Minorsky, Vladimir ,Studies in Caucasian History: I. New Light on the Shaddadis of Genja; II. The Shaddadis of Ani; III. Prehistory of Saladin, (London: Taylor's Foreign Press,).
- Niewenhuis, Tom, Politics and Society in Early Modern Iraq (Mamluk, Tribal Shaykhs and Local Rulers between 1802 and 1831) (London, Bostan & the Hague: Martinus Nijhoff, 1982).
- Safraian, Arshak ,Kurds and Kurdistan, (London: Harvill Press, 1948).

### المقالات:

- Amedroz' ,The Marwanid Dynasty at Myafariqin in the Tenth and Eleventh Centuries' Journal of Royal Asiatic Society.
- Bedr Khan, the Amir Dr. Kamuran Ali' ,The Kurdish Problem', The Journal of Royal Central Asian Society (RCAS), vol.xxxvi, 1949.
- Blaum, Paul A' ,.A History of the Kurdish Marwanid Dynasty, A.B. 983-1083' in The International Journal of Kurdish Studies, The Kurdish Library, vol.6, 1993.
- Blue, Joyce' ,Kurdish Written Literature' in Kurdish Culture and Identity', Edited by Philip G. Kreyenbroek & Christine Allison, (London: Zed Book, 1996).
- Bosworth ,C.E' ,.The Political and Dynastic History of the Iranian World, A.D. 1000-1217' in Cambridge History of Iran, the Saljuq and the Mongol Periods, vol.5, ed. J.A. Boyle, (Cambridge: Cambridge University, 1968).
- Brant ,James, Notes of a Journey through part of Kurdistan', 1838, JRGS, vol.x, 1840.
- Chevallier, Dominique' ,Western Development and the Eastern Crisis in the Mid-Nineteenth Century: Syria Confronted with the European Economy', in Beginning of Modernisation in the Ottoman Empire: the 19<sup>th</sup> Century, ed. William.R. Polk & Richard C. Chambers.